موسوعة أعلام التفسير في الجزائر



إشراف وتحرير:

أ.د حمو عبد الكريم

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران- الجزائر

مراجعة عامة:

د. بلخير عمراني

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط – الجزائر

تأليف مجموعة من الباحثين

الجزء الثالث

ISBN : 000–0000–000–00-0

الطبعة الأولى

ربيع الآخر 1442 هـ/ نوفمبر 2020م

مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة بالأغواط الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة أعلام التفسير في الجزائر

الطبعة الأولى

1442 هـ ـ 2020 م

ردمك : 000-0000-000-00-0

مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة، مقابل المستشفى الجامعيّ

صندوق البريد رقم: 4082، بريد الواحات الشماليّة بالأغواط الجزائر

للاتصال برئاسة المشروع:

mmmmmmmmmmmm@gmail.com

الهاتف الثّابت: 029146189 (00213)

الفاكس: 029146190 (00213)

المحور الرابع:

إسهامات علماء التفسير في مجال التفسير والترجمة والتأويل

إسهامات محمد ابن العنابي الحنفي الجزائري (1267هـ) في خدمة القرآن من خلال تحقيق أنموذج من أعماله "رسالة في حكم شرب الدخان في مجلس القرآن وبعض آداب تتعلق بذلك"

أ.نبيل صابري، أستاذ مؤقت بجامعة الجزائر01.

مقدمة:

شهدت الجزائر في ظل تاريخها الطويل اجتهادات فكرية معتبرة تنبيء عن قوة عقل حكمائها ورشاد بصيرتهم، سواء تعلق ذلك بالجانب الشرعي أو غيره من الفنون كالطب والهندسة والرياضيات، ولطالما كان ذلك فخر مجالس المتباهين بعلماء دورهم.

وفي إطار استكتاب الأستاذ حمو عبد الكريم لكتاب جماعي تناول فيه موسوعة أعلام التفسير في الجزائر، أحببت أن أشارك في صناعة الموسوعة بورقة بحثية تعالج بيان جهود أحد أعلامها المبرَّزين في هذا الشأن، وهو النابغة محمد بن محمود العنابي الحنفي، وذلك باستظهار شخصيته التجديدية، وإرفاقها بتحقيق أحد أجوبته القصيرة التي وجهت إليه بخصوص آداب مجلس قراءة القرآن وبعض الأحكام التجويدية.

وقد وقع الاختيار على هذه الفتوى لعدة أسباب؛ منها: قيمتها العلمية؛ إذ تظهر كفاءة شخصية الإمام في معالجة سؤال السائل وغزارة مادتها رغم وجازتها، إضافة لعدم نشرها من قبل أو تحقيقها، وملاءمتها لطابع الأعمال المقيدة.

ومن أجل استيفاء جميع نواحي متعلقات المشاركة، فإن تفصيل خطة البحث سيكون وفق التفصيل المبيّن:

المبحث الأول: دراسة المصنِّف وفيه، المطلب الأول: حياته وأعماله، المطلب الثاني: وفاته وآثاره

المبحث الثاني: دراسة الرسالة وفيه: المطلب الأول: وصف النسخة ونماذج منها، المطلب الثاني: توثيق النسبة وتحديد العنوان

المبحث الثالث: تحقيق المخطوط

خاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات، والآفاق والمقترحات.

المبحث الأول: دراسة المصنِّف

يسعى هذا المبحث لتقديم إضاءة متكاملة عن ترجمة المصنف؛ من ولادته حتى وفاته وما خلفه من آثار.

المطلب الأول: حياته وأعماله

أولا: اسمه ونسبه وأصله ومولده وأسرته:هو [1] أبو عبد الله محمد بن محمود بن محمد بن حسين بن محمد بن عيسى الأزميتي الجزائري، الحنفي، الشهير ببلده بابن العنّابي، وبمصر بمفتي الجزائر.

---

(1)ينظر ترجمته في: عبد الحميد بك، أعيان من المشارقة والمغاربة (تاريخ عبد الحميد بك)، ص187، سعد الله، رائد التجديد الاسلامي محمد بن العنابي، عبد الرحمن آل الشخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، ص90، مجموعة من الأساتذة، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، 1/ 73،حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية، ص458، دليل الأنيس والجليس، ص53، محمد زياد التكلة، تقدمة مجموع فيه إجازات من علامة الجزائر ابن العنابي الأثري، ص6، خير الدين الزركلي، الأعلام، 7/ 89، عمر كحالة، معجم المؤلفين، 12/ 5، إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون، 4/ 118، هدية العارفين، 2/ 378، محمد بسكر، أعلام الفكر الجزائري، 1/ 260، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص325، أحمد توفيق المدني، مذكرات

يرجع أصله لنواحي تركيا[2]، ثم نزحت أسرته لبلد العناب، والمعروفة حديثا بعنابة اشتقاقا من شجرة فاكهة العناب الوافرة بها، وهو المشهور بنسبته إليها، وتسمى أيضا بونة، تقع في الشمال الشرقي لمدينة الجزائر، وتبعد عنها بحوالي 600 كم، كما استوطن بعض أجداد المترجم مدينة الجزائر.

ولد بمدينة الجزائر المحروسة سنة 1189ه/ 1775م كما ضبطها بنفسه [3]، وبها ولد والده وجده.

أما أسرته فهي أسرة علمية، ومن بيوتات العلم المعروفة: فوالده أبو الثناء محمود من علماء الحنفية وأحد أعيان البلد، إمام أئمة قطره صلاحا وعلما،توفي سنة (1236ه) في منصرفه من الحج ببحر سويس ودفن بساحله قرب بلد القصير.

وكان جده أبو عبد الله محمد قاضي الحنفية بالجزائر وشيخ السنة والفقه بها، أتم تفسير والده في قطعة كبيرة ولم يتم (1203ه).

وأبوه أبو الفضائل شيخ الاسلام حسين كان مفتي الحنفية بالجزائر ومقتدى الأئمة بها، وله تفسير كبير لم يتم (1150ه)[4].

وأخوه لأمه مصطفى بن رمضان العنابي كان من فقهاء الحنفية كذلك، وله مؤلفات (1130ه)[5].

الحاج احمد الشريف الزهار، ص128، عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، ص232، مسعود كواتي ومحمد الشريف، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، ص13، عبد الستار الهندي، فيض الملك الوهاب المتعالي، 3/ 1811.

(2) قال ابن العنابي في نهاية رسالته مباسم الرشف: "الجزائري نسبة إلى الجزائر قاعدة بلاد المغرب الأوسط وبهجة الدنيا ودار الجهاد والسنة وبها ولادتي وأبي وجدي، فأما جدي الأكبر فمولده بلد العناب وهي بونة حرسها الله لكثرة العناب بها وإليها نسبته، وأبوه وجده من بلد أزميت بلدة معروفة على ساحل خليج القسطنطينية حرسها الله" لوحة 26ب.

(3) ينظر ذلك في إجازته لمحمد بيرم الرابع، سعد الله، رائد التجديد الاسلامي، ص119.

(4) قال ابن العنابي: وهو عندي بخطه، مباسم الرشف، لوحة أ26، ولا يدرى مصيره الآن.

ثانيا: نشأته العلمية ووظائفه العملية: نشأ ابن العنابي على يد والده بالجزائر، فأخذ عنه المعقول والمنقول، وكذا عن باقي علماء عصره كابن الأمين علي ومحمد جكيكن، وبها نشأ وتخرج.

في سنة 1208 تولى القضاء بالجزائر وهو لم يجاوز العشرين، وبقي فيه سنتين، ثم عزل نفسه منه لأمر مخالف للشرع، وبعد أشهر ولي القضاء مرة ثانية سنة 1210 وبقي فيه ثلاث سنوات، ولما مات مفتي الجزائر سنة 1213 ولوه هو الفتوى فبقي في هذا المنصب إلى سنة 1236 حين عزم على الحج هو ووالده مع محمد أفندي أخي حسين باشا والي الجزائر، وفي أثناء حضورهم في الطريق حصل بين والد ابن العنابي ومحمد أفندي تشاحن وتخاصم.

وفي حين رجوعهم توفي والد ابن العنابي غرقا ببحر السويس، فاستقر وحده بالإسكندرية وبقي بها مدة، ثم توجه ابن العنابي من الإسكندرية إلى الجامع الأزهر، وقد أقام بها يدرس ويفيد، وانتفع به خلائق لا يحصون، وفي هذه الفترة سنة 1240 ألف كتابه إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن، وألف سنة 1242 كتابه المشهور السعي المحمود.

وفي سنة 1245 أرسل حسين باشا يطلبه إلى الجزائر، وأرسل له سفينة مخصوصة يسترضيه خاصة مع طول غيابه وشدة حاجته إليه في رفع الروح المعنوية للمجاهدين، والانتفاع بمقدراته العلمية وخبراته التجديدية، فتوجه بها إليه.

ولما وصل أراد الدخول على الباشا فصادف دخول مفتي الجزائر فسبقه ابن العنابي في الدخول، فتغير منه المفتي وقال إنه خالف بذلك المرسوم، فبلغ ذلك الباشا فقال إنه يستحق التقدم عليه، وعزل المفتي وولاه هو مكانه، فأقام على ذلك سنة.

---

(٤) يراجع وفيات أسرته في إجازاته، فقد كان ينص عليها، مجموع فيه إجازات، ص35 وما بعده.

وفي سنة 1246 احتل الفرنسيون الجزائر، وأثناء الحرب مع حسين باشا ولاه هذا رئيسا على عساكر الجزائر، فغزا ابن العنابي في الفرنسيين أياما، وبعد دخول الفرنسيين مدينة الجزائر أقام ابن العنابي في بيته مطيعا لهم في الظاهر وفي باطن الأمر كان يخاطب العربان والعربان يخاطبونه على إثارة الحرب من جديد في صورة مقاومة شعبية بعد انهيار الجيش الرسمي، فبلغ ذلك الفرنسيين، فهجموا على داره، فلما استشعر الهجوم رمى بالأوراق في بيوت الخلا، ففتشوا فلم يجدوا شيئا، فتوقفوا عنه، ولكن ابن العنابي خاف مغبة الأمر بحيث يوشي به أحد مبغضيه إلى الفرنسيين أو يختلق رسالة يمسكونه بها فقلص من تحركاته، ثم حكم عليه كلوزيل بالنفي بعد أن لفق ضده تهمة تدينه، وفي هذا يقول حمدان خوجة: " ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائما إلى الجنرال كلوزيل يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام، للقوانين الفرنسية ولحقوق الإنسان، ولكن الوالي كان عنيدا، وعليه؛ قبض رجال الدرك على المفتي وقادوه إلى السجن؛ وتعرضت أسرته لجميع الإهانات بحجة أنها كانت تدبر مؤامرة، يا ترى، ما هي الجناية التي يمكن إسنادها للنساء والأطفال؟ وعندما تقدمت إلى الجنرال كلوزيل أسأله عن سبب هذا الاعتقال، أجابني بأنه كان يتفاهم مع القبائل لإثارتهم ضد الفرنسيين ...وبعد كثير من الصعوبات حصلت له، تحت كفالتي، على أَجَلٍ مهلته عشرون يوما سوَّى خلالها حساباته، وعند انتهاء الأجل رحل إلى الاسكندرية" (6).

وعند حضور ابن العنابي الإسكندرية صادف وفاة مفتيها الشيخ خليل السعدان، فولاه محمد علي والي مصر فتوى الحنفية بدلا عنه، وقد بقي ابن العنابي على ذلك الحال إلى سنة 1266، ذلك أنه في أوائل هذه السنة نقم عليه عباس باشا والي مصر، وحفيد محمد علي، فعزله من الافتاء، وسبب ذلك العزل أنه في أواخر عهد محمد علي صارت أرباب الدعاوى تستفتي المفتين الفتاوى، وإذا ظهر الحق بيد من تكون معه الفتوى يستفتي المدعي عليه بفتوى أخرى على اختلاف أقوال المذاهب،

(6) المرآة، ص227.

وتعاد رؤية الدعوى، وهكذا، وقد كثر ذلك من أرباب الدعاوى في الفتوى وارتشاء المفتيين، فمل من ذلك محمد علي وأحضر إليه ابن العنابي وأمره بتأليف كتاب يجمع فيه ما رجح من أقوال المذاهب الأربعة ويوفق مع الأقوال قوانين السياسة، وتصير كل الأحكام على ذلك الكتاب، ويبطل الاستفتاء من بقية المذاهب الأربعة، وكان قصد محمد علي من ذلك قطع المشاكل على الأقوال الراجحة بلا اختلاف في أقوال المذاهب، فبدأ ابن العنابي في تأليف كتابه الموسوم صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة، وكتب منه عشر كراسات ثم توقف، وذلك أنه لما ولي عباس باشا سعت المشائخ في إبطال هذا الكتاب وأفهموا الوالي أن ذلك مما يوجب ضعف الديانة المحمدية واندراسها، وهذا لا يجوز، وأفهموه أيضا أن ابن العنابي رجل خارجي زنديق، وقصدهم من ذلك ارتزاقهم من الفتاوى على الاختلاف في المذاهب، ومازالوا به حتى نقم عليه وعزله في تلك السنة، وهي سنة 1266، وولي الفتوى الشيخ محمد البنا مكانه [7].

ثالثا: شيوخه وتلاميذه: نظرا لكثرة أسفار ابن العنابي مشرقا ومغربا وحبه للاستفادة والإفادة وجمع الأسانيد، فقد تتلمذ على جملة من المشايخ، نذكر منهم: والده محمود؛ فقد تلقى عنه القرآن والفقه الحنفي وباقي العلوم، وجده محمد سمع منه فضائل القرآن للبخاري وأخذ عنه تفسير والده الحسين وغيرها، وحمودة المقايسي، ومحمد جكيكن، وعلي بن عبد القادر بن الأمين مفتي المالكية بالجزائر، ومحمد صالح الرضوي.

أما تلامذته الذين سمعوا منه وأخذوا عنه فنذكر منهم: إبراهيم السقا؛ وهو الذي اختصر كتابه السعي المحمود وسماه بلوغ المقصود، ومحمد الكتبي، وأحمد التميمي الخليلي مفتي القاهرة، ومحمد البنا مفتي الإسكندرية، وعلي البقلي، وخليل الرشيدي، ومحمد بيرم الرابع، ومحمد الطرابلسي،

---

(7) بتهذيب من تاريخ عبد الحميد بك، ص187 وما بعده، سعد الله، رائد التجديد الاسلامي، ص5 وما بعده.

وعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب وابنه عبد اللطيف، وأحمد القنياتي، ومحمد الطحاوي [8].

المطلب الثاني: وفاته وآثاره

أولا: وفاته: أقام ابن العنابي في بيته بمصر مبتعدا عن التداخل في الشؤون الدينية والسياسية بعد أن ضاق ذرعا بها، مكملا بقية أيامه في شرح كتاب التوحيد، إلى حين وفاته سنة 1267، وقد عاش 78 سنة كلها عطاء وتجارب وجهاد [9]، ويقال أن أسرة ابن العنابي مازالت بالإسكندرية إلى اليوم وتعرف باسم الجزائرلي[10].

ثانيا: ثناء العلماء عليه: من بعض ما يستحضر من تزكيات منقبية سجلت في حقه هذه الآثار: قال عنه قرينه حمدان خوجة: "كان المفتي سيدي محمد العنابي رجلا نزيها وناضلا" [11]، وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ :"ولقيت بمصر مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري فوجدته حسن العقيدة طويل الباع في العلوم الشرعية وأول حديث حدثنيه المسلسل بالأولية" [12].

وقال عبد الحميد بك: "كان إماما فاضلا، عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها واختلاف أقوالها والراجح منها والضعيف فيها، وعالما في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية والخصوصية، الخارجية والداخلية، وله أشعار وتقاريظ، وله غير ذلك مما هو مشهور، وفضله يغني عن ثبت قريض أو إنشاء له" [13].

---

(8) يراجع إجازاته في كتاب مجموع إجازاته، جمع زياد التكلة، ص35 وما بعدها.

(9) سعد الله، رائد التجديد الاسلامي، ص11.

(10)حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية، ص459.

(11) المرآة، ص227

(12) مشاهير علماء نجد وغيرهم، ص90.

(13)تاريخ عبد الحميد بك، ص187.

وقال سعد الله بعد أن درس حياته بتفصيل عميق ودقيق: "والواقع إنني بعد أن درست ابن العنابي تأكدت أنه يحق للجزائر الحديثة أن تفتخر به وبأمثاله كحمدان الخوجة الذين سبقوا علماء العربية والاسلام في طرح قضية التجديد والإصلاح الاجتماعي والسياسي قبل أن يطرحها أمثال الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده" [14].

ثالثا: مؤلفاته: إلى جانب الوظائف التي شغلها والمسؤوليات التي تقلدها، كان ابن العنابي رحمه الله من المشاركين في الكتابة العلمية، وهو من المؤلفين المتوسطين، ومما يذكر من أعماله:

1. إجازات متفرقة.
2. إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن.
3. التحقيقات الإعجازية بشرح نظم العلاقات المجازية.
4. التوفيق والتسديد على الفريد فيعلم التجويد.
5. ثبت، ذكر فيه شيوخه وسنده.
6. جواب في مسألة حدوث العالم، سؤال مفاده؛ هل العالم في الأزل مستحيل الوجود؟
7. رسالة خاصة بالمرأة.
8. رسالة في التوحيد.
9. رسائل في وقف العقار.
10. السعي المحمود في ترتيب العساكر والجنود.
11. شرح على الدر المختار، ولم يتمه.
12. شرح على فرائض المجمع.
13. شرح متن البركوي في التوحيد، ولم يتمه.
14. صيانة الرياسة في القضاء والسياسة.

(14) سعد الله، رائد التجديد الاسلامي، ص17.

15. الفتح القيومي بجواب أسئلة الرومي.

16. الفريد في علم التجويد، وسماه البعض بالجوهر الفريد والعقد الفريد والعلم الفريد والعزيز.

17. الفضة المحضة في تجريد مسائل الروضة.

18. كشف القناع عن مسائل الانقطاع، وهو جواب عن سؤال في حادثة وقف اختلفت فيها الأجوبة.

19. مباسم الرشف ومعاصم العطف في شرح جواب مسألة وقف (شرح كشف القناع).

20. مجموع الفتاوى.

21. مجموع مزدوجات.

22. مجموعة أشعار وتقاريظ ونصوص أدبية

23. مسائل في العبادات.

24. مسائل منتقاة من بعض كتب السنة.

25. المقتطف من جزء صحيح ابن حبان.

26. المقتطف من فوائد المنتقى لزوائد البيهقي.

27. المنتقى من المحلى لابن حزم.

28. المنتقى من جامع المسانيد للخوارزمي.

29. المنتقى من معجم الطبراني الكبير.

وغيرها من المراسلات والفتاوى والأجوبة والمسائل، وهي لا تزال مفرقة في مكاتب مصر وتونس والجزائر وغيرهم، ويا ليت من يقوم بنشرها ورفع الغبار عن مجدها.

المبحث الثاني: دراسة الرسالة

يتناول هذا المبحث دراسة الرسالة المحققة، من حيث وصف حالها وما طرح في سؤالها، ثم يتعرض لتوثيق نسبة الرسالة والفتوى وتحديد عنوانها.

المطلب الأول: وصف النسخة ونماذج منها

تقع فتوى ابن العنابي ضمن رسالة صغيرة الحجم في 18 لوحة بخط مشرقي واضح، سليمة في مجملها، عليها بعض التصحيحات، مرفقة بنظام التعقيبة، أصلها بالمكتبة الوطنية التونسية[15]، تحت رقم: 18002، ولم يظهر البحث نسخة ثانية لها.

كتب على غلافها: "هذه رسالة في حكم شرب الدخان في مجلس القرآن وبعض آداب تتعلق بذلك، تأليف شيخنا الشيخ حسن الأبطحي المالكي رحمه الله تعالى".

جاء في أولها سؤالا طويلا ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم وبعد، فهذا السؤال نصه ما قولكم دام فضلكم في رجل يسأل عن جماعة يقرؤون قرآنا سوية ويبني بعضهم على قراءة بعض، ويراعون في القراءة الطرق والأهوية وحسن الصوت، فيقرؤون قوله تعالى: ومن شر النفاثات في العقد ومين شر النفاثات يشبه أن يكون بين الميم والنون ياء ويمدون الطبيعي ضعفه في قوله تعالى: ربنا لا تؤاخذنا ويزيدون ألفا بين الحاء والميم والعين والنون من قوله تعالى: ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا، هل ذلك حرام يجب النهي عنه شرعا ولا حجة لمن قال أن القرآن لا يرفع إلا صحيحا لأن الحكم منوط بالظاهر لا بما في نفس الأمر ؟، وعمن يشرب الدخان بحضرة القرآن أو هو يقرأ هل ذلك مكروه تنزيها أو تحريما ؟ وعمن يكثر اللفظ بحضرة القرآن هل ذلك ممنوع سيما إذا رفع صوته على القارئ ؟ وعمن يقرؤ القرآن ويشتغل في أثناء قراءته بالقيام لمن يستحقه إذا قدم عليه أو بحديث ديني أو دنيوي ثم يعود لقراءته ما حكم ذلك ؟ وعمن يقرؤ حدْرا فيخل بما يستحقه

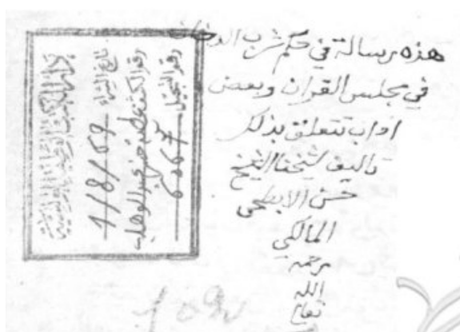
---

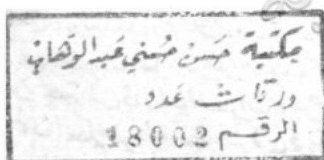
(15) قام بتصويرها لي الأستاذ الباحث هارون بولقرينات آل باشا، جزاه الله كل خير.

القرآن من ترك مد أو غنة ما حكم ذلك ؟ وهل مثل القرآن فيما ذكر الأحاديث النبوية أم كيف الحال ؟ أفيدوا الجواب ...".

وجاء في نهايتها مختوما بذكر الاسم الكامل للناسخ وتاريخ نسخه: "تمت على يد أفقر العباد إلى الله تعالى محمد بن مصطفى بن مصطفى ابن الشيخ أحمد ضيف المصري القليوبي الطوخي الشافعي الأحمدي، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولأصحابه وللمسلمين أجمعين سنة 1248 يوم الأربعاء السادس من رجب المعظم من ذلك العام والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم".

وهذه نماذج منها:



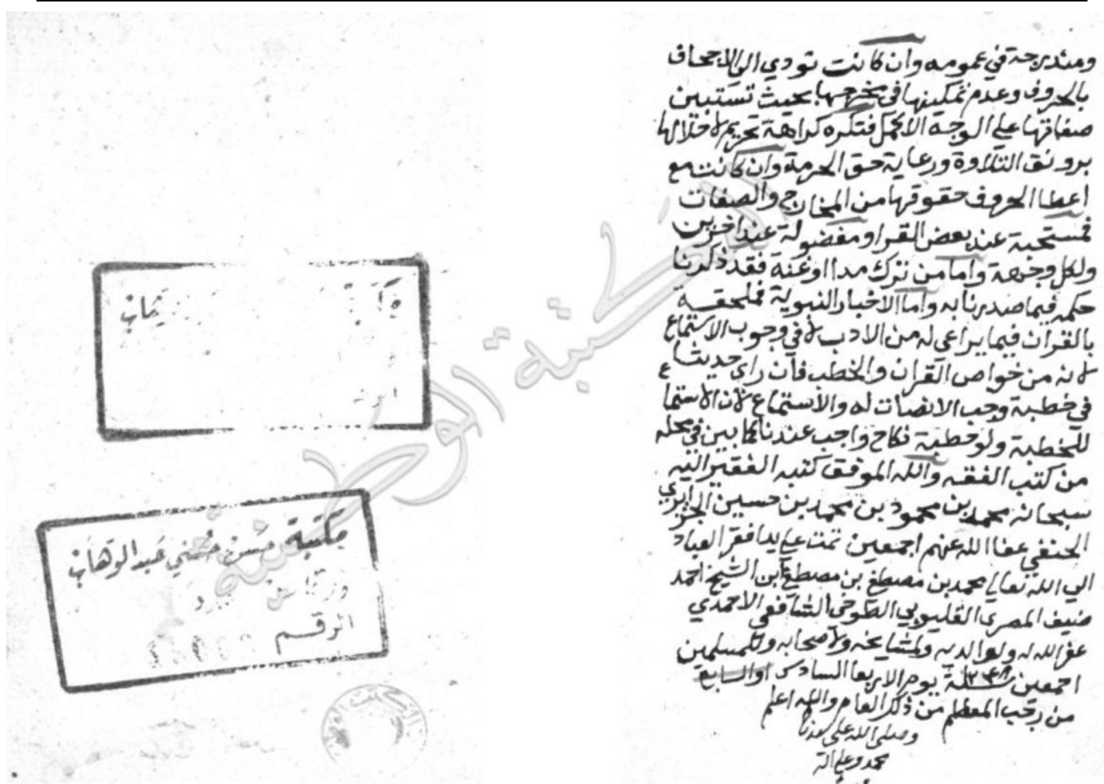


صفحة العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله
وصحبه وسلم وبعد فهذا السؤال نصه
ما قولكم دام فضلكم في رجل يسأل عن جماعة
يقرؤون قرآنا سوية ويبني بعضهم على قراءة
بعض ويراعون في القراءة الطرق والأهوية
وحسن الصوت فيقرؤون قوله تعالى ومن
شر النفاثات في العقد ومن شر النفاثات
يشبه أن يكون بين الميم والنون يا ويمدون
الطبيعي ضعفه في قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا
ويزيدون ألفا بين الحاء والميم والعين والنون
من قوله تعالى ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به
واعف عنا هل ذلك حرام يجب النهي عنه شرعا
ولا حجة لمن قال إن القرآن لا يرفع الاصبحا
لأن الحكم منوط بالظاهر لا بما في نفس الأمر
وعمن

وعمن يشرب الدخان بحضرة القرآن أو
وهو يقرأ وهل ذلك مكروه تنزيها أو تحريما
وعمن يكثر اللغط بحضرة القرآن هل ذلك
ممنوع سيما إذا رفع صوته على القارئ وعمن
يقرأ القرآن ويشتغل في أثناء قراءته بالقيام
لمن يستحق إذا قدم عليه أو بحديث ديني
أو دنيوي ثم يعود لقراءته ما حكم ذلك
وعمن يقرأ وحده فيخل بما يستحقه القرآن
من ترك مد أو غنة ما حكم ذلك وهل مثل القرآن
فيما ذكر الأحاديث النبوية أم كيف الحال
أفيدوا الجواب وأجاب عنه العلامة
المحقق والفهامة المدقق شيخنا الأبطحي
المكي نفعنا الله به ومن خطه نقلت بقوله
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين أما بعد فقد ذكر سيدي
خليل في المختصر أن القراءة بجماعة مكروهة

اللوحة الأولى من المخطوط


ومندرجة في عمومه وان كانت تودي الى الاجحاف
بالحروف وعدم تمكينها في مخرجها بحيث تستبين
صفاتها على الوجه الاكمل فتكره كراهة تحريم لاخلالها
برونق التلاوة ورعاية حق الحرمة وان كانت مع
اعطا الحروف حقوقها من المخارج والصفات
فمستحبة عند بعض القراء ومفضولة عند اخرين
ولكل وجهة واما من ترك مدا او غنة فقد ذكرنا
حكمه فيما صدرنا به واما الاخبار النبوية فملحقة
بالقران فيما يراعى له من الادب لا في وجوب الاستماع
لانه من خواص القران والخطب فان راى حديثا
في خطبة وجب الانصات له والاستماع لان الاستماع
للخطبة ولو خطبة نكاح واجب عندنا كما بين في محله
من كتب الفقه والله الموفق كتبه الفقير الى الله
سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزايري
الحنفي عفا الله عنهم اجمعين تمت على يد افقر العباد
الى الله تعالى محمد بن مصطفى بن مصطفى بن الشيخ احمد
ضيف المصري القليوبي الطوخي الشافعي الاحمدي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولاصحابه وللمسلمين
اجمعين سنة ١٢٤٠ يوم الاربعا السادس او السابع
من رجب المعظم من ذلك العام والله اعلم
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله
وسلم

اللوحة الأخيرة من المخطوط

المطلب الثاني: توثيق النسبة وتحديد العنوان

بعد النظر في صفحات الرسالة تبيّن أن النسبة التي على غلافها فيها إيهام، إذ هي متضمنة أولا لفتوى حسن الأبطي المالكي من اللوحة 2ب حتى اللوحة 14أ، وبعدها تأتي ثلاث فتاوى أخرى كالآتي:

1/ فتوى حسن القويسني الشافعي، وتبدأ من اللوحة 14أ حتى اللوحة 15أ.

2/ فتوى ثعيلب المشهور بالفشني، وتبدأ من اللوحة 15أ حتى اللوحة 15ب.

3/ فتوى ابن العنابي الحنفي، وتبدأ من نهاية اللوحة 15ب حتى اللوحة 18أ.

وعليه؛ فكاتب عنوان الرسالة وهو كاتب المخطوط نفسه -كما يدل على ذلك تشابه الخط والإشارة إلى شيخ الناسخ بقوله: "تأليف شيخنا" كما هو مضمّن في صلب المخطوط- قد غلّب نسبة المخطوط إلى حسن الأبطحي المالكي دون غيره، ولعل ذلك راجع لطول فتواه مقارنة بغيره، أم أن أصل الفتوى قد وجهت إليه ابتداء دون البقية الذين وصلتهم بواسطة، ولعله أراد اختصار النسبة حتى لا يكثر مؤلفوها، خاصة وهي مختصرة.

وهذا هو السبب في خفائها وخفاء كثير من الفتاوى والرسائل التي تعامل نساخها بمثل هذه الطريقة والكيفية.

ومنه؛ يمكن القول أن الرسالة قد اشترك في تأليفها أربعة علماء، والملحظ أن الناسخ قد حرص على تعدد مذاهب المفتين، فجمع بين المالكي والشافعي والحنفي سوى المفتي ثعيلب الذي لم يظهر الناسخ مذهبه[16].

أما توثيق نسبة فتوى ابن العنابي الحنفي له والتي هي قيد الدراسة فالمقطوع صحة نسبتها إليه، للتصريح في بدايتها من جهة الناسخ، وفي نهايتها من جهة المؤلف، كما أن ابن العنابي قد أشار في أول فتواه لأحد كتبه وهو العزيز في علم التجويد [17]، ناهيك عن اتفاق تاريخ نسخ الرسالة سنة 1248 مع تاريخ وجوده بمصر بعد نفيه من طرف كلوزيل فرنسا في حدود 1246 أو 1247، ويؤكد النسبة حديث المؤرخ سعد الله عنها في كتابه الذي أفرده للمؤلف[18]، وهو على دراية كبيرة بمؤلفاته.

---

(16) لم يتيسر لي إيجاد ترجمة له لمعرفة مذهبه الفقهي.

(17) سيأتي التحري في صواب الاسم.

(18) ينظر، ص46، 94.

وبالنسبة لعنوان الفتوى فالعمل على اختيار عنوان المخطوط الذي قيّده الناسخ على الغلاف باسم: رسالة في حكم شرب الدخان في مجلس القرآن وبعض آداب تتعلق بذلك، أولى من وضع عنوان جديد.

المبحث الثالث: تحقيق المخطوط

وأجاب أيضا العالم العلامة الحبر الفهامة الجزائري الحنفي بقوله:

الحمد لله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، قد ذكرنا في كتابنا (العزيز في علم التجويد)[19] أن:

---

[19] تداول المترجمون نسبة كتاب له في علم التجويد، إلا أنهم اختلفوا في ضبط الاسم،حيث سماه عبد الحميد بك بالعقد الفريد، وجاء في هدية العارفين باسم الجوهر الفريد، وفي إيضاح المكنون باسم العلم الفريد، والمثبت في المخطوط أعلاه العزيز في علم التجويد، والصواب الفريد في علم التجويد، لموافقتها ما جاء في عنوان مخطوطه "التوفيق والتسديد على الفريد في علم التجويد"، نسخة الأزهرية، 928 مجاميع رقم 46081 بخيت، رسالة رقم 1، كما صرح بذلك في مطلع المخطوط قائلا عن نفسه: "فألف كتابا نافعا مختصرا جامعا يحوي غرر مسائل الفن وفصوله ويحيط بدقائقه وأصوله يسمى بالفريد في علم التجويد، وها أنا ذا أتبعه بشرحه التوفيق والتسديد"، ينضاف لذلك جريانها في السجع، وعليه فالناسخ صحّف العزيز من الفريد للتشابه في الخطّ.

قال سعد الله: " ولا نعرف أكثر من هذا عن تأليفه في التجويد فهل هو مجرد رسالة صغيرة أو تأليف كبير في علم القراءات ورسم القرآن ونحو ذلك " رائد التجديد الاسلامي، ص46، وبعد الاطلاع على شرحه الكامل والذي يقع في 59 لوحة، تبيّن أن الأصل –وهو الفريد في علم التجويد– رسالة متوسطة الطول، تعالج مسائل الصفات والمخارج والوقوف والمدود والتكبير وأدعية الختم وما تعلق به وغيرها.

أما تاريخ نسخه فقد جاء في إيضاح المكنون أنه فرغ منه سنة 1285، وأضاف في هدية العارفين أنه فرغ منه بخطّه، والمعلوم أن تاريخ وفاة المصنف ترجع لسنة 1267، قال سعد الله: "ولعل التاريخ المذكور فيه قلب، وصوابه 1258 بدل 1285، ولم نستطع تحقيق المسألة" ص94، وبعد النظر في التوفيق والتسديد تبيّن أن البغدادي وقع في أوهام:

أولا: تحدث عن كتاب الفريد، ولكن وصفه للتاريخ والناسخ كان لمخطوطة التوفيق والتسديد.

ثانيا: خطؤه في تاريخ النسخ، حيث أن المؤلف قيّد الشرح سنة 1215ه وهو ابن ست وعشرين سنة،ما يعني أن الأصل قد كتب قبل ذلك، جاء في حرد الختام من نسخة الأزهرية: "فرغت من جمعه في المسودة أولا بأواسط ربيع الثاني من شهور سنة خمس عشرة واثني عشر مائة ثم وافق الفراغ من تبييضه ثانيا ثاني رمضان من شهور سنة سبع عشر واثني عشر مائة أحسن الله عاقبتها بالنبي وآله، كمل بحول الله تعالى وقدرته وحسن توفيقه وهدايته على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده فقير رب

"اللحن نوعان: خفي وجلي، فالجلي خطأ في المبنى أو الحركة أو السكون؛ سواء غير المعنى أو لا، والخفي خطأ في صفات الحروف إن لم يؤد إلى تبديل حرف، وإلا فجلي، وإنّ الخفي منه مما يعرفه عامة القراء؛ كترك الإخفاء والإظهار والقلب والإدغام والغنة وكمد المقصور وعكسه، ومنه ما لا يعرفه إلا المهرة كتكرير الراء وتطنين النون وتغليظ اللام في غير محله وترقيق الراء كذلك.

وإن تجريد القرآن عن القسم الأول من الخفي وهو ما [لا][20]يعرفه عامة القراء واجب، وعن الثاني مستحب" [21]، وكتبنا في شرحه: "إن أراد بالوجوب هنا ما هو معناه عند الفقهاء لا الوجوب الصناعي فيحرم تركه"[22] انتهى.

والأصل في ذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} (الكهف:1)، أي: شيئا من العوج، وقوله تعالى: {قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } (الزمر:28)، والملحون لحنا جليا يعرفه كل أحد أو لحنا يعرفه عامة القراء فيه عوج ألبتة، وإدخال العوج على القرآن مخل بالصفة التي مدح الله بها كتابه ومبدل لها بضدها فيحرم قطعا، وجاء عن علي رضي الله

العزة حسن بن الشيخ عبد الكريم حمزة أصلح الله أحواله وبلغه من الخير آماله بمحمد وآله وصحبه وذلك بأواخر شهر ربيع الثاني سنة 1265 خمس وستين ومائتين وألف".

ثالثا: خطؤه في اسم الناسخ، حيث ذكر أنه بخطه، وكذا جاء مقيّدا بتحشية تحت العنوان في صفحة المخطوط، وهو خطأ محض، وسببه كتابة جملة "بخط مؤلفه" أول الصفحة الأخيرة، ولكن سبقها قبلها قول الناسخ: "من نسخة"، مع ذكر تفاصيل التاريخ والنسخ.

(20)خطأ ظاهر، وصوابه، ما يعرفه عامة القراء.

(21) ينظر في شرحه التوفق والتسديد، لوحة 3ب، واللحن هو الخطأ الذي يعرض للقارئ في تلاوته لكتاب الله، ولمزيد تفصيل في أنواعه ينظر: علي السخاوي، جمال القراء، ص643، محمد بن الجزري، التمهيد في علم التجويد، ص62، إبراهيم الجرمي، معجم علوم القرآن، ص233.

(22) أي في كتاب التوفيق والتسديد على الفريد في علم التجويد، لوحة 4أ.

عنه في تفسير قوله تعالى: { وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}(المزمل:4)، أنه قال: "الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف"[23]، ذكر ذلك المولى سابقا[24] وزاده في جهد المقل[25].

وإذا علم هذا؛ فالذي يقرأ القرآن بالألحان الموسيقية ويشبع حركات الحروف حتى يتولد منها حروف مدية في غير مَحَلِّ ذلك لاحنٌ لحْنا محرما بالدليل القطعي[26]، وهو في ذلك تارك لما أمر الله به، ممتثل لما قرره بطليموس[27] ومرجح لصناعته على أمر الله ورسوله، فهو عاص آثم من وجوه شتى، فإن كان جاهلا بالحرمة فيرشد ويعلم ويستغفر الله تعالى على ما فرط منه، فإنه لا عذر لذي جهل بجهله في دار الإسلام لإجماع الكل أنه لا يحل لأحد الإقدام على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، كما حكى ذلك الغزالي والقرافي وغيرهما[28]، سيما ما يتعلق بالكتاب العزيز الذي {لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ }(فصلت:42)، وإن كان عالما بالحرمة أو أرشد إليها من ثقة ناصح فأصر على لحنه فهو إذن من المتعمدين؛ لتحريف كلام الله تعالى، ومن قصد إلى شيء منه فالكفر لازم له ويحرم إذن الاستماع لتلاوته بل يجب الإبعاد عنه؛ لنصّ: { فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين}(الأنعام:68).

(23) هذا الأثر مشهور ومتداول في كتب التجويد خاصة، ولكن ليس له سند معروف، وممن ذكره أبو القاسم الهذلي في الوقف والابتداء ص377، وابن الجزري في التمهيد ص48.

(24) أي: المولى طاشكبري زاده في شرحه للجزرية، ص105.

(25) أي محمد المرعشي، وعلق على عبارة: "وتجريد القرآن عن القسم الأول من الخفي ليس بفرض عين يترتب عليه العقاب الشديد، وإنما فيه خوف العقاب" بقوله: "فظهر أن القسم الأول يكره تحريما". ص113.

(26) ينظر: عبد الرحمن بن رجب، نزهة الأسماع، ص70، محمد بن القيم، زاد المعاد، 1/ 471، إسماعيل بن كثير، فضائل القرآن، ص195.

(27) يشير إلى مقامات اليونانيين، ينظر: أحمد الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، ص149.

(28) إحياء علوم الدين، 2/ 94، الفروق، 2/ 148.

وأما ما جاء من التجاوز عمن وقع منه لحن في القرآن وكتابته له كما أنزل ففي من لم يقصد إليه ولا تعمده وإنما وقع منه سهوا أو لعدم مساعدة لسانه كما يعلم ذلك من سياق تلك الأخبار، ومن القاعدة المقررة شرعا بتجاوزه تعالى عن الخطأ والنسيان وترتب المؤاخذة على ما اكتسبته القلوب.

وأما قراءة القرآن جماعة؛ فقد اختلف فيها مشايخ مذهبنا [29]؛ منهم من رخص فيها، ومنهم من منعها [30]؛ وهو الأظهر، لعموم إطلاق قوله صلى الله عليه وسلم:"ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن" [31].

وأما شرب الدخان في مجلس تلاوة القرآن والكلام واللفظ؛ فإن كانت تلاوة يجب استماعها لرعاية التالي ما يجب للقرآن من الأداء فيفترض الانصات لها عندنا لقوله تعالى: {وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ } (الأعراف:204)، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفرعوا عليه أنه يحرم تعاطي كل ما يخل بالاستماع من الأعمال، والدخان داخل في عموم ذلك مع ما فيه من سوء الأدب المؤدي إلى الاستخفاف بالقرآن[32]، لمكان العادة بالكف عن شربه بحضرة من يتأدب معه، فالقرآن أولى، وذلك قاض بالتفرقة بين القريب والبعيد، وأن الأمر في القريب أشد وإن كان للدخان حسن رائحة كان أزيد شدة لأنه يؤذي الملائكة الذين يحضرون لتلاوة القرآن، فإنهم حريصون على استماعه كما جاء في الخبر[33]، هذا إن كان تعاطيه والقارئ يجهر بالتلاوة، فأما في حال

---

[29] أي: في المذهب الحنفي.

[30] ينظر: برهان بن مازة، المحيط البرهاني، 1/ 378، أحمد الطحطاوي، حاشية الطحطاوي، ص318.

[31] أخرجه الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح، 4928، 8/ 523.

[32] تراجع مسألة شرب الدخان بمجلس القرآن في: بخيت المطيعي، أحسن الكلام، ص66، علي محفوظ، الإبداع في مضار الابتداع، ص252، مجموعة من المؤلفين، مجلة المنار، 7/ 537، 12/ 99، 16/ 583.

[33] أخرجه البخاري برقم 5011، 6/ 188، ومسلم برقم 240، 1/ 547.

سكوته فلا بأس بتعاطيه، وكذا في حال إسراره بالتلاوة لانتفاء علة المنع[34]، وإن كانت تلاوة ملحونة يحرم الاستماع لها فالتشاغل بما يقطع سماعها أنسب بالحال.

وأما القيام للداخل في حال التلاوة والاقبال على المحدث له؛ فلا بأس به مع قطع التلاوة عند رأس آية، ومع قطعها بالأثناء يكره كراهة تنزيه للوقف في غير محله، ومراعاة محالّ الوقف مستحبة فقط إلا أن يقف على ما يوهم كفرا فيكره كراهة تحريم[35].

وأما القراءة بالحدر والاسراع المفرط[36]؛ فإن كانت تخلّ ببعض الحروف بإسقاط ذواتها كالحروف المدية بإسقاط مدها الذاتي فملحقة بما صدرنا به ومندرجة في عمومه، وإن كانت تؤدي إلى الإجحاف بالحروف وعدم تمكينها في مخرجها بحيث تستبين صفاتها على الوجه الأكمل؛ فتكره كراهة تحريم؛ لإخلالها برونق التلاوة ورعاية حق الحرمة، وإن كانت مع إعطاء الحروف حقوقها من المخارج والصفات؛ فمستحبة عند بعض القراء، ومفضولة عند آخرين، ولكل وجهة.

وأما من ترك مدا أو غنة فقد ذكرنا حكمه فيما صدرنا به.

وأما الأخبار النبوية فملحقة بالقرآن فيما يراعى له من الأدب لا في وجوب الاستماع؛ لأنه من خواص القرآن، والخطب؛ فإن رأى حديثا في خطبة وجب الانصات له والاستماع؛ لأن الاستماع للخطبة ولو خطبة نكاح واجب عندنا [37]كما بين في محله من كتب الفقه، والله الموفق، كتبه الفقير إليه سبحانه؛ محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري الحنفي، عفا الله عنهم أجمعين.

---

(34)وذلك قبل ظهور المضار القاتلة للتدخين، أما وقد بان ضرره؛ فعلة المنع قائمة، سواء بحضرة القرآن أم لا.

(35) تراجع مسألة أقسام الوقف في: عثمان الداني، المكتفى في الوقف والابتداء، ص7، أحمد الأشموني، منار الهدى، 1/ 25.

(36) يراجع أيضا: علي السخاوي، جمال القراء، ص640، محمد بن الجزري، التمهيد، ص50، عبد الرحمن السيوطي، الاتقان، 1/ 345، عطية نصر، غاية المريد، ص20.

(37) ينظر: محمود بن مازة، المحيط البرهاني، 2/ 81، محمد بن عابدين، رد المحتار، 2/ 158.

خاتمة الدراسة:

بعد هذه الرحلة القصيرة في حياة عَلَمٍ من أعلام التفسير بالجزائر، يحق لنا وكما قال المؤرخ سعد الله أن نفتخر به ونعتز، نظرا لجهوده الاصلاحية التي رابط على تحقيقها ودعا لترسيخها في عدة مواقف، رغم الظروف القاسية التي ألمت به، ولعل أشدها وقعا، إجلاؤه مع أسرته من وطنه بسبب نفسيته الثورية والجهادية ضد أطماع المستدمر الغاشم.

إن الرسالة التي وقفنا عليها شاهدة على التفوّق العلمي الذي كان يتمتع به، سواء في نقله، أو استدلاله، أو منهجه، وهي رغم قصرها مليئة بالمسائل، ومشحونة بالتفريعات الفقهية القرآنية، خاصة مسألة شرب الدخان التي أبدى فيها رأيه بكل وضوح، ومما يظهر جليا على طول جوابه هو الاعتناء في بيان الأحكام بالقرآن والسنة الصحيحة.

وختاما؛ فقد بدت لي بعض المقترحات البحثية التي أرفعها للباحثين؛ وهي:

1- العمل على جمع جهوده المتناثرة في مكتبات مصر والسعودية والمغرب وغيرهم، وإخراجها في موسوعة كاملة، أو حتى منشورات مفرّقة، ومنها كتابه القيم في حقل القرآن؛ التوفيق والتسديد على الفريد في علم التجويد.

2- محاولة تقصي التفسير المفقود لجدّه الأكبر شيخ الاسلام بتكمل جدّه الأصغر من خلال نقولاته المحفوظة، حيث كان يكثر من النقل عنه، ويصدرها بقوله: "وقال مولانا الجد الأكبر في تفسيره"، مع الاستمرار في التنقيب عن نسخة ابن العنابي لأنه كان يحتفظ بواحدة من خط المؤلف، ولا يفصلنا عن وفاته إلا قرابة قرنين من الزمن، والظن بها في خزائن مصر؛ لأنه توفي فيها وبها كانت أملاكه.

3- الاهتمام بأسرة ابن العنابي العلمية والتكفل بتراثها المبدّد، وقد كان ابن العنابي حريصا في كتاباته على التذكير بأصوله ونسبه وأفراد قرابته، والإشارة إلى الروابط الاسنادية التي تجمعهم، والكتب التي تحمَّلوها عن بعضهم.

قائمة المصادر والمراجع

1. إبراهيم الجرمي، معجم علوم القرآن، دار القلم، دمشق، ط1، 2001م.
2. أبو القاسم الهذلي، الوقف والابتداء، تحقيق: عمار الددو، مجلة الشريعة والقانون، العدد: 34، أفريل 2008م.
3. أحمد الأشموني، منار الهدى، تحقق: عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث، مصر، 2008م.
4. أحمد الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، عرّبه: سلمان الندوي، دار الصحوة، مصر، ط2، 1986م.
5. أحمد الشيباني، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الرسالة، بيروت، ط1، 2001م.
6. أحمد الطحطاوي، حاشية الطحطاوي، تحقيق: محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
7. أحمد القرافي، الفروق، عالم الكتب، مصر، د.ط، د.ت.
8. أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية، الجزائر، 1974م.
9. الأزهرية تحت رقم الحفظ 928 مجاميع، أنه في 59 ورقة.
10. إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
11. إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
12. إسماعيل بن كثير، فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، ط1، 1416ه.
13. بخيت المطيعي، أحسن الكلام، تحقيق: عطية مصطفى، كشيدة، مصر، د.ت.

14. برهان بن مازة، المحيط البرهاني، تحقيق: عبد الكريم الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.

15. حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية، دار اليازودي، الأردن، ط1، 2018م.

16. حفناوي بعلي، دليل الأنيس والجليس في رجالات وشهيرات موطن العناب والأحباب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2009م.

17. حمدان خوجة، المرآة، تحقيق: محمد الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م.

18. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

19. سعد الله، رائد التجديد الاسلامي محمد بن العنابي، دار الغرب، بيروت، ط2، د.ت.

20. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2017م.

21. عبد الحميد بك، أعيان من المشارقة والمغاربة (تاريخ عبد الحميد بك)، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب، بيروت، ط1، 2000م.

22. عبد الرحمن آل الشخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة، ط2، 1394ه.

23. عبد الرحمن السيوطي، الاتقان، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية، مصر، 1974م.

24. عبد الرحمن بن رجب، نزهة الأسماع، تحقيق: وليد الفريان، دار طيبة، الرياض، ط1، 1986م.

25. عبد الستار الهندي، فيض الملك الوهاب المتعالي، تحقيق: عبد الملك دهيش، مكتبة الأسدي، ط2، 1430ه.

26. عثمان الداني، المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق: محي الدين رمضان، دار عمار، عمان، ط1، 2001م.

27. عطية نصر، غاية المريد، القاهرة، ط7، د.ت.

28. علي السخاوي، جمال القراء، تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، دار المأمون، دمشق، ط1، 1997م.

29. علي محفوظ، الإبداع في مضار الابتداع، تحقيق: سعيد محمد، مكتبة الرشد، الرياض، 2000م. مجموعة من المؤلفين، مجلة المنار، مصر، 1315ه.

30. عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

31. عمر كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، يروت، د.ط، د.ت.

32. مجموعة من الأساتذة، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2014.

33. محمد البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422م.

34. محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

35. محمد المرعشي، جهد المقل، تحقيق: سالم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط2، 2008م.

36. محمد بسكر، أعلام الفكر الجزائري، دار كردادة، الجزائر، 2013م.

37. محمد بن الجزري، التمهيد، تحقيق: علي البواب، مكتبة المعارف، ط1، 1985م.

38. محمد بن القيم، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار، الكويت، ط27، 1994م.

39. محمد بن عابدين، رد المحتار، دار الفكر، بيروت، ط2، 1992م.

40. محمد زياد التكلة، مجموع فيه إجازات من علامة الجزائر ابن العنابي الأثري، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ط1، 2008م.

41. مخطوط؛ محمد بن العنابي، التوفيق والتسديد على الفريد في علم التجويد، الأزهرية، 928 مجاميع رقم 46081 بخيت، رسالة رقم 1.

42. مخطوط؛ محمد بن العنابي، مباسم الرشف ومعاصم العطف في شرح جواب مسألة وقف، الأزهرية، رقم: 1729.

43. مسعود كواتي ومحمد الشريف، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، منشورات الحضارة، الجزائر، ط2، 2010م.

44. مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

45. المولى طاشكبري زاده، شرح الجزرية، تحقيق: محمد الأمين، مجمع الملك فهد، السعودية، 2001م.

الشيخ طاهر الجزائري وجهوده في خدمة القرآن وعلومه- علم المناسبات أنموذجا-

د. أنيسة زغدود، قسم الشريعة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة، الجزائر

الملخص:

يتناول البحث التعريف بالشيخ طاهر الجزائري والتعريف ببعض جهوده في خدمة القرآن وعلومه، وتحديدا علم المناسبات في القرآن الكريم. وذلك من خلال دراسة تركز على الفصل الثاني عشر، من كتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان)، وهو المقدمة الصغرى لتفسيره المخطوط (تفسير القرآن الحكيم).

مقدمة:

للعلامة طاهر الجزائري حضور قوي في ميادين العلم والمعرفة واللغة والأدب والتعليم والإصلاح؛ فالرجل كان يفري فريه في كل باب من أبواب العلوم الإسلامية علوم الآلة وعلوم المقاصد على السواء، وكان بصيرا بما يجري في الواقع الإسلامي وعلله، وعمل على إصلاحه وخدمته،تدل على ذلك أعماله وآثاره، لكنه ليس ذائع الصيت في الجزائر، ولم يحظ بما يستحق من الدراسة والاهتمام. وإنّ الناظر إلى كتبه ليجد دررا حواها عقله الذكي بلطائفه ونكته وتنبيهاته

وتخريجات فكره الجوال على الكتب والمخطوطات ودقائق العلوم، ومن ذلك أعماله في التفسير وعلوم القرآن.

ولئن كان التفسير لايزال مخطوطا ينتظر من يخرجه إلى النور والإفادة؛ فإن مقدمة التفسير مطبوعة وهي الموسومة بـ (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان)، وهي تحتاج إلى بحوث ودراسات.

وفي سياق إبراز بعض جهوده العلمية في هذا المجال، اخترت دراسة علم المناسبات كما جاء في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب، وقد ضمنت عناصر البحث في هذه الخطة:

أولا: الشيخ طاهر الجزائري حياته وأعماله. ثانيا: التعريف بكتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان). ثالثا: جهود الشيخ طاهر الجزائري في علم المناسبات. رابعا : خاتمة (نتائج البحث) .

أولا: الشيخ طاهر الجزائري حياته وأعماله

أحاول في هذه الترجمة رسم صورة مكتملة لسمات شخصية الشيخ طاهر الجزائري، تتناول أهم مراحل حياته وأعماله بداية من مولده إلى وفاته رحمة الله تعالى، وذلك بعد الإطلالة على الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة لبيئته وكذا معرفة روح عصره ، وذلك باعتبار علاقة التأثير المتبادلة بين العالم المصلح وبيئته. فمن هو الشيخ طاهر الجزائري؟ وما هي أهم إنجازاته العلميّة والدعوية والإصلاحية ؟واخترت أن يكون هذا المبحث كما يلي:

1ـ الخصائص العامة لبيئة الشيخ طاهر الجزائري

عاش الشيخ طاهر الجزائري في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في نهاية حكم العثمانيين في بلاد الشام، والذي كانت نهايته بنهاية الحرب العالمية الأولى.

ورغم نسمات الإصلاح التي كانت تهب على الدولة العثمانية حينا بعد حين، كنقل القوانين الأوروبية، واقتباس بعض النّظم والأساليب الأجنبية؛ إلاّ أن موجات التخلف وفساد الإدارة سيطرت على الشعوب العثمانية، وبدا واضحا للدول المسيحية عامة أن دولة العثمانيين أوشكت على الانهيار[1].

عاش الشيخ طاهر الجزائري في زمن صعب، عانت فيه الأمة من الجهل والتخلف والضعف أنواعا وألوانا. ورأى الجهل قد ران على العقول وسببه الرئيس تفشي الأمية.ووجد أن سبب التخلف الذي تعاني منه الأمة يعود إلى مفاهيم وعادات ألبست ثوب الدين ظلما وزورا، أخطرها التقليد الأعمى والشعور بالكمال الزائف. حارب هذه المفاهيم ، كما حارب الشعوذة والبدع ودعا إلى تجديد الدين وإحيائه والعودة إلى منابعه الأصلية الكتاب والسنة[2].

رأى الشيخ طاهر الجزائري أن العلاج في التعليم والتعليم لا يقوم إلا على ركنين: الأول: تهيئة المدارس العصرية التي تنافس المدارس التبشيرية. الثاني: إعداد المناهج والكتب الملائمة لروح العصر. وكان حريصا على أمرين: الأول: تعليم البنات؛ فالأم المتعلمة تعني أسرة متعلمة.الثاني: تعليم اللغات التي هي الوسيلة الوحيدة للاطلاع ما عند الآخرين، والجسور بين الأمم للاستفادة من الخبرات والصناعات وأركان العمران، والجهل بها يعني الانعزال والتخلف[3].

وقد تمثل موقفه على الصعيد السياسي بالدعوة إلى المحافظة على الدولة العثمانية والدعوة في الوقت نفسه إلى إجراء إصلاحات دستورية وإدارية و فكرية جذرية فيها .وكان على الصعيد الديني

---

[1]- طلاس مصطفى، الثورة العربية الكبرى، ط3 ،1980م، دار الشورى، بيروت، ص 59.

[2]حازم زكريا محيي الدين ، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ط1،1421ه/ 2001م ، دار القلم، دمشق ،تقديم حسن السماحي السويدان ، ص5–6– 7

[3]المرجع السابق، ص5– 6

من أنصار الاجتهاد ونبذ التقليد والعصبية بين المذاهب الإسلامية المختلفة .فضلا عن دعوته إلى التعاون مع الملل الأخرى فيما فيه نفع عام للأمة.[4]

وعليه يمكن القول بأن الشيخ طاهر الجزائري إحدى الشَّخصيات البارزة التي شاركت مشاركة فعَّالة في المرحلة التَّاريخية التي اصطُلح على تسميتها (عصر النَّهضة أو اليقظة) في البلاد العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.[5]

ويعد الشيخ نموذجا يعبِّر تعبيرا واضحا عن التيَّار الذي تبنَّى التَّواصل الفكري والرُّوحي مع التُّراث العربي الإسلامي، مع الانفتاح على الغرب وثقافته،والانتفاع بثمرات علومه الحديثة،ذلك التَّيار الذي مثَّله في بلاد الشَّام عدد من العلماء المجددِّين ، أمثال الشَّيخ حسين الجسر، والشيخ جمال الدين القاسمي.[6]

والشيخ طاهر الجزائري صاحب مدرسة فكرية في حياته ؛حيث كانت له حلقة فكرية كبيرة ، تضم أهم مثقفي الشام في عصره، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي، والمؤرخ عبد الرزاق البيطار ، وترك بعد وفاته عددا من المثقفين الذين تبنوا أفكاره وآراءه مثل محمد كرد علي ومحب الدين الخطيب...[7]

2ـ اسمه ومولده ونسبه

هو الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الوغليسي الحسني الجزائري، ولد في دمشق ليلة الأربعاء 20 ربيع الأول سنة 1268ه / 1852 م.[8] والده هو الشيخ صالح بن أحمد

[4] المرجع السابق، ص11

[5] المرجع السابق، ص9

[6] المرجع السابق، ص10

[7] حازم زكريا محيي الدين ، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص12

[8] عمر رضا كحالة ، مجمع المؤلفين ، ط1، 1993م ، مؤسسة الرسالة، بيروت،ج2، ص11

الوغليسي؛ نسبة إلى بني وغليس، وهي القبيلة التي سكنت مدينة بجاية بأرض الجزائر، ويسمى أيضا بالسمعوني؛ نسبة إلى سمعون وهي مجموعة قرى أو أحياء في أعالي وادي بني وغليس، التي كان يوجد بها معهد أو زاوية الحاج أحمد حسين، جد الشيخ طاهر الجزائري. والده من بيت علم وشرف معروف في قبيلته، تقلّد منصب مفتي المالكية بدمشق.[9] وقد كان عالما من العلماء. قال عنه الزركلي في الأعلام بأنه:" فاضل من الجزائر قدم إلى دمشق ومن آثاره رسالة في غرائب الخلاف بين الأئمة"[10]. وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنه[11]، ولم يكن الشيخ طاهر ينكر ذلك ، كما لم يفتخر بنسبه.[12]

والشيخ صالح كان ممن هاجر إلى دمشق مع عائلته -تحت تأثير الظروف القاسية للاستعمار الفرنسي في الجزائر- في الهجرة الجزائرية الأولى سنة 1263هـ/ 1846م.[13]

3- نشأته العلمية وشيوخه:

نشأ الشيخ طاهر في حجر والده الشيخ صالح ، وأخذ عنه مبادئَ علوم الشَّريعة واللُّغة العربية، ثم أدخله والدُه مدرسةَ الرشدية الابتدائية، بعد ذلك التحق بالمدرسة الجقمقية الإعدادية، فتابع دراستَه هناك، وتخرَّج على الأستاذ الشيخ عبد الرحمن البوسنوي، وتلقَّى على يديه اللغة العربية، والفارسية، والتُّركية، وتوسَّع في دراسة العلوم الشَّرعية.[14]

---

[9] محمد كرد علي، كنوز الأجداد ، ط2،1984 م، دمشق ، دار الفكر، ص 9

[10] خير الدين الزركلي، الأعلام، ط5،1980م، دار العلم للملايين، بيروت ،ج6، ص165

[11] محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، دت، ص11

[12] محمد سعيد الباني، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، ط1،1920م، مطبعة الحكومة العربية السورية، ص 139

[13] أبو القاسم سعد الله،بحوث في التاريخ العربي الاسلامي، ط1 ، 2003م، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ،ص 525

[14] حازم زكريا محيي الدين ، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص21

ثم اتصل بعد تخرجه بعالم عصره الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، وكان له أكبرُ الأثر وأعمقه في تكوين الشيخ طاهر العلمي وفي توجيهه نحو الإصلاح والقيام بأعبائه.[15] قال عنه محمد كرد علي كان:"على جانب عظيم من التقوى والورع يمثل صورة من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهر بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسه دروسا صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين ، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين"[16].

في الوقت الذي كان يتردد فيه على شيخه عبد الغني الغنيمي الميداني، ويتعمق في دراسة العلوم الشرعية واللغة العربية ، كان يتردد على مدرسة حكومية ثانوية يتعرف فيها على العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا والآثار،وتعلم أيضا الرياضيات والفيزياء على أيدي خريجي المدرسة الحربية في دمشق ، وعكف على دراسة اللغات الشرقية ، فأتقن اللغات السريانية والعبرية والحبشية والقبائلية (لغته الأصلية). وتعلم اللغة الفرنسية وتكلم بها.وتعلم كثيرا من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجر والعبراني ليتمكن من دراسة الآثار وقراءة المخطوطات القديمة[17].

وكان مولَعا باقتناء المخطوطات وجمعها، لذلك عرف الجيد من أصنافها، واطّلَع على موادها، وميز أماكن نسخها المتفرقة في الخزائن الشرقية والغربية.[18]

ومن حرص الشيخ على وقته، كان يجهز مشروب القهوة ما يكفيه لأيام، وربما شربها باردة حتى لا يضيع وقته في غير المطالعة والبحث.وكان لا يغادر منزله إلا إذا ملأ جيوبه وأعبابه بالرسائل

---

[15]المرجع السابق، ص22

حازم زكريا محيي الدين ، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص2،محمد كرد علي ، كنوز

[16]الأجداد ، ص9

[17]المرجع السابق، ص268

[18]محمد كرد علي ، المعاصرون ، ط2، 1993م، دار صادر، ص 269

والدفاتر والجرائد والمجلات والكناشات والأوراق،وكأنه مكتبة متنقلة، ولا ينام إلا وهو محاط بسور من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام[19].

4. نشاطه العلمي والاجتماعي

اتسم نشاط الشيخ طاهر بالتنوع والفاعلية ، موجها بفكره الإصلاحي الهادف إلى إحداث نهضة علمية واجتماعية في الأمة ، ويمكن أن نقف على محطاته الكبرى كما يلي :

ا. التدريس:بدأ حياته معلما في المدرسة الظاهرية الابتدائية .وهو في السادس والعشرين من عمره وذلك في 1294ه/ 1878م،و أخذ يبث أفكاره الداعية إلى الإصلاح وإلى الأخذ بأسباب العلم.[20] ومن حينها بدأ نجمه يلمع مدرسا ومربيا، حتى وصلت شهرته لبعض رجال الدولة الذين قدموه للوالي مدحت باشا.[21]

ب. دوره في الجمعية الخيرية الإسلامية: في هذا العام نفسه 1878م،انتظم الشيخ طاهر الجزائري إلى نخبة من علماء و أعيان دمشق برئاسة الشيخ علاء الدين عابدين ،و انطلقت فكرة تأسيس هذه الجمعية من موقع الاستجابة لتحدي النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الأجنبية، التي بدأت تتوالى على دمشق بدءا من إرسالية الآباء العزاريين إلى دمشق سنة 1755م، والتي أسست مدرسة لها بعد عشرين سنة من وصولها[22].

كان الشيخ أحد الأعضاء البارزين في الجمعية الخيرية التي كان هدفها مجابهة العمل التبشيري النصراني، وقد كان لتدخلاته عند الوالي مدحت باشا الأثر البالغ في اعتمادها وتشجيعها وتحريك نشاطها وتفعيل أدائها، وهو ما يسر نشاطها وسهل مهمتها في الهيمنة على بعض المدارس الموقوفة

[19] محمد سعيد الباني ، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر ، ص 24- 137

[20] حازم زكريا محيي الدين ، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 34-35

[21] محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، ج1، 2000م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر، ص 105

[22] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 33-34

على طلبة العلم، وعلى بعض ملحقات الجوامع والزوايا، فأعيد ترميمها وتجهيزها على طريقة المدارس الحكومية[23]، كما تمكّنت الجمعية من افتتاح ثمانية مدارس للذكور ومدرستين للإناث.[24]

جـ مفتش المدارس الابتدائية والمعارف : أُعجب بالشيخ طاهر الوالي العثماني مدحة باشا (1238-1301هـ/ 1822-1883م) المعروف بحبه للإصلاح، فعهد إليه مهمَّة تأسيس المدارس والتفتيش عليها والاهتمام بالتعليم.

تحولت الجمعية في نهاية 1295ه/ 1879م إلى ديوان معارف(ما يشبه وزارة التعليم اليوم)،أصبح جزءا من الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، وعين الشيخ طاهر مفتشا عاما على المدارس الابتدائية، وبادر الشيخ في تأليف عدد من كتب منهاج الصفوف الابتدائية في العلوم الدينية والعربية والرياضات والطبيعية، ووضع برامج لها. منها: الجواهر الكلامية، مدخل الطلاب إلى فن الحساب، الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام، مد الراحة إلى أخذ المساحة[25]، رسالة في النّحو، منية الأذكياء في قصص الأنبياء، إرشاد الألباء إلى تعليم ألف باء، وغيرها كثير.[26]

وأخذ الشيخ طاهر على نفسه تعليم المعلمين أصول التدريس الصحيحة، وكان يعينهم على مشاكلهم التي تعترضهم أثناء التعليم. مع إقناعه الآباء بوجوب إرسال أولادهم ليتعلموا.كما سعى إلى إنشاء مطبعة حكومية طبعت المؤلفات العامة والكتب المدرسية ومنها معظم كتب الشيخ طاهر المدرسية[27]، والتي كانت على شكل رسائل صغيرة في مبادئ العلوم على أسلوب مبتكر، سهل

[23]محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي،ج1، ص 105

الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 34-35[24]

الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 36، محمد سعيد الباني ، تنوير البصائر بسيرة [25]الشيخ طاهر، ط1، ص15 – 16

خير الدّين الزّركلي ،الأعلام ،ج 3 ،ص 222 ، محمّد كرد علي ، المعاصرون، ط2 ، 1413ه/ 1993 م، دار صادر ، بيروت [26]،ص268 ، محمّد كرد علي ، كنوز الأجداد ،ص9-30

[27]الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 36-37

النوال خال من الحشو والتعقيد[28]، وذلك بعد أن وعى الحاجة لتطوير المناهج والحاجة لإضافة علوم جديدة يتعلمها الجيل الجديد.

لقد بذل الشيخ طاهر جهدا كبيرا في خدمة التعليم في هذه المرحلة مما أدى إلى إنعاش الحركة التعليمية في بلاد الشام. قال عنها محمد كرد علي:"وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاص القديمة من غاصبيها، وحمل الآباء على تعليم أولادهم، ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة."[29]

د ـ دوره في تأسيس المكتبات العامة : تمكن رفقة جمع من أصدقائه- وبدعم مباشر من الوالي مدحت باشا ومن خلفه أحمد حمدي باشا - من جمع الكتب المخطوطة والنادرة في مكان واحد ، كانت معرضة للضياع والتلف ، ويخشى عليها من النهب والسرقة من قبل سماسرة الكتب النادرة وتجارها وقناصل الدول الأجنبية التي كانت تطمع باقتنائها .وقام بتخزينها في المدرسة الظاهرية في محلة باب البريد قرب الجامع الأموي. وقد تحولت فيما بعد إلى المكتبة الظاهرية التي أصبحت أول مكتبة عامة في تاريخ دمشق الحديث، وكان ذلك في سنة 1880م.[30] وكان يبتاع لها نفائس الكتب والمخطوطات ، ويحث أهل الخير على شراء الكتب وإهدائها لهذه المكتبة ، كما جعل لها فهارس وسعى لطبعها، فاشتهرت وقصدها طلبة العلم والعلماء والمستشرقون مطالعين ومستنسخين[31] .

---

[28] الشيخ طاهر الجزائري، أشهر الأمثال، قرأه وكتب مقدمته وحواشيه مازن المبارك، طبعة دار الفكر المعاصر،بيروت،لبنان، ودار الفكر، دمشق ، ص 10

[29] الشيخ طاهر الجزائري ، توجيه النظر إلى أصول الأثر، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، ط1، 1416ه/ 1995م ، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب،ج1، ص17

[30] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 37

[31] المرجع السابق، ص38

وفي 1269ه/ 1879، 1880م، تولى وظيفة التفتيش على خزائن الكتب في ولاية سوريا ومتصرفية القدس، وساعد الشيخ راغب الخالدي في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس ،وهي أول مكتبة عامة في القدس في القرن التاسع عشر.وأعد لها فهرسا خاصا . وكان يدعو إلى تأسيس المكتبات العامة في دمشق وحماة وحمص وطرابلس وغيرها من المدن[32].

محلقة الشيخ طاهر الفكرية : عاش الشيخ طاهر في فترة صعبة من تاريخ الأمة الإسلامية والعربية، وكان يرى أن العلم هو وسيلة يقضة الأمة مع إصلاح عاداتها وأخلاقها؛لذلك كان منهجه يقوم على نشر العلم الصحيح والتربية، والاهتمام بتثقيف الشباب .وكان يؤمن بالتدرج في الإصلاح والرفق في التغيير مع الإخلاص في العمل والمواظبة عليه .

حلقة الشيخ طاهر الفكرية أوالندوة الفكرية،هي النموذج الحي لهذا المنهج الذي سلكه ، والتي كان يجتمع فيها بكبار علماء عصره، وأبرز المثقفين من الشباب الطامح إلى الإصلاح،والمتطلّع إلى العلم والمعرفة ،أسست" بهدف تدارس التاريخ والتراث الفكري الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق والقيم الإسلامية، والانفتاح على الغرب من خلال الأخذ بالصالح من مدنيته الحديثة، وتعلّم العلوم الحديثة، ونبذ كلّ ما لا ينسجم مع الشريعة والعقيدة الإسلامية. وبناء على ذلك ؛كانت تتركز أحاديث هذه الحلقة ومحاوراتها على الوسائل التي يجب الأخذ بها لرفع مستوى التعليم والتفكير عند المسلمين في ذلك الوقت."[33]

كان يرتاد هذه الحلقة -التي كانت بإشراف مباشر من الشيخ طاهر- العديد من العلماء والكتّاب، كالشيخ جمال القاسمي، والمؤرخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم البخاري. كما التحق بها عدد من الشباب الذين صاروا علماء فيما بعد؛ أمثال محمد علي سليم، ورفيق العظم، وعثمان العظم، ومحمد كرد علي، وعبد الحميد الزهراوي، ومحمد سعيد الباني، ومحب الدين

[32] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص39- 38

[33] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص41- 42

الخطيب، وشكري العسلي، وغيرهم.وكان لهذه الحلقة اجتماع دائم بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وأكثر ما يكون ذلك في منزل رفيق العظم وأخيه عثمان، ولم تنقطع اجتماعاتها حتى بعد سفر الشيخ طاهر الجزائري إلى مصر عام 1907م.[34]

5ـ وفاة الشيخ طاهر الجزائري

بعد إقامة أول حكومة عربية بدمشق بقيادة الأمير فيصل بن الحسين سنة 1918م، قرر الشيخ إنهاء إقامته بمصر التي دامت ثلاثة عشر سنة والعودة إلى مسقط رأسه؛ غير أنّه لم يتمكن من ذلك مباشرة بسبب إصابته بمرض الربو واشتداد وطأته عليه، وهو ما أخره حتى النصف الثاني من عام 1919م[35].

ولمّا عاد إلى دمشق وجد مئات الناس يرحبون بقدومه .وعيَّنته الحكومة العربية، مديراً عاماً لدار الكتب الظَّاهرية، كما قرَّر المجمع العلمي العربي الأول ضمَّ الشيخ إليه عضواً عاملاً.وأمضى الشيخ أيَّامه الأخيرة في دمشق عاكفاً على المطالعة، والبحث، والدَّعوة إلى العلم، في حين كانت وطأة المرض تشتدُّ عليه، حتى وافته المنية يوم الاثنين الرَّابع عشر من ربيع الآخر سنة 1338هـ- الخامس من كانون الأول عام 1920م. ودفن في سفح جبل قاسيون حسب وصيَّته. رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن المسلمين خير الجزاء[36].

ومما قاله محمد سعيد الباني في رثائه:" كان فقيدنا رحمه االله من أعظم الرجال، وأكبر الدعاة إلى كل ما يفضي إلى سعادة محضة في الدارين من علم وعمل"[37] .

---

[34]المرجع السابق، ص 40

[35]نفسه، ص57

[36]محمد سعيد الباني، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، ص 65- 66

محمدكرد علي ،كنوز الأجداد، ص16- 17 ، محمد سعيد الباني، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، ص 98- 99، الشيخ طاهر

[37]الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص 30

6ـ آثاره

بلغت مؤلفات الشيخ نحوا من أربعين كتاباً، تنوعت بين علوم الشريعة واللغة وعلوم أخرى، ورغم كثرتها؛ إلا أنها اعتُبرت قليلة في نظر طلابه لما لمسوه فيه من غزارة العلم واتساع الثقافة، وقد أرجع بعضهم ذلك إلى اشتغاله بالتعليم، وتفرغه لإنشاء المكتبات ونشر المخطوطا، ومعظم تلك المؤلفات قد طبعت في حياته، وبإشرافه شخصيا، في مطبعة الجمعية الخيرية أيام كان مفتشاً على المدارس الأميرية، ولا يزال قدرمنها مخطوطا لحد الساعة[38].

ومخطوطاته موجودة اليوم في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، أوفي مكتبة السيد قصي بن محب الدين الخطيب في القاهرة. وقد كتب أغلب مؤلفاته لطلاب المدارس بسبب ما لاحظه من نقص في منظومة التعليم، كما صنفها بأسلوب مبسط بغية تقريبها من عقول المتلقين[39].

ويمكن تقسيم مؤلَّفات الشيخ إلى قسمين رئيسين: الأول يعود إلى عهد فتوَّته وشبابه، وقد اعتنى في تلك المدة بتأليف كتبٍ مدرسيةٍ للمبتدئين، حاول فيها تقديم المعارف العلمية المتنوِّعة من دينيَّة وطبيعيَّة بأسلوبٍ سهلٍ ومبتكر، خالٍ من الحشو والتَّعقيد، ثمَّ أراد لها أن تكون كالأسس التي تُبنى عليها قواعدُ العلم وترتفع قوائمه، دون تلك التَّفرقة المصطنعة بين علوم الدِّين والدنيا[40]، قال عنه عبد الفتاح أبو غدة: "إن الشيخ رحمه الله كان بارعا في رسائله وكتبه التعليمية، ومن حيث قدرته على تذليل صعاب العلم وتقريبه للمبتدئين، ولا يحسن هذا كل كاتب، وكان محققا في كتبه الكبيرة ولم يكن كغيره كحاطبي ليل"[41].

[38]محمد كرد علي ،المعاصرون، ص276

[39]الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث ، ص61

[40]الشيخ عبد الفتاح أبوغدة، توجيه النظر إلى أصول الأثر للشيخ طاهر الجزائري ،ج1، ص28

[41]الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث ، ص61 – 62

أما القسم الثَّاني فهو مؤلَّفاته ومختصراته ونشراته العلمية وكنَّاشاته التي يعود معظمها إلى عهد كهولته وشيخوخته.وقد دوَّن في هذه التَّصانيف ما رأى أنه أحسن وأنفع ما في كتب الشَّريعة واللُّغة والأدب والتَّاريخ من المسائل والمباحث الهامَّة. وأهمُّ آثار الشيخ طاهر الجزائري هي[42]:

أـ من كتبه المطبوعة

1- التِّبيان لبعض المباحث المتعلِّقة بالقرآن على طريق الإتقان.2- توجيه النَّظر إلى أصول الأثر.3- الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية.4- العقود اللآلي من الأسانيد العوالي.5- مبتدأ الخبر من مبادئ علم الأثر.

6 -مُنيَة الأذكياء في قصص الأنبياء.7- إتمام الأُنس في حدود الفرس.8- إرشاد الألبَّاء إلى طريق الألف باء.

9- أشهر الأمثال.10- بديع التَّلخيص وتلخيص البديع.11- التَّسهيل المجاز إلى فنِّ المعمَّى والألغاز.

12- التَّقريب لأصول التَّعريب.13- تمهيد العُروض في فنِّ العَروض. 14- حدائق الأفكار في رقائق الأشعار.

15- الحكم المنثورة.16- رسائل في علم الخط.17- دائرة في معرفة الأوقات والأيام. 18- الفوائد الجسام في الكلام على الأجسام.19- مدُّ الرَّاحة لأخذ المساحة. 20- مدخل الطلاب إلى فنِّ الحساب.

[42] المرجع السابق، ص 63- 72

بـ من تآليفه المخطوطة

1- أسنى المقاصد في علم العقائد. 2- الإلمام بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام.3- التفسير الكبير.4- جلاء الطَّبع في معرفة مقاصد الشرع.5- الكافي في اللُّغة.

جـ كناشاته المعروفة بالتذكرة الطاهرية

1- فهرست كتب في تفسير القرآن الكريم.2- رسالة في الإفتاء وشروط المفتي.3- إثبات تحريف التَّوراة والإنجيل.4- الرِّحلة إلى طبرية.5- تواريخ سياحية في بعض البلاد.[43]

ثانيا : التعريف بكتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان)

وفق الله تعالى الشيخ طاهر الجزائري إلى تفسير القرآن الكريم ، وهو تفسير مخطوط ، من أربعة مجلدات بخط المؤلف محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق، كتبه على حاشية تفسير البيضاوي.ويسمى (تفسير القرآن الحكيم)."وقد عمد المرحوم إلى نسخة مطبوعة من البيضاوي فكتب على أطرافها هوامش وتعليقات، وأكثر ما كان يكتب هذه الهوامش والتعليقات في كراريس وقراطيس يدسُها بين الصفحات المطبوعة، وقد أثبتت في مكانها خيوط متينة، لكن الهوامش والتعاليق المذكورة ليست مربوطة بمواضعها من الآيات بواسطة أرقام وعلامات، ولذلك تقع صعوبة في تجريدها وجمعها، بشكل تفسير مستقل. ومن تصفح تلك التعليقات والشروح التي كتبها على تفسير البيضاوي، أدرك لأول وهلة عظم فائدتها وحسن عائدتها."[44]

والشيخ طاهر الجزائري جدير بهذا العمل الجليل ومؤهل لذلك .قال عنه أبو غدة :" وكان من الذين وجهوا عنايتهم لخدمة القرآن و علومه في العهد القريب، الإمام العلامة المفسر المحدث ، الفقيه الأصولي اللغوي المتفنن الذواقة الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله تعالى ، فقد وجه عنايته إلى

[43] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص70

[44] الإمام العلامة طاهر الجزائري ، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، ص5

تفسير كتاب الله تعالى ، وبذل فيه الوسع والطاقة حتى أنجزه وأحكمه ، وأروى فيه شوقه العلمي ، فألف (تفسير القرآن الحكيم)، على الوجه الذي رسمه لنفسه وارتضاه .وقد كان جديرا بأن ينهض بذلك ، ويبلغ فيه المبلغ الحميد ، لما آتاه الله من غزارة العلم ونصاعة الفهم وسعة الاطلاع ، وبعد النظر ، ومتانة الضبط ، وقوة الإتقان وتفنن المعرفة ، وهذه صفات رفيعة قل أن تجتمع في العلماء المتأخرين[45]، وقد جعل الشيخ طاهر الجزائري لهذا التفسير مقدمتين صغرى وكبرى ،والمقدمة الصغرى كانت هذا الكتاب الذي سماه وعنونه باسم(التبيان في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن) وذيل هذا العنوان بقوله،(على طريق الإتقان) وقد تحقق هذا الوصف في هذا الكتاب ، فكان بحق تبيانا متقنا لأهم علوم القرآن ، التي تتقدم في دراسته واستجلاء معانيه.[46] والكتاب ألفه الشيخ في مصر،طبع أول مرة بمطبعة المنار بالقاهرة عام 1334ه[47]، وقد حققه الشيخ أبو غدة وطبع بعنايته وقال عنه:"والكتاب فرغ منه مؤلفه تأليفا في جمادى الأولى سنة 1335ه ،وقدمه للمطبعة سنة 1334ه أو قبلها، قبل أن يتم تأليفه،واكتمل تأليفه وطباعته في منتصف 1335طبعة أولى، وجاءت طبعته جيدة،وقد أشرف المؤلف على تصحيحه[48].

والملاحظ كما يقول الشيخ أبو غدة أن المؤلف أوجز خطبة الكتاب إيجازا تاما، فلم يشر إلى شيء من التفصيل في مضمون الكتاب أو عدد فصوله أوتنوع مباحثه، أو جملة مزاياه ،تواضعا منه وهضما لنفسه وترك الكتاب يدل على سمو مقامه بنفسه[49].

---

[45] نفسه، ص5 – 6

[46] الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص63

[47] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، ص 7– 8

[48] المرجع السابق، ص6

[49] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، ص6

ثالثا : جهود الشيخ طاهر الجزائري في علم المناسبات

نتعرف على جهود الشيخ طاهر الجزائري في علم المناسبات ، من خلال دراسة الفصل الثاني عشر من كتابه (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان.)

1ـ أهمية علم المناسبات

قال طاهر الجزائري:"وعلم المناسبات علم شريف يسبر به غور العقول، ويعرف به قدر المقول ، وقد قل تعرض المفسرين لذكر المناسبات لدقة الأمر فيها ."[50] وفي هذا الكلام بعض المخالفة لما جاء في عبارة الزركشي:"واعلم أن المناسبة علم شـريــف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول."[51] وتعبير الشيخ طاهر أبلغ وأوجز .

وقد أكثر في علم المناسبات الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره وقال فيه:"وأكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.وقال فيه أيضا في تفسير سورة البقرة :ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو معجز أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته .ولعل الذين قالوا أنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير منتبهين لهذه الأسرار."[52]، وقال السيوطي في معترك الأقران:" علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته"[53].

2ـ أنواع الروابط بين الجمل والآيات

---

[50]التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص 258-259

[51]الزركشي، البرهان في علوم القرآن،ج1، ص 35

[52] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص 258-259، فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير، م، دار الفكر ، ج7، ص 1981139 ه/ 1401 ، ط1 ،

[53] أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي ،معترك الأقران في إعجاز القرآن ،ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين ،ط1408،1ه/ 1988م، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،مج1، ص43

قال الشيخ طاهر في بيان أشكال الترابط بين الآيات:" قال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متّسقة المعاني، منتظمة المباني. ولنذكر شيئا مما يتعلق بذلك فنقول :إذا وردت جملة بعد جملة ،فإن كانت الثانية متممة للأولى ، كأن تكون مؤكدة لها أو مفسرة لها أو مبدلة منها ،فالأمر في ذلك ظاهر"[54]، فالترابط نوعان: ظاهر وخفي وهذا هو الترابط الظاهر أو الواضح. وهو ما ذكره الزركشي[55]، وكذلك ما ذكره السيوطي:" ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض ، وعدم تمامه بالأولى فواضح . وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه."[56]

وأما الترابط الخفي، فإنه يحتاج إلى الكشف عنه وبيان مناسبته . قال الشيخ طاهر:"وإن كانت مستقلة عما قبلها، فإن كانت معطوفة عليه ، فلا بد أن يكون بينهما جامع ،نحو: قوله تعالى ((يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)) سبأ : 02 وقوله ((وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) البقرة : 245. وأنواع الجوامع كثيرة والجامع هنا التضاد."[57]

فالتضاد أحد الروابط بين الجمل المعطوفة ، وذلك ما أكده السيوطي بأمثلة من القرآن:"ومما الكلام فيه التضاد : ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي ، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك"[58].

---

[54] طاهربن صالح أحمد الجزائري ، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص259

[55] بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشي، البرهان،ج 1 ، ص 135

[56] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص 218

[57] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص259

[58] طاهربن صالح أحمد الجزائري ، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص59

قال الشيخ طاهر:"وإن كانت غير معطوفة على ما قبلها ،لم يلزم أن يكون بينهما جامع ، لورودها حينئذ على طريق الاقتضاب. وذلك نحو: قوله تعالى: ((كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى)) العلق:6. وقال كثير من العلماء يلزم هنا أن يكون بينهما جامع ، وإلى ذلك جرى بعض المفسرين حيث قال: يقول تعالى ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان،أن ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم ،ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك ،ويطغى عليه أن رآه استغنى"[59].

وفي المبحث الأول، تحدث الشيخ طاهر عن طرق العرب في الانتقال من أمر لأمر آخر وهما اثنان :أحدهما الاقتضاب والآخر التخلص .وقال في الأول :" أما الاقتضاب فهو الانتقال من أمر إلى أمر آخر بغتة من غير أن يمهد له تمهيدا يجعله كأنه من تتمة الأمر الأول وهذا هومذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وذلك نحو قوله تعالى: ((كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)) القمر: 23، وقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)) الصف"10، وقد يقع في الاقتضاب لفظ يدل على الانتقال من أمر إلى أمر آخر وذلك مثل هذا في قوله تعالى : ((هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ)) ص: 55فإن هذا ورد بعد وصف جنات عدن وبيان ما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين."[60]

ثم عرف الشيخ طاهر التخلص وأشار إلى إنكار الغانمي لوجود التخلص في القرآن الكريم فقال:"أما التخلص فهو الانتقال من أمر إلى أمر آخر من بعد أن يمهد له تمهيدا يجعله كأنه من تتمة الأمر الأول . وقد وقع التخلص في القرآن الكريم . وقد أنكر ذلك أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي فقال أنه لم يقع منه في القرآن شيئ لما فيه من التكلف .وإنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم."[61]

[60]المرجع السابق، ص260

[61]المرجع السابق، ص260.

وقد عارض الشيخ طاهر رأي الغانمي وأثبت وجود التخلص فقال:" وليس الأمر كذلك فإنه قد وقع في القرآن التخلص إلا أنه بغير تكلف .وذلك مثل قوله تعالى:((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ))الشعراء:69-70، فإن في قوله:((فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)) الشعراء:77تخلصا من ذكر الأصنام إلى ذكر الله تعالى. ثم أجرى عليه تلك الصفات الدالة على عظم شأنه ووفور إحسانه لينبههم على أن من كان كذلك فهو الجدير بأن يعبد"[62].

وهذا الرأي يوافق تماما ما ذهب إليه السيوطي[63]، والزركشي.[64]

ومن الأمثلة التي ذكرها السيوطي على التخلص : "وانظر إلى سورة الأعراف كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا ودعائه لهم ، ولسائر أمته بقوله ((وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ))الأعراف:156 وجوابه تعالى عنه ، ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لأمته بقوله ((قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ)) الأعراف : 156. من صفاتهم كيت وكيت، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأخذ في صفاته الكريمة وفضائله"[65].

ثم بعد أن عرف الشيخ طاهر الاقتضاب والتخلص،أجرى مقارنة بين التخلص والاستطراد ،وضرب أمثلة ليتضح المعنى وتتميز الفروق فقال:"والفرق بين التخلص والاستطراد أن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول أو قطع الكلام حتى يكون المستطرد به آخر الكلام .وهذان الأمران معدومان في التخلص فإنه لا يرجع فيه إلى الأول ولا يقطع فيه الكلام بل يستمر

[62] نفسه، ص260 .

[63] الإتقان في علوم القرآن ،ج 2،ص220 .

[64] البرهان في علوم القرآن ،ج 1 ، ص 138.

[65] الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص 220 .

فيه على ما تخلص إليه ، والاستطراد هو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينا يمر فيه يأخذ في معنى آخر وقد جعل الأول سببا إليه."[66]

ومثال ذلك كقوله تعالى:((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ))فصلت:39، فإن الله سبحانه بينا يذكر إنزاله الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها بسببه، ذكر أن الذي أحيا الأرض قادر على إحياء الموتى وإعادتها بعد بلاها . وكقوله تعالى: ((أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ))هود:95 وكقوله تعالى:((فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)) فصلت:13"[67].

وما نلاحظه أنه بينما ذهب الرزكشي إلى إثبات التخلص في القرآن بأمثلة كثيرة .و كذلك فعل السيوطي وزاد شيئا من المقارنة .فإن الشيخ طاهر الجزائري قلل من الأمثلة وأجاد في المقارنة وبيان أوجه الاختلاف.

3ـ علم المناسبات بين المتكلفين والمانعين

في المبحث الثاني ،لخص الشيخ طاهر الجزائري ما سبق ذكره من وجوب الترابط بين الجمل المعطوفة على غيرها.وأيضا أنواع الترابط إن كانت الجمل مستقلة، وذكر أن كل ذلك مما اشتغل به أهل اللغة والبيان[68].

إذ إن المناسبة عند البلاغيين هي ترتيب المعاني المتآخية والمتشابهة والمتسقة، وعلم المناسبة هو معرفة علل ترتيب الأجزاء، ومن هنا فإن علم المناسبة بالنسبة للبلاغة، كأصول الفقه بالنسبة للفقه.

[66] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، ص261

[67] نفسه، ص261

[68] نفسه، ص261

ثم ذكر الشيخ طاهر أن المتقدمين لم يشتغلوا بعلم المناسبات لأن ما تجب فيه المناسية قد تصدى أهل البيان لبيانه على أكمل وجه ، وما لا تجب فيه المناسبة يكون البحث فيه أمر المناسبة من قبيل التكلف. ورأوا أن الاشتغال بغير ذلك من أسرار القرآن الذي لا تنقضي عجائبه أولى .وقد خالفهم في ذلك كثير من المتأخرين فرأوا أن الاشتغال به من الأمور المهمة.[69] هذه مسألة خلافية بين المتقدمين والمتأخرين حول الاشتغال بعلم المناسبات.ودافعها هو الإنكار على من تكلف في البحث عن المناسبات في كل موضع من القرآن الكريم .

ومثل الشيخ طاهر لهذا التكلف بـ: صاحب كتاب الفلك الدائر على المثل السائر، عز الدين بن أبي الحديد فقد شحن كتابه بالترهات وأطال فيها وأسهب وأعجب بها وظن أنه أتى بغريب.وقد قيل في هذا الفن أقوال طويلة عريضة أكثرها بارد غث . ومنها ما يشهد العقل وقرائن الأحوال أنه مراد[70].

وذكر مثالا عن رجل:" كان يتعاطى هذا و يحاول إظهار وجوه نظرية في هذه الأمور في جميع آيات الكتاب العزيز نحو أن يقول في قوله تعالى: ((مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ))الأنبياء:2، لم قال ما ولم يقل لا ،ولم قال يأتيهم ولم يقل يجيئهم.ولم قال من ذكر ولم يقل من كتاب. وما وجه المناسبة في تلك الآية بين لفظها وسياقها وبين لفظة الرحمن ، وما وجه المناسبة بين هذه الآية وسياقها وبين لفظة ربهم ، وعلى هذا القياس"[71].

وقد تبين للشيخ طاهر أن هذا الرجل كان ينقل من كتاب الفلك الدائر على المثل السائر إذ :" كان يتكلف تعليل كل مافي القرآن من الحروف التي تسقط في موضع و تثبت في موضع وكنا

[69] نفسه، ص261

[70] نفسه، ص263

[71] نفسه، ص263

نعجب ونستطرفه حتى وصل إلينا هذا الكتاب فقلنا: وفوق كل ذي علم عليم"[72]، وهذه سخرية واضحة من الشيخ على أمثال هؤلاء المتكلفين.

وقال الشيخ طاهر:" قد تكلم في هذا العلم أناس ليسوا من أهله فأتوا بها تنبو عنه الأسماع وقد أنكر ذلك بعض العلماء الأعلام إنكارا شديدا حتى أن بعضهم رأى وجوب ترك البحث في ذلك[73].

نقل الشيخ طاهر الجزائري قول العلامة عز الدين بن عبد السلام في كتابه الذي ألفه في مجاز القرآن:" أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، ولكن يشترط ذلك إذا وقع الكلام في أمر متحد فيرتبط أوله بآخره .فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر.ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الابربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه،فإن القرآن نزل على الرسول عليه السلام في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة.وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض"[74]، وقد أورد قول العلامة عز الدين بن عبد السلام الزركشي والسيوطي[75].

ومعنى كلام العز بن عبد السلام أنه ينكر التكلف والتزام المناسبة في كل موضع من القرآن، ولا يرفض التناسب مطلقًا، بل يَشترط فيه أن يقع في أمر مرتبط أوله بآخره، دون ما يقع على أسباب مختلفة، يتأتى فيها تغاير الدواعي والعلل، وأن من سعى إلى البحث عن ذلك التناسب فقد تكلف ما لا يطيق، وإن قدر فهي مقدرة تؤدي إلى ربط ركيك يصان عنه كلام رب العالمين.

---

[72] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، ص264

[73] نفسه، ص262

[74] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، ص262

الزركشي، البرهان في علوم القرآن ،ج1،ص 131 – 132، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص 108. السيوطي، أسرار ترتيب

[75] القرآن ، ص30

وإلى هذا الرأي وهو المنع ذهب الشوكاني؛إذ عند تفسيره لقوله تعالى:((يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)) البقرة: 40، قال:"أعلم كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله تعالى، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف؛ فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه...وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قبضه الله عز وجل إليه."[76] فهل هذا الكلام صحيح ؟

ذكر الشيخ طاهر من تعقب هذا الرأي ورد عليه:"وقد تعقبه بعض العلماء فقال: قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة،لأنها على حسب الوقائع المتفرقة .وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلا .وعلى حسب الحكمة ترتيبا. قال: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أومستقلة .ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم . وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له."[77] وهذا قول الشيخ ولي الدين الملوي، أورده الزركشي والسيوطي والبقاعي والغماري.[78]

وإذن فالمسألة المطروحة : هل نزول القرآن مفرقا يمنع من طلب المناسبة بين آياته وسوره ؟

---

[76] محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، 1992م، دار الفكر، بيروت، ج1، ص 115

[77] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص263

الزركشي، البرهان في علوم القرآن ،ج1، ص132، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص 217، الغماري، جواهر البيان في

[78] تناسب سور القرآن، ص9 ، البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ج1،ص7

صحيح أن القرآن الكريم نزل مفرقاً حسب الحوادث والنوازل ومراعاة للتدرج في التشريع ،ولكن قد وهم كل من العز بن عبد السلام والشوكاني في هذه المسألة ؛ ذلك أنه لا يشترط في الكلام على مناسبة آية وآية أن يكون وقت نزولها واحد؛ لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول.ولايشترط في المناسبة لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها ، والآيات كانت على أسبابها،وتأخذ ترتيبها في السورة بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.[79]

قال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني:"إن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكمُ السّرد، دقيقُ السبك، متينُ الأسلوب، قويُّ الاتصال، آخذٌ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكةٌ واحدةٌ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقةٌ مفرغة،أو كأنه سمطٌ وحيد وعقدٌ فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره."[80]

ويزيد هذا الكلام إيضاحاً الشيخ محمد عبد االله دراز فيقول":إن كانت الآيات بعد تنزيلها جُمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فُرِّق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة"[81].

وكان تعليق الشيخ طاهر"وشأن العالم المحقق الواقف على ذلك أن يكثر سواد المحسنين فيه إن ساعده الحال أويشير إليهم ويدل المسترشد عليهم."[82] وهكذا يرجح الشيخ طاهر رأي المؤيدين ويرى بأن علم المناسبات مهم .

---

[79] الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ،ج1، ص 26، السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج1، ص 88

[80] محمد بن عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 1966م، دار الفكر، بيروت، ج1، ص 44

[81] حسن سامي عطا ، المناسبات بين الآيات والسور، 2003م، الجامعة الأردنية، مجلة دراسات، ع1، مج 30، ص13

[82] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص264

4ـقواعد عـلم المناسبات

نقل الشيخ طاهر قاعدة هذا العلم ؛ كما حررها البقاعي عن شيخه محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي وهي:" الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظرما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات . وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب . وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها .فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته تبين لك إن شاء الله تعالى وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة.[83] وهذا الكلام منقول عن السيوطي.[84]

ويقصد بالأصول الكلية: الأمور العامة التي يرجع إليها هذا العلم، كقولهم : الأصل أن ترتيب سور القرآن العظيم وآياته توقيفي.الأصل أنه لم يقدم هذا على هذا، أولم يأت هذا كذا إلا لحكمة وسر.الأصل أن الرابطّ إما أن يكون لفظيا أو معنويا.الأصل أن طلب المناسبة توفيقي.الأصل أن مقاصد القرآن ثلاثة: تقرير التوحيد والعقيدة، وتقرير الأحكام والحلال والحرام، وتقرير قصص السابقين. ويقصد بالمسائل : الأمور الجزئية المتعلقة ببيان الرابط في موضع ما.والعلل هي المعاني التي تصلح أن تكون رابطة بين الآية والآية،والسورة والسورة[85].

[83] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، ص 265.

[84] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 221

[85] محمد بن عمر بن سالم بازمول، علم المناسبات في السور والآيات ،ص28

وقد لخص البقاعي تجربته في التعـرف على المناسبة فقال: "تتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو."[86]

5ـفوائد شتى تتعلق بالمناسبات

ختم الشيخ طاهر المباحث بفوائد أربعة تتعلق بالمناسبات ، ومنها:

الفائدة الأولى : قال الشيخ طاهر: "من المهم معرفة التناسب بين فواتح السور وخواتمها."[87] ويحسن أن نعرف أنواع المناسبات في القرآن الكريم و هي كما يلي: القسم الأول: المناسبات الداخلية، وهي:

الأول: مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها .

الثاني: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الثالث: مناسبةختام السورة لمطلعها.

الرابع: مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها، ومنه مناسبة أسماء الله الحسنى للآية التي ختمت بها.

القسم الثاني: المناسبات الخارجية، وهي:

الأول: مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

الثاني: مناسبة ختام السورة لمطلع السورة التالية لها

---

[86] البقاعي ،نظم الدرر، ج1، ص6

[87] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، ص266

الثالث: مناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها.

وهناك نوع يدخل في القسمين، فلا ينظر فيه إلى سورة بمفردها مع سورة أخرى، ولا إلى آية بمفردها مع آية أخرى، وهو مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور، أولسورة، ومناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر.[88]

وفي بيان المناسبة بين أول السورة وخاتمتها قال الشيخ طاهر:"وانظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ووعد أمه بأن يرد إليها و قوله: ((فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)) القصص:17.

وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبي صلى الله عليه و سلم بأن لا يكون ظهيرا للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكة ووعده بالعودة إليها، وانظر إلى سورة المؤمنون فإن فاتحتها : ((قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)) المؤمنون:1، وقد جاء في خاتمتها أنه: ((إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)) المؤمنون:117. وانظر إلى سورة ص، فإن فاتحتها:((ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)) ص:1، وقد جاء في خاتمتها، ((إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)) ص:87[89].

وفي بيان المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها قال الشيخ طاهر:"وكما وقع التناسب بين فاتحة كل سورة وخاتمتها وقع التناسب بين فاتحة كل سورة وخاتمة ما قبلها .قال بعض العلماء إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها . ثم هو يخفى تارة و يظهر أخرى . وذلك مثل فاتحة سورة البقرة.وهي:((الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ))البقرة:1-2، فإنها مناسبة لما جاء في خاتمة ما قبلها وهو: ((اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ))

[88] محمد بن عمر بن سالم بازمول، علم المناسبات في السور والآيات، ص29

[89] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص266

الفاتحة:6، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو ذلك الكتاب . وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة."[90]

وجاء ذكر هذا النوع عند الزركشي:" قلت : وهو مبنيّ على أن ترتيب السّور توقيفيّ ؛ وهو الراجح كما سيأتي ، وإذا اعتبرت افتتاح كلّ سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ؛ ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى"[91].

وضرب أمثلة على ذلك نذكر منها:"ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها ؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة ؛ فذكر هنا في مقابلة البخل : ((إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر)). الكوثر :1 أي الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة. ((فَصَّلِ)) أي دم عليها؛ وفي مقابلة الرياء ((لِرَبِّكَ))، أي لرضاه لا للناس ، وفي مقابلة منع الماعون: ((وَانْحَرْ)) ؛ وأراد به التصدّق بلحم الأضاحي ؛ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة."[92]

الفائدة الثانية: قال الشيخ طاهر في بيان أن ترتيب سور القرآن توقيفي:" قال بعض العلماء : لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم. أحدها بحسب الحروف كما في الحواميم .الثاني لموافقة أول سورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة .الثالث للتوازن في اللفظ كآخر تبت وأول الاخلاص .الرابع لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح."[93]قله عن الزركشي في الباب الرابع عشر بلفظه.[94]

---

[90] نفسه، ص266

[91] البرهان في علوم القرآن ،ج1، ص 132– 133

[92] المرجع السابق،ج1، ص 133– 34

[93] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص267

[94] البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 260

والسبب الأول يسمى مناسبة وجود الحروف بأوائل السور.فقد تجاورت بالمصحف سبع سور تبدأ بـ (حم) وهي: غافر، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ،الجاثية ، الأحقاف.وكذلك سور المسبحات وهي متقاربة أومتجاورة ، الحديد والصف والحشر والجمعة والتغابن.[95]

فـ" التناسب قائم بوضوح بين السور المسبحات، وكذا بين الحامدات المفتتحة بصيغة الحمد لله، والسور المفتتحة بحم، ومثلها الطواسين... طس وما زاد عليها، وذلك من حيث التشابه في البدء وفي الموضوع"[96].

وفي بيان المناسبة بين مضمون السورة والتي تليها ويسمى تناسب الموضوع قال الشيخ طاهر:" الرابع :لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى كالضحى وألم نشرح .ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة التي قبلها لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بثلاثة أمور : ترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة ، فذكر فيها في مقابلة ترك الصلاة ، فصّلِّ ، أي دم على الصلاة ، وفي مقابلة الرياء لربك ، أي لرضاه لا للناس ، وفي مقابلة منع الماعون ، وانحر وأراد به التصدق بلحم الأضاحي ، وإنما وضعت سورة القدر عقب سورة اقرأ ، لأن الهاء في إنا أنزلناه في ليلة القدر تعود إلى قوله اقرأ."[97]

الفائدة الثالثة : ذكر الشيخ طاهر أنه قد أشكل أمر المناسبة في مواضع منها: قوله تعالى:((يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)) البقرة: 18،((وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)) البقرة: 189." فقد يقال أي رابط بين حكم الأهلة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها ؟ والجواب عن ذلك أن ذكر حكم الأمر الثاني من باب الاستطراد فإنه لما ذكر عن الأهلة أنها مواقيت للحج وكان هذا من أفعالهم في

[95] أبو الوفا أحمد عبد الآخر، المختار من علوم القرآن– القران الكريم من التنزيل الى التدوين والترتيل– المكتب المصري الحديث ، الأزهر ، مجمع البحوث الإسلامية ، 1412ه/ 1992م،ج1، ص 162–163

[96] أحمد عبد الموجود، الوحي، الموسوعة القرآنية المتخصصة ، مج1، ص227

[97] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص267

الحج .كما ثبت في سبب نزولها ذكر معه من باب الزيادة في الجواب على مافي السؤال ، وقد وقع نظير ذلك في الحديث فإن النبي صلى الله عليه و سلم سئل عن ماء البحر فقال :هو الطهور ماؤه الحل ميتته[98]."[99]

وقد أورد هذه الإشكالية الزركشي، واختار طاهر الوجه الثاني من جواب الزركشي وهو أنه من باب الاستطراد وكان الوجه الأول من باب السؤال عن الحكمة والوجه الثالث من باب التمثيل.[100] كما وافق في ذلك السيوطي[101].

الفائدة الرابعة : قال الشيخ طاهر:" لا خلاف بين العلماء في وجود الوقف التام في القرآن .وأن أواخر السور من أبين مواضعه. وقد زعم بعض من خاض في غمرة المناسبات أن لا وقف تام في القرآن .ولا على آخر سورة الناس بل هي متصلة مع كونها آخر القرآن بالفاتحة التي هي أوله كاتصالها بما قبلها بل أشد . والذي دعاه إلى هذا القول الغريب أنه تغلغل في هذا الأمر فلاح له أن بين الآيات التناسب ما يجعل الارتباط بينها شديدا. وأن ذلك يقتضي أن يكون الوقف هنالك غير تام البتة.وليس الأمر كذلك."[102]

---

[98] أخرجه : الدارمي في السنن 1 / 185 ، 186 ، كتاب الوضوء ، باب الوضوء من ماء البحر ، وأبو داود في السنن 1 / 64 ، كتاب الطهارة (1) ، باب الوضوء بماء البحر (41) ، الحديث (83) ، والترمذي في السنن 1 / 100 ، كتاب الطهارة (1) ، باب في ماء البحر أنه طهور (52) ، الحديث (69) وقال : (حسن صحيح) ، والنسائي في السنن 1 / 50 ، كتاب الطهارة (1) ، باب ماء البحر (47) ، وابن ماجة في السنن 1 / 136 ، كتاب الطهارة (1) ، باب الوضوء بماء البحر (38) ، الحديث (386)

[99] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص267– 268

[100] البرهان في علوم القرآن ، ج1، ص 135– 136– 137

[101] الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص 222– 223

[102] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص269

قال أبو بكر ابن الأَنباريِّ ت328هـ:" والوقف التام في سورة الإخلاص والفلق والناس آخر السورة."[103] قالَ عَطِيَّةُ مُحَمَّد سَالِمٍ ت 1420هـ:" فإنا لو رجعنا إلى أَوَّلِ المصحف وآخره لوجدنا ربطا بديعا؛ إذ تلك الصفات الثلاث في سورة الناسِ موجودة في سورة الفاتحة، فاتَّفَقَتِ الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم؛ إذ في الفاتحة :((الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ))الفاتحة:1 و((مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ))الفاتحة:3، فجاءت صِفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ الجلالة. وتكون الخاتمة الشريفة مِن بابِ عَوْدٍ على بَدْءٍ، وأنَّ القرآن كلَّه فيما بينَ ذلك شرْح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير."[104]

وقد عرف كل من الزركشي والسيوطي الوقف التام وبينا أن :أكثر ما يوجد عند رءوس الآي، وقد يوجد قبل انقضاء الفاصلة، وقد يوجد بعدها،وآخر كل قصّة وما قبل أوّلها، وآخر كلّ سورة تام، والأحزاب، والأنصاف، والأرباع، والأثمان، والأسباع، والاتساع، والأعشار، والأخماس. وقبل ياء النداء، وفعل الأمر، والقسم ولامه دون القول، و(الله) بعد رأس كل آية ،والشرط ما لم يتقدم جوابه، و(كان الله)،و(ذلك)، و(لولا) غالبهنّ تام ما لم يتقدمهن قسم أو قول أوما في معناه[105]، والحاصل أن: آخر السورة تام في كل سورة .

كما تحدث الشيخ طاهر عن الوقف التام وبالشبيه التام وتحدث عن علامات الوقف وعرف الوقف غير التام وبين أقسامه وهي : كاف وحسن قبيح عرفها ومثل لها[106]، وقد نقل هذه التعريفات من كتب القراءات وعلوم القرآن ،عن ابن الأنباري وابن الجزري والداني والزركشي والسيوطي وغيرهم.

---

[103] محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأَنباريِّ ، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، 1390ه/ 1971م، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ج2، ص992.

[104] عَطِيَّةُ مُحَمَّد سَالِمٍ، تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ،ط1400،2ه/ 1980م ، طبع على نفقة محمد بن عوض بن لادن ، ج9، ص358–359

[105] البرهان في علوم القرآن ، ح1، ص505–506، والإتقان في علوم القرآن ، ج1، ص 280

[106] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، 270.

كما ذكر الابتداء وأقسام الابتداء،ثم طريق السجاوندي في الوقف ، ثم ذكر نموذجا من ذلك في الفاتحة ،وذكر من ألف في الوقف والابتداء ، ثم ذكر تنبيهات خمسة حول مباحث الوقف والابتداء ،وهي كثيرة جدا وأشارإلى أنه قد ذكر قسما منها في كتابه:(تدريب اللسان على تجويد البيان).وبهذا أنهى فصل مناسبات القرآن والكتاب[107].

خاتمة الدراسة:

نأتي في نهاية البحث لتسجيل ما امتاز به هذا الفصل الخاص بعلم المناسبات من خصائص كما يلي:

1ـ **المصادر**: تنوعت مصادر هذا الفصل بين علوم اللغة وعلوم القرآن وعلوم التفسير وعلم القراءات بالإضافة الى علم المناسبات، ومصادر الكتاب كما يقول أبو غدة انتخبها:" من الكتب الكثيرة التي اطلع عليها مطبوعها ومخطوطها.. ومخضها واصطفى خلاصة ما استحسنه منها، كثير من تلك المخطوطات... غير معروفة الأسماء والمسميات للباحثين المعاصرين، فلذا جاءت مباحث هذا الكتاب على لطافة حجمه في ذروة المعرفة المطلوبة من دارسي القرآن ونوع تلك المباحث، فأدخل فيها من علم الحديث والنحو والبلاغة والعربية وغيرها ما رآه نفيسا ضروريا متمما للدراسة القرآنية، فأجاد وأفاد وأحسن... ودون المؤلف كل ذلك بأسلوب علمي منظم مفصل،ولفظ سهل جزل فصيح."[108]

2ـ **منهج التوثيق** : أشار الشيخ طاهر في مقدمته الوجيزة أنه سلك فيه مسلك من قبله من العلماء،حيث قال:"وقد تبعت فيه أثر العلماء الأعلام، الذين أحكموا الأمر أي إحكام، وسترى

[107] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان ،ص272- 273- 274- 275- 276- 277-278- 279- 280

[108] التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، ص6.

بفضل الله سبحانه من ذلك ما به جلاء الأفهام ،وجلاء الأوهام"[109]،لكنه لا يشير دائما إلى مصادره في فصل علم المناسبات.

ولاحظ الشيخ أبوغدة أنه:"جرت عادة المؤلف إذا نقل نصا من كتاب وسماه وسمى مؤلفه، أنه لا يلتزم دائما نقل عباراته كما هي، بل قد يتصرف فيها ويحذف منها أو يبدل بعض كلماتها بأولى أو بأخصر منها، وتارة يصوغ معنى كلام العالم بعبارة من عنده، ولا ينبه على ذلك ،وهذه طريقة الحافظ بن حجر قبله في فتح الباري ، والكنوي في ظفر الأماني. ويؤخذ على المؤلف أنه حين ينقل بعض النصوص لأحد العلماء...يبهم اسمه ولا يسمي كتابه ،فيجهل القائل والمصدر جميعا،وبهذا الأسلوب يوعر طريقة معرفتهما"[110].

وهذا ما وقفت عليه في هذا الفصل"، وهذه الهنة ونحوها لا تنقص من قدر الكتاب... فالكتاب جدير أن يكون مقررا دراسيا في مستوى جامعي، لما يتمتع به من التحقيق العلمي والأبحاث الهامة على وجه محرر واف موجز"[111].

3ـ **التقسيم والتفريع**: قسم الشيخ طاهر الفصل إلى ثلاثة مباحث: مبحث في التخلص والاقتضاب والاستطراد، ومبحث في الاعتراض على علم المناسبات والجواب عن ذلك، ومبحث في مبنى هذا الفن، وكل مبحث يحتوي على أهم المسائل، وختم المباحث بفوائد أربعة ، كما تخلل ذلك بعض التنبيهات، نذكر منها: "يظهر أن أكثر ما استشكل من ذلك غير مشكل . وإنما المشكل فيه عده مشكلا والتصدي للجواب عنه فإنّ الإجابة من غير المشكل لا تخلو عن إشكال، والسبب في ذلك أن كثيرا من السائلين قد اتسعت عندهم دائرة الخيال فصاروا يرون في كل ما عرض لهم

[109]نفسه، ص 31.

[110]التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، ص6– 7– 8.

[111]نفسه، ص6– 7– 8.

إشكالا .فينبغي الانتباه لذلك . فإنه يفيد كثيرا ...وهذا غير خاص بهذا الأمر بل هو شامل لغيره من الأمور والله الموفق"[112].

4- **الأسلوب واللغة:** الشيخ طاهر يركز على المسائل المهمة التي يبحثها، يلخص أقوال العلماء السابقين ويورد الأدلة، ويتعقبها بالتعليق ، ويرجح بين الآراء المتعارضة، ويمثل ولا يكثر من الأمثلة، ويستعمل أسلوب المقارنة لبيان أوجة التشابه والاختلاف بين المصطلحات والتعريفات، لغته سهلة محببة وأسلوبه واضح. وكل ذلك أظهر تمكنه في كثير من الفنون والعلوم. ففيما كتب:"لباب علمه كأثر من آثار قريحته، تجلى فيهاروح بحثه، وغوصه على مسائل دقيقة، قل أن تسنى لغيره ممن عاصره الوصول إليها"[113].

وقد اعتبر أسلوبه في الكتابة من الأساليب التجديدية إذا ما قورن بأساليب عصره، فكان أسلوبه خاليا من الحشو خاليا من كثرة النقول والردود وغير ذلك من مظاهر الكتابة الكلاسيكية ، بل اعتبر من"أجلّ أعماله تبسيط العلوم الشرعية، وعرضها على الناشئة بأسلوب جذاب، يدفع العقول إلى التفكير"[114].

هذا، وقد عالج الشيخ طاهر علم المناسبات في عناصر مترابطة تضمنت مسائل أساسية وجاءت كما يلي: تعريف المناسبة لغة واصطلاحا، أهمية علم المناسبات، أنواع الروابط بين الجمل والآيات، علم المناسبات بين المتلكلفين والمانعين، العلماء الذين صنفوا في المناسبات،قواعد المناسبات وفوائد تتعلق بعلم المناسبات.

[112]نفسه، ص 269.

[113]محمد كرد علي ، كنوز الأجداد ، ص28- 29.

[114]الشيخ طاهر الجزائري، الجوهرة الوسطى في قواعد العقائد، ص11.

المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم سعد الله،بحوث في التاريخ العربي الاسلامي، ط1 ، 2003م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان.

2- حازم زكريا محيي الدين، الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث.

3- حمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، ج1، 2000م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.

4- الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث.

5- الشيخ طاهر الجزائري، أشهر الأمثال، قرأه وكتب مقدمته وحواشيه مازن المبارك، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق.

6- الشيخ طاهر الجزائري، توجيه النظر إلى أصول الأثر، اعتنى به الشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، ط1، 1416ه/ 1995م ، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب،ج1.

7- طلاس مصطفى، الثورة العربية الكبرى، ط3 ،1980م، دار الشورى، بيروت.

8- عمر رضا كحالة، مجمع المؤلفين، ط1، 1993م، مؤسسة الرسالة، بيروت،ج2.

9- محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، دت.

10- محمد سعيد الباني، تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، ط،1920م، مطبعة الحكومة العربية السورية.

11- محمّد كرد علي، المعاصرون، ط2، 1413ه/ 1993 م، دار صادر، بيروت .

تعقب الدليل الإضماري عند الشريف التلمساني من خلال كتابه "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"

ط.د. وسيلة داودي، طالبة دكتوراه تخصص: معجمية وقضايا

الدلالة، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، الجزائر

الملخص:

كان علماء الأصول يستنبطون الأحكام من أدلتها، غير أنّهم قد لا يبيّنون الدليل أحيانا، وإن بيّنوه فلا يعملون على بيان كيفية استنباط الأحكام من دلائلها، فاعتنى تلاميذهم ببيان دليل كلّ حكم قاله إمام المذهب، ثمّ جاء من بعدهم فوجدوا الدليل والمدلول، إلا أنّ الغالب أنّه لا يربط بين الدليل والمدلول ربطا واضحا بيّنا، فلا يُذكر ولا يظهر وقد يشيرون إليه إشارة، فعمل مجموعة من علماء الأصول ببيان الرابط بين الدليل والمدلول بقواعد أصولية تعمل على تفسير هذا الارتباط، والشريف التلمساني من أولئك الّذين اهتموا بقيام ذلك.

وعليه نقدم هذه الورقة البحثية وفق دراسة دلالية تداولية نروم فيها "تعقب الإضمار التخاطبي عند الشريف التلمساني وفق نظرية تخريج الفروع على الأصول"، وكذا الوقوف على مختلف الآليات الدلالية و التداولية المستخدمة في تعزيز أثر القاعدة الأصولية في توجيه الأحكام الفقهية، متوسّلين في ذلك بما وصلت إليه اللسانيات في عصرنا الحالي ، من خلال تعقب الدليل الإضماري وما يتطلّبه من شروط تدليليّة وتأويليّة وترجيحية، تتفرّع عليها جملة من القواعد التخاطبية، بوصف هذه العملية مرحلة ضرورية في فهم القواعـــد الأصوليّة، وبيان كيفية استنباط الأحكام

من دلائلها، الأمر الذي من شأنه أن يكسب طالب علم الأصول قاعدة متينة يمزج فيها بين المعرفة العلميّة والعمليّة.

الكلمات المفتاحية: تعقب الدليل الإضماري، التدليل، التأويل، التداولية، الشريف التلمساني.

مقدمة:

اشتدّت عناية العلماء في جميع العلوم بالبحث في مسألة جوهرية وهي « الدليل»، همّهم الوحيد تفسير هذا الكون وظواهره، ويعد علم أصول الفقه والفقه من بين العلوم الّتي همّت في تحصيل ذلك من أقدس كلام في هذا الكون : القرآن والسنّة، حيث جمع موضوعهما ببعض، فبنيت بذلك الفروع على الأصول، وظهر في ساحة العلم علما آخر هو "تخريج الفروع على الأصول"، حيث خاض في هذا العلم قلة من العلماء، تفرّدوا في الإبداع في مسائله، وتحسين دلائله، وتحصيل الفائدة منه، ولن نجانب الصواب إن قلنا أنّ أحد أعمدة هذا العلم الشريف التلمساني (ت 771ه).

هيمن المذهب المالكي في القرن الثامن الهجري، خاصة بعد دعوة الموحدين إلى إحياء الاجتهاد، والتوعد بمحاربة المشتغلين بالمسائل الفقهية الفرعية، غايتهم في ذلك كما ذكرها الحجوي الثعالبي في كتابه "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" هي: محو مذهب مالك وحمل الناس على ظاهر الكتاب والسنة، غير أنّ عودة الدولة المرينية أعادت الناس إلى التمسك الشديد بالمذهب المالكي، والدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، وذم التعصب المذهبي باستنباط الأحكام من أدلّتها وتخريج الفروع على الأصول من غير التقيّد بمذهب معيّن، أمثال الشريف التلمساني في مناظرته لأبي القاسم الغبريني بقوله:« فإذا كان مراد المعترض النقل المذهبي فليس من دأبنا»[1]، ولابد من الإشارة أنّ في هذا العصر اشتهرت ظاهرة تأليف المختصرات وتقليل الألفاظ، الأمر الّذي خلّف

1- ينظر: أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي(ت814ه)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط- المغرب، د ط، 1981م، ج9، ص 321.

أضرارا كثيرة كتغيير المسائل عن موضعها، وغرابة وعدم وضوح الجملة الواحدة الّتي تحتمل احتمالات كثيرة، فنبّه إلى ذلك علماءهم، خاصة الأخذ من تلك المختصرات المخلّة الغامضة لكي لا يقع القصور وعدم التحصيل، فنهض علماء حاولوا حشد المعلومات الغزيرة للطالب، أمثال أبو عبد الله الآبلي ، وقد سار على هديه تلميذه الشريف التلمساني، وقد ساهم علماء الأصول آنذاك في تنمية الحركة الفكرية وتعميق جذورها، فينع فيها جيل مبرّز من العلماء الراسخين، احتضنهم البلاط المريني والزياني أمثال أبي عبد الله الشريف التلمساني رحمه الله[2].

أولا: الإمام أبو عبد الله الشريف وتكوينه العلمي:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الإدريسي، ويُعرف بالعلوي، نسبة إلى قرية تسمى العلوين بتلمسان[3]، واشتهر أيضا بالشريف التلمساني الحسني[4]، ونسبته إلى تلمسان، الواقعة في غرب القطر الجزائري.

يرجع نسب التلمساني إلى الإدريسي: نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن حسن وهو أوّل من دخل المغرب[5]، ومعروف بالحسني: نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، على الوجه الآتي: « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود بن علي بن عبد الله بن ميمون بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[6]، وقد قال

2- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تح: محمد علي فركوس، مؤسسة الريان، بيروت- لبنان، ط1، 1998م، ص 30-48.

3- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، د ط، 1989م، ص 64.

4- ينظر: أحمد بابا التنبكتي (ت1036ه)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، طرابلس- ليبيا، ط2، 2000م، ص 225.

5- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 30.

6- ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف عليه: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، د ط، 1908، ص 164.

عبد الرحمن بن خلدون عنه:« وكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم، وربّما يغمز فيه بعض الفجرة ممّن لا يزعه دينه ولا معرفته بالأنساب، فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه»[7].

أمّا مولده، فحسب المترجمين والمؤرخين، ولد سنة عشر وسبعمائة (710ه-1310م)، وقال أبو العباس الونشريسي هذا هو الصحيح[8].

1. نشأته وتعلمه:

ولد الشريف التلمساني وسط أسرة عربية أصيلة وشريفة، اتّسمت بالعلم والنباهة والوجاهة وحسن التدين، وتحت رعاية وحرص خاله عبد الكريم نال أبو عبد الله الشريف حظا وافرا من التربية والتعليم في سن مبكرة، الأمر الّذي ساعده على تنمية مواهبه وقدراته الفكرية والذهنية، إضافة إلى البيئة المشجعة الّتي منحته الحظ في متابعة دراسته، فقد كان الأمراء الزيانيون يولون أهميّة بالغة للعلم والعلماء، فأضحت بذلك مركزا ثقافيا هاما، وفي حضن ذلك نشأ الشريف التلمساني سالكا طريق العلماء، مقتديا بهم ومتبحرا في علمهم [9].

2. شيوخه وأقرانه وتلامذته:

تُعرف مكانة المرء من معرفة شيوخه وأساتذته الّذين تلقّى عنهم وتأثّر بهم، فالتلميذ أثر من آثار شيخه، وثمرة يانعة من ثماره، حتى يُنشر علمه، ويشيع ذكره، وكذلك الشريف التلمساني كباقي أولئك الّذين زرع معلموهم فيهم بذرة طيبة، فنمت وكبرت ، فأورقت وأتت ثمارها، حيث

7- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، د ط، 1989م، ص 64.

8- ينظر: ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 166

9- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 60.

تلقّى العلم عن طائفة كبيرة من الشيوخ داخل تلمسان وخارجها، فمن بين شيوخه داخل تلمسان مايلي:[10]

القاضي ابن هدية القرشي(ت736ه)، أبو محمد المجاصي(ت741ه)، القاضي أبو عبد الله التميمي(ت745ه)، أبو عبد الله بن النجار(ت 749ه)، أبو موسى المشدالي(ت745ه)، ابنا الإمام التنسي: أبو زيد عبد الرحمن(ت 743ه)، أبو موسى عيسى(ت750ه)، القاضي ابن عبد النور(ت749ه). أمّا خارج تلمسان، فكان شيوخه كالآتي:

من شيوخه بفاس: عبد المؤمن الجاناتي(ت746ه)، أبو عبد الله السطّي(ت 749ه)، أبو عبد الله الآبلي(ت757ه)، أمّا شيوخه بتونس: أبو عبد الله بن عبد السلام(ت749ه).

من أقران الشريف التلمساني: أبو عبد الله المقري(ت759ه)، أحد فحول أكابر علماء المذهب المالكي المتأخرين الأثبات، وقد قيّد ذلك ابن مريم في البستان[11]، وأبو عبد الله بن مرزوق الخطيب(ت780ه).

أمّا تلامذته، فقد تخرّج على يده ثلة من التلامذة الأكفاء: ولداه أبو محمد عبد الله(ت792ه)، من علية الفقهاء وصدور المدرسين، وأخوه أبو يحي عبد الرحمن بن محمد(ت826ه)، سيد الشرفاء وشريف العلماء على ما وصفه به الونشريسي، وممّن حضروا مجالسه: ابن زمرك الوزير(ت795ه)، أبو زيد بن خلدون(ت808ه)، ابن قنفذ القسنطيني(ت810ه)، ابن السكاك العياضي(ت818ه).

وهناك من راسله من فحول العلماء واستفاد منه بدافع إبداء الرأي والتقويم، ومنهم: الخطيب أبو سعيد بن لب (ت782ه)، لسان الدين بن الخطيب (ت776ه)، أبو إسحاق الشاطبي

[10]- ينظر: نفسه، ص 87- 115.

[11]- ينظر: ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 155.

(ت790هـ)، وما هذا إلا غيض من فيض بالمقارنة مع مجالسه العامرة في مختلف حواضر المغرب العربي.

3. مؤلفاته :

رغم غزارة علمه، وسعة اطّلاعه، لم يصلنا عن أبي عبد الله الشريف التلمساني من تآليفه سوى القليل، لشدّة عنايته بالتعليم[12]، وبالرغم من ذلك فإنّ ما ألّفه من كتب جمعت بين المعقول والمنقول وفتاوى علمية خلّدت اسمه، وأكّدت مدى سعة عقله، ولكتبه القليلة علاقة بالعقيدة والفقه وأصوله، ومنها ما يتعلّق بالمنطق، منها:[13]

1. يأتي في طليعة كتبه: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، طبع بتونس عام 1928م، ووضع الشيخ عبد الحميد بن باديس ملخصا عنه لطلبته بقسنطينة يوم أن كان يقوم بالتدريس
2. مثارات الغلط في الأدلّة، وهما كتابان قد عمل على تحقيقهما: محمد علي فركوس.
3. شرح جمل الخونجي: كتاب في المنطق.
4. كتاب في القضاء والقدر: لم يذكر عنه الكثير، لكنّه نسب إليه في نيل الابتهاج.
5. كتاب في المعاوضات أو المعاطاة: يعالج بعض القضايا في البيوع ضمن المعاملات المالية.
6. فتاوى ورسائل وأجوبة على مسائل علمية مختلفة أجاب بها عالم تونس الشيخ: يحي الرهوني.

---

[12]- ينظر: نفسه، ص 176.

[13]- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 120-124.

4. **وفاته** [14]:

واصل الشريف التلمساني مهنة التعليم ، والوعظ، والإرشاد ، بالمدرسة اليعقوبية في تلمسان، حتى وافته المنية في ليلة الأحد الرابع من ذي الحجة، عام أحد وسبعين وسبعمائة [15]، عن عمر 61 عاما، دفن بالمدرسة في تلمسان، وسار السلطان أبو حمو موسى الثاني في جنازته، وتأسّف لفقدانه، وقال لابنه أبي محمد: ما مات من خلفك أنت، ولكن مات أبوك لي أنا، لأنّي كنت أباهي به الملوك والأمراء. وعند سماع الفقيه : ابن عرفة التونسي بخبر موته تأسّف كثيرا وقال: لقد ماتت بموته العلوم العقلية.

ثانيا تخريج الفروع على الأصول:

حفظ الله الأمّة الإسلامية إذ جعل لها علماء وفقهاء يبيّنون لها أحكام دينها، فاستقلّ علماء الأصول بذكر الأصول المجردة، و اعتنى علماء الفروع بنقل المسائل الفقهية مع التدليل عليها، غير أنّهم لم يشيروا إلى كيفية استناد الفروع إلى الأصول، فكان لابد من الجمع بينهما، وبيان كيفية استنباط الأحكام، والجمع بين الفروع والأصول، فكان "تخريج الفروع على الأصول"، ولم يهتم العلماء ببيان المراد من هذا العلم حتى زماننا هذا، حيث بُذلت محاولات جادة لتأصيله [16]. وحسب ما جاء عند صاحب المقدمة أنّ هذا العلم المسمّى "الخلافيات" يقوم على المناظرات وبيان مآخذ أئمة المذاهب من الفقهاء والجمهور فيثني عليه قائلا:«وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلّتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه» [17].

14- ينظر: يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، دار المغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ج2، ص 69-70.

15- ينظر: ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 166

16- ينظر: سليمان الرحيلي، المدخل إلى تخريج الفروع على الأصول، دار الميراث النبوي، المحمدية- الجزائر، د ط، 2018م، ص 3.

17- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، ص 203.

لقد ألّف في هذا العلم الجليل عدد قليل من الأصوليين، وكانت نتيجة بحثنا بعد اطّلاعنا على مجموعة من المصادر العلمية، إجماع الباحثين المحدثين على مجموعة معيّنة عملت على التأليف في تخريج الفروع على الأصول هي كالآتي على الترتيب:[18]

1. كتاب "تأسيس النظر" لأبي زيد الدبوسي(ت 430ه).
2. كتاب "تخريج الفروع على الأصول" لشهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني(ت 656ه).
3. كتاب"مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد المالكي الشريف التلمساني(ت 771ه).
4. كتاب "التمهيد في تخريج الفروع على الأصول" لجمال الدين أبي محمد عبد الرحيم بن حسن الأسنوي(ت 772ه)
5. كتاب "القواعد والفوائد الأصوليّة" لأبي الحسن علاء الدين بن محمد بن عباس العلي المعروف بابن اللحّام (ت 803ه).

نبّه الباحسين إلى أنّ التخريج أساسا نشأ نتيجة الخلافات المذهبية، وقد كانت رغبة العلماء في كل مذهب في الدفاع عن آراء أئمتهم، ورد الاستنباطات الفقهية إلى أصول معيّنة، لتسلّم لهم قوة الفروع لقوة الأصول، ومن ثمّ فعلم التخريج هذا من ثمرات علم الخلاف والجدل، وبحثه إنّما هو في نطاق ما وقع الخلاف فيه بين علماء المذاهب، وعلى هذا الأساس فموضوعه متعدد، يبحث في أكثر من موضوع مقصود أصالة أو تبعا[19].

كان لكتاب "مفتاح الوصول إلى تخريج الفروع على الأصول" للشريف التلمساني أثرا كبيرا في ربط الأصول بفروعها، وهو التطبيق العملي لعلم أصول الفقه، ويرى سليمان الرحيلي أنّه من بين

18- ينظر: يعقوب عبد الوهاب الباحسين، التخريج عند الفقهاء والأصوليين،مكتبة الرشد، الرياض- السعودية، د ط، 1414ه، ص 107.

19- ينظر: نفسه، ص 54-55.

أحسن الكتب في تخريج الفروع على الأصول، لسهولته، وترتيبه ترتيبا أصوليا مشيرا إلى الخلاف في القاعدة الأصولية، ذاكرا الفروع الفقهية للمالكية والحنفية والشافعية، ونادرا الحنابلة، كما يستند هذا العلم على علوم هي المنطق واللغة العربية وأصول الفقه[20].

1.الإضمار التخاطبي

يرى طه عبد الرحمن في كتابه الموسوم بـ" اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" أنّ علم المنطق وعلم اللغة قد حقّقا في هذا القرن من التّطور في مناهجهما ونتائجهما، دقّة وسعة، ما لا نجد لهما نظيرا في تاريخهما الطويل، حيث يأتي في هذا الكتاب ليقف وقفة خاصة على هذا التداخل، مظاهره وفوائده، في مسألة تعد الأصل الجامع بين العلوم وهي « الدليل»، فليس الأصل في الكلام اللفظة أو الجملة، وإنّما هو الدليل، فيكون كل قول طبيعي ،عبارة عن دليل قائم بذاته، ظاهرا كان أم خفيا، وكل دليل طبيعي، ينبني على الإضمار قدر انبنائه على التصريح، ويوجب التعامل الأخلاقي على قدر إيجابه التواصل الإعلامي، ويتوسل بالمجاز والاستعارة بمقدار توسله بالحقيقة والاصطلاح[21].

في الفصل الأول من الكتاب انتهى طه عبد الرحمن في تعقبه للدليل الإضماري إلى بيان كيف أنّنا نحتاج إلى إنشاء نظرية في الخطاب لتحقيق تعقب سليم للإضمار، ووضّح كيف أنّ هذه النظرية تأخذ بشروط معيّنة وبمقتضيات تداولية لسانية، ومبادئ وقواعد خطابية مخصوصة، وانتهى إلى أنّ التعقب عملية استدلالية دقيقة، وصف بعض أطوارها من خلال المثال المشهور:النبيذ مسكر، فكان حراما؛ ويؤكد أنّنا إذا وضعنا في الاعتبار كون التعقب هو نفسه الاستدلال، استبان أنّه هو كذلك ذو طبيعة إضمارية، وذلك بحكم توسله بالخطاب الطبيعي، فيحتاج هو الآخر إلى مواصلة

20- ينظر: سليمان بن سليم الله الرحيلي، المدخل إلى تخريج الفروع على الأصول، ص 66.

21- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 1998م، واجهة الكتاب.

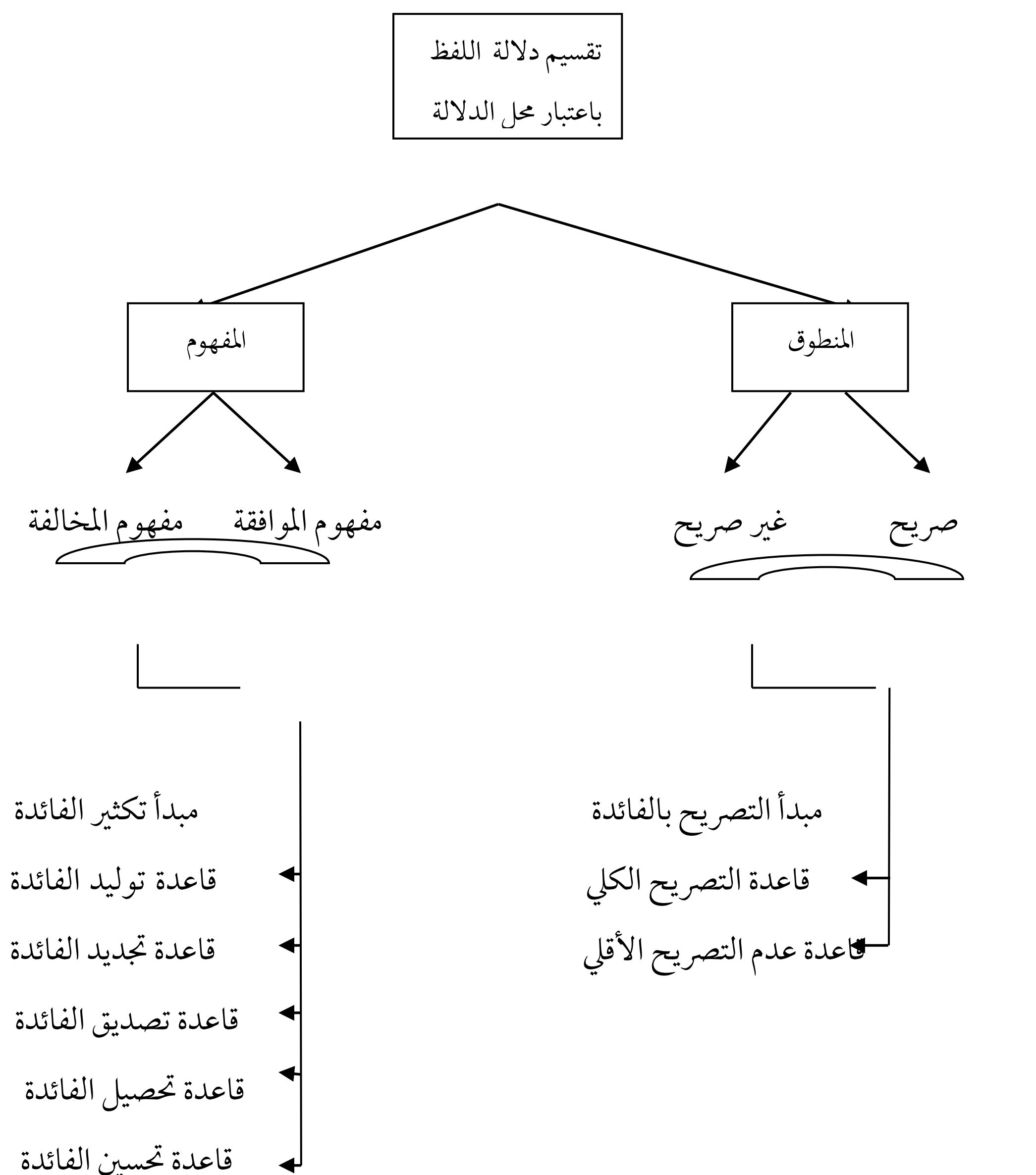
التعقّب بتعقب فوقه؛ ولا ضير في هذا التراتب، فالدليل الطبيعي دليل على غيره ودليل على نفسه[22].

بناء على ما سبق ذكره، سنتبنى ما طرحه طه عبد الرحمن في حديثه عن الإضمار و تعقّبه في الدليل الطبيعي، ومقاربته بالنسبة للدليل في ميدان يجمع بين علم أصول الفقه والفقه، ففكرة عمله البحثي تنبني على ما قام به علماء الأصول في تعقب الضمير في الكتاب أو السنة، أمّا نحن وانطلاقا ممّا قام به، سنجوّز لأنفسنا بأن نقول أنّنا سنعمل على مواصلة التعقب بتعقب فوقه، الّذي أورده المجتهد الأصولي، وهذا العمل ليس متاحا للعامة، بل هو عمل علماء الأصول أيضا، وهو ما قام به علماء تخريج الفروع على الأصول، إيمانا منّا أنّ هؤلاء لم يكن هدفهم تغليط علماء الأصول، لكن وكما أورد الشريف التلمساني: تحسين الدلائل، وتحصيل الفائدة، سعيا في كشف المضمر من الضمير. وقد اشترط عبد الرحمن بن خلدون في صاحب هذا العلم معرفة كاملة للقواعد الّتي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد، بهدف حفظ المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلّته.[23]

توسّل طه عبد الرحمن بمبدأين خطابيين اثنين هما: «مبدأ التصريح بالفائدة»، و «مبدأ تكثير الفائدة»، و يبدو أنّ طه عبد الرحمن قد استلهمهما من تقسيم دلالة اللفظ باعتبار محل الدلالة عند علماء الأصول، والشكل الآتي يوضح ذلك.

22- ينظر: نفسه، ص 171.

23- ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، ص 203.



1ـ مبدأ التصريح بالفائدة:

يرى طه عبد الرحمن أنّه إذا كان الأصل في الدليل التصريح بجميع أجزائه، المتكوّنة من المقدمة والنتيجة، نسمه بـ: "مبدأ التصريح بالفائدة"، ولمّــا كانت غاية الأصولي هي تقصي الدلالة بأقصى

الطرق الممكنة، من المنطوق أو المفهوم،فرّع طه عبد الرحمن المبدأ الأول إلى قاعدتين هما:«قاعدة التصريح الكلي»، و«قاعدة عدم التصريح الأقلّ».: [24]

- **أولهما:** إذا احتمل الدليل أن تكون أجزاءه مصرحا بها، وأن تكون غير مصرّح بها، كان حمله على التصريح بها أولى، ويسمّى هذا الفرع بـ: "قاعدة التصريح الكلي".

- **والثاني:** إذا احتمل الدليل أن يكون القليل من أجزائه غير مصرّح بها، والكثير منها غير مصرّح به، كان حمله على عدم التصريح بالقليل أولى، نسم هذا الفرع الثاني بـ: "قاعدة عدم التصريح الأقلّ".

نحتاج في هذا المقام إلى بيان ما معنى أن لا يصرّح بهذه العناصر، وكيف تكون غير مصرّح بها، وكيف تصير مصرّحا بها، بالوقوف على خصائص عدم التصريح وأدلّته وأقسامه وطرق تقدير الأجزاء غير المصرّح بها، وهو الأمر عينه الّذي قام به الشريف التلمساني، وهو إثباته للمستدل في عدم التصريح بعناصر كان من الضرورة ذكرها.

وُضع مصطلح الإضمار للتعبير عن معنى«عدم التصريح»المتعلق بالدليل، كما في المسألة الآتية:

- الإشهاد على المراجعة واجب.

أُضمرت في المسألة المقدمة الآتية: « الإمساك في الآية بمعنى المراجعة، فالإشهاد على المراجعة مأمور به».

إذا عملنا على مقاربة مصطلح الإضمار بمصطلحات تقريبية منها: الحذف في مقابل التقدير، والترك في مقابل الذكر، والاستتار في مقابل الظهور، سنجد مايلي:[25]

[24]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 145.

[25]- ينظر : نفسه، ص 146.

1- كل مضمر محذوف، فالإضمار هو حذف بما هو معلوم للمستدل، فهو مُطالب بما هو مُضمر، ويُؤاخذ ببيان الحجّة عليه، ولذلك كان من أهم أسباب دعاوي التخريج في أصول الفقه هو مؤاخذة الآراء المنقولة عن الأئمة، فقد أوردوها « دون النظر إلى مدى ثبوتها وقوّتها، فإنّها تأخذها في هذه الحالة على أنها ثابتة مسلّمة»[26]، فهم مُطالبون بإثباته.

2- إنّ كل مضمر متروك، فقد يترك المتكلم كلاما غافلا عنه، فإذا ذُكّر به، لم يزدد به علما، فخلا فعله عن غرض الاستفادة، ليصبح الإضمار تركٌ يستثمره المستدل لفائدة الدليل، فهو مُستفاد منه.

3- إنّ كل مضمر مستتر، فالإضمار مقصود تنبيها على التعامل معه معاملة المصرّح به لتعلّق الدليل به.

إنّ هذا الطرح يفسّر لنا ما جعل التلمساني يرى أنّ ما يتمسّك به المستدل على حكم من الأحكام في المسائل الفقهية منحصر في جنسين: دليل بنفسه، ومتضمّن للدليل، والجنس الأول: الدليل بنفسه نوعان: أصل بنفسه لا يحتاج إلى اجتهاد كالكتاب والسنّة، ولازم عن أصل: دليل غير مستقل مُحتاج إليه لتعلّقه الشديد بالدليل المستقل، وللمجتهد فيه دخل، والدليلان متكاملان. وتفسير نظره إلى دلالة المنطوق من جهة دلالته على الحكم نفسه، ودلالته على متعلّق الحكم، فنظر التلمساني إلى الدليل الإضماري بتعبير طه عبد الرحمن من جهتين اثنتين:

- من جهة التصريح به من حيث دلالته على الحكم، متعلّق بألفاظه، ولذلك نجده في الطرف الأول: في الدلالة على الحكم، ينظر إليه من جهة اللفظ الدال على الحكم بمنطوقه، والّذي قد يكون أمرا، أو نهيا.

[26]- جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي(ت 772ه)، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، تح: محمد حسن هيتو، بيروت- لبنان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981م، ص 11.

- من جهة عدم التصريح به من حيث دلالته على متعلّق على الحكم، غير متعلق بألفاظه، بل بوصفها، أي الوصف الّذي دلّ عليه ذلك الحكم، إمّا نص، وإمّا مجمل، وإمّا ظاهر، وإمّا مؤوّل.

ولطالما تساءلنا عن تقسيم المالكية للقسم غير الصريح، فألفيناه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: دلالة الاقتضاء. الثاني: دلالة الإيماء. الثالث: دلالة الإشارة، لكنّ الشريف التلمساني لم يورد ذلك مطلقا في عمله، فكنّا نظنّ أنّه يخالف الأصوليين في ذلك، لكن بمجرد معرفتنا لمقصود عمله، ومنهج تفكيره في تخريج الفروع على الأصول، تيقنّا أن المنهج الّذي سار عليه، هو المنهج الكفيل بأن يوصله لمبتغاه، وليس لأنّه لا يوافق علماء الأصول في ذلك.

يرى طه عبد الرحمن أنّ المعنى الحقيقي للمصرّح به متعلّق تعلّقا مباشرا بألفاظه، بغير واسطة من إرادة المتكلم لهذا المعنى، وهذه الإرادة تابعة لدلالة الألفاظ، أمّا المعنى المضمر فغير متعلّق بالألفاظ تعلّق المصرّح به، فنحتاج فيه إلى إرادة المتكلم له، وعليه يتّضح أنّ الإضمار استتار مُراد بالأصالة، فنجوّز لأنفسنا أن نقول: المضمر أولى بالإرادة من المصرّح به[27].

1 **خصائص الإضمار:**

إنّ «الإضمار» الّذي هو مقابل «التصريح» جامع للأوصاف الثلاثة: «المطالبة» و«الاستفادة» «الإرادة»، ويذهب صاحب هذه الدعوى إلى أنّ اللفظ الّذي يلي مصطلح «الإضمار» في الدلالة على حفظ المعاني الثلاثة هو: «الطي» في مقابل «البسط»، ويصح أن يُقال: «كل مطويّ مضمر» وليس كل مضمر مطويّ، لكون المضمر أعم من المطوي، كأنّما تُطوى للمستدل المسافة الاستدلالية أو كأنّما يأتي بطفرة فيها، وهو معنى ينبغي اعتباره في حدّ الإضمار في الدليل[28].إنّ ما قام به الشريف التلمساني هو الإتيان بكل مسألة تتضمّن دليلا إضماريّا، فعمل على بسط الكلام في المسافة الاستدلالية، بمعنى فصّلها وأفاض فيها حتى تبيّنت له، ولذلك في مقابل الضمير الّذي

[27]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 147.

[28]- ينظر: نفسه، ص 147.

ارتضاه مناطقة الإسلام، والأصوليّون، والمتكلمون، والبلاغيون، كمصطلح للدليل الإضماري من المادة ضمر و وعلّلوا على تسميته كما أوردها طه عبد الرحمن، بالوجهين التاليين:[29]

أحدهما: أنّ المستدل بهذا الدليل لا يصرّح ببعض مقدماته، فهو إذن يضمرها.

والآخر: أنّ المستدل يذكر فيه من المقدمات بحسب ما في ضمير السامع*، وتترتّب عليه خاصيتين، أولاهما: أنّه يُجمع لهذا الدليل ومعنى الإضمار فيه معنى التوجه إلى الشعور أو الوعي، بوصفه بنية مضمرة، تترسّخ فيه القصدية أو الإرادة، والثانية: أنّ الشعور الّذي يستند إليه الدليل الإضماري هو شعور عمليّ، يشارك فيه المتكلم فيه المستمع، ولعلّه يأخذ بذلك وصف التداول.

وعليه سنعتمد مصطلح «الظهير»، وهو الدليل المقابل للضمير، حيث يُصرّح فيه بكلّ أجزائه تصريحا؛ مراعاة لمقتضى التقابل الّذي يتميّز به اللسان العربي، كما يمكن أن يكون "الدليل التصريحي" أو" الدليل الإظهاري"، وعليه يكون «الظهير هو كل دليل ظهر فيه أقصى ما يمكن ظهوره من العناصر الّتي تفيد في حصول المدلول– أي النتيجة»[30].

يرى طه عبد الرحمن أنّ الفائدة الإجرائيّة للظهير، أنّه يمكّننا من التمييز بين الضمير(الدليل الإضماري) وغيره من الأدلّة الّتي تشبهه صورة، فالمناطقة حملوا هذه الصورة على وجه الفساد، وقرّروا تصحيح الضمير بإظهار القضايا المطويّة فيه كالمغالطات، ومنه ليس من شطط القول إن ادّعينا أنّ مدعاة تأليف كتاب "مثارات الغلط في الأدلة" للشريف التلمساني هو من رحم تعقب الدليل الإضماري الّذي عمل على تقصيه في المسائل الأصولية من وجهة لغويّة منطقية، حيث حاول من خلاله البحث في مثارات الغلط في اللفظ والمعنى.

---

[29]– ينظر: نفسه، ص 148.

*– يقول الفارابي في كتاب الخطابة: « الضمير قول مؤلّف من مقدّمتين مقترنتين يستعمل بحذف إحدى المقدمتين المقترنتين، ويسمّى ضميرا لأنّ المستعمل له أن يضمر بعض مقدماته ولا يصرّح بها ويعمل فيه على ما في ضمير السامع من معرفة مقدماته الّتي حذفها»– الفارابي، كتاب الخطابة، تح: جاك لانغاد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت– لبنان، دط، د ت، ص 119.

[30]– طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 149.

يرى طه عبد الرحمن أنّ الفائدة الإجرائية لهذا المصطلح، تتجلّى في تمكننا من تمييز الضمير عن غيره من أدلّة متاخمة له، حيث حمل المناطقة الأدلّة المتاخمة على وجه الفساد، فقرّروا تصحيحها بإظهار القضايا المطويّة في الضمير فنتج عن ذلك عدم قدرتهم على تمييز الضمير عن الأدلة الفاسدة كالمغالطات، فهي مهيّئة للتصحيح بزيادة ما احتاجت إليه من العناصر التوضيحية[31]، ولا بدّ من التنبيه إلى أنّ الخطأ، أو الغلط في الاستدلال، قد يكون متعمّدا، ومقصودا للمستدل وحينئذ يسمونه مغالطة، أمّا الغلط ، فهو خاص بما ليس مقصودا ، أو متعمّدا [32]، وهو العمل الّذي قام به الشريف التلمساني في كتابيه "مثارات الغلط في الأدلة"، و"مفتاح الوصول"، حيث تعقّب الدليل الإضماري في أغلب المسائل الّتي أوردها، محاولا إظهاره و ربطه بالحكم الفقهي عن طريق القاعدة الأصولية.

فإذا كانت أوصاف الدليل الإضماري أو الضمير ثلاثة هي: المطالبة والاستفادة والإرادة، وهو دليل خطابي تختص به اللغة الطبيعية، وتنتقل إليه أوصافها التداولية، يسعى إليه المتكلم المستدلّ[33]، فأوصاف الدليل الإظهاري أو الظهير هي ذاتها ، يطالِب به المستدل، ويستفيد منه، والقصد إليه إرادة مترسخة فيه، يسعى إليه السامع المستدلّ.

3 . **ظروف الإضمار**:

تحدّث طه عبد الرحمن عن ظروف الإضمار، وهي الظروف الّتي تلابس الإضمار وقسّمها إلى قسمين اثنين: الأسباب الّتي تدعو إليه، والشواهد الّتي تدل عليه. غير أنّ اهتمامنا هاهنا هو الحديث عن الإظهار الّذي قام به الشريف التلمساني، متمسّكين بلفظ الإضمار على أساس حمل

31- ينظر: نفسه، ص 149.

32- عبد الرحمن بدوي، المنطق الصوري والرياضي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مصر، ط3، 1968م، ص 241.

33- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 149.

اللفظ على حقيقته أولى من حمله على مجازه. ولذلك سنحاول استجماع الأسباب الّتي تدعو إلى الإضمار، والشواهد الّتي تدعو إليه في مقابل ذلك.

لن نعمل على إيجاد المقابلات المصطلحية والفكرية لما قام به طه عبد الرحمن، ولكنّنا سنعتمد على ما أورده علماء هذا العلم بالرّجوع إلى المدوّنات التراثية الّتي نقلت لنا ذلك، مركزين عملنا البحثي في جانبها الدلالي.

يرى الباحسين أنّ لعلم تخريج الفروع عن الأصول علاقة بيّنة بالخلافات المذهبيّة والجدل والمناظرات بين علماء المسلمين، وكان أكبر همّهم هو بيان مآخذ علمائهم، والأصول الّتي رُدّت إليها أقوالهم، والدّفاع عن وجهات نظرهم، ولذلك فالحديث عن أسباب الخلاف من أركانه الأساسيّة، فاشتغل العلماء بذلك فألّفوا فيها الكتب المتنوّعة، غير أنّنا سنركز على أهمّها وهي كالآتي:[34]

1. كتاب "التنبيه على الأسباب الّتي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم" لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي(ت561ه).
2. كتاب ' بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي(ت 595ه).
3. كتاب" رفع الملام عن الأئمة الأعلام"لشيخ الإسلام تقيّ الدين أبي العباس أحمد بن الحليم بن عبد السلام بن تيميّة(ت 728ه).
4. كتاب" تقريب الوصول إلى علم الأصول" لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الغرناطي المالكي(ت741ه).
5. كتاب" الأشباه والنظائر"لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي(ت 771ه).
6. كتاب "الموافقات في أصول الشريعة" لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي(ت 790ه).

[34]- ينظر: يعقوب عبد الوهاب الباحسين، التخريج عند الفقهاء والأصوليين، ص 74- 85.

المؤلّفات كثيرة ومتنوّعة امتدّت حتى عصرنا هذا، لكنّنا آثرنا الاقتصار على هذه المؤلّفات؛ لأنّ منها ما سبقت الشريف التلمساني، وهناك من كان في عصره وبعده بقليل، ما يعني أنّ الأسباب لم تكن مختلفة بشكل كبير، وعليه سنعتمد على ما أورده أبو القاسم بن جزي لأسباب الخلاف، وقد حصرها بحسب الاستقراء، في ستة عشر سببا، هي: [35]

تعارض الأدلّة، 2. الجهل بالدليل، 3. الاختلاف في صحّة النقل، 4. الاختلاف في الاحتجاج بالدليل، 5. الاختلاف بعض قواعد الأصول، كحمل المطلق على المقيّد، وشبه ذلك، 6. الاختلاف في القراءات في القرآن، 7. الاختلاف في ألفاظ الحديث، 8. اختلاف وجه الإعراب، مع اتّفاق القراء في الرواية 9. الاختلاف في اللفظ المشترك 10. الاختلاف في حمل اللفظ على العموم أو الخصوص، 11. الاختلاف في حمل اللفظ على الحقيقة أو على المجاز، 12. الإضمار في الكلام[36] 13. الاختلاف في نسخ الحكم 14. الاختلاف في حمل النهي على الوجوب أو على الندب؟15. الاختلاف في النهي على التحريم أو الكراهة، 16. الاختلاف في فعل النبي-صلى الله عليه وسلم-، هل يُحمل على الوجوب أو الندب أو الإباحة.

ما أورده التلمساني في كتابه "مفتاح الوصول" انعكاس حقيقي للأسباب الّتي أوردها ابن جزي، إن لم نقل أنّه فاقها وتوسّع فيها، فدلّل وأوّل ورجّح، وأظهر ما أُضمر في مسائلها للحدّ الّذي أبدى الفصل في بعض مسائلها، وما يُلاحظ على هذه الأسباب أنّ أغلبها يرجع إلى المستويات اللغويّة منها الصوتية والنحوية والصرفية والدلاليّة، أمّا الأسباب الأخرى فمنها ما هو متعلّق بالمتكلم، ومنها ما هو متعلّق بالسامع، من حيث المعارف والقدرات العقلية والمعرفية، ومنها ما هو متعلق بالمتن.

---

[35]- ينظر : أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبيّ الغرناطي المالكي(ت 693-741هـ)، تقريب الوصول إلى علم الأصول، تح: محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، د دار نشر، المدينة- السعودية، ط2، 2002م، ص 505.

[36]- معنى الإضمار هنا مقتصر في الحذف فقط.

4. شواهد الإضمار:

يحتاج المستمع إلى أنّ القضية المضمرة منطوية على معنى مضمر مخصوص، ولابدّ له أن يهتدي إلى الطريق الّذي من شأنه أن يُنار له بمعرفة الدليل الإضماري(الدليل المضمر)، والتمكن منه، عن طريق ما اقترن بالمضمر من شواهد، وإلا كان الكلام خفيّا مبهما. ويرى طه عبد الرحمن أنّ شواهد الإضمار إمّا قوليّة أو حالية، وهي كالآتي:[37]

الشواهد القوليّة: أو القرائن المقالية، حيث تنقسم هذه الشواهد إلى قسمين اثنين: «الشواهد اللفظية» و«الشواهد السياقية».

أ. **الشواهد اللفظية:** تحصل هذه الشواهد من علامات الإعراب، أو من صيغ الصرف، أو من أدوات الربط المختلفة كحروف المعاني وغيرها، ويظهر ذلك على النحو الآتي:

مسألة الاشتراك في نفس اللفظ: يوضّح التلمساني أنّه من بين أسباب الإجمال الاشتراك في نفس اللفظ، عند المالكية الّذين يستدلون على أنّ الاعتداد بالأطهار لا بالقرء، والقرء في اللغة الطهر، ويستشهدون بأبيات من الشعر، فيظهر الدليل الإظهاري الّذي تغافل عنه المالكية بأنّه عليهم بيان أنّ اللفظ أرجح في الطهر منه في الحيض، مثلما فعل ابن الأنباري وهو أنّ القرء في حالة الإفراد، يحتمل معنيين الطهر والحيض، فإن جمع على أقراء فالمراد به الحيض، وإن جمع على قروء فالمراد به الطهر، فلمّا جُمع على قروء فالمراد به الطهر لا الحيض، من دون التخلي عن الشواهد النصية من السنة ومن أهل اللغة.

وقد مثّل لذلك أيضا في حديثه عن السبب الثاني للإجمال وهو التصريف، فيحتج بعض من المالكيّة على أنّ الحضانة في الولد حق له لا لها، حيث نهيت المرأة عن أنّ تُضر بالولد، فدلّ على أنّ الحق له عليها، دون أي تفسير أو تعليل أو ربط بالقاعدة الأصولية، حتى أنّ هناك من يقدح فيهم

[37]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 151.

بأنّ اللفظ "تضارر" يحتمل الكسر فيصح الاستدلال، كما يحتمل الفتح فيكون الفعل مبنيّا لما لم يسم فاعله فلا يصح الاستدلال، فيُظهر التلمساني الدليل كالآتي: «أنّ احتمال الفاعليّة متعيّن، لأنّ الخطاب حينئذ يتعلّق بمتعيّن، وأمّا على الاحتمال الثاني فيتعلّق الخطاب بغير معيّن لكن المأمور والمنهي من شرطه أن يكون معيّنا لا مبهما»[38]، والأمثلة في هذا المقام كثيرة متنوعة.

ب. **الشواهد السياقية:** تحصل هذه الشواهد من بنية النص الّذي ورد فيه الضمير في تعالق عناصرها بعضها ببعض وتكامل أجزائها، ويظهر ذلك في المثال الآتي:

مسألة تحديد معنى النص: يوضّح التلمساني أنّه قد يتعيّن المعنى ويكون اللفظ نصا فيه بالقرائن والسياق لا من جهة الوضع؛ كاحتجاج المالكية على أنّ بيع الرطب بالتمر لا يجوز، ويوردون سؤال النبي-صلّى الله عليه وسلّم- عن ذلك، فقال:«أينقص الرّطب إذا يبس؟» فقالوا: نعم، قال:« فلا إذن»[39]ولا يزيدون عن ذلك، أمّا الحنفية فالاحتمال موجود بالحذف فقد يكون معناه: فلا يجوز إذن، أو فلا بأس إذن، ومع وجود هذا الاحتمال فلا استدلال ولا يزيدون عن ذلك، فتبقى المسألة خفية دون تعليل.

فيرجّح التلمساني احتجاج المالكية، ثمّ يستدل على ذلك، ويظهر الدليل الّذي من شأنه توضيح المسألة المضمرة بأنّ جواب النبي –صلّى الله عليه وسلّم – يطابق سؤال السائل عن الجواز، وقرينة التعليل بالنقص تدل على وجوب المنع القاطع وليس على الجواز.

الشواهد الحالية:

يُقصد بها الشواهد الّتي نستفيد منها من خارج النص المتضمن للدليل الإضماري، كما يمكن تسميتها بالقرائن المقامية، تتعلّق بعناصر متعددة نذكر منها ما يأتي:

38- الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 442.

39- أبو عبد الله مالك بن أنس(ت 179ه)، الموطأ ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، د بلد، د ط، 1985م،ج2، ص128.

أ. ذات المستدِل وذات المستدَل له: يستعين المستدِل أحيانا في صياغة دليله والمستدَل له في فهمه بما يعلمه كل منهما عن الآخر بصدد معارفه وقدراته العقلية وأوصافه النفسية والخلقية ودواعيه الخاصة، غير أنّ هذا الأمر ليس دائم التحقق حيث يرى يعقوب الباحسين أنّ «الاختلاف في القدرات البدنيّة، والاستعدادات الفطرية، ودرجات العلم والفهم والذكاء، والمدارك العقلية، ورواسب الأعراف والعادات، وغيرها، كان له آثار ونتائج في تفكير الإنسان وفهمه، وطريقة توصّله إلى المعرفة، وفي ميله وانجذابه إلى أنواع من الأدلّة والأمارات والمفاهيم، دون الانجذاب إلى غيرها»[40]، كما من شأن ذلك أن يسبب الإبهام وعدم وضوح الدليل بصورة جليّة، لجهله بالدليل، أو الاختلاف في صحّة النقل، أو الاختلاف في القراءات للقرآن، وغيرها.

ب. العالم الخارجي: يستعين المستدِل أيضا في بناء دليله على معلومات تحصل في الواقع، فيتوقّف صدقه على الإضمار في الكلام، أو رواسب الأعراف و العادات.

مثاله في قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:«رُفع عن أمّتي الخطأ والنسيان»، فلا نستطيع فهم الحديث إلا بعد تقدير المضمر، بالنّظر إلى الواقع الخارجي، ويعيّن التلمساني الدليل(الإضماري) برفع المؤاخذة به، أي لا تؤاخذ أمّتي بخطأ ولا نسيان.

ج. المعرفة المشتركة: وهي جملة المعتقدات والتصورات والتقويمات عن الذات والغير والأشياء والمعاني، يشترك فيها المتكلم مع المخاطَب، غير أنّه ليس بالضرورة أن تكون المعرفة الّتي يملكها المتكلم يجدها عند المخاطب.

بناء على ما سبق، فإنّنا نتبنى موقف "طه عبد الرحمن" إذ قال أنّنا « لن نجانب الصواب إن ادّعينا أنّ أوائل الأبحاث في تحليل الخطاب يجب طلبها في ما أفاض فيه الأصوليون من مقدمات في تحديد الدلالات وتصنيفها، وما أفردوه من أبواب في بيان الاستدلالات وطرق التأويل»[41]، ولعلّ

[40]- يعقوب عبد الوهاب الباحسين، التخريج عند الفقهاء والأصوليين، ص 74.

[41]- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص292.

الدليل الّذي ينهض بهذه الشهادة مرّة أخرى هو باب المفهوم موافقةً كانت أو مخالفة، وما يظهرانه من قواعد تخاطبية تظاهي ما يُعرض في نظريات التخاطب المعاصرة، فـ« الإنتاج الأصولي يحتوي على عناصر ضرورية لبناء منطق الاستدلال الخطابي، هذا المنطق الّذي تتضافر الآن في وضع أسسه وتحديد بنياته جهود الفلاسفة واللسانيين والمناطقة جميعا»[42].

إنّ المعاني المضمرة في الأدلّة معان تلزم المصرّح به، فهي لوازم للمصرّح به، ولصياغتها بوجه يضمن لنا التقابل بين الإضمار والتصريح، توسّل طه عبد الرحمن بمفهومين اثنين هما: مفهوم«الإلغاء» ؛ نقصد به نفي اللازم الإضماري عن المضمون المصرّح به، ومفهوم«اللغو»؛ ونقصد به إفضاء هذا النفي للازم الإضماري إلى خلو المضمون المصرّح به عن الفائدة، ومنه فاللوازم الإضمارية لا تخلو منهما، حيث تنقسم إلى: لوازم إضمارية قابلة للإلغاء نسميها بـ«اللوازم المفهومية» نسبة إلى دلالة المفهوم، ولوازم غير قابلة للإلغاء لا تعنينا، و سنقصر حديثنا هاهنا على الأولى لأنّها مقصود الأصوليين. وعليه فالمضمر المفهومي «لازم من لوازم المصرّح به من الدليل الّتي تقبل الإلغاء، بحيث لا يلزم عن اجتماع نقيضها بالمصرّح به كذب ولا بالأولى لغو؛ أو قل، بإيجاز هو عبارة عن لازم تخاطبي لا يترتّب عن نفيه فقد الصدق ولا بالأولى فقد القيمة»[43].

تنتظم المضمرات المفهوميّة في الخطاب الطبيعي ببعض القوانين، وقد استخرج طه عبد الرحمن قانونين اثنين هما:[44]

– **قانون انتشار التماثل**؛ فالرّاجح إذا اتّفق عنصران في بعض الأوصاف في مقام من مقامات الكلام العادية، حصل الاعتقاد عند المتخاطبين أنّهما يصيران إلى الاتّفاق في أوصاف غيرها في هذا

[42]– نفسه، ص 292.

[43]– نفسه، ص 153–154.

[44]– ينظر : نفسه، ص 154–155.

المقام، وقد عرفت هذه المفهومات المنضبطة بقانون انتشار التماثل باسم "مفهومات الموافقة"، وقد مثّل التلمساني لذلك على النحو الآتي:

وقد مثّل لذلك في العبادات، والمعاملات في قول الله تعالى:﴿وقَضَى رَبُّكَ ألّا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ وَبالوَالِدين إحْسَانَا إمَّا يبْلغنَّ عنْدكَ الكِبر أحدُهُمَا أو كِلاَهُما فَلا تقلْ لهُما أفّ ولا تَنْهرهُما وقلْ لهما قولا كَريما﴾[45]، فإذا حرّم الشرع التأفيف فالضرب أولى

به[46]، فتحريم الضرب لم يُنطق به لفظا، ولكنّه دلّ عليه لفظ التأفيف المذكور في الآية[47]، وينقسم المفهوم إلى قسمين اثنين: المثال السابق هو المفهوم الجليّ.

وأمّا القسم الثاني هو: المفهوم الخفيّ الذي يظهر في احتجاج المذهب المالكي في مسألة تارك الصلاة متعمّدا: يجب عليه القضاء، لقوله – صلّى الله عليه وسلّم-:«من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها»[48]، فإذا كان النائم والساهي و هما غير مخاطبين وجب عليهما القضاء، فالقضاء أولى للعامد منهما، وأجاب الشافعيّة في اليمين الغموس وهي الّتي يتعمّد فيها الحالف الكذب أنّ فيها الكفارة في قوله تعالى:﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[49]، فإذا شرعت الكفارة لغير الحالف الآثم، فشرعها للحالف

---

[45]- سورة الإسراء، الآية: 23.

[46]- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع لى الأصول، ص 553.

[47]- مولود السريري، شرح مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2012م، ص 415.

[48]- أحمد بن حنبل(ت 241ه)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، وضعه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط4، 1983م،ج3، 216.

[49]- سورة المائدة، الآية: 89.

الآثم أولى[50]، وكذلك قولهم في قاتل النفس عمدا: ووجوب الكفارة عليه، فلمّا وجبت على القاتل بالخطأ كان وجوبها أولى على القاتل عمدا ، وقد اختلف في ذلك كثيرا من حيث أنّها جوابر أعظم من أن تجبر أو تُكفّر، وهنا يتجلّى الخفاء في مفهوم الموافقة الخفي؛ «لمانع أن يمنع الأولوية بأن يقول: لا يلزم من قضاء صلاة النائم والناسي قضاء صلاة العامد، لأنّ القضاء جبر، وصلاة العامد أعظم من أن تُجبر، وكذلك في الكفارات لاحتمال أن تكون جناية العامد أعظم من أن تُكفّر»[51].

– **قانون انتشار التباين**؛ الرّاجح أنّه إذا اختلف عنصران في بعض الصفات في مقام من مقامات الكلام العادية، حصل الاعتقاد عند المتخاطبين أنّهما يصيران إلى الاختلاف في أوصاف غيرها في هذا المقام، وهذا الصنف من المضمرات المفهومية يتولّد عن القيود المقامية والمقالية الّتي يتقيّد بها الكلام والّتي تجعل الدلالة الصريحة مقصورة على ما تعلّقت به هذه القيود؛ وقد عرف هذا النوع من المضمرات الّذي يضبطه قانون انتشار التباين بـاسم "مفهومات المخالفة".

يبيّن التلمساني أنّ مفهوم المخالفة حجة عند أحمد بن حنبل، والشافعي، ومالك، وأكثر المتكلمين، وقد أنكرت الحنفية و طائفة من المتكلمين بعدم ورود دلالة له، أمّا المحتجون به فقد اعتمدوا في حجيّته على أئمّة اللغة كما ذكره التلمساني[52]، وابن قدامة المقدسي[53]. وقد مثّل التلمساني لذلك بمفاهيم كثيرة نذكر منها مفهوم الصفة الآتي:

لم يفرد التلمساني تعريفا لمفهوم الصفة لكنّه مثل لها بما جاء عند المالكية على ثمر النخل غير المأبورة للمبتاع لقوله– صلى الله عليه وسلم–:« من باع نخلا قد أبّرت فثمرها للبائع إلا أن يشترط

[50]– ينظر : الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 554.

[51]– ينظر: نفسه، ص 554–555.

[52]– ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص556.

[53]– ينظر: موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة (ت541ه) ، روضة الناظر وجنّة المناظر في أصول الفقه، تح: شعبان محمد إسماعيل، المكتبة المكية، مكة– السعودية، ط1، ج2، 1998م ج2، ص 115

المُبتاع»[54]، ومفهومها أنّ النخل إن لم يتم تأبيرها من البائع فثمرها للمشتري؛ وذلك لأنّ استحقاق البائع قُيِّد بالتأبير، فعند انتفاء هذا الوصف، ثبت نقيض حكم المنطوق وهو استحقاق المشتري بدل البائع[55].

2ـ تعقب الدليل الإضماري عند الشريف التلمساني :

2. 1. تعقب الإضمار في الدليل:

صار أغلب المناطقة، إلى اعتبار الدليل الإضماري دليلا ناقصا تنقصه بعض القضايا أو العناصر، وإنزال هذا النقص منزلة الثغرة فيه، وكان لزاما بعد ذلك إتمام النقص، وسدّ هذه الثغرة، فأطلقوا مصطلحات كالتكميل والتعمير، لكنّ طه عبد الرحمن لا يؤمن بهذه المصطلحات لأنّه لا يرى النقص فيه، بل اقترح مصطلحات أخرى، فوجد«الطي» حيث يجدون النقص، ووجد «الطفرة» حيث يجدون الثغرة، فالطي لا يكمل كالنقص، بل «يُبسط» بسطا لأنّه نوع من القبض، والطفرة لا تُعمّر كالثغرة، بل «تُتعقّب» تعقّبا لأنّها نوع من السير؛ لذا كان المصطلحان المختاران هما: «البسط» و«التعقّب»، غايتاهما تبيان سلامة الضمير[56].

يعكس هذا الطرح لطه عبد الرحمن، ما رأيناه في عمل الشريف التلمساني خاصة وعمل علماء فنّ تخريج الفروع على الأصول عامة؛ فالمتطلّع لكتاب "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" لشيخ الإسلام ابن تيميّة، يجد أسباب خلاف الفقهاء والمجتهدين ليست مبنية على الهوى ولا الظنون، بل مبنية على قواعد وأسباب علمية شريفة معتبرة، ولعلّ عنوان الكتاب يترجم ما أراده شيخ الإسلام إثباته لطالب العلم وللناس جميعا.

---

[54]- أبو عبد الله مالك بن أنس، الموطأ، ج2، ص 124.

[55]- ينظر: محمد بن علي الشوكاني(ت 1250ه)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تح: أبو حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، الرياض- السعودية، ط1، ج1، 2000مص 612.

[56]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 160-161.

يذهب طه عبد الرحمن إلى أنّنا لا نستطيع تعقّب الضمير ما لم نتوسل بمجموعة من القواعد الدلاليّة والتداوليّة، فالمقصود بالقواعد الدلالية: القواعد الّتي تحدد ألفاظ الدليل، منها على سبيل المثال:[57]

أ. اللفظ كذا يدل على كذا.

ب. اللفظ كذا مستعمل بوجه واحد في المقدمة والنتيجة.

ج. فائدة الدليل تتوقّف على الدلالة كذا.

وقد نمثّل على ذلك مثلما أورده الشريف التلمساني بالدليل الآتي:

العدد ليس نصا في القصر عليه، بل هو نص في الانتهاء إليه.

يبدو أنّ هذا الدليل الإضماري لا يصح إلا بتقدير المقدمة المطوية فيه، وهي:

اللفظ إن لم يحتمل بالوضع إلا معنى واحدا فهو النص.

أمّا القواعد التداولية؛ هي القواعد الّتي تضبط الممارسة الاستدلالية لا من جهة معاني الألفاظ والعلاقات الّتي تربط بينها، وإنّما من جهة العلاقات بين المستعملين لهذه الألفاظ، منها ما هو عام وما هو خاص: أما القواعد العامة؛ فهي الّتي تقنن الممارسة الاستدلالية في قطاعات معرفية مختلفة، نذكر منها:

أ. لا تدّع ما لا تطيق إثباته.

ب. لا تقل ما لا يفيدك ولا يفيد غيرك.

ج. لا تقوّل غيرك ما لم يقل.

د. لا عبرة بإضمارك عند وجود تصريحك

[57]- ينظر: نفسه، ص 162- 163.

ه. لا يُنسب لك قول ما لم تتكلم.

أمّا القواعد الخاصة؛ فهي تلك الّتي تضبط الممارسة الاستدلالية في قطاع معرفي معيّن، مثل أصول الفقه، نذكر منها:

أ. البيّنة على المدّعي، واليمين على من أنكر.

ب. الأصل براءة الذمّة وفراغ الساحة.

ج. لا تكليف مع عدم الاستطاعة.

د. ما جاز بعذر، بطل بزواله.

ترتبط هذه القواعد الاستدلالية والدلالية والتداولية بجموعة من الملاحظات:

الأصل في هذه القواعد أن تُستعمل ويُتوسل بها في الاستدلال.

تنزل هذه القواعد مرتبة فوق المرتبة الّتي تنزلها المقدمات، تُصاغ فيها المسائل المتعلقة بهذه المقدمات، فإذا كانت المقدمات تنتمي إلى مستوى اللغة، فالقواعد تنتمي إلى مستوى لغة اللغة، ويفضي التصريح بها في تركيب الدليل إلى اختلاط المستويات اللغوية.

إدراج القواعد في البنية الظاهرة للضمير تستلزم التسلسل، فكل زيادة في قاعدة تفضي إلى زيادة في العلاقات والألفاظ والاستعمالات.

2. شروط تعقب الإضمار:

يرى طه عبد الرحمن أنّه للحصول على البسط المناسب للمسائل، كان لا بدّ أن تُستوفى في تعقّب المضمرات شروطا مخصوصة، تجمع بين ثلاث نظريات: "نظريّة في التدليل"، و "نظرية في التأويل"، "و نظرية في الترجيح"، و لا سبيل إلى ذلك إلا بالاستناد إلى نظرية في الخطاب[58]،

[58]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 165-166.

وحسبنا منها في هذا المقام ما يفيد في تعقب المضمرات المفهومية الّتي تعود إلى جملة من مبادئ الخطاب وقواعده.

2. 1. الشروط التدليلية والتأويلية والترجيحية:

أ. نظرية التدليل:

لتحديد صنف الدليل الّذي يندرج تحته الضمير، وصنف القضية الّتي طُويت فيه، لابدّ من الاستناد إلى نسق استدلالي مخصوص، ولأنّ الأنساق الاستدلالية متعددة مثل «نظرية القياس» و«منطق المحمولات» و «منطق القضايا» و«منطق الموجهات» و«نظرية الحجاج» و«نظرية الخطاب» وما إلى ذلك، وجب تعدد الطرق في تعقب الضمير تبعا لذلك، يمثل طه عبد الرحمن بالمثال الآتي:[59]

النبيذ مسكر، فكان حراما.(قضية كلّيّة)

يمكن للمتعقب بسط هذه المسألة بالاعتماد على نظرية القياس، فنقول:

النبيذ مسكر وكل مسكر حرام، فكان حراما.

القضية المطوية

أو بالاعتماد على طريق آخر هو منطق القضايا، فنقول:

هذا النبيذ مسكر، وإذا كان هذا النبيذ مسكرا، يكون حراما، فكان حراما.(قضية شرطية). القضية المطوية

[59]– ينظر: نفسه، ص 164.

يتّضح من المثال أعلاه أنّ القضيّة المطويّة والّتي يجب على المتعقب إظهارها وبسطها تختلف في النسقين، وإذا بان لنا أنّ طبيعة المضمر متعلّقة بالنسق، جاز لنا وضع نسق لا يحتاج إلى تعقب ما يلزم تعقبه في نسق غيره، ما يعني أنّنا نستطيع تعقب قضية أو مسألة ما في ميدان معيّن بنسق مختلف عنها، كتعقب ما جاء في علم أصول الفقه بنظرية تخريج الفروع على الأصول.

و هذا ما فعله التلمساني، وسنثبت ذلك من خلال بسطه للمسائل السابقة بالتّمثيل:[60]

بمنهجية متسلسلة، يحدد التلمساني الأصل في مبحث: الأمر المطلق وهو المجرّد من القرائن، ثمّ يحدد الفرع: في كون الأمر يقتضي المبادرة إليه أو لا يقتضيها، ثمّ يذكر المسألة الفرعيّة المختلف فيها:

---

[60]- ينظر: الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 379-382.

المسألة قبل البسط	المسألة بعد البسط
الأصل: مسألة كون الأمر بالشيء يقتضي المبادرة إليه أو لا يقتضيها. **الفرع1 :فريضة الحج على الفور أو التراخي؟** -يرى الحنفي أنّ فريضة الحج على الفور، فمن أخّرها وهو متمكّن من أدائها كان عاصيا. -يرى الشافعي أنّ فريضة الحج لا على الفور، فمن أخّرها وهو متمكّن من أدائها لا يكون عاصيا. **الملاحظات:** -لا يوجد ذكر للقاعدة الأصولية، ولا الربط بها. -لا وجود لذكر الأصل. -لا يوجد التمثيل الصناعي.	يقول التلمساني بعد عرضه: اعلم أنّ كل واحد منهما قد خالف أصله في الحج، لنظر محل بسطه كتب الفقه: -المحققون من الأصوليين يرون أنّ **الأمر المطلق لا يقتضي فورا ولا تراخيا**(الأصل: قضية مطوية)؛ لأنّه تارة يتقيّد بالفور كما إذا قال السيّد لعبده: "سافر الآن" فإنّه يقتضي الفور(حدّد له الزمن بالفور)، وتارة يتقيّد بالتراخي كما إذا قال له:" سافر رأس الشهر" فإنّه يقتضي التراخي(حدّد له الزمن بالتراخي). فإذا أمره بأمر مطلق من غير تقييد بفور ولا بتراخ، فإنّه يكون محتملا لهما، وما كان محتملا لشيئين فلا يكون مقتضيا لواحد منهما بعينه. **الملاحظات:** -ذكر الأصل وتم ربطه بالقاعدة الأصولية. -تمثيل صناعي لزيادة البسط.

ب. نظرية التأويل:

يتعيّن ضبط قوانين نظرية التأويل ومسالكه اللغوية والعقلية (العقديّة) والمعرفية، حتّى نتمكّن من تطبيق النظريّة في الدليل، حيث تتمثّل تلك القوانين فيما يأتي: [61]

- بيان أنّ كلام المتكلم يتضمّن ضميرا.
- تحديد مضمون مقدماته المصرّح بها.
- تحديد مضمون نتيجته المصرّح بها.
- تحديد بنيته الاستدلاليّة.
- تحديد وجه سلامة الدليل.

ذلك أنّ الكلام حمّال أوجه، ولو بدا واضح المعنى، فالظاهر حمّال للاحتمال، فعند اعتراض ما يحتمل مصادمته بوجه من الوجوه لمقام الكلام، يخرج عن وضوح معناه اللغوي، «فالعام إذا صرف عن العموم وأُريد به بعض أفراده بدليل، فهو تأويل صحيح: لأنّ العام يحتمل الخصوص، وحين يُراد به بعض أفراده فقد أُوّل إلى معنى يحتمله»[62]، وكذلك المطلق إذا صرف عن الشيوع وحمل على المقيّد، والحقيقة إذا صرفت إلى المجاز بقرينة وهكذا.

وتساءلنا لماذا بعد التدليل، أتبعه طه عبد الرحمن بالتأويل، فوجدنا أنّ التأويل خلاف الأصل ، ولا يعدل عن الأصل إلى خلافه إلا بدليل[63]، دلالة على وجود الضمير، فوجدناه يتعقّب الضمير

[61]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 165.

[62]- محمد أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي –دراسة مقارنة لمناهج العلماء في استنباط الأحكام من نصوص الكتاب والسنة، المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط4، 1993م، ج1، ص 381.

[63]- ينظر: نفسه، ص 380.

من مرحلة إلى مرحلة، ومن نص إلى نص، ويبرز لنا كيفية التعامل معه في كلّ مرة، سعيا لفهمه، ويحصي أقصى الدلالات الّتي يتمظهر بها.

ولأنّ التأويل قسمان: صحيح وفاسد، نبّه التلمساني إلى أنّ كل متأوّل بحاجة إلى ثلاثة أمور ليكون تأويله صحيحاً،«أحدها: كون اللفظ محتملا للمعنى الّذي يُصرف اللفظ إليه. ثانيها: كون ذلك المعنى مقصودا بدليل. وثالثها: رجحان ذلك الدليل على المقتضي للظاهر. فإن تعذّر بيان أحد هذه الأمور بطل التأويل»[64]، وإن حضرت هذه الأمور يحمل المعنى الظاهر للّفظ على المعنى المحتمل المرجوح فيتحقّق الاحتمال والقصد والرجحان في آن واحد، فيرتفع الحرج وتطمئن إليه النّفس.

ج. نظرية الترجيح:

نظرية التدليل وإتباعها بنظرية التأويل غير كافيتين لبلوغ الغاية في تعقّب الضمير وبسط الدليل، فقد نظفر بمضمرات متكافئة، يتحقّق بها الدليل ويستقيم، ولا ترجيح فيه، غير أنّ التكافؤ من شأنه الإضرار بالتّعقب، حيث يظهر بمظهر التّعسف، فنحتاج إلى مرجّح يرفع هذا الوصف عليه [65]. والأصوليون يلجأون إلى الترجيح كلّما أرادوا تصحيح الصحيح، وإبطال الباطل[66] فيعملون على تقوية أحد الطرفين على الآخر، فيعلم الأقوى حتّى يُعمل به ويُطرح الآخر[67]. ويؤكّد طه عبد الرحمن أنّ هذه النظريات الثلاث: «التدليلية» و«التأويلية» و«الترجيحية» لا يمكنها أن توفي غرضها في تعقّب المضمرات (المفهومية)، وبسط الأدلّة إلاّ إذا حافظت على الأوصاف

---

[64]- الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 550.

[65]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 165.

[66]- ينظر: الشوكاني، إرشاد الفحول، ص 1114.

[67]- ينظر: نفسه، ص 1113.

التداولية الّتي تتّصف بها الضمائر، وهي: «الإرادة» و«المطالبة» و«الاستفادة»، وعليه ينبّه صاحب الدعوى إلى:[68]

بخصوص **الإرادة،** فينبغي للباسط أو المتعقّب تجنّب تعيين الضمير في غياب إرادة المستدل منه، حيث يجب عليه الاشتغال بالتعرف على مقاصده عن طريق: القرائن المقالية والمقامية؛ منها المعنى الّذي قصده المستدل لدليله، والمعنى الّذي يتبادر من الألفاظ المستعملة في الدليل، ويكشف عن رغبة المستدل في إغلاق باب الاعتراض، وما إن كان ذلك كافيا أو يحتاج إلى مزيد من البسط.

ولذلك أشار التلمساني إلى أنّ كل متأوّل بحاجة إلى ثلاثة أمور ليكون تأويله صحيحاً،«أحدها: كون اللفظ محتملا للمعنى الّذي يُصرف اللفظ إليه. ثانيها: كون ذلك المعنى مقصودا بدليل. وثالثها: رجحان ذلك الدليل على المقتضي للظاهر. فإن تعذّر بيان أحد هذه الأمور بطل التأويل»[69] وإن حضرت هذه الأمور يحمل المعنى الظاهر للّفظ على المعنى المحتمل المرجوح فيتحقّق الاحتمال كتدليل(النظرية التدليلية)، والقصد كتأويل(النظرية التأويلية)، والرجحان(نظرية الترجيح) في آن واحد، فيرتفع الحرج وتطمئن إليه النّفس.

أمّا **المطالبة،** فينبغي على باسط الدليل أن يتخيّر من المضمرات الّتي من شأنها إزالة الإبهام، أو بأنّها متولدة عمّا صرّح به تولّدا يلزم به نفسه، ومتى كان المضمر وفيا لهذا الالتزام، فإنّه يتقوّى على غيره من المضمرات المحتملة.

وأمّا الاستفادة، فعلى المتعقّب طلب المضمر عينه الّذي استثمره المستدل أقصى استثمار، حسب حاجة المستمع، حتى يعمل الكلام فلا يهمله، ولا يزيده إبهاما.

68- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 165-166.

69- الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ص 550.

2. 2. قواعد خطابية مفيدة للتّعقب:

تتوسّل النظريات: التدليلية، والتأويلية، والترجيحية، عادة للمحافظة على أوصافها التداولية والاستفادة المثلى من دلائلها، إلا بالاستناد إلى نظرية في الخطاب، وحسبنا منها هاهنا ما يفيدنا في تعقّب المضمر من الدليل، وهو يعود إلى جملة من مبادئ الخطاب وقواعده، وقد ذكرنا في موضع سابق أحد هذه المبادئ، وهو «مبدأ التصريح بالفائدة»، إضافة إلى هذا المبدأ، نذكر مبدأ خطابيا آخر هو «مبدأ تكثير الفائدة».

2. **مبدأ تكثير الفائدة:** يقتضي مبدأ تكثير الفائدة **أن** نحمّل ألفاظ الضمير على أكثر ما يمكن من الفائدة[70]. هذا بالنسبة للمستدل في تعامله مع النص لاستنباط الحكم، أمّا بالنسبة للشريف التلمساني، ووفقا لما وضّحناه سابقا فمبدأ تكثير الفائدة عندنا أن نحمل ضمير الضمير الّذي أورده المستدل في استدلالاته أكثر ما يمكن من الفائدة، سعيا لكشف المقدمات المطوية في عملية استدلال المستدل.

وحرصا على سلامة الدليل، يحذر طه عبد الرحمن باسط الدليل من باطل الاعتقاد حتى لا يقع في محذور "التعصيم"، وأن لا يحمّل الدليل مالا يُطيق من الدلالة حتى لا يقع في محذور "التقويل"، وعليه وطلبا من المتعقب الأول(عالم الأصول المستنبط)، والمتعقب الثاني(عالم الأصول المحسّن) لإضفاء السلامة والصحّة على الدليل، لزم منهما طلب التأويل المستمد من داخل النص لا خارجه، وعليه فمقتضى مبدأ تكثير الفائدة يحملهما التعقب من الصياغات الممكنة المختلفة الّتي يتحملها بسط الدليل لكليهما، ما كان منهما أكثر استثمارا للطاقات الدلالية للدليل الإضماري مع الالتزام الكامل بالقرائن المقالية والمقامية. كما يستحضر طه عبد الرحمن الوظيفة الحوارية للدليل الطبيعي، احترازا من الظنّ الّذي سيراود المستدل أيّ الدلائل أفيد[71].

[70]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 166.

[71]- ينظر: نفسه، ص 167.

تتفرّع عن مبدأ تكثير الفائدة قواعد خاصة، عرفها الأصوليون واللسانيون الغربيون بعضها، واختلفت في التسمية والاصطلاح، ولعلّ طه عبد الرحمن يشير إلى ما توصل إليه **بوجرايس** (P.Grice) من مقالات كثيرة ، ولعل أبرزها ما نشره سنة 1975م ، على ما يسميه صاحبه "منطق المحادثة" ، ويسجل هذا المقال تطورا في مفهوم الدلالة غير الطبيعية ويصوغ مقاربة لإنتاج الجمل وتأويلها غير تواضعية حصرا، وقد أدخل فيه **جرايس** مفهوما هاما هو: مبدأ التعاون[72].

و انطلاقا من هذا المبدأ العام حدد **جرايس** « الفرضية الأساسية التي مفادها أنّ التبادلات والتفاعلات الحوارية تبلغ مقاصدها بمقتضى التعاون القائم بين أطراف الحوار، وهو يتطلب أن يكشف المتخاطبون عن مقاصدهم أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد».[73] وقد لقي هذا الأخير انتقادات عدّة، لكنّ طه عبد الرحمن يرى أنّ لمبدأ تكثير الفائدة قواعد تخاطبية خمسة، يندرج كل قسم منها تحته قواعد فرعية، هي كالآتي:[74]

1. **قاعدة «توليد الفائدة»:** انطلاقا من أنّ المرء لا يستدل بما لا فائدة فيه، يطلب المتعقب وجها يرد إليه فائدته إلا إذا قامت قرينة تصرفه عن ذلك الوجه. وينضوي تحت هذا الفرع قاعدتين أصوليتين:

أولاها: «الأصل في الكلام هو الإفادة»: فالمتكلم يريد بكلامه إبلاغ السامع معنى مخصوصا.

والثانية: «إعمال الكلام أولى من إهماله»: كل كلام إذا دار بين أن يكون له معنى مفيد وبين أن يخلو من المعنى، كان حمله على الإفادة أولى.

---

[72]- ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغنوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 2003م، ص 54.

[73]-حسان الباهي ، الحوار منهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، د ط، 2004م، ص126

[74]- ينظر : طه عبد الرحمن، اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص 167-169.

2. **قاعدة تجديد الفائدة:** تقضي هذه القاعدة بأن المستدل لا يستدل بما لا زيادة فائدة فيه، وكل دليل احتمل فيه تكرار المعنى، يطلب له المتعقب وجها آخر يجدد به المعنى إلا أن تدل قرينة على خلاف ذلك، ويندرج تحت هذا الفرع أيضا ثلاث قواعد أصولية:

«الأصل في الكلام الحقيقة»: فالحقيقة هي المدلول الّذي يتبادر إلى ذهنه، ويودّ إعلام السامع به.

«إذا تعذرت الحقيقة ، يصار إلى المجاز»: إذا كان حمل الكلام على الحقيقة يخلو من الفائدة، فيحمل على المجاز حتى يعمل ويفيد.

«التأسيس أولى من التوكيد»: كل كلام إذا دار بين إفادته معنى جديد و إقراره لمعنى سابق، فحمله على إفادة معنى جديد أولى، لأنّ الأصل في وضع الكلام، هو إفهام السامع ما ليس عنده.

3. **قاعدة تصديق الفائدة:** مفادها أنّ المرء لا يستدل بما لا صدق فيه، وكل دليل احتمل فيه مصادمة العقل أو مخالفة الواقع، وجب على المتعقب إعماله في معنى يرفع به هذه المخالفة والمصادمة، إلا أن تقوم قرينة تصرفه عن هذا المعنى.

4. **قاعدة تحصيل الفائدة:** لا يستدل المرء بما لا تحصيل فيه، وكل دليل احتمل أن يدل على معنى غير محصّل، فعلى المتعقب طلب وجه يصير به دالا على التحصيل، إلا أن تكون قرينة توجب عدم التحصيل، وتتفرّع عن هذه القاعدة ثلاث حقائق هي:

الغالب في الاستعمال أنّه كلّما قصُر المتكلم على الإحاطة بحقيقة الشيء في تحصيله، صار إلى الدلالة على هذا الشيء بنفي الضد أو النقيض، لإدراك معنى يفضي به إلى التحصيل.

استمرار المتكلم على تعريف الشيء بضده كلما وجد فيه معنى يحصل فيه فائدة.

كل تصور لا يُحصّل فيه تمام مدلوله يتم مقابلته بمدلول ضده أو نقيضه.

5. **قاعدة تحسين الفائدة:** مفادها أنّ المرء لا يستدل بما لا حسن فيه، وكل دليل احتمل أن يكون ذا معنى ينافي ذلك ، يطلب المتعقب له وجها يرفع عنه ذلك القبح، إلأ أن تدل قرينة خلاف ذلك، والحقائق الثلاث الآتية دليل على صحة هذه القاعدة:

إذا كان الصدق والكذب قيمتين تسندان إلى الكلام من حيث دلالته النظرية، فإنّ الحسن والقبح قيمتان تُسندان إليه من دلالته العملية، ما يفيد أنّهما وجهان لعملة واحدة.

ما من كلام اشتهر في الناس صدقه، جُعلت له الأسباب بالعمل به حتى يتم الاستفادة منه، فيصير محلا للتقويم العملي.

تصديق الكلام يفضي إلى حمله على تحسينه، فيصير محلا للتقويم العملي.

إذا صحت عملية أنّه لابد للمتعقب من اتّباع مبادئ خطابية تراعي استناد الدليل الإضماري إلى أوصافه التداولية: الإرادة والمطالبة والاستفادة، صحّ معها أيضا أنّ تعقبه للمضمر يستلزم منه ممارسة عملية استدلالية بواسطة هذه المبادئ لتحصيل هذا اللازم الإضماري.

أوضح طه عبد الرحمن بعد ذلك هذه العملية الاستدلالية الّتي يقوم بها المتعقب بالنّظر إلى المثال: النبيذ مسكر ، فكان حراما. وسنعمل على توضيح هذه العملية الّتي قام بها الشريف التلمساني في اعتبار مواصلته للتّعقب بتعقب مثله، وهو الأمر الّذي أجازه طه عبد الرحمن بقوله:« وإذا نحن وضعنا في الاعتبار كون التعقب هو نفسه استدلال، استبان أنّه هو كذلك ذو طبيعة إضمارية، وذلك بحكم توسّله بالخطاب الطبيعي، فيحتاج هو الآخر إلى مواصلة التعقب بتعقب فوقه؛ لكن لا ضير في هذا التراتب، فالدليل الطبيعي دليل على غيره ودليل على نفسه»[75].

75- نفسه، ص 171.

*- يورد ابن رشد هذه المسألة بقوله:«وفيه مسألة واحدة، وذلك أنّهم اتّفقوا على جوازها بتراب الحرث الطيّب، واختلفو في جواز فعلها بماعدا التراب من أجزاء الأرض المتولّدة عنها كالحجارة، فذهب الشافعي إلى أنّه يجوز التيمم إلا بالتراب الخاص، وذهب مالك وأصحابه

وعليه سنعمل على توضيح عملية التعقب الإضماري في مواضع مختلفة، على النحو الآتي في مسألة فيما تصنع به الطهارة *:

أ- يقول أصحاب مالك: «التيمم عام جوازه بكل ما صعد على وجه الأرض، وذلك حسب قوله تعالى:﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[76]، والصعيد مشتق من الصعود، فكان هذا عاما في كل ما صعد على وجه الأرض»[77].

ب- يقول أصحاب الشافعي:« الصعيد مرادف للتراب، وقد قال صاحب الصحاح:" الصعيد التراب"، وقال الشافعي: وهو من أهل اللغة "الصعيد لا يقع إلا على التراب" »[78]

إنّ نظم هذين القولين يدل على أنّ المتكلم قصد إقامة دليل محدد، فهما يقصدان إقناع المخاطب، بصدق الدعوى لكل منهما، فالتقدير الأول للدعوى يكون : «يجوز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض » ، وذلك بإثباتها عن طريق المقدمة:

- التيمم عام جوازه بكل ما صعد على وجه الأرض. (المالكية)

أمّا التقدير الثاني للدعوى يكون: «لا يجوز التيمم إلا بالتراب الخالص»، وذلك بإثباتها عن طريق المقدمة:

- الصعيد مرادف للتّراب. (الشافعية)

إلى أنّه يجوز التيمم بكل ما صعد على وجه الأرض من أجزائها في المشهور عنه الحصا والرمل والتراب».- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد، ج1، ص 179.

[76]- سورة النساء، الآية: 43.

[77]- الشريف التلمساني، مفتاح الوصول على بناء الفروع على الأصول، ص 481.

[78]- نفسه.

ج- لكن الدعوى1 : « التيمم عام جوازه بكل ما صعد على وجه الأرض » لا يثبت صدقها إلا بدليل سليم – أي دليل صحيح صادق المقدمات-

والدعوى2:« الصعيد مرادف للتّراب »لا يثبت صدقها أيضا إلا بدليل سليم، وهما يعلمان ذلك ويعلمان أنّي أعلم ذلك، لكن القولين للمالكية ، والشافعية: ليسا دليلان سليمان، فقد تحتملان الدعوى1، والدعوى2 أن تكونا كاذبتين (مخالفة قاعدة التصديق)، ويحتمل أن تكونا قبيحتان وأن لا تستحقا العمل بهما(مخالفة قاعدة التحسين).

د- لئن كان المتكلمان قد أخلا بشرط السلامة- أي الصحة مع الصدق- فلا تقوم قرينة على أنّه لا يقصدان الاستفادة من هذا الإخلال لتحصيل مرادهما في الإقناع(مقتضى الاستفادة في الإضمار).

ه- يعتقد المتكلمان أنّي- أنا المتعقب أو المخاطب- سأعدّ قولهما بمنزلة تدليل على الدعوى1، والدعوى2؛ ، وعليه، ينبغي أن أسلّم أنّهما يعتقدان بأنّ لي القدرة على تبيّن طريق لتقويم دليليهما، أي لجعلهما دليلين سليمين.

و- لمّا كانا هذان الدليلان لا يدل بظاهرهما على السلامة، لزم أن أطلب معنيان غير ظاهرين يصيران بهما سليمين

ز- يعوّل المتكلمان على القرائن الملابسة لدليليهما لتُوصّلني إلى مقصودهما(مقتضى الإرادة).

ح- يمكن أن تحصل سلامة إحدى هذين الدليلين بزيادة المقدمة: «أنّ الصعيد إذا صدق على التراب، فإمّا أن يسمّى به، لأنّه صعد على الأرض، وإمّا أن يسمّى به من غير اعتبار هذا الاشتقاق، بل كتسميته بالتراب، وعلى التقدير الثاني يلزم الترادف وهو خلاف الأصل، فوجب كون اللفظ

الصعيد، مباينا للفظ التراب ووجب اعتبار الاشتقاق فيه، وحينئذ يصدق على كل ما على وجه الأرض أنّه صعيد»[79]، ويعلم المتكلمان أنّي أدرك إمكان تقويم دليليهما بهذه الزيادة.

ط- لم يقم الدليل على أنّ المتكلم1 يطلب المزيد على المسألة بزيادة المقدمة1، وعليه يجوز لي أن أسلم أنّ هذه القضية هي أقل زيادة بالإمكان إضافتها إلى الدليل1(المالكية، لأنّ التلمساني مالكي، وبذلك قد طبّق قاعدة عدم التصريح الأقلي).

ي- لم يقم الدليل على أنّ المتكلم2 يعترض على المسألة: المقدمة1، وعليه، يجوز لي أن أسلم أنّه مستعد لإثباتها لو وقع الاعتراض عليها(مقتضى المطالبة).

ك- على هذا، فالرّاجح أن تكون المقدمة المضمرة في دليل المتكلم هي: المقدمة1(عند المالكية).

بعد إظهاره للمقدمة المضمرة، يكون التلمساني بذلك قد بسط المسألة من جهة التدليل، والتأويل، و ترجيحه لها في المذهب المالكي، وقد نجد المسألة نفسها مبسوطة في كتاب آخر لمذاهب أخرى يرجّحون فيها مذهبهم، ولم يكتف بذلك لكنّه ربط الحكم بالقاعدة الأصولية، وهي: «الأصل في الألفاظ أن تكون متباينة لا مترادفة»[80].

خاتمة الدراسة: أوضحت الدراسة النتائج الآتية:

- لعلم تخريج الفروع عن الأصول علاقة بيّنة بالخلافات المذهبيّة والجدل والمناظرات بين علماء المسلمين، وقد كان أكبر همّ علماء هذا العلم هو بيان مآخذ علمائهم، والأصول الّتي رُدّت إليها أقوالهم، والدّفاع عن وجهات نظرهم.

- سعى الشريف التلمساني من خلال كتابه "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" إلى تحسين الدلائل، وتحصيل الفائدة، سعيا في كشف المضمر في الخطاب، إضافة إلى توضيح أثر

---

[79]- الشريف التلمساني، مفتاح الوصول على بناء الفروع على الأصول، ص482.

[80]- نفسه، ص 480.

القواعد الأصولية في الفروع الفقهية، وربط الحكم بالدليل بواسطة القواعد الأصولية. كما يؤكد على فكرة مفادها: أنّ القواعد الأصولية ليست قواعد نظرية يكتفي فيها طالب العلم بحفظها، بل هي ممارسة عملية.

- جعل الشريف التلمساني من تعقبه عملية استدلالية واضعا في اعتباره الدليل الإضماري هو نفسه الدليل الإظهاري بحكم توسله بالخطاب الطبيعي، فواصل تعقب الأصوليين للدليل بتعقب فوقه، غايته في ذلك تحسين الدليل، وتحصيل الفائدة منه، وتيقنّا منّا أنّ هذا العمل يتطلّب نظرية في الخطاب تستوفي شروطا تدليلية وتأويلية وترجيحية وتنبني على مبدأين أساسيين، و جملة من القواعد الخطابية، وهو انعكاس لنظرية أصولية تتبّعها الشريف التلمساني وفق نظرية تخريج الفروع على الأصول، فإذا كانت نظرية الخطاب تنتمي إلى مستوى لغة اللغة، فنظرية تخريج الفروع على الأصول تنتمي إلى مستوى اللغة، وهي وجه من وجوه هذه النظرية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف عليه: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، د ط، 1908.

2. ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان.

3. أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط- المغرب، د ط، 1981م، ج9.

4. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، طرابلس- ليبيا، ط2، 2000م.

5. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، وضعه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط4، 1983م،ج3.

6. سليمان الرحيلي، المدخل إلى تخريج الفروع على الأصول، دار الميراث النبوي، المحمدية- الجزائر، د ط، 2018م.

7. الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تح: محمد علي فركوس، مؤسسة الريان، بيروت- لبنان، ط1، 1998م.

8. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 1998م.

9. عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، د ط، 1989م.

10. محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم إلأصول، تح: أبو حفص سامي بن العربي الأشري، دار الفضيلة، الرياض- السعودية، ط1، ج1، 2000م.

11. موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، روضة الناظر وجنّة المناظر في أصول الفقه، تح: شعبان محمد إسماعيل، المكتبة المكية، مكة- السعودية، ط1، ج2، 1998م ج2.

12. مولود السريري، شرح مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.

13. يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، دار المغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ج2.

14. يعقوب عبد الوهاب الباحسين، التخريج عند الفقهاء والأصوليين،مكتبة الرشد، الرياض- السعودية، د ط، 1414ه.

جهود الإمام عبد القادر الراشدي القسنطيني وإسهاماته في التفسير

د. درعي فاطمة، جامعة معسكر، معسكر، الجزائر

الملخص:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني حركة علمية نشيطة قائمة خاصة على دراسة العلوم الدينية، حيث ازدهر التعليم وانتشرت المدارس والمكتبات، وبرز عدد هام من العلماء، وقد كانت قسنطينة من بين أهم مراكز الإشعاع الفكري بفضل مؤسساتها التعليمية وعلمائها، وجهود حكامها خاصة صالح باي الذي لعب دورا مهما في الحركة العلمية في بايلك الشرق، حتى أصبحت قسنطينة قبلة لطلبة العلم من داخل الإيالة وخارجها الذين كانوا يرتادونها ويأخذون العلم من مشايخها.

من بين العلوم الدينية التي ازدهرت خلال العهد العثماني علم التفسير الذي برز فيه عدد من العلماء الذين اهتموا بالتفسير تدريسا وتأليفا، ومن بين أبرز هؤلاء العلماء الفقيه عبد القادر الراشدي القسنطيني الذي كانت له جهوده الخاصة في التفسير خدمة للقرآن الكريم تفسيرا وتدريسا، رغم خلافه مع بعض علماء عصره لمحاولته الابتعاد عن التقليد، حيث كان له منهجه في التفسير وهو ما خلق العداء بينه وبين بعض العلماء لدرجة اتهامه.

مقدمة:

اعتبرت قسنطينة من بين أشهر الحواضر الثقافية الدينية في إيالة الجزائر اشتهرت بمدارسها وعلمائها حيث نجد بول قفاريل (PaulGaffarel) يصفها بقوله:" كانت قسنطينة على عهد الأتراك عاصمة دينية، وكان العلماء بها يتمتّعون بالسيادة المطلقة، والنفوذ التام، كما كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة ينهلون العلم من خمسة عشر مدرسة للعلوم الدنيوية والأخروية... إنّ قسنطينة كانت مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرّف العلماء وتقدّرهم حق قدرهم"[1].

كانت قسنطينة قبلة لطلبة العلم داخل البلاد وخارجها من تونس والمغرب الأقصى، بالإضافة إلى وجود طبقة من المشايخ ممن امتهنوا التدريس والفتوى والقضاء، وكان أغلبيتهم يعيشون على تراث جمع من المشايخ منهم عمر الوزّان وعبد الرحمن الأخضري. أنجبت قسنطينة أجيالا من العلماء الموسوعيين والمفكّرين بفضل مؤسساتها الثقافية الذين تجاوزت شهرتهم البلاد واشتهرت بها عائلات علمية كثيرة توارث أبنائها العلم والفكر والثقافة أجيالا بعد جيل[2].

تميّز العهد العثماني في الجزائر بتطوّر المعرفة الدينية حيث انتشرت المدارس وكثرت المصنّفات في مختلف المجالات، وظهرت عدة مناهج طوّرها العلماء. يعتبر علم التفسير من العلوم الدينية التي كانت لها أهميتها، فهو العلم الذي نفهم به كتاب الله المنزّل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه[3]، ولقي اهتماما كبيرا حيث خصّصت له حلقات علمية تتناول تفسير كتاب الله من أحد التفاسير المعروفة، وتزايد الاهتمام بالفقه والتفسير والحديث جعل الثقافة دينية أكثر منها أدبية.

---

[1]- Paul, Gaffarel, L'Algérie. Histoire. Conquête et colonisation, Imp. de L'institut, Paris, 1883, p123.

[2]- يحي بوعزيز، رحلة في فضاء العمر أو مذكرات القرن، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 56.

[3]- محمد حسين، الذهبي، علم التفسير، دار المعارف، القاهرة، (د ت)، ص6.

حظي التعليم في بايلك الشرق خاصة قسنطينة بالاهتمام الخاص من طرف العديد من العائلات الكبيرة والشخصيات، ولم يخرج التعليم عن علوم الدين واللغة، والاهتمام بالفروع الفقهية على مذهب الإمام مالك، ذلك أن العثمانيين كانوا حنفيي المذهب إلا أنهم لم يفرضوه على أحد، بل قاموا بتعيين مفتي مالكي وآخر حنفي.

كان علم التفسير من بين العلوم التي اشتهرت بها قسنطينة بفضل إسهامات علمائها فيه تأليفا وتدريسا أمثال عبد الكريم الفكون[٤]، وعمر الوزّان[٥] وعبد الله بن خليفة الجزائري الذي ختم القرآن تدريسا كاملا وأحمد المقري وغيرهم من العلماء الذين تأجّجت فيهم روح التدبّر في معاني القرآن الكريم ما دفعهم إلى تعلّمه وتعليمه، فمفسّر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية وتاريخية ولغوية ثرية، إلى جانب الاستقلال العقلي الذي لم نجده إلا عند عدد قليل من العلماء الجزائريين في تلك الفترة. شاع التفسير بين العلماء خلال العهد العثماني وكان عماد الحلقات العلمية والدروس التي اشتهروا بها خلال تلك الفترة.

يعتبر العالم عبد القادر الراشدي من علماء قسنطينة الأجلاء البارزين الذين كانت لهم مساهمة كبيرة بإنتاجه الفكري، وممّن خدموا العلم بفضل دوره في التفسير تدريسا وتأليفا.

---

[٤]- هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحي الفكون التميمي، ولد سنة 988ه/ 1580م، وتوفي سنة1073ه/ 1662مـ، من أشهر علماء قسنطينة، أخذ العلم عن والده وعلى أبي زكرياء يحي، أسندت له الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم خلفا لوالده سنة 1045ه/ 1635م، وعهد إليه بركب الحج، له العديد من التآليف في القراءات والصرف وغيرهما، يعتبر مؤلفه " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" من أبرز المؤلفات، للمزيد انظر: عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة والنشر، بيروت،ط2، 1980، ص254.

[٥]- هو أبو حفص بن محمد الخزرجي الأنصاري الكمّاد المعروف بالوزان توفي سنة 965ه/ 1557م =
= من علماء قسنطينة البارزين وأحد كبار المتصوّفة كرّس وقته للتدريس بمساجد قسنطينة، من أهم مؤلفاته "البضاعة المزجاة" ، " الرد على الشبوبية" ، " حاشية على شرح صغرى السنوسي"، للمزيد: انظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص342.

نسعى من خلال هذا المقال المساهمة ولو بجزء صغير للتعريف بهذا العالم وإبراز دوره في التفسير والذي سنركز فيه على التعريف بعبد القادر الراشدي و إنتاجه الفكري و منهجه وأسلوبه وإسهامه في علم التفسير وكذا خلافه مع علماء عصره واتهامه بالتجسيم.

1ـ التعريف بعبد القادر الراشدي:

هو عبد القادر بن محمد بن أحمد بن المبارك الحسني الراشدي الأثري القسنطيني[6] ولد بقسنطينة، ولا يعلم تاريخ مولده، قرأ على والده ثم ورد إلى الجزائر وتونس ومكث بها مدة[7]، وهو ينسب إلى الرواشد مدشر من مداشر فرجيوة[8]، وهو أحد رجالات العلم القائم على العلوم تدريسا وتأليفا ومفتي الحنفية بقسنطينة[9]. لا نعلم الشيء الكثير عن عائلة الراشدي سوى أنها تبدو عريقة في ميدان العلم والمعرفة[10].

أخذ عن شيوخ كثر كمحمد المنور التلمساني[11] الذي أخذ عنه الكثير من الفقه والأصول وعلم الكلام والنحو، والبيان وأجازه، وابن الدين الأصغر والمكودي، الشهاب وغيرهم، كما تتلمذ عليه ثلة من علماء الجزائر كأبي راس الناصري[12] وأحمد بن عمّار[1413]. ورغم شهرة الراشدي في وقته إلا أن

6- محمد مرتضى، الزبيدي، المعجم المختص، دار البشائر الإسلامية، لبنان،ط1، 2006، ص431.

7- المصدر نفسه، ص431.

8- محمد، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، طبعة مؤسسة الرسالة، تونس،1982، ص220.

9- عبد الغاني، عيساوي، جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانية، تخصص كتاب وسنة، جامعة باتنة1، 2015 – 2016، ص202.

10- عبد الله ،حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط1، 1986، ص76.

11 – توفي سنة 1185ه/ 1771م، انتقل إلى المشرق، دخل الجيش العثماني ضد الروس وأسر ونقل إلى موسكو
حل الذهب الإبريز في بيان لغز الذر الوجيز" و" الدر الثمين في تحقيق القول في صفة التكوين"، [11]وبقي أسيرا حتى مات، من مؤلفاته
للمزيد أنظر: محمد بلغيث وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج 1، منشورات الحضارة، الجزائر،2014،ص 44.

12 – محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي العلامة المحقّق الحافظ البحر الجامع، ولد سنة 1165ه/ 1751م،

حياته لا تزال غامضة، وليس لدينا منها سوى نبذ متفرّقة من هنا وهناك[15]، جمع بين عدة فنون ومراتب فبلغ درجة الاجتهاد والتحديث والتحقيق، وهي مراتب لا ينالها إلاّ قلة من العلماء[16]. اجتمع به الورثلاني[17] صاحب الرحلة عند دخوله قسنطينة ووصفه بقوله: "المفسّر صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة السيد عبد القادر الراشدي"[18].

تولى الراشدي التدريس في الجامع الكتاني ومدرسته[19]، وكان يصبغ تلك المجالس بصبغة التخصيص للطلبة، والتي وصفها الحفناوي قائلا:" له تعليقات جمة وفتاوى ومسائل ابتكارية

توفي سنة 1238ه/ 1823م، أخذ العلم عن والده ومجموعة من العلماء في الجزائر وخارجها، ترك الكثير من المصنّفات في جميع العلوم والفنون،من بين مؤلفات،" زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، " عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" ،" شرح المحلى". للمزيد أنظر: محمد، الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف،المرجع السابق، ج2، ص 167.

[13]– أحمد أبو العباس بن عمار بن عبد الله بن عمار، فقيه مالكي، صوفي، أديب ، مؤرخ مترجم ومفسّر، ورحّالة اشتغل بالفتوى، من أعلام زمانه في العلوم العقلية والنقلية، ولد سنة 1119ه/ 1707م، حج مع صديقه الورثلاني سنة1166ه، ومكث بمكة مدة12 سنة، أجاز خلالها العديد من العلماء، تولى الإفتاء والتدريس بالمسجد الكبير بالجزائر، من مؤلفاته" نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، " لواء النصر في فضلاء العصر"، للمزيد انظر: محمد بلغيث وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، المرجع السابق، ص151. ،

[14]– عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 202.

[15] – أبو القاسم ، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 (1500 – 1830)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 ص14.

[16] – محمد، أوجرتني، الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه،جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة،2014 — 2015، ص160.

[17] – الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني: ولد سنة 1125ه/ 1713م ،رحالة ، مؤرخ، فقيه مال إلى التصوّف =
= ولد ونشأ في قبيلة بني ورثيلان ، أخذ العلم على والده وغيره من علماء مصر والحجاز، ثم رجع إلى وطنه، من أهم مؤلفاته" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" ، ويعرف بالرحلة الورثيلانية، وهو وصف لرحلته إلى الديار المقدّسة سنة1179ه،وكتاب" شرح القدسية للأخضري"، و" حاشية على كتاب المرادين"،و " شرح على الخطبة الصغرى"للمزيد: أنظر: عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة والنشر، بيروت،ط 1980،2،ص 340.

[18]– الحسين بن محمد، الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: ابن أبي شنب، الجزائر، 1908،ص798.

[19]– الجامع الكتاني أنشأه صالح باي سنة 1776م ،جلب له مواد البناء والزينة من إيطاليا، أوقف له صالح باي أوقافا

جليلة، وتفسير عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي[20]"[21]. كما تحدّث أبو القاسم سعد الله عن مجالسه قائلا:" كان يعقد مجالس للفتوى والتفسير غير أننا لا نعرف ما إذا كانت هذه المجالس للتدريس أو مجالس اجتماعية يحضرها الوالي والعلماء[22].

إلى جانب التدريس تولى الراشدي وظائف أخرى كالقضاء المالكي والإفتاء ولسعة علمه وتعدّد معارفه وبلوغه درجة عليا من العلم، كان كثير الاجتهاد الأمر الذي أحدث له الكثير من المتاعب من طرف خصومه الذين عملوا بكل الوسائل من أجل القضاء عليه وعلى أفكاره التي انتشرت بين الطلبة والناس بصورة واسعة النطاق في قسنطينة خاصة، كما كان الراشدي متحرّرا إلى حد ما في آرائه وفتاويه.

كان عبد القادر الراشدي ضمن اللجنة التي شكّلها صالح باي سنة 1190ه / 1776م واستعان بها في تنظيم الأوقاف وتوسيع نطاق الحركة العلمية[23]، فقد أمر صالح باي بإحصاء كل أملاك المساجد والمؤسسات الخيرية، وكلّف لمراقبتها والإشراف عليها عبد القادر الراشدي، و قد

عظيمة من ماله، للمزيد حول الجامع انظر: كمال، غربي، المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2013، ص 103.

[20]- هو صالح بن مصطفى، ولد بأزمير على ساحل بحر إيجه سنة1137ه/ 1725م، في سنة1775، تسبّب في مقتل أحد أقاربه، وتفاديا للعقاب فر وعمره لم يتجاوز 30 سنة ،خاض عدة مغامرات بحرية ونزل بميناء الجزائر، مقر الداي، ثم التحق بالإنكشارية ثم واصل الصعود نحو المناصب العليا خاصة وأنه تميّز بالخبرة العسكرية إلى أن أصبح بايا على قسنطينة سنة 1771م، وقد عرفت قسنطينة أزهى فتراتها في عهده بفضل إنجازاته إلى غاية عزله سنة 1791م، ثم إعدامه سنة1207ه/ 1792م، انظر: أحمد توفيق، المدني ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 –1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 137.

[21] – عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق،ص 203.

[22] – أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص14.

[23]– لزهاري، تريكي،" المفتي عبد القادر الراشدي القسنطيني، العالم ،المجاهد، والمفسّر"، مجلة الدراسات التاريخية، فيفري2018، ص103. جامعة الجزائر2، مجلد20، العدد1، فيفري2018، ص103.

وضع صالح باي شروطا صارمة لتسييرها أراد من خلالها أن ينشأ بفضلها علماء أكفاء[24]، وإلى جانب عبد القادر الراشدي ضمّت هذه اللجنة من المشايخ مفتي الحنفية آنذاك شعبان بن جلول قاضي الحنفية، والشيخ العباسي قاضي المالكية، وجمع عملهم في سجل خاص بالأوقاف المذكورة وجعل منه أربع نسخ وضعت إحداها عند أمين بيت المال، والثانية عند شيخ البلد، والثالثة عند القاضي الحنفي، والرابعة عند القاضي المالكي[25].وقد ورد في إحدى نسخها المؤرخة في 1190ه:

"الحمد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتناء بشأن الأوقاف وفرّطوا في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها ... وبلغ أمر ذلك لحضرة المعظّم الأسعد المنصور...سيدنا صالح باي أيده الله تعالى... فألهمه الله إلى إحياء ما اندرس من المساجد والأوقاف... أمر حينئذ قضاته أو المفتيين أن يبحثوا على أوقاف المساجد وعلى المساجد التي دمّرت، ويثبتوا ذلك في ثلاث سجلات متماثلة، فامتثلوا لأمره، وبذلوا جهدهم في البحث عن أوقاف المساجد وعن المساجد التي اندثرت، وأثبتوا بعد الكشف عن ذلك، أوقاف مساجد بلد قسنطينة بهذا السجل، وبثلاث سجلات مماثلة له لفظا ومعنى، وضع أحد السجلات عند صاحب بيت المال، والثاني عند شيخ البلد، والثالث عند قاضي الحنفية، والرابع عند قاضي المالكية... وذلك أواسط شهر ربيع الأول المنوّر عام 1190ه[26]."

المعروف عن صالح باي تقريبه للعلماء واهتمامه بالتعليم وبرجال الدين والفقهاء، من خلال إقامة المنشآت الدينية والثقافية كالجوامع والزوايا والمساجد، والمدارس التي أستحدث لها نظاما دقيقا يتقيّد به المدرّسون والطلبة ويخضع له العاملون بأماكن الدرس والعبادة، وكان عبد القادر

[24]- أحمد توفيق، المدني، المرجع السابق، ص ص 134 – 135.

[25] – أحمد توفيق، المدني، المرجع نفسه، ص103.

[26]- Charles,Féraud,« Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine », In R .A,N°12,1868,p124.

الراشدي من العلماء الذين كانت لهم حظوة لدى صالح والتي أثارت الحقد لدى علماء آخرين لدرجة اتهامه وإثارة صالح باي ضده فيما بعد.

إلى جانب ما ذكر فقد كان عبد القادر الراشدي رجل كفاح وجهاد، حيث انضم إلى الجيش الجزائري الذي قاده صالح باي للدفاع عن مدينة الجزائر، والذي تمكّن من الانتصار فخلّد عبد القادر الراشدي ذكراها في قصيدة أشاد فيها بداي الجزائر وببطولات المجاهدين وبحنكة صالح باي ومن بين ما جاء في هذه القصيدة:

كَمَا أَعَدَّ سَدِيدُ اَلرَأْيَ سُلْطَانُنَا *** مُحَمَدُ بَاشَا نَالَ النَصْرَ تَبْجِيْلاً

بَاشَا الجَزَائِرَ مَنْ عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ*** كَلاًّ فَمَنْ جَاءَهُ أَعْطَاْهُ تَامِيْلاً

وَأَوْلَى مَنْ أَدَيْتَ بِاللهِ نُصْرَتَهُ *** جُنْدُ المُؤَيدِ تَامِيْلاً وتفصيلاً

مَلاَذُنَا صَالِحُ أَصْلَحَ رَبٌّ بِهِ *** جِنْسَ الْبَرِيَةِ تَكْبِيْراً وتفضيلاً[27]

ويتحدّث تلميذه مرتضى الزبيدي عن إجازته له قائلا:" أرسلت إليه كتابا أستجيزه فيه، فأرسل لي كتابين مضمونهما واحد وقد صرّح بالإجازة فيهما بجميع مروياته ومسموعاته"[28].

2ـ مذهبـــــه:

هناك العديد من الاختلافات حول المذهب الذي كان يتبعه الراشدي، فالبعض يقول أن صالح باي عيّنه على رأس الإفتاء الحنفي[29]، بينما في مؤلفه تحفة الإخوان في تحريم الدخان نجد ما قد يؤكد لنا أنه مالكي المذهب فقد ورد فيه قوله:" شم الدخان مفسد عندنا بالوصول إلى الحلق، وعند

[27]– سليمان، الصيد، نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار، وزارة الثقافة، الجزائر،2007،ط1، ص ص 55– 56.

[28] – محمد مرتضى، الزبيدي، المصدر السابق، ص 431.

[29]– فاطمة الزهراء قشي،" شهود العدالة في قسنطينة القرن التاسع عشر .الإنتماء العائلي والمسار المهني، مجلة إنسانيات، المجلد 11، العدد36، ص73.

الحنفية لا بد من وصوله إلى الجوف"[30]. وما يؤكد على أن الراشدي مالكي المذهب ما ورد في وثيقة تحبيس بتاريخ أوائل ربيع الأول عام 1188ه/ 1774م ما نصّه : « الحمد لله، حضر بالمحكمة الشرعية من قسنطينة المرعية بالله تعالى لدى الشيخ الإمام العالم الغني بشهرته عن التمييز العلامة السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة المالكية بالبلد المزبور الواضح طابعه أعلاه دام عزّه وعلاه »[31]

3ـ إنتاجـــه الفكـــري:

يتنوّع الإنتاج الفكري للشيخ عبد القادر الراشدي مما يؤكد تبحّره في العلوم، فقد كانت له مؤلفات في الفقه وأصوله، وفي العقيدة، وعلم الكلام، كما كانت له قصائد وأشعار في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتؤرخ لأحداث ووقائع، وسنقسّم مجموع المؤلفات حسب مجالاتها إلى:

أـ العقيدة:

1 – كتاب:" متسعة الميدان في إثبات وجه الميزان وآلة الميزان":[32]

والذي سمّاه عادل نويهض في معجم الأعلام[33] " رسالة في وزن الأعمال"، وقد تعرّض فيه لمباحث علم الكلام وناقش فيه بوجه الخصوص العلماء القائلين بالتأويل في مبحث المتشابه، وهو الآن مخطوط ضمن مجموعة من رسائل الراشدي ويقع في حوالي 160 ورقة، وهذا الكتاب حسب

[30]– عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت =

= ط1، 1997، ص138.

[31]– لزهاري، تريكي، المرجع السابق، ص 103.

[32]– سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص42.

[33] – عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة والنشر، بيروت، ط2، 1980، ص146.

كلام الراشدي جاء لسد الفراغ، ويكمل موضوع الكتاب الذي ألّفه في شبيبته وضاع منه[34]، كما يقول أن هذا الكتاب تم تبييضه وقت زوال يوم الخامس عشر من محرم فاتح شهور عام 1187ه، ومن بين ما ورد فيه: «... الراجي عفو القادر الراشدي عبد القادر، بعد أن كنت وضعت رسالة في جواز الأعمال بدا لي أن أزيد في الكلام زيادات تبلغ الآمال تحريرا لما به تعلم بلوى الاعتقاد، وتقرير لما به ترد دعوى الاعتياد، وإرادة رغم أنف المعاندين، وإشادة حتم حتف الجاحدين، أن حملهم على ماهم فيه شدة الحسد، وقلة نفاق ما بسوقهم من الكسد، وما دروا أن اعتراضهم إنما هو على رب الناس، لأنه قاسم ما بينهم من خير أو من بأس، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، أخذهم عز وجل بما كانوا يفعلون فجاءت رسالة يضطر إليها كل مقرئ وطالب، لاختصاصها بما أودع فيها من الخير والمطالب، قد زادت فوائدها على ما كنا أول الشبيبة شرحنا به سادسة عقائد السنوسي فضاع »[35].

2- قصيدة: " مفاد التحصيل لإعداد السبيل":

هي قصيدة مع شرحها وضعها للرد على منتقديه ومخالفيه في مسألة التأويل وتفضيل النقول على العقول[36]. وقد جاء في أولها:

خُبِّراً عَنِّي الْمُؤَوِلَ أَنِّي *** كَافِرٌ بِالْذِي قَضَتْهُ الْعُقُولُ

مَا قَضَتْهُ الْعُقُول لَيْسَ مِنَ الدِينِ *** بَلِ الدِينُ مَا حَوَتْهُ النُقُولُ

لَتَقُولاَنِ إِنَ ذَا أَكْثَرَ الْنَا *** سِ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَعُدُولُ

شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِينِ مَا لَمْ *** يَأْذَنِ اللهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ[37].

---

[34]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص35.

[35]- لزهاري، تريكي، المرجع السابق، ص 106.

[36]- سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص 49.

وسيأتي الحديث عن هذه القصيدة عند التطرّق إلى مسألة اتهامه بالتجسيم.

3- حاشية على شرح السيد للمواقف العضدية:

يقول عنه الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف:" حاشية محشوة بالتحقيق والإتقان"[38].

4-" رسالة في التوحيد في غاية النفاسة " [39]

5-" رسالة في التعليق على العالم سعد الدين التفزتاني": في شرح مقاصده في أفعال العباد[40].

6- " تجديد الإيمان في أواخر الزمان"[41].

بـ الفقه: أشهر كتبه في الفقه:

1- " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" :

هو رسالة في قضايا عصره وزمانه، ابتدأ هذه الرسالة ببيان شاف لحال الدخان ثم سرد الأدلة المقتضية لحرمته، فكانت رسالة شافية وكافية. يقول عنه الحفناوي:" أنه رسالة في تحريم الدخان شحنها أولا ببيان شاق في حال الدخان ثم جلب من الدلالة المقتضية لحرمته ما لا مزيد بعده"[42]، كما بيّن في هذا الكتاب أضرار الدخان التي تصيب العقل والبدن، وقد تصل إلى الهلاك، ولتحريمه استعان بالقرآن والحديث والقياس في إخراج فتواه.

[37]- سليمان، الصيد، المرجع نفسه، ص49.

[38] - محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[39] - سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص 49.

[40] - عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 37.

[41]- المصدر نفسه، ص 37.

[42] - محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

انتشرت ظاهرة التدخين بشكل كبير بين مختلف شرائح المجتمع خلال العهد العثماني، حتى تعاطاه بعض العلماء وأفتوا بشربه، فأقبل الناس عليه بصورة كبيرة لما فيه من نشوة و راحة، وعليه كان الدخان حاضرا لدى مختلف الفئات وقد ساعد على ذلك انخفاض سعره.

أصبح الدخان قضية شغلت بال العديد من العلماء الذين تناولوها من جانب الحلال والحرام واختلفت فتواهم اتجاهها، وإلى جانب الراشدي كان بن الفكون من الفقهاء الذين حرّموا الدخان والتدخين وأنكروه بشدة، وعزم على تأليف كتاب "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" لبيان مساوئ أهل الزمان ومحض النصح للإخوان، وقد حكم الفكون بتحريم الدخان لذاته وصفته وعوارضه، واستدل على ذلك بأقوال القائلين بالتحريم أمثال أبي الغيث القشّاش (تونس)، وعبد الله بن حسون(المغرب الأقصى)، ومحمد السوسي[43]، وكذا المقري الذي حرّمها في كتابه" أجوبة في اجتناب الدخان"، كما تحدّث أبي راس الناصري عن الدخان في كتابه فتح الإله ومنته وأكّد على حرمته مستدلا بآراء كثير من العلماء من داخل وخارج الجزائر[44].

2- كتاب في مباحث الاجتهاد:

تناول فيه قضايا أصولية وكلامية، ونقل عنه أنه ادعى فيه الاجتهاد مع أنه ذكر في كتاب تحفة الإخوان أنه ألّفه في شبيبته[45]، وهو كتاب حافل يدل على تبحّره في علمي الكلام والأصول[46].

[43]- أبو القاسم، سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص136.

[44]- أبي راس، الناصر، فته الإله ومنته في التحدّث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ص 162- 164.

[45]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 35.

[46]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

3- رسالة في حكم ما جرى حلفه بحرام:[47]

وإلى جانب ذلك له تعليقات جمة وفتاوى ومسائل ابتكارية جليلة[48].

4- مسألة في الفرق بين حقيقة الإجارة والجعالة:

كتاب مخطوط في موضوع الفقه المالكي، نسخة عبد القادر الراشدي بتاريخ أواخر ربيع الثاني 1163ه/ 1750م، يوجد في مخطوطات المسجد النبوي الشريف[49].

جـ التفسير: رغم إسهامه الهام في علم التفسير إلا أنه لم يعرف للراشدي كتاب جمع فيه تفسيره، حيث يقول أبو القاسم سعد الله " لا نعرف الكثير ما إذا كان تفسيره قد جمع في كتاب، فلعلّه لم يكن يتناول التفسير بصورة منتظمة، وإنما كان يتناول بعض الآيات في المناسبات المعيّنة ويعرضها ويحلّلها[50]. وعلى ذلك فالتفاسير التي عثر عليها شملت:

1- تقييد في صفحة واحدة على قوله تعالى:"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ" [51]

2- مجلس لتفسير قوله تعالى:"وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه"[52]:

والذي جاء في أوله:" يقول الراجي عفو القادر الراشدي عبد القادر، وقد أمر من وجبت طاعته وسعد فينا وقته وساعته، وكنا جماعة متبرّكين بمجلسه ومستضيئين بنور شمسه، أن يتكلم كل منا في الآية التي تذكر بها اقتضاه فهمه وسعة فقهه وعلمه، فلم يكن لنا يد مما قال، وتناول كل

[47]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 37.

[48]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[49]- محمد بلغيث وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج 1، منشورات الحضارة، الجزائر،2014، ص 46.

[50]- أبو القاسم، سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ص14.

[51] - سورة الأعراف، الآية 34.

[52]- سورة الإسراء الأية 13.

لهذا المنوال، كيف هو الإمام العامل والهمام الكامل المحوط بالأسما واللآلي سيدنا صالح باي أصلح الله له الأوقات، وباعد عنه جميع الآفات، إنه جواد كريم رءوف رحيم، وإذ آن لنا الشروع في المقصود بعون المالك المعبود، فنرغب مجيب السؤال أن يوفقنا فنقول قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين ومجيب السائلين"[53]، وبعدها بدأ في تفسير الآية الكريمة.

د. الشـــــعر:

1- قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

يقول عنها الحفناوي أنها قصيدة في غاية البلاغة[54].

2- قصيدة تصف قدوم الإسبان إلى الجزائر وتشيد باستماتة صالح باي في الدفاع عن العاصمة[55]، ومن بين ما جاء فيها:

حَوَادِيثُ الدَهْرِ تُتْلَى كُلَ مَا ظَهَرَتْ*** فَنِعْمَ مَنْ قَدْ أَعَدَ الْحَزْمَ تَأْوِيْلاً

كَمَا أَعَدَّ سَدِيدُ اَلرَأْيَ سُلْطَانُنَا *** مُحَمَدُ بَاشَا نَالَ النَصْرَ تَبْجِيْلاً

بَاشَا الجَزَائِرَ مَنْ عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ *** كَلاَّ فَمَنْ جَاءَهُ أَعْطَاْهُ تَاْمِيْلاً

فَمِنْهُ مِنْ حُسْنِهِ مَنْ تَوَلَى حَسَنُ *** أَحْسَنَ رَبَهُ إِلَيْهِ حَينَ مَا حِيْلاً

وَمَنْ مَنْهُ قَدْ أَعْلَى فَمَا تَوَلَى *** عَلِي أَعْلاَهُ مَوْلاَهُ فَوقَ الْرَأْسِ إِكْلِيْلاً

وَمِنْهُ مَنْ قَدْ صَفَا بِمَا صَفَا مُصْطَفَى *** وَمِنْهُ مَنْ قَدْ جَلاَ بِغَيْرِ مَنْ قِيْلاً

وَأَوْلَىْ مَنْ أَدَيْتَ بِاللهِ نُصْرَتَهُ *** جُنْدُ الْمُؤَيدِ تَامِيْلاً وتفصيلاً

---

[53]- سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص ص 53 – 54.

[54]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[55]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 37.

مَلاَذُنَا صَالِحُ أَصْلَحَ رَبٌّ بِهِ *** جِنْسَ الْبَرِيَةِ تَكْبِيْراً وتفضيلاً[56].

3 قصيدة في مدح شيخه أبي العباس المكودي:[57]

إلى جانب هذه المؤلفات له أيضا:

- كتاب عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس:

يتحدث الحفناوي عن هذا المؤلف فيقول: "تأليف صغير الحجم تعرّض فيه لكثير من عائلات قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منهم والعربي والبربري"[58] ، وهو مخطوط في 55 صفحة، كل صفحة فيها ما بين 20 و 21 سطرا[59]. وقد جاء في أول هذا الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم، هذا كتاب المحقّقين المسمى بعقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس، الحمد لله ما وجد بخط شيخ الجماعة بحاضرة قسنطينة في وقته الشيخ عبد القادر الراشدي رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، ترك الجماعة من الأولاد منهم السيد محمد بن الحنفية رضي الله عنه، فقد اجتمعت عليه الشيعة من الحجاز واليمن والعراق"[60].

- وثيقة في حكم التحبيس على الذكور دون الإناث:

والتي جاء فيها:" الحمد لله هذه نسخة رسم نقل هنا للحاجة إليه نصّه:" الحمد لله حضر بال حكمة الشرعية من قسنطينة المرعية بالله تعالى، لدى الشيخ الإمام العالم العلامة الغني بشهرته عن التمييز والعلامة، السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة المالكية بالبلد المذكور الواضع طابعه

---

[56]- سليمان الصيد، المرجع السابق، ص ص55 –56.

[57]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 37.

[58]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[59]- سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص 35.

[60]- سليمان، الصيد، المرجع نفسه، ص 35.

أعلاه دام عزّه وعلاه، ويشهد به المكرم الأجل السيد أحمد ابن المرحوم السيد محمد بن السعيد بن أبي القاسم الورثلاني"[61]، وجاء في آخرها:

"حكم حكما تاما أنفذه وأمضاه وسوغه وارتضاه وأوجب العمل بمقتضاه – شهد عليه سدّده الله- وهو بمجلس حكمه ومحل فصل قضائه، بتاريخ: أوائل شهر ربيع الأول الشريف الأنور بمولده، صلى الله عليه وسلم عام 1188ه ثمانية وثمانين ومائة وألف"[62].

4ـ ثناء العلماء عليه:

وصفه الورثلاني فقال عنه:" قاضي الجماعة النحوي المتكلّم الأصولي المنطقي البياني المحدّث المفسّر صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة سيدي عبد القادر الراشدي[63]، وأضاف أيضا :" العلامة المحقّق الفهامة المدقّق سيدي عبد القادر الراشدي"[64]. كما أثنى عليه صاحب تعريف الخلف برجال السلف بقوله:" العلّامة المحقّق المجتهد الأصولي الكلامي"[65].

أما تلميذه مرتضى الزبيدي فقال عنه:" شيخنا الإمام المحدّث الصوفي النظّار[66]، وزاد في مدحه قائلا:" هذا السيد الشريف ذو القدر المنيف عمّر الله بالعلوم رباعه، ووسّع في فحوى المنطوق والمفهوم باعه، هو الحق الصريح الذي لا يحيد عنه ذوو العقول السليمة، والفهوم المستقيمة[67].

تحدّث عنه الكتّاني في مؤلفه فهرس الفهارس قائلا:" شيخ الجماعة بقسنطينة وقاضيها السيد عبد القادر بن محمد الراشدي"، ثم يضيف:" وعبد القادر الراشدي المذكور شيخ السيد مرتضى

[61]- المرجع نفسه، ص 49.

[62]- سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص 55.

[63]- الحسين بن محمد، الورثلاني، المصدر السابق، ص 692.

[64]-المصدر نفسه، ص 697

[65]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 219.

[66]- محمد مرتضى، الزبيدي، المصدر السابق، ص 431.

[67]- محمد مرتضى، الزبيدي،المصدر نفسه، ص 431.

الزبيدي، أجازه مراسلة من قسمطينة، ترجمه في معجمه وحلّاه بشيخنا الإمام المحدّث الصوفي النظّار"[68].

وقال عنه أحمد زروق العنتري (ت1246ه):

إِنَ مَا قُلْتُهُ مِنْ أَدِلَّتِهِ*** أَبْقَاهُ رَبُ الْعِبَادِ نَافِعَا أُمَما

لَقَدْ سَما فَوْقَ ضِدِّهِ عَلَى رُغْمِ مِنْهُ*** كَما قَدْ سَما فَوْقَ الْثَرَى سَما

أَعْنِي بِهِ رَاشِدِيُ الأَصْلِ رَاشِدُنَا *** إِلَى الْهِدَايَةِ مُنْقِذًا لَنَا مِنْ عَمَا[69]

كما قال عنه أيضا محمد بن كوجك علي الحنفي(ت 1264ه):

لَقَدَ أَلَفَ فِي تَحْلِيلِهِ *** جَاهِلُ لِلْحُكْمِ ضَعِيْفٌ لِلْشرْبِ

فَأَتَانَا وَعَرَّفَنَا قَوْلُهُ ***مِنْ بِلَادِ الْشَرْقِ شَبَهُ الْمَغْرِبِ

فَعَدَ حُجَةٌ دَاحِضَةٌ***رَدَّهَا أُسْتَاذُ الْمُغْرِبِ[70]

مدحه أيضا أحمد توفيق المدني في كتابه " محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766 – 1791" بقوله:"من أشهر علماء عصره وأعظم رجال مصره، له مؤلفات أشهرها كتاب في مباحث الاجتهاد وحاشية على شرح السيد للمواقف العضدية، تولى القضاء والإفتاء مرارا بقسنطينة، وله رسالة في تحريم شرب الدخان أتى فيها بأدلة معقولة توجب التحريم"[71].

---

[68]– عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص 239.

[69]– عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 184.

[70]– المصدر نفسه، ص189.

[71]– أحمد توفيق،المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 – 1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986،

5ـ منهجه وأسلوبه في علم التفسير:

لقد كانت العقائد السائدة خلال العهد العثماني هي عقائد الأشعري، وهي عقائد جمهور أهل السنة، فقد كانت مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي[72] في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام [73]، ورغم جمع السنوسي بين علمي الظاهر والباطن فإن شارحيه ودارسي مؤلفاته قد مالوا تبعا لروح العصر إلى علوم الباطن، واتهم من يخالف هذا التيار بالتجسيم والاعتزال والإيمان بظواهر النصوص، ومن ثم يحكم عليه بالكفر والزندقة[74]. وهو ما وقع مع عبد القادر الراشدي الذي اتهم بالكفر والإلحاد لقوله بالتجسيم.

تنسب عقيدة الأشعري إلى أبي حسن الأشعري (ت 324 – 936م)، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، وهي مدرسة سنّية اتبع منهاجها عدد كبير من فقهاء أهل السنة والحديث، ثم انتشر هذا المذهب ببلاد المغرب على يد تلاميذ أبي الحسن الأشعري في أواخر القرن 4ه خاصة أبي الحسن القابسي (ت403ه)[75]، وقد حمل لواء الأشعرية في الجزائر محمد بن يوسف السنوسي.

ص70.

[72]– محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي، من علماء تلمسان، نشأ في بيت صوفي، فأبوه كان زاهدا ومتعبّدا، درس على أبيه وعن الشيخ نصر الزواوي، كما درس القراءات والفقه، والحديث والفرائض والحساب، وعلم الأصول، وسمح له تكوينه المتنوّع أن يخوض في علوم كثيرة أبرزها علم الكلام والعقائد والتصوّف، من مؤلفاته،" اختصار الرعاية لحقوق الله المحاسبي"،" اختصار كتاب بغية المسالك للإمام الساحلي"،" الوصايا والمواعظ"، للمزيد أنظر: محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 182.

[73]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ص 92.

[74]–– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ص 92.

[75]– توفيق مزاري، عبد الصمد، " أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري"، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد 17، ص 149.

تعرّض الراشدي لمحن ومشاكل كثيرة سبّبها له علماء عصره الذين اتهموه بالتجسيم في تفسيره لقوله تعالى:"لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"[76]، فوصف اليد على أنها حقيقة ومع ذلك ليست جسما ولا جارحة، ويقول أبو القاسم سعد الله أن ما واجهه الراشدي بسبب آرائه يجعلنا نتصوّر أن في تفسيره شيء من الخروج عن المألوف، وعدم التقيّد الرتيب بنصوص الأقدمين[77]، فهو يعتبر من العلماء الذين شهدوا صعودا ونزولا بسبب مواقفه واجتهاداته، ورغم ذلك فقد كان من العلماء الذين يلتجأ إليهم في الأوقات الحرجة، ويظهر ذلك عند الغارات على السواحل الجزائرية، فقد كان من بين العلماء الذين توجّه إليهم صالح باي للوقوف مع الحكومة ضد الغارات الإسبانية[78]، والحظوة التي تمتّع بها الراشدي لدى صالح باي كانت أحد عوامل انتقاد

بعض العلماء له، حيث يذكر لنا الحفناوي أن الظروف التي أحاطت بالراشدي والحظوة التي لقيها من صالح باي وعلماء قسنطينة كانت سبب محنته[79]، كما أن الاختلاف المذهبي العقائدي والذي برز بشكل كبير في التفسير أدى إلى ظهور خلافات بين الكثير من العلماء.

كان عبد القادر الراشدي سلفي العقيدة، اعتمد في التفسير على المنهج الذي تتبعه المدرسة الظاهرية في التعامل مع نصوص الوحي، حيث كان يتعامل مع الآيات القرآنية بأسلوب التحليل والذي يتطلّب إطلاعا واسعا، وبذلك فقد اعتبر ثائرا على التفسير الصوفي الدروشي الذي كان منتشرا بشكل واسع في تلك الفترة، لقد كان في تفسيره شيء من الخروج عن المألوف، وعدم التقيّد الرتيب بالنصوص وآراء الأقدمين[80].

[76] – سورة ص، الآية 75.

[77]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج2، ص ص 14 – 15.

[78]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص 417.

[79] – محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[80]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص 14 – 15.

في شرحه لقصيدته "مفاد التحصيل لإعداد السبيل " التي وضعها للرد على مخالفيه ومنتقديه في مسألة التأويل، أورد قوله تعالى: " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "[81]، محلّلا بها انتفاء كون اليد المرادة هي جارحة اليد عن الإنسان، ونافيا بها تقدم دليل العقل عن النقل[82].

بالرجوع إلى القصيدة التي تبدأ ب:

خُبِّرَاًعَنِّي الْمُؤَوِلَ أَنِّي ⁂ كَافِرٌ بِالْذِي قَضَتْهُ الْعُقُولُ

وعلى الرغم من أن الشرح هو لقصيدة إلا أنه اعتمد في شرحها و تحليلها على الكثير من الآيات القرآنية وهي دليل على اصطباغه بفن التفسير[83]، ورغبة منه في التأكيد على بطلان اتهامه بالتجسيم، وأنّه على حق وهم على باطل.

في شرحه لقوله (كافر وضلول) التي وردت في البيت:

بَلْ هُنَا نَتَّبِعُ الآَبَاءِ وَالأَشْيَا ⁂ خِ كَمَا قَالَ كَافِرُ وَضَلُولُ

فقد شرح كافر وضلول بقوله تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"[84]، وبقوله تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا"[85]، وبقوله تعالى:"وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم

[81]- سورة الشورى، الآية 11.

[82]- عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 210.

[83]- عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 211.

[84]- سورة البقرة، الآية 170.

[85] – سورة النساء، الآية 61.

مُّعْرِضُونَ"[86]، بهدف بيان معاني الظلال والكفر وأسبابها، وغالب تفسيره في هذه الآيات التي اعتمدها في هذا النص كان بالمأثور واستخدامه لطريق تفسير القرآن بالقرآن[87].

يظهر كذلك استنباطه لبعض الأحكام والأصول والقواعد من القرآن الكريم كاستنباطه لقاعدة لا تحكم للعقل على النقل لأنه فتنة في الدين وتشكيك في اليقين[88]، من قوله تعالى:" وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ"[89].

كما اعتمد أيضا الاقتباس حيث أشار أنه اقتبس من قوله في القصيدة (شرعوا لهم من الدين)[90]، من قوله تعالى:" أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ"[91]، ثم بيّن ذلك بالقول وهذا اقتباس، كما اعتمد في تفسير هذه الآية أيضا في حديثه عن النهي عن إتباع الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، بالسنة النبوية بما رواه البخاري من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها:" إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم"[92].

يظهر أسلوبه المتفرّد في التفسير والقدرة على استنباط الأحكام من القرآن الكريم في كتابه " تحفة الإخوان في تحريم الدخان"، حيث اعتمد أيضا على التفسير بالقرآن الكريم في الإشارة إلى الدخان وإلى تحريمه، ومنها قوله تعالى:" يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ "[93]، في إشارة إلى الدخان[94]، وفي قوله

[86]- سورة النور، الآية 48.

[87]- عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 211.

[88]- المرجع نفسه.

[89]- سورة المائدة، الآية 49.

[90]- عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 211.

[91]- سورة الشورى، الآية 21.

[92]- عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 211.

[93]- سورة الرحمن، الآية 35.

[94]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 113.

تعالى:"وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ"[95]، حيث شرح اليحموم على أنه الدخان الأسود لا بارد ولا كريم، والإنذار به والتحذير منه آية الحرمة[96]، وقد اعتمد أيضا في إيجاد دلائل حرمة الدخان على التفسير بالأثر بالرجوع إلى من سبقوه من المفسّرين والأخذ عنهم، حيث يقول أن ابن العربي قال في تفسير قوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ"[97]، قال حذيفة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم:" وما الدخان يا رسول الله؟"، قال:" دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب أربعين ليلة ويوما، أما المؤمن فيصير له كهيئة الزكام، وأما الكافر فيصير بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه وعينيه ودبره"[98].

لقد عدّد عبد القادر الراشدي أسباب تحريم الدخان بخمسة عشر سببا، منها أن السلف لم يعرفه من قبل، وأنه بدعة وكل بدعة ضلالة، ويغيّر البدن ويؤذيه، ويشغل عن عبادة الله، يشبه بأكل النار وهي جنس من العذاب، فيه رائحة كريهة وقذارة، إضاعة المال وغيرها، وقد ختم الراشدي كتابه بقوله: " فالقول في هذا الدخان الذي عمّ في الأقطار في كل الميادين فشربه وتعاطيه بلا سبب حق حرام بتحقيق وتمكين لخبثه وما يحلّله سوى الشياطين".

كان عبد القادر الراشدي يتناول التفسير تدريسا، حيث كان يعقد لذلك مجالسا، غير أنه لا يمكن التأكيد ما إذا كانت هذه المجالس للتدريس أو مجالس اجتماعية يحضرها الباي والعلماء، كما يعرف أيضا ما إذا كان تفسيره قد جمع في كتاب، لأنه كان يتناول بعض الآيات في مناسبات معيّنة ويعرضها ويحلّلها[99].

[95]- سورة الواقعة، الآية 43.

[96] - عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 113.

[97]- سورة الدخان، الآية 10.

[98]- عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 114.

[99]- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 14.

إنّ الصراع العقائدي الذي عرفته الفترة التي عاش فيها الراشدي أثّرت على منهج التفسير وكيفية التعامل مع الآيات القرآنية [100]، وهو ما يعكسه أسلوب الراشدي في التفسير الذي يعتمد على الاجتهاد على الرغم من الاعتراضات والانتقادات التي لقيها، وكان الراشدي معارضا للتيار الصوفي المتطرّف، وظهر ذلك من خلال مؤلفاته التي جاءت للتصدي لأنصار البدع والأضواء من خلال فتاويه واجتهاداته ورسالته المعروفة في تحريم الدخان[101].

6ـ خلافه مع علماء عصره واتهامه بالتجسيم:

إنّ اجتهاد عبد القادر الراشدي في التفسير وأسلوبه المتحرّر في فتاويه كان من أهم أسباب المحنة التي عانى منها الراشدي من خلال اتهامه بالتجسيم، وقبل الخوض في هذه المسألة لا بد من التوقف عند ماهية مصطلح التجسيم.

أـ التجسيم:

هو التعبير عن المجرّد بالمحسوس، وعن الأفكار والمدركات العقلية بالصور المحسوسة، وغايته التصوير والتوضيح بإضفاء الصفات البشرية الحية ، وغير البشرية على الكائنات الجامدة والأفكار العقلية والذهنية، وجعل المجرّد الذهني النفسي والوجداني حسيا بامتلاكه صفات محسوسة من رؤية وسمع وشم وذوق ولمس، أو انفعالية من حزن وفرح، وألم وأسى، أو إعطاء ما لا يعقل صفة من يعقل[102].

[100] – عبد الغاني، عيساوي، المرجع السابق، ص 210.

[101] – عبد القادر، الراشدي، المصدر السابق، ص 114.

[102] – مقداد خزعل، أحمد، " التخييل والتجسيم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة: دراسة موضوعية"، مجلة سر من رأي جامعة سامراء، المجلد11، العدد43 السنة 11، ديسمبر2015، ص 284.

❋ التجسيم لغة:

إنّ الدلالة الوضعية للكلمة تدور حول البدن وما في معناه مما تجسد، بل نص ابن منظور على مرادفتها لكلمة الجسد[103]، وأرجع الخليل بن أحمد الفراهيدي كثيرا من الأسماء التي تطلق على الإنسان إلى معاني تتعلّق بالجسم[104].

❋ التجسيم اصطلاحا:

تعتبر قضية الصفات محور الخلاف بين أهل الكلام والفلاسفة، حيث اعتبر أهل أن إثبات الصفات بعضها أو جميعها يلزم منه أن يكون الموصوف بها جسما، ثم اختلفوا في ماهية الصفات المؤدية للجسمانية، فقد اعتبر المعتزلة أن إثبات الصفات يؤدي إلى تعدّد القدماء، وذلك شرك، ويقول شيخ المعتزلة واصل بن عطاء:" إن من أثبت لله معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين"[105]. ومن ثم رأوا أن قيام هذه الصفات بالذات يلزم منه خصائص الإعراض، لأن القائم بالشيء يحتاج إليه، وعندها يصبح الله تعالى محلا للأعراض وهذا يلزم منه التجسيم، والتجسيم عندهم كما عرّفه القاضي عبد الجبار:" أن الجسم هو ما كان عريضا عميقا ولا يحصل الطول والعرض إلا إذا تكوّن من ثمانية أجزاء"[106]. إلا إن النّظّام يرى أن الجسم هو الطويل العريض العميق وليس لأجزائه عدد،

---

[103]– محمد بن مكرم، بن منظور، لسان العرب،ج2، دار المعارف، بيروت،ط1، ط ت،ص 284.

[104]– الخليل بن أحمد، الفراهيدي، العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد الهنداوي،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص143.

[105]– أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الإتحاد العربي للطباعة، القاهرة، 1968، ص150.

[106]– عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1996، ص217.

وعمّم مفهوم الجسم على جميع الموجودات وبذلك تكون الألوان والطعوم والرائحة بالنسبة له أجساما[107].

ينكر المعتزلة الصفات، حيث يرون أن الله لا يرى يوم القيامة لأنه لا يرى إلا ما كان له عرض وطول، وما كان له عرض وطول فهو جسم، وعليه فلا يمكن رؤية الله تعالى يوم القيامة، وبذلك طردوا باقي الصفات التي يزعمون أنها تقيّد التحيّز كالعلو والجارحة كاليد والعين، كما تناول أصحاب المذهب الأشعري مفهوم التجسيم بالحديث على موضوع الصفات إثباتا ونفيا، فالجسم عند الأشاعرة هو المؤلف أو المركّب من جوهرين فصاعدا، وقد رد الأشاعرة كثيرا من الصفات الواردة في القرآن والسنة، وكان لهم في إنكارها طريقان: تأويل ظواهرها أو تفويض معانيها معتمدين في ذلك على نظرية التجسيم، والتي تقتضي أن المتحيّز إن كان ينقسم فهو الجسم، وإلا فيكون جوهرا، وهذه المعاني ينزّه عنها الرب سبحانه وتعالى، وعليه فإن ما ورد مما يوهم ذلك ليس على ظاهره، فيجب ردّه إما بالتأويل أو التفويض، وقد كان لتناول المتكلّمين لإثبات الجوهر الفرد دور كبير في توسيع منطقة النقاش حول مفهوم التجسيم.

ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة التجسيم حيث اتفق مع اللغويين في تحديد مفهوم الجسم وأنه هو البدن ، وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى مثل قوله تعالى: "نَّ اللهَّ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ"[108]، ونفى صفة الجسمية عن الله تعالى لأنه لا يوصف بصفات المخلوقين، ولا بما يختص بهم كالبدن و الجسم فلا يقال هو جسم ولا جسد[109].

[107] – أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين،ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1990، ص 5.

[108] – سورة البقرة، الآية 247.

[109] – تقي الدين أحمد، بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار الوفاء للطباعة، مصر،ط2، 2001، ص ص 213– 215.

ردّ ابن تيمية على المعارضين القائلين بلزوم إثبات الصفات حتى يكون جسدا، حيث يقول أن الهواء يعلو الأرض وليس جسد، وبيّن خطأهم في تحديد مفهوم الجسم كونه هو المؤلّف المركّب، ولا يعتبر بن تيمية مجسّما ولم يقل بالتجسيم بل ناقش خصومه في المسألة، ويعتبر بن تيمية من أبرز الفقهاء الذين اتهموا بالتجسيم، وقد اتهم الفقيه عبد القادر الراشدي أيضا بالتجسيم بسبب اجتهاده في التفسير.

بـ اتهام عبد القادر الراشدي بالتجسيم:

كان لعبد القادر الراشدي أسلوب متحرّر في التفسير، وفي آرائه وفتاويه كثير الاجتهاد، وهو ما سبّب له الكثير من المتاعب، حيث يرى أبو القاسم سعد الله أنه كان متحرّرا في فتاويه وآرائه وأن سيرته تشير إلى أنه واجه بعض التحدّي نتيجة لآرائه، وحكم عليه بعض علماء عصره بالكفر والزندقة[110].

إنّ اجتهاده في التفسير، وآرائه المتحرّرة، ومحاولته التجديد أدت إلى اصطدامه بطبيعة الكثير من العلماء لأنه وقف ضد ما كان سائدا آنذاك، فقد خرج بتفسيره عن المألوف[111]، لأنه كان ثائرا على التفسير الصوفي الدروشي الذي ضرب بأطنابه في تلك المرحلة، وقد تميّز بتفسيره بعدم التقيّد الرتيب بنصوص الأقدمين وآرائهم، وفي ذلك يقول الورثلاني:" وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم، بل بعضهم كفّره ومن الإسلام أخرجه وذلك أمر

عظيم في الدين، وقد قال الشيخ زروق إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند الله من إخراج مسلم واحد إلى الكفر بشبهة كفرية"[112]. وذكر الورثلاني أن أسباب اتهامه بالتجسيم

[110]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 14.

[111]– لزهاري، تريكي، المرجع السابق، ص 110.

[112]– الحسين بن محمد، الورثلاني، المصدر السابق، ص 697.

تعود إلى الحسد والبغض والتنافس، وإنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم، وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغي ذلك مما لا يناسبه"[113]. كما تحدّث الحفناوي أيضا عن أسباب اتهام الراشدي بقوله أن الظروف التي أحاطت بالراشدي والحظوة التي لقيها من صالح باي وعلماء قسنطينة كانت سبب محنه[114]، ومن أجل القضاء عليه وعلى مكانته التي نالها بفضل علمه الواسع وتفقّهه، فكثر خصومه وأعداؤه حيث استطاعوا الإطاحة به وكادوا أن ينالوا منه، واتهم بالحشوية، والتشيّع والاعتزال، والظاهرية، وقد بالغ خصومه بالتحرّش به فبدئوا في تأليب العامة والطلبة عليه، خاصة وأنه كان محبوبا من طرف العامة بتأكيد تلميذه مرتضى الزبيدي الذي قال أن الخواص كانوا يحبونه، وأما العوام فكانوا يتكلّمون فيه ويرمونه بالعظائم[115].

يعود اتهامه بالتجسيم إلى تفسيره لقوله تعالى:" لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"[116]، حيث وصف اليد على أنها حقيقية ومع ذلك ليست جسما ولا جارحة[117]، بل يستحيل ذلك لأنه يؤدي إلى الحدوث والإمكان، وقدح في التأويل بالقدرة أو صفة زائدة يخلق الله بها الأشراف من الخلق لأن التأويل محوج إلى الدليل والخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز فلم يكترث بالتأويل إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل، ولأن التأويل وإن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة، وإنما تنتفي على التسليم لصحة التأويل وإن كان في علم الله، كذلك لأن المصيب في العقائد واحد فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفي الجارحة وما يؤدي إلى الإمكان والحدوث والتجسيم، فمنهم من قال أن له يدا حقيقة فالعلم بها موكل إلى الله تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، فالعلم بها موكل إلى

[113]- المصدر نفسه، ص698.

[114]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

[115]- محمد مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص432.

[116]- سورة ص، الآية 75.

[117]- محمد، الحفناوي، المصدر السابق، ص 220.

الله تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة فكيف يلزم به مع أنه نفى التجسيم الذي يستلزم ما يليق به جل جلاله، فأنى أو كيف أو متى يلزمه"[118].

كتب عبد القادر الراشدي قصيدة "مفاد التحصيل لإعداد السبيل" للرد على خصومه، والتي جاء فيها:

خُبِّرَاَعَنِّي الْمُؤَوِلَ أَنِّي *** كَافِرٌ بِالْذِي قَضَتْهُ الْعُقُولُ

مَا قَضَتْهُ العُقُول لَيْسَ مِنَ الدِينِ*** بَلِ الدِينُ مَا حَوَتْهُ النُقُولُ

لَتَقُولاَنِ إِنَ ذَا أَكْثَرَ الْنَا *** سِ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَعُدُولُ

شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِينِ مَا لَمْ *** يَأْذَن اللهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ

فَاحْذَرَاهُم وَمَنْ تَلاَهُم إِذَا قِيْ *** لَ اتَبِّعُوا مُنَزِّلَ الْكِتَابِ يَقُولُ

بَلْ هُنَا نَتَّبعُ الآَبَاءِ وَالأَشْيَا *** خِ كَمَا قَالَ كَافِرُ وَضَلُولُ

لَيْسَ قَوْلهُم أَئِمَةَ دِيْنِ *** نَافِعَا كُلُهُمُ بِكُفْرِ يَصُولُ

قَالَ رَبِي فِي أَئِمَةِ كُفْرِ*** قَاتَلُوهُم لِيَنْتَهُوا أَوْ يَؤُولُ

يَبْنُوا مَا بِهِ البَيَانُ بِجَهْلِ *** كَذَبُوا كَذَبُوهُ صِدْقَ فُصُولُ

أَضْلاَلُ أَو انْتِفَاءُ لِحَق *** قَالَ بِهَدْي وَشُبْهَةِ يَا جَهُولُ

وَنَفَى بَاطِلاً وَأَنْبَتَ حَقَا *** ضِمْنَ نُطْقُ خِطَابِ كُلُّ يَهُوْنُ

وَنَفَى أَنْ يَكُونَ مَعَ حُكْمِهِ حُكْ *** مَ كَذَلِكَ مُعْقَبٌ وَفُلُولُ

[118]– الحسين بن محمد، الورثلاني، المصدر السابق، ص 698.

بَعْدَ هَذَا أَفِيهِ أَخَذَ بِكُفْر*** بِئْسَمَا نَطَقُوا وَبِئْسَ الْنُزُولُ[119]

رد الراشدي بهذه القصيدة على اتهامه بالتجسيم، والتي أشار في كثير من أبياتها إلى آيات من القرآن الكريم، ثم قام بشرحها مستدلا بالقرآن، حتى يثبت أنه على حق وأنهم على باطل، وقد أشار الورثلاني إليها بقوله أن الراشدي قدّم له رسالة موضوعة بهذا الكلام وقال أنها كانت منقّحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم غايته يبطل أدلة المؤول ويصحّح من يقول باليد حقيقة، غير أنه لا يعلمها إلا الله، لكن هذا كله بعد نفي التجسيم وما يشعر بالإمكان والحدوث فقد بالغوا في تضليله[120].

يقول أيضا مرتضى الزبيدي أن الراشدي أرسل له مع أحد طلبته رسالة نظمها في تحقيق مذهب السلف وأمرني حاملها أن أكتب عليها، فيقول:" كتبت عليها ارتجالا بعد أن كتب عليها في الحرمين صاحبنا السيد إبراهيم بن الأمير، وصاحبنا الصوفي السيد منصور السرميني، وفي مصر الشيخ أحمد الدردير وهذا نص ما كتبته:" ما قاله هذا السيد الشريف ذو القدير عمّر الله بالعلوم رباعه، ووسّع في فحوى المنطوق والمفهوم باعه، هو الحق الصريح الذي لا يحيد عنه ذوو العقول السليمة، والفهوم المستقيمة، فإن حقيقة مذهب السلف – وهو الحق – ردّ الأمر إلى الكتاب والسنة، وهما لمن أتبعهما الواقية والجنة، ثم التسليم لأهل المعرفة، مع الكف والإمساك وعدم اعتبار كل قوّال وأفّاك. وأما مضايق المعقول، فإنها مسالك لا يسلكها إلا كل جهول، بل هجوم على المشكلات، واقتحام في الورطات، وخوض في الغمرات وتوغل في المعضلات، وانحلال عن ربقة الدين المتين، وإبطال لأساس الأئمة المتقين"[121].

---

[119]– سليمان، الصيد، المرجع السابق، ص 49.

[120]– الحسين بن محمد، الورثلاني، المصدر السابق، ص 698.

[121]– محمد مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص ص 431 – 432.

من ذلك تظهر خطورة الاتهام الذي وجّه للراشدي لدرجة الوصول إلى الكفر والزندقة لا لسبب سوى للحقد والبغض والحسد والرغبة في التخلّص منه، وقد أثّر ذلك على الراشدي كثيرا لأن خصومه نجحوا في تأليب صالح باي ضدّه حيث قام بعزله من التدريس والإفتاء.

يظهر تأثّر الورثلاني من محنة الراشدي حيث قال:" قلبي سالم من جميعهم ومحب في جانبهم وراغب فيما عندهم ومعظم مما هو لديهم وقد قال خليل ولا عالم على مثله فإنهم كالتيوس فبينهم قدح وعلى غيرهم لا قدح ولا جرح فإن كانت الشريعة لم تقدح فيهم فكيف بمثلي أن يجعلهم غرضا لسهام الناس يرمونهم بالأغراض الخسيسة والخصال الذميمة طهّرهم الله من تلك الأوصاف ونزّههم من هذه الأخلاق الخسيسة"[122].

دافع الزبيدي عن شيخه قائلا: "والخلف المتأخرون، فما نهجوا ذلك المنهج إلا لضرورة إبطال حجج الطاغين، والكشف عن تأويلات المفسدين مع اعتقاد خطر استعماله، ولكن في وقت الحاجة، وعلى قدرها وعند انتفائها يلجئون إلى الكتاب والسنة، ويسدّون على الناس هذا الباب، والحالة هذه"[123].

تصوّر لنا الحادثة التي وقعت للراشدي الوضع خلال هذه الفترة، فاختلاف المرجعيات الدينية والتوجّهات الفكرية لعلماء قسنطينة زادت من حدة التنافس على الوظائف والمناصب العلمية والدينية، وقد كان التنافس بين العلماء كثيرا خاصة التنافس بين أصحاب المهنة الواحدة وهو ما جعلهم يدخلون في حرب من أجل الحصول على منصب أو وظيفة، وكان بعض العلماء لا يبالون حتى في إسقاط منافس لهم من مكانته، وهذا ما كان منتشرا، فكانت النتيجة إما السجن أو التغريم، أو الإهانة، أو العزل المشين، وحتى الإعدام ومصادرة الأملاك، كل ذلك من أجل وظيفة من

[122]- الحسين بن محمد، الورثلاني، المصدر السابق، ص 699.

[123]- محمد مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص 432.

المفروض فيها أنها في خدمة الدين[124]. كان الراشدي ضحية للتنافس والحقد والحسد عند حديثه عن المتشابه في العقائد، حيث بلغ الحقد والغيرة إلى درجة اتهامه بالكفر والتجسيم، حيث ثار عليه بعض علماء عصره لجهلهم وحقدهم عليه[125].

7ـ وفاتـــه:

لا يعلم عن تاريخ وفاته إلا ما ذكره تلميذه مرتضى الزبيدي:" ولم يزل على حاله من نشر السنة وإلقاء الدروس، وإلقاء الدروس، وإفادة الطلبة حتى توفي في أوائل ذي الحجة من شهور سنة 1194ه – رحمه الله تعالى رحمة واسعة – فما خلق بعده مثله، وتأسف الناس على فقده وحزنوا عليه"[126].

خاتمة الدراسة:

يعتبر الفقيه والمفسّر عبد القادر الراشدي من أبرز العلماء الذين أنجبتهم قسنطينة خلال العهد العثماني، اهتم بإصلاح المجتمع من المشاكل التي ظهرت فيه، من خلال توعية العامة بقواعد الشرع وأحكامه الصحيحة، وقد ترك بصماته من خلال إنتاجه الفكري الذي خلّفه ورائه خاصة في مجال علم التفسير، والذي برز وتميّز فيه بفضل تفوّقه العلمي واجتهاداته في التفسير رغم المحنة التي عاشها من خلال اتهامه بالتجسيم، والذي كان بدافع الحقد والحسد والتنافس الذي كان سائدا خلال تلك الفترة خاصة في قسنطينة .

الحظوة التي تمتّع بها الراشدي لدى صالح باي بالإضافة إلى الاختلاف العقائدي والتنوع المذهبي والمرجعيات، وأسلوب الراشدي المتميّز في التفسير الذي يغلب عليه الاجتهاد والرغبة في

[124]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص 402.

[125]– أحمد بن مبارك العطّار، تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر قسنطينة، 2001، ص11.

[126]– محمد مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص 432.

التجديد والإبداع، وابتعاده عن التقليد والابتداع، كلها عوامل خلقت للراشدي خصوما عملوا على مهاجمته واتهامه بالكفر والزندقة وتشويه صورته لدى صالح باي إلى غاية عزله عن منصبه، ورغم ذلك وقف الراشدي ضد خصومه ورد عليهم بالأدلة من القرآن الكريم من خلال قصيدته وشرحها والتي أظهرت تفوّقه فكان بحق عالما فقيها ومفسّرا متميزا من علماء قسنطينة والجزائر البارزين خلال العهد العثماني.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش.

1ـ المصادر:

1- الأشعري، أبي الحسن علي بن إسماعيل ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج2، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1990.

2- الحفناوي، محمد، تعريف الخلف برجال السلف، طبعة مؤسسة الرسالة، تونس،1982.

3- الراشدي، عبد القادر، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق: عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.

4-الزبيدي، محمد مرتضى، المعجم المختص، دار البشائر الإسلامية، لبنان،ط1، 2006.

5- الشهرستاني، أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة،1968.

6- الفراهيدي، الخليل بن أحمد ،العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد الهنداوي،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

7- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982.

8- الناصري، أبي راس، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب.

9- الورثلاني، الحسين بن محمد ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: ابن أبي شنب، الجزائر، 1908.

10- بن العطّار، أحمد بن مبارك ، تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة و النشر و التوزيع، قسنطينة،2011.

11- بن تيمية، تقي الدين أحمد ، مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار الوفاء للطباعة، مصر.

12- بن منظور، محمد بن مكرم ، لسان العرب،ج2، دار المعارف، بيروت،ط1، ط ت.

13- عبد الجبار، بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة،القاهرة،ط1996،3.

2ـ المراجع باللغة العربية:

1- الذهبي، محمد حسين ، علم التفسير، دار المعارف، القاهرة، (د ت).

2- الصيد، سليمان، نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار، وزارة الثقافة، الجزائر،2007،ط1.

3- المدني، أحمد توفيق ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 – 1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

4- بلغيث، محمد وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج 1، منشورات الحضارة، الجزائر،2014.

5- بوعزيز، يحي، رحلة في فضاء العمر أو مذكرات القرن، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

6- حمادي، عبد الله، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط1، 1986.

7- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 (1500 – 1830)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

8- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 (1500 – 1830)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

9- سعد الله، أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

10- غربي، كمال ، المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2013.

11- نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة والنشر، بيروت،ط1980،2.

3ـ المراجع باللغة الأجنبية:

- Gaffarel, Paul, L’Algérie. Histoire. Conquête et colonisation, Imp. de L’institut, Paris, 1883.

4ـ الدوريات باللغة العربية:

1- تريكي، لزهاري ،" المفتي عبد القادر الراشدي القسنطيني، العالم، المجاهد، والمفسّر"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر2 ، مجلد20، العدد 1، فيفري 2018، ص ص100 — 118.

2- خزعل، مقداد ، أحمد،" التخييل والتجسيم في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة: دراسة موضوعية"، مجلة سر من رأي، جامعة سامراء، المجلد11، العدد43،السنة 11، ديسمبر2015، ص ص 281 — 315.

3- قشي، فاطمة الزهراء ،" شهود العدالة في قسنطينة القرن التاسع عشر، الانتماء العائلي والمسار المهني، مجلة إنسانيات، المجلد 11، العدد36، ص ص 57- 76.

4- عبد الصمد، توفيق مزاري ،" أثر المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي حتى القرن السادس الهجري" ، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد 17، ص ص 137 — 163.

5ـ الدوريات باللغة الأجنبية:

- Charles, Féraud, « Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine », In R .A, N°12,1868.

6ـ الأطاريح:

1- أوجرتني، محمد، الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة،2014 — 2015.

2- عيساوي، عبد الغاني ، جهود علماء الجزائر في علم التفسير زمن العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانية، تخصص كتاب وسنة، جامعة باتنة1، 2015 — 2016.

قضايا علوم القرآن بين الاجتهاد والتقليد عند الثعالبي(ت875هـ) وابن باديس (ت1359هـ) من خلال تفسيريهما

د. نورة بن حسن، كلية العلوم الإسلامية،

جامعة باتنة1، الجزائر

د. مسعودة عدوي، كلية العلوم الإسلامية،

جامعة باتنة1، الجزائر

مقدمة:

لقد كان اهتمام الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم في المقام الأول منذ مطلع تدوين العلوم، ومن أبرز ما أَلَّف فيه العلماء ما يُسمى بفن" علوم القرآن" الذي يُعد من أهم المباحث التي لها منزلة خاصة في العلوم الإسلامية، بل هو المستند الذي يرتكز عليه العلماء والباحثون في تعاملهم مع النص القرآني، فلا يخلو أي مؤَلَّف في هذا المجال من علوم القرآن؛ لأجل الوصول إلى مراد الله تعالى.

من هنا تظهر العلاقة الوطيدة بين علوم القرآن وعلم التفسير، حيث تتخذ القرآن الكريم محورا للدراسة في شتّى النواحي، ولا خلاف بين العلماء في أنّ الغاية الكبرى من علوم القرآن، هي فهم القرآن الكريم وسبر أغواره لاستكشاف مقاصده. والنّاظر في كتب التّفسير يجدها تزخر بعلوم القرآن؛ فهي أدوات يُتوسل بها لفهمه واستخراج أسراره وهداياته.

وتظهر علوم القرآن في عمل المفسر في عدة نواح؛ فمنها ما يوظفه في التمهيدات تعريفا بالسور والآيات، كأسباب النزول والبيئة الزمانية والمكانية، وأسماء السور وغيرها، ومنها ما يستخدمه في الكشف عن معاني المفردات والتراكيب كعلم الغريب والوجوه والنظائر ونحوها، ومنها ما يوظفه في معرفة دلالات الألفاظ كالعام والخاص والمطلق والمقيد، ومنها ما يتعلق بالأساليب والبيان والبلاغة، ومنها ما يستعين به في التقعيد للتفسير وضبطه.

ونظرا لأهمية هذا الموضوع في تثوير النصوص عند المفسرين قديما وحديثا، تولّد الدافع الذاتي والسبب العلمي لبحث القضايا والمسائل المتعلقة بعلوم القرآن عند عَلمَين بارزين من أعلام التفسير الجزائريين؛ الشيخ عبد الرحمن الثعالبي(ت875ه) الذي أسهم في خدمة الأمة بتفسيره القيّم، المسمى "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، والشيخ ابن باديس(1359ه) في تفسيره" مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

من هنا جاءت الإشكالية الرئيسة: إلى أي مدى اجتهد هذان العلمان ـــ رحمهما الله ـــ في قضايا علوم القرآن التي وُظفت في تفسيريهما " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" و"مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير"؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة، منها: ما المقصود بعلوم القرآن، وما أبرز القضايا التي سخرها الشيخان لاستنطاق النصوص في تفسيريهما؟ وما موقفهما منها؟ وما جوانب الاجتهاد فيها؟ وكيف وظفوها في سيرورة العملية التفسيرية نحو تحقيق مقاصدها وقطف ثمارها؟

إنّ علاج الإشكالات السابقة، أرشد إلى درس الموضوع بعنوان: **" قضايا علوم القرآن بين الاجتهاد والتقليد عند الثعالبي(ت875ه) وابن باديس(1359ه) من خلال تفسيريهما".**

وتأسيسا على ذلك، يتطلّع البحث إلى إبراز أهم مباحث علوم القرآن التي انطوى عليها كل من تفسير الشيخ الثعالبي و الشيخ ابن باديس، وتحديد موقفهما من مختلف تلك العلوم، اجتهادا

وتقليدا، لاسيما أنّ بعضها إن لم نقل أكثرها، لازالت تتنازع إلى اليوم. وفوق ذلك نستهدف بيان كيفية استثمار تلك العلوم في سيرورة العملية التفسيرية إلى أن بلغت مرادها في هذين السفرين الذين رفعا صاحباهما مكانا عليّا في منظور أهل الاختصاص.

المبحث الأول: الإطار النظري للبحث

قبل إجراء الدراسة التطبيقية على تفسيري عالمين بارزين من أعلام الجزائر في التفسير، وهما الشيخ الثعالبي، والشيخ ابن باديس، فإنّه يتعين التأسيس له بدراسة نظرية تكون بمثابة الإطار الذي يُهيكل ما يُبنى عليه البحث من نماذج في قضايا علوم القرآن، التي أسهمت في سيرورة عملية التفسير وحركته لمواكبة الحياة في شتّى المستويات، والعمل على دفع التغيير نحو تفعيل دور القرآن في البناء والعمران. وينطلق هذا التأطير من تقديم بطاقة تعريفية للشيخين وتفسيريهما، ابتداء بالشيخ الثعالبي لتقدمه ثمّ إلحاق ذلك بتحديد مصطلحات العنوان.

المطلب الأول: التعريف بالثعالبي وتفسيره: لا يمكن الحديث عن قضايا علوم القرآن في تفسير الثعالبي قبل أخذ فكرة مجملة على الأقل عن صاحب هذه الهمة العالية التي أنتجت هذا التفسير، الذي ذاع صيته وحلّق في آفاق البحث العلمي، وظل حاضرا بين فرائد ما دونه العلماء في التفسير. فمن يكون الثعالبي؟ وما قيمة تفسيره؟

الفرع الأول: التعريف بالثعالبي

أولا : اسمه ونسبه وشهرته: الثعالبي هو أبو زيد عبد الرحمان بن مخلوف الجزائري بن عمر بن نوفل بن منصور بن محمد بن عباس بن مكي بن ثعلبة بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد البر بن قيس بن هلال بن عمار بن حسان بن محمد بن جعفر بن أبي طالب، ويلقب بالثعالبي نسبة إلى الثعالبة[1] الذين استوطنوا متيجة.[2]

1 – الثعالبة ، قيل أنهم ينتسبون إلى ثعلب بن علي بن بكر بن صغير، من العدنانية كانوا يقيمون في الجزائر ، وقيل هي نسبة إلى خياطة خلود الثعالبي.

ثانيا: **مولده ونشأته**: ولد الثعالبي سنة (785ه)، وقيل سنة (786ه) بواد يسر في الجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، ويبعد عنها بـ (86)كم، وهذا المكان هو موطن أبيه وأجداده، نشأ فيه وترعرع إلى أن أصبح شابا، حيث تعلم القراءة والكتابة والتوحيد والفقه وحفظ القرآن على والده ومعلمي المدارس.

ثالثا: **رحلاته العلمية**: كانت للثعالبي عدة رحلات علمية إلى دول عربية، وهي:

-رحلته إلى بجاية: أول رحلات الثعالبي خروجه من وادي يسر في أواخر سنة (802ه) بصحبة والده، ثمّ الاتجاه إلى بجاية التي مكث فيها سبع سنوات يأخذ من علمائها ويدرس عليهم.

-رحلته إلى تونس: ثمّ ارتحل إلى تونس في أواخر عام(809ه) وأوائل عام(810ه)، وأقام بها حوالي ثماني سنوات، وتلقى على علمائها فأجازوه، منهم أصحاب ابن عرفة به.

-رحلته إلى مصر: ورحل إلى المشرق، وحضر بمصر الكثير من مجالس شيخ المحدثين العراقي، وأخذ عنه علوم الحديث وأجازه بها، كما لقي البلالي، وأبي عبد الله البساطي المالكي.[3]

-رحلته إلى مكة: ومن مصر شد الرّحال إلى مكة لأداء فريضة الحج، حيث اجتمع ببعض المحدثين وأخذ عنهم.[4]

2- الكتاني: عبد الحي (ت1382ه)، فهرس الفهارس والأثبات، معجم المعاجم والمشيقات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي- بيروت، ط2، 1982م، 2/ 732، ترجمة رقم(390)، نويهض: عادل، معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، قدم له مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، (1409ه- 1988م)، 1/ 276، نويهض: عادل، معجَمُ أعلام الجزائِر – من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ،(1400 هـ - 1980م)، ص 90.

3- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص90.

4- الثعالبي: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد(ت875ه)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، (1418ه)، 5/ 171 .

-العودة إلى تونس: ثمّ عاد رحمه الله إلى تونس سنة (819ه)، ومكث قرابة السنة في جامع الزيتونة يَدرس ويُدرّس، فاجتمع هناك بشيخه محمد بن مرزوق الذي أجازه في تدريس الفنون الإسلامية.[5]

-العودة إلى الجزائر: شدّ الحنين الثعالبي- رحمه الله- إلى أرض الوطن فرجع بعد أن ترقى في سلالم العلم، وصرّح حين عودته من تونس بما تعلمه من علوم الحديث، قائلا: " ولم يكن يومئذ بتونس من أعلمه يفوقني في علم الحديث منَّة من الله وفضلا، وإذا تكلمت فيه فانصتوا وتلقوا ما أرويه بالقبول، فضلا من الله سبحانه ثم تواضعا منهم به وإنصافا وإذعانا للحق واعترافا به، وكان بعض فضلاء المغاربة هناك يقولون لي: " لما قدمتَ علينا من المشرق رأينا آية للسائلين في علوم الحديث، وذلك فضلا من الله ومنّة منه سبحانه، ومع ذلك لا أسمع مجلسا يروى فيه الحديث إلا حضرته...".[6]

وكانت عودته إلى أرض الوطن؛ مدينة الجزائر سنة(820ه)، بعد غياب دام عشرين سنة، وبها سخر ما تبقى من عمره معلما وواعظا إلى أن انتقل إلى جوار ربه.[7]

رابعا: شيوخه وتلاميذه نهل الثعالبي العلم على يد كبار العلماء المقتدى بهم، في فنون شرعية شتّى، وذلك أثناء رحلاته العلمية المختلفة، والذين كان لهم الأثر البارز في تكوينه ومكانته العلمية، منهم:

5- نفسه، 5/ 171.

6- مخلوف: محمد بن محمد(ت1360ه)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، (1424 هـ- 2003 م، ص 266.

7- كعبي: علي بن يحي، آراء الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الاعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان- عرض ونقد- ، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435ه - 2014م، ص18.

- الحافظ ولي الدين العراقي (ت862هـ) الذي أخذ عنه علوم الحديث، كما جاءت تصريحاته بذلك.[8]

- أبو القاسم القيرواني صاحب النوازل (ت813هـ).[9]

- ابن مرزوق الحفيد التلمساني الحافظ المفسر الفقيه (ت842 هـ).[10]

- علي بن عثمان المنجلاتي البجائي الزواوي، أبو الحسن، من علماء بجاية وفقهائها، له فتاوى، نقل بعضها في المازونية والمعيار.[11]

وكما تأثر بعدة شيوخ، ترك أيضا بصماته في تلاميذ استلموا المشعل منه بعد وفاته، من أبرزهم:

- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكريا التلمساني(899هـ)، له كتاب في مسائل القضاء والعقيدة، وبغية الطالب في شرح عقيدة أبي حاجب وغيرها.[12]

- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، له مؤلفات منها البدر المنير في علوم التفسير توفي سنة (909هـ).[13]

- أحمد بن عبد الرحمان الزاوي المغربي المالكي نزيل الجزائر(884).[14]

8- محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية،ص382.

9- السخاوي: أبو الخير شمس الدين بن محمد السخاوي (ت 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، 4/ 152.

10- الشوكاني: محمد بن علي اليمني (ت1250ه)،البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة بيروت، (د.ط.ت)، 2/ 119.

11- نويهض، معجم أعلام الجزائر،،ص 162- 163.

12- نفسه، ص 266.

13- السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 374.

6- نفسه، 5/ 273.

خامسا: **مؤلفاته** خلّف الثعالبي ميراثا علميا متنوعا، ومؤلفات خلدت اسمه ضمن النخبة العلمية، خاصة في التفسير، نذكر منها:[15]

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن في أربعة مجلدات.
- الأنوار في المعجزات النبوية.
- روضة الأنوار ونزهة الأخيار (مجموع)
- جامع الأمهات في أحكام العبادات
- الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز
- الإرشاد في مصالح العباد
- رياض الصالحين، العقد النفيس، الخيرات...إلخ

سادسا: **وفاته** لفظ الثعالبي أنفاسه- رحمه الله- بعد حياة حافلة بالعطاء سنة (875ه)، ودُفن بمدينة الجزائر.[16]

الفرع الثاني: **التعريف بتفسير الثعالبي**: وصلنا تفسير الثعالبي اليوم بعنوان "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، وهو نفس العنوان الذي سماه به الشيخ الثّعالبي في مقدمة تفسيره. ويُصنَّف هذا التفسير ضمن الاتجاه الصوفي الاجتماعي.

وقد تأثر فيه الشيخ الثعالبي بابن عطية، فجاء تفسيره اختصارا لتفسير ابن عطية المسمى " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، مع إضافات منتخبة من تآليف منتقاة للأئمة المحققين،

15- الزركلي: خير الدين بن محمود (ت1396ه)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، 2002 م، 3/ 331، عادل نويهض، معجم المفسرين،ص 2761.

16- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص.91

جامعا بين الرواية والرأي كما صرح بذلك في مقدمته: " فإنّي جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقرّ الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمنته بحمد الله المهم ممّا اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدت فوائد جمّة من غيره من كتب الأئمة، وتقاة أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف...".[17]

ويقول أيضا: "وها أنا إن شاء الله أشرع في المقصور، وألتقط من كلام ابن عطية ما يشتمل عليه من النُّبذ الحَسنة المختارة ما تقرّ به العين، وإذا نقلت شيئا من غيره عزوته لصاحبه".[18]

وقد أثنى عليه الذهبي، وعدّه مفيدا جامعا لخلاصات كتب قيّمة مفيدة، وليس فيه من الحشو المخل والاستطراد المُمِلّ.[19] محشو بنفائس الحكم وجواهر السنن الصحيحة، والحسان المأثورة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.[20]

وقد قام الثعالبي بتنقية التفسير من الواهي الشاذ من تفسير ابن عطية، والتزم الأمانة في النقل. وهذا ما صرح به في قوله: " وقد أودعته بحمد الله جزيل من الدرر وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية، وأسقطت كثيرا من التكرار، وما كان من الشواذ في غاية الوَهي، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها، مميزة معزوّة لحالها، منقولة بألفاظها، وتوخيت في ذلك الصدق والصواب"[21]، وأشار إلى طريقته في العزو على المصادر في مقدمته، حيث استعمل علامة(ت) لنفسه، والعين(ع) لابن عطية، وميّز ما ليس لابن عطية ب(انتهى) و(ص) للصفاقسي مختصر تفسير أبي حيان.

17– الثعالبي، الجواهر الحسان، 1/ 287.

18– نفسه، 1/ 287.

19– الذهبي: محمد حسين (ت 1398ه) ، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، (د، ط، ت)، 1/ 179.

22– نفسه، 1/ 177.

23– نفسه. 1/ 177.

كما سرد مصادره في علوم الحديث، وتناول بعض مقدمات علم التفسير، شأن بعض المفسرين.

والكتاب مطبوع في الجزائر في أربعة أجزاء، وتوجد نسخة منه بدار الكتب المصرية، وأخرى بالمكتبة الأزهرية، وفي آخر الكتاب معجم مختصر في شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة.

المطلب الثاني: التعريف بابن باديس وتفسيره: يُعد الشيخ عبد الحميد بن باديس من أبرز أعلام الجزائر في التفسير، بل أحد رواد النهضة الإسلامية في العصر الحديث، فمن يكون؟ وما العوامل التي أهلته لأن يحجز مكانة علمية مرموقة بين المفسرين؟ وما خصائص تفسيره، ومنهجه فيه؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه بإيجاز في الفروع الموالية.

الفرع الأول: التعريف بابن باديس

أولا: اسمه ونسبه: عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي، وابن زهرة بنت علي بن جلول.[22]

تمتد شجرة عائلة الشيخ بن باديس إلى بلكين بن زيري؛ مؤسس دولة بن زيري، والذي بنى كل من مدينة الجزائر العاصمة ومليانة والمدية، والمعزّ بن باديس أحد أجداده الذي خلّص البلاد من السيطرة الفاطمية عام (1048م).[23]

ثانيا: مولده ونشأته: ولد ابن باديس بقسنطينة في الرابع من شهر ديسمبر سنة (1889م) الموافق لمنتصف ربيع الثاني (1307ه).[24] فكان الولد البكر لأبويه، نشأ في أسرة شريفة ذات مكانة وعلم ودين وثراء، فأخذ تعليمه الأول على يد والده، وتلقى منه تربية إسلامية خالصة؛ حيث كان والدها الشيخ مصطفى بن مكي، من ذوي الفضل والمروءة، والحفاظ لشعائر الدين والغيرة عليه،

22- الونيسي: رابح، تاريخ الجزائر المعاصر (1830م ـــــ1989م)، دار المعرفة، (د.ط)،(2010م)، ص 95.

23- نفسه، ص95.

24- نفسه، ص 95.

كان يحفظ القرآن ويتعهد بتلاوته، وخاصة في شهر رمضان حتى أنّه أمضى ليالي شهر رمضان كلّها سنة (1351ه) يُقيم صلاة التراويح في مسجد "سيدي قموش" الذي بناه على نفقته"[25].

كما أنّه خصص معلما لتعليم القرآن، في ذلك المسجد على نفقته، وكان من أعيان قسنطينة وعضوا بالمجلس الأعلى، وأمه زهرة بنت علي بن جلول من أسرة عبد الجليل المشهورة في قسنطينة بالعلم والجاه والثراء[26]، فهذه التنشئة الأولية والمتابعة كوّنت شخصية، علمية دينية مكينة، جعلت من ابن باديس خير خلف لصالح سلف من أسرته وأجداده، وقد تزوج الشيخ ابن باديس سنة (1904م)، وأنجب ولدا أسماه إسماعيل، حفظ القرآن الكريم وحضر العلم، ثمّ توفي وهو صغير، ولم ينجب غيره[27].

ثالثا: حياته العلمية ورحلاته

مرت حياة ابن باديس بأربع مراحل رئيسة، وكانت له رحلات علمية خلالها، وهي:

-**مرحلة الصبا بقسنطينة**: في مدينة الجسور المعلقة حيث رأى ابن باديس النور، تلقى تعليمه الأولي على يد والده كما سبق الإشارة إليه؛ حيث علمهم مبادئ القراءة والكتابة في البيت، ورفض إلحاقه بالدراسة في المدارس الفرنسية، ثمّ أدخله أحد الكتاتيب القرآنية، وهو في الخامسة من عمره، فحفظ القرآن على الشيخ محمد المداسي، ثم حفظ العلوم الدينية في قسنطينة على الشيخ حمدان لونيسي.[28]

25- مرحوم: علي، مجلة الأصالة، س4 ،ع 24، ص113 .

26 -عمار طالبي، ابن باديس: حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، ط1، (1403ه-1987م)، 1/ 74.

27- ابن باديس، عبد الحميد محمد الصنهاجي (ت 1359هـ)، تفسيرمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،ط1، (1416هـ - 1995م)، ص6.

28- مفدي زكريا، حصص إذاعية، جمع وتحقيق: مصطفى بالحاج، موف للنشر، الجزائر، ، (2007م)، ص117.

- **رحلته إلى تونس:** وبعد إنهائه التعليم الابتدائي (1326- 1908م) توجه إلى تونس لإكمال تعليمه في جامع الزيتونة. وعمره لم يتجاوز الخامسة عشر، تحصيلا للعلم في هذه المؤسسة العلمية العريقة، وتحقيقا لمطلب أستاذه لونيسي، وأمنية والديه.[29]

ومع نهاية السنة الدراسية (1910- 1911م) تحصل على شهادة التطويع بتفوق، وكان ترتيب الإمام الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج في الزيتونة في تلك الدورة.[30]

-**رحلته إلى المشرق**: وفي عام (1912م- 1913م) عاد ابن باديس إلى مسقط رأسه، وانتصب للتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، لكن قطع عمله في العام نفسه، ارتحل نحو الحجاز لأداء فريضة الحج، وعمره آنذاك أربعة وعشرون سنة، ومرّ ابن باديس في طريقه إلى بيت الله الحرام بمصر، فأقام بها مدة طويلة من الزمن، ليكمل رحلته بعد ذلك، ويستقر به المقام في المدينة المنورة، التي كانت آنذاك كمقصد العلماء وطلبة العلم، وطلبة العلم من جميع بقاع العالم الإسلامي، وهناك التقى بالشيخ الجليل حمدان الونيسي الذي صار مدرسا بالمسجد النّبوي والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، كما التقى بشيوخ وعلماء آخرين، منهم على الخصوص الشيخ حسين الهندي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر لخدمة الدين والوطن.[31]

- **العودة إلى الجزائر:** وبعد عودته من المشرق سنة (1914م)، باشر عمله في قسنطينة لتعليم النشء الجزائري، وكان يلقي الدروس العامة منها التفسير والحديث في الجامع الأخضر، والدروس للطلبة بمسجد سيدي قموش، أما تلاميذ الكتاتيب القرآنية فإنّه كان يلقي عليهم

29- الجابري: محمد الصالح، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، (1900، 1962م)، ص 59.

30- نفسه، ص62.

31- مفدي زكرياء، حصص إذاعية، ص96.

دروسه في كتابين اثنين: كتاب سيدي فتح الله برحبة الصوف، وكتاب الزاوية القادرية، سيدي عبد المؤمن وسط المدينة القديمة.[32]

وشرع في ممارسته العمل الإصلاحي والجهادي والتربوي، وكانت له مشاريع إصلاحية متعددة، تهدف إلى الحفاظ على الشخصية الوطنية ومقوماتها، ومحاربة الشعوذة والخرافات، والحفاظ على وحدة الأمة، فأسس جمعية العلماء المسلمين لجمع شمل علماء الدين، لتحقيق الإصلاح، بالإضافة إلى إنشاء المدارس الحرّة، لتعليم الأطفال والكبار اللغة. إضافة إلى نشاطات أخرى وخاصة العمل الصحفي؛ ففي عام:

ــــ (1345ه- 1926م)، أصدر جريدة "المنتقد" التي أغلقتها السلطات الاستعمارية بعد إصدار ثمانية عشر عددا منها.

- (1345هـــــ 1926م)، أصدر جريدة أسبوعية سماها "الشهاب"، وفي سنة (1929م) تحولت الجريدة إلى مجلة شهرية علمية، تؤدي رسالتها مصدرة في الغالب بتفسير آيات من القرآن الكريم، وشرح الأحاديث إلى آخر عدد لها سنة (1939م) وقد صدر منها في حياته خمسة عشر مجلدا، وتعتبر مرجعا لتاريخ الجزائر بين الحربين العالميتين.[33]

- (1349ه- 1930م)، انتخب رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.[34]

32- نفسه، ص24-25.

33- نفسه، ص25.

34- هلال: عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830م- 1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1995م)، ص409.

رابعا: شيوخه وتلاميذه

ارتاد ابن باديس مجالس علمية لكبار العلماء، فكان لهم الأثر في حياته العلمية والأخلاقية والدعوية، فكان مجلس القرآن أول ما وطئته قدماه، فحفظه وهو صغير على يد الشيخ محمد المواسي، ثم أسلمه والده إلى العالم الورع التقي حمدان الونيسي، فرباه على العلم والفضل والأدب، وأوصاه بالابتعاد عن الوظيف، وقراءة العلم للعلم لا للرغيف. ثمّ خرج في رحلة علمية إلى تونس، فتتلمذ على صفوة علماء جامع الزيتونة، منارة العلم آنذاك، أشهرهم:[35]

- الشيخ محمد النخلي القيرواني أستاذ التفسير في جامع الزيتونة.
- العلامة محمد الطاهر بن عاشور الذي لازمه ابن باديس ثلاث سنوات، وكان لهذا فضل في تكوينه الأدبي اللغوي.
- والشيخ محمد الخضر حسين.
- الأستاذ البشير صفر الذي أخذ عنه التاريخ العربي الإسلامي.
- والشيخ الصالح النيفر، وكثير من أفاضل علماء جامعة الزيتونة وغيرهم.

وبما أنّ همة الشيخ كانت تتجاوز اهتماماته الشخصية، فإنّ التطلع للتغيير والإصلاح كان همُّه الأكبر، شأن العظماء، فقد سعى إلى تأليف الرجال، وشُغل بذلك عن تأليف الكتب من خلال تلاميذه الذين كانوا منطلقه نحو الانفجار الحضاري والإصلاح الاجتماعي، كما صرّح بذلك قائلا:" شُغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب".[36]

35 – أحمد شمس الدين، مقدمة تفسير مجالس التذكير لابن باديس، ص7.

36 – سلوادي: حسن عبد الرحمن، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)،(1988م)،ص63 .

وتلاميذه "هم الذين اصطلوا بنيران الثورة الجزائرية الكبرى، وكثير منهم كان الوقود لها. وكثير منهم اليوم يفخر بأنّه من تلامذة ابن باديس".[37]

ومن أشهر تلاميذه: الفضيل الورتلاني، المبارك الميلي، سعيد البيباني، سعيد صالحي، باعزيز بن عمر، عبد اللطيف سلطاني، أحمد حماني، علي مرحوم، محمد الصالح بن عتيق، أحمد بن ذياب، محمد الصالح رمضان، وغيرهم.[38]

خامسا: مؤلفاته وآثاره

رحل ابن باديس -رحمه الله- بعد أن نحت في العقول مآثره وآثاره، الشاهدة على مكانته العلمية، وحجم تضحياته وتفانيه في النهوض بالجزائر، والدور الرائد الذي قام به في تكوين الجيل وتعليمه مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، واللغة العربية، وبناء الشخصية الوطنية ومقوماتها، ومما خلفه العلاّمة من آثار:[39]

- تفسير مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، طبع سنة(1964م).
- من الهدي النبوي، طبع سنة(1965م).
- رجال السلف ونساؤه، طبع سنة 1965م
- عقيدة التوحيد من القرآن والسنة، طبع سنة 1964م
- أحسن القصص، لم يطبع بعد.

37-شمي الدين: أحمد، مقدمة تفسير ابن باديس: في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، للإمام العلامة: "عبد الحميد محمد ابن باديس الصنهاجي" (1308 – 1359هـ)، جمع وترتيب:د. توفيق محمد شاهين جامعة الأزهر،محمد الصالح رمضان أستاذ بوزارة التربية الجزائرية،علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، (1416هـ-1995م)، ص1.

38- مولود عويمر، عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، إصدارات جسور النشر والتوزيع، 2012م.

39 – توفيق محمد شاهين، تعريف بالإمام عبد الحميد بن باديس ضمن تفسير بن باديس في مجالس التذكير، 1/ 14.

- رسالة في الأصول، لم يطبع بعد.

- مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية، جمعت مع بعض ما سبق، وطبعت في كتاب.

- مجموعة خطب ومقالات ابن باديس، طُبعت في كتاب سنة 1966م.

سادسا: وفاته

توفي الإمام عبد الحميد بن باديس مساء يوم الثلاثاء، الثامن من ربيع الأول سنة (1359ه)، الموافق للسادس عشر من شهر أفريل (1940م) بقسنطينة الحاضنة لنشاطه. ودُفن بعد زوال ذلك اليوم، وشهد جنازته ما بين خمسين وسبعين ألف، من بينهما أبناء مكاتب العربية والفرنسية والكشافة وسائر الجمعيات المختلفة.[40]

الفرع الثاني: التعريف بتفسير ابن باديس

يحمل تفسير الشيخ ابن باديس اليوم عنوان "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، لأنّ تفسيره في البداية لم يكن مدونا حياته بل كان شفاهيا، حيث كان ابن باديس يجلس كل ليلة بعد صلاة العشاء في الجامع الأخضر لتفسير القرآن الكريم، وهذا المجلس عام لجميع فئات المجتمع.

ورغم حرصه على الالتزام بمجلس التّفسير مع كثرة أعبائه ومسؤولياته إلاّ أنّه لم ينه تفسيره كله إلا بعد خمس وعشرين سنة، أي ما يوازي مدة نزوله. ويعود السبب إلى انشغال الشيخ بتأليف الرجال عن تأليف الكتب. فكان التفسير شفاهيا، لم يدون إلاّ ما جمع من الدروس المنشورة في مجلة الشهاب " فلم يبق من تفسيره سوى هذا القدر الباقي في مجالس التذكير، مما كان ينشر في مجلة

40- الحسني: محمد الهادي، أشعة الشروق، دار الأمة، الجزائر، د.ط.ت، ص161 .

الشهاب، وهناك فرق كبير بين التفسير الخاص لطلابه، والعام في الوعظ والإرشاد، وما كان يكتب في مجالس التذكير ليقرأه العام والخاص.[41]

وهي "نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنّها نموذج من أسلوبه الكتابي. هذه المجالس العامرة هي التي تصدّى الأخ الوفي السيد "أحمد بو شمال"، عضد الإمام المفسر وصفيه، وكاتبه والمؤتمن على أسراره- لتجريدها من مجلة الشهاب ونشرها كتاباً مستقلاً؛ قياماً بحق الوفاء للإمام الفقيد..." [42]

فأحمد بوشمال؛ مدير المطبعة الإسلامية بقسنطينة هو الذي تولّى تدوين تلك الدروس ونشرها بعد وفاة الشيخ، ثم قام بنشرها مع إضافات أحمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين سنة (1964م)، ثم طبعته وزارة الشؤون الدينية سنة (1982م)، ثم طبعه الدكتور عمار طالبي سنة (1962م) وسنة (1983م) كما طبعته دار الفكر بتقديم محمد البهي بعنوان "تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"[43] ، ودار الكتب العلمية، ببيروت، بتحقيق أحمد شمس الدين، سنة (1995م) وهو المعدّ اليوم للمكتبة الشاملة الإصدار السادس.

وتسمية تفسير ابن باديس؛ أُخذ من عنوان افتتاحية كل عدد من مجلة "الشهاب"، وهذا ما صرح به عمار طالبي: "ويكفي في هذه المقدمة أن نركّز اهتمامنا في جانب من أكثر الجوانب تمييزاً لفكر ابن باديس. أريد أن أتكلم عن الافتتاحية التي كانت ترد في مطلع كل عدد من مجلة "الشهاب" تحت عنوان "مجالس التذكير" كان الشيخ يكتب هذه الافتتاحية دائماً: وإنها لأثر العالم الداعية، المصلح الفذ".[44]

41- توفيق محمد شاهين، التعريف بابن باديس ضمن مجالس التذكير لابن باديس، ص9.

42- نفسه، ص21.

43- حسن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، ص63.

44-ابن باديس، آثار ابن باديس، ص12.

وتفسير "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" ينتمي إلى الاتجاه الإصلاحي الاجتماعي، على خطى مدرسة محمد عبده التي تأثر بها ابن باديس عن طريق شيوخه بجامعة الزيتونة بتونس التي كانت امتدادا للمدرسة الإصلاحية الاجتماعية بالمشرق.

أمّا قواعده ومصادره في التفسير، فقد أشار إليها عموما في خطبة افتتاحه لدروس التفسير، ويمكن إجمالها في الآتي:[45]

- اعتماد الراجح في معاني الألفاظ.
- حمل التراكيب على أبلغ الأساليب البيانية
- العناية بالمناسبات بين الآيات
- مراعاة الصحة في النقل، والسداد في الرأي في ما يأخذه عن المتقدمين والمتأخرين.

كما أشار إلى مصادره التفسيرية التي انتخبها للاستمداد منها، وهي: تفسير "ابن جرير الطبري"، وتفسير "الزمخشري"، وتفسير "أبي حيان الأندلسي"، وتفسير "الرازي" وذلك نظرا لانفراد كل واحد منها بخاصية. إلى غير ذلك من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام.

وقد سلك أحسن الطرق في التفسير، وهي: تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسُنّة، تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتّابعين، توقي الإسرائيليات، الجمع بين التفسير النّقلي الصحيح والعقلي السديد.

ويمكن إجمال منهج تناوله للدرس في العناصر الآتية:

45- ابن باديس، مجالس التذكير، ص41.

- ببيان مباحث علوم القرآن المختلفة التي تخدم الآية كأسباب النزول، شرح الألفاظ الغريبة، والمناسبات، والقراءات، ...إلخ.

- بيان المعنى الإجمالي للتراكيب والآيات أو الدرس

- استنباط المقاصد والعبر والهدايات.

وأهم خصائص دروسه التفسيرية:

- تقسيم النّص إلى وحدات موضوعية

- تجاوز الخلافات المذهبية

- الربط بين الواقع والنصوص القرآنية

- استعمال الأسلوب السهل الميسر.

المبحث الثاني: تطبيقات لقضايا علوم القرآن في تفسيري الثعالبي وابن باديس (رحمهما الله)

بعد لمحة سريعة عن حياة الشيخين الثّعالبي وابن باديس، وتفسيريهما، نتناول قضايا علوم القرآن التي وظفها الشيخان لإنضاج عملية التفسير، ومواكبتها لمستجدات عصرهما، والوقوف على مقاصد الشارع، والغوص في بواطن الآيات للكشف عن معانيها، واستنباط حكمها وأسرارها، وتوخي تفعيل معانيها في الواقع للإسهام في الإصلاح والرقي.

وبما أنّ علوم القرآن كثيرة ومتنوعة، حيث بلغت عند الزركشي في "البرهان في علوم القرآن" أزيد من أربعين، في حين تجاوزت عند السيوطي في " الإتقان في علوم القرآن" الثمانين، وأوصلها ابن عقيلة المكي في "الزيادة والإحسان في علوم القرآن" إلى ثلاث مائة، فإنّه يصعب حصرها عند الشيخين في هذا البحث، لذلك آثرنا الاكتفاء بضرب نماذج تطبيقية تبرز الجهود ومواطن الاجتهاد

والتقليد، وتعكس مدى تحكم الشيخين في أدوات التفسير وآلياته. وللوصول إلى ذلك سنُفرِد لكل منهما مطلبا مستقلا.

المطلب الأول: قضايا علوم القرآن عند الثعالبي

تُعد التفاسير موسوعات؛ تنطوي على علوم كثيرة إلى جانب التفسير، شأن تفسير الثّعالبي الذي ضمّ بين جلدتيه الكثير من مسائل علوم القرآن، التي لا يمكن ممارسة التفسير دونها، إذ يُدرجها بعض الباحثين في الشروط العلمية التي ينبغي توفرها في المفسر، فضلا عن العقدية والعقلية، ومن بينها:

الفرع الأول: علم المكي والمدني

ومعرفة المكي والمدني تُعين على فهم القرآن الكريم وتفسيره " إنّ معرفة مواقع النزول تساعد الباحث على فهم الآية وتفسيرها تفسيرا صحيحا. وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".[46]

وهو ما أدركه المفسرون والباحثون وعدوه من أدوات التفسير، وسلك نهجهم الثعالبي، الذي درج في تفسيره على بيان المكي والمدني من آيات القرآن الكريم قبل الشروع في التفسير، ليكون القارئ على بيّنة، ومن أبرز النماذج على ذلك ما أورده قبل شروعه في تفسير سورة البقرة، حيث يقول عنها: "هذه السورة مدنيّة نزلت في مدد شتّى، وفيها آخر آية نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلم،"وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.[47]

46- محمد معبد: محمد أحمد (ت1430هـ)، نفحات من علوم القرآن، دار السلام، القاهرة، ط2، (1426 هـ – 2005م)، ص33.

47- الثعالبي، الجواهر الحسان،1/ 178.

ويُستفاد من كلامه أنّ سورة البقرة مدنية إلا آية واحدة، لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آياتها متفرّقة بعضها أول العهد وبعضها أوسطه وبعضها آخره. ويُفهم منه أنّه على الرأي الراجح في مكية السور والآيات ومدنيتها. وإن لم ينص على ذلك صراحة ولا أشار إلى المصدر.

ويرتكز الثعالبي على النقل أحيانا في تحديد البيئة التي نزلت فيها السورة، ويكتفي بذلك دون ترجيح ولا اجتهاد، ويتجلى ذلك في سورة الأعراف التي يقول فيها: " سورة الأعراف مكّيّة، كلها. قاله الضحاك، وغيره. وقال مقاتل: هي مكّيّة إلاّ قوله سبحانه: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإنّ هذه الآيات مدنية".[48]

الفرع الثاني: علم فضائل القرآن

من المؤلفات في هذا العلم "من فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها" للخَلَّال (ت 439هـ)، وكتاب "فضائل القرآن العظيم وثواب من تعلمه وعلمه وما أعد الله عز وجل لتاليه في الجنان"، لضياء الدين المقدسي (ت643هـ)، ومن المؤلفات المعاصرة "موسوعة فضائل سور وآيات القرآن – القسم الصحيح"، محمد بن رزق بن طرهوني.

وقد حاز هذا العلم عناية جُل المفسرين، الذين منهم مفسرنا الثعالبي، الذي كان قبل أن يشرع في التفسير يتطرق إلى فضائل السور كعلم من علوم القرآن، والغرض من ذلك عموما عند الثعالبي هو الترغيب ففي فضل سورة البقرة، يعتمد على النّقل عن النّبي صلّى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله: {اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ،

48- نفسه، 3/ 5.

تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا[49] الْبَطَلَةُ». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ}.[50]

وروى أبو هريرة عنه صلّى الله عليه وسلم، أنّه قال: { لكلّ شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة فيها آية هي سيّدة آي القرآن، هي آية الكرسيّ}[51]، وفي "البخاريّ" أنه صلّى الله عليه وسلم قال: {من قرأ بالآيتين مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ}".[52]

الفرع الثالث: علم غريب القرآن

في الاصطلاح "ما وقع في القرآن من الألفاظ البعيدة عن الفهم"[53]؛ أي الألفاظ القرآنية الغامضة على القارئ، ممّا يجعلها بحاجة إلى توضيح معانيها وشرحها بما جاء في لغة العرب، وأشعارهم وكلامهم. وقد يعود سبب الغرابة إلى قلة توظيف الكلمة أو استعمالها في كناية أو استعارة أو مجاز، أو لقلة الذخيرة في اللغة، خاصة بعد دخول الأعاجم في الإسلام، والبعد عن العهد النّبوي.

وألفاظ القرآن، كما يقول أبو حيّان الأندلسي (ت745هـ) "على قسمين:[54]

49- لا يستطيعها أي لا يقدر على تحصيلها.

50- أخرجه مسلم بن الحجاج: أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت261هـ)، في المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط.ت)، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، 1/ 553، حديث(804).

51- أخرجه الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة، (ت279هـ)، في سننه، تحقيق وتعليق: إبراهيم معطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، (1395 هـ - 1975م)، كتاب: فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، 5/ 157، حديث (2878).

52- الثعالبي:، الجواهر الحسان في تفسير القرءان،1/ 178.

53- نور الدين عتر: محمد الحلبي، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1،(1414 هـ - 1993م)، ص255.

54- أثير الدين:أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت745هـ)، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، المحقق: سمير المجذوب، المكتب الإسلامي، ط1، (1403هـ - 1983م)، ص40.

قسم: يشترك في معناه العامة والخاصة، كمدلول السماء والأرض.

وقسم: يختص بمعرفته، من له اطلاع وتبحُّر في اللغة العربية، وهو الذي صَنّف أكثر الناس فيه، وسمَّوه: غريب القرآن.

ومعرفة غريب القرآن من أهم أدوات التفسير، لمن يريد أن يدرك معانيه.

ومن أجل ذلك: فقد نبّه الزركشي(ت794هـ) إلى ضرورة معرفة الغريب، والإحاطة باللغة، بالنسبة للمفسر،[55] وساق قول الإمام مالك بن أنس (ت179هـ): "لا أُوتَى برجل يفسّر كتاب الله، غيرَ عالم بلغة العرب، إلا جعلته نكالا".[56]

حاز اهتمام الثّعالبي علم الغريب، وإن تفاوتت نظرتهم إليه، فما يعُدُه بعضهم غريباً، قد يكون عند غيره ليس من قبيل الغريب، ونكتفي بالتمثيل للألفاظ الغربية التي ذكرها الثعالبي بلفظة السفه الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13]

قال الثّعالبي: "والسفه: الخفَّة والرقَّة الداعيةُ إلى الخفة، يقال: ثوب سَفِيهٌ، إذا كان رقيقًا هَلْهَلَ النَّسْجِ، وهذا القول إنما كانوا يقولونه في خفاء، فَأَطْلَعَ اللهَّ عليه نبيَّه عليه السلام، والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقَّة الحلوم وفساد البصائرِ إنّما هو في حيِّزهم وصفةٌ لهم، وأخبر أنّهم لا يعلمون أنّهم

55- الزركشي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر(ت794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، (1376هـ - 1957م)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، 1/ 292.

56- البيهقي: أبو بكر أحمد بن موسى الخراساني، (ت458هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1، (1423 هـ - 2003م)، تعظيم القرآن، فصل في ترك التفسير بالظن، 3/ 543، حديث (2090).

السفهاء لِلرَّيْنِ الَّذي على قلوبهم"[57]، فالثعالبي يبيّن الكلمة الغريبة ويشرح معناها عموما لتقريبها إلى الأذهان، ثُمّ يحدد معناها في سياق الآية.

الفرع الرابع: علم القراءات

علم القراءات اصطلاحا: " فهو العلم الذي يُعنى بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم، واختلافها معزوا إلى ناقله"[58]، وقد يتفق القراء أو يختلفون في قراءة كلمة من القرآن، والثعالبي يبحث مسألة القراءات كلّما استدعى المقام ذلك، ويذكر الاتفاق أو الاختلاف، ويوجه بالحجة والدليل، وتوجيه القراءات له دور في فهم معاني القرآن الكريم واستنباط أحكامه، قال الزركشي: " وهو فن جليل، وبه تُعرف جلالة المعاني وجزالتها، وقد اعتنى الأئمة به، وأفردوا فيه كتبا".[59]

ومن أبرز النماذج على ذلك ما ساقه في قراءة كلمة "القيّوم" في آية الكرسي حيث قال: "وقراءة الجمهور" القَيُّوم"، وقرئ خارجَ السَّبْعِ: " القَيَّامُ" و" القَيِّمُ"".[60]

فالثعالبي أشار إلى قراءة الجمهور، وهم القراء السّبع، كما أشار إلى قراءة غيرهم عموما دون ذكر أسمائهم. وقد أسندها في "المحتسب" فقال: قرأ "الحيّ القيّام" كل من عمر، وعثمان، وابن مسعود، والنّخعي، والأعمش، وأصحاب عبد الله، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وأبي رجاء

57- الثعالبي، الجواهر الحسان، 1/ 189.

58- ابن الجزري: أبو الخير شمس الدين محمد بن يوسف (ت833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية، ط1، (1420هـ -1999م)، ص9.

59- الزركشي، البرهان، 1/ 339.

60- الثعالبي، الجواهر الحسان، 2/ 5.

بخلاف، ورويت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وقرأ " الحيّ القيّم" علقمة بن قيس".[61]وكذلك في المحرر الوجيز.[62]

ولا يحتج الثعالبي بالقراءات المتواترة فقط، بل يحتج ببعض القراءات الشّاذّة أيضا لتعضيد المعنى وتقوية التأويل، ومثاله ما ذكره في تفسير قوله تعالى:﴿ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[التوبة: 128] قال: وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحا لنسبه صلى الله عليه وسلم، وأنّه من صميمِ العَرَبِ وشَرَفِها، وقرأ عبد اللهَّ بن قُسَيْطٍ المَكِّيُّ " مِنْ أَنْفَسِكُمْ" - بفتح الفاء- من النّفاسة، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم".[63] و قراءة فتح فاء "أنفسكم" شاذة.

قال المحققون لكتابه: "ولقد كان الثعالبي- رحمه الله- يكثر من إيراد القراءات متواترة وشاذة، وكان معتمده الأول على تفسير ابن عطية، فكان ينقل منه مواضع القراءات ووجوهها"[64]، وهو ما تأكد في هذا النموذج، حيث كان الثّعالبي ناقلا عن ابن عطية من المحرر الوجيز.

الفرع الخامس: علم المحكم والمتشابه

قبل أن يبدأ الثعالبي في تفسير الآية، يُحدد معنى بعض الألفاظ التي ذكرها القرآن، ويقف عندها كاصطلاحات للعلماء والباحثين في علوم القرآن، ومن بينها المحكم والمتشابه، الذي يُعد من الموضوعات التي كثر حولها النّزاع في علوم القرآن، ليؤسس بيان مقاصد الآيات على رؤية واضحة لا تدع مجالا للغموض واللُّبس. فما المقصود بالمحكم والمتشابه عند الثعالبي؟

61- ابن جني: أبو الفتح عثمان الموصلي (ت392هـ)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط (1420هـ- 1999م)، 1/ 151.

62- ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن تمام الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، لمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،(1422هـ)، 1/ 397.

63- نفسه،3/ 232 .

64- نفسه، مقدمة الجواهر الحسان في تفسير القرآن، 1/ 107.

قبل بيان معناه في نظر الثعالبي تجدر الإشارة إلى معناه اللغوي، فكلمة: "الإحكام" في اللغة تفيد معاني عديدة، أهمها: المنع، والإتقان، يقال: أحكمت الأمر أي: أتقنته ومنعته من الفساد، وكلمة "الإحكام" تفيد معنى السداد، والحكمة: ما يحيط بحنكي الفرس من لجامه، لتمنعه من الحركة والاضطراب، والحكمة في القرآن: تأتي بمعنى العلم والعدل والنبوة.[65]

والقرآن الكريم: بهذا المعنى اللغوي محكم كلّه، أي: مُتقن لا نُقص فيه ولا خلل: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ خَبِيرٍ [هود: 1].

أمّا عند الثعالبي فالآيات المحكمات هي:" المفصَّلات المبيَّنات الثابتَاتُ الأحكامِ".[66]

والمُتَشَابِهَاتُ: "هي التي تحتاجُ إِلى نظر وتأويلٍ، ويظهر فيها ببَادِي النَّظَرِ: إِمّا تَعَارُضٌ مع أخرى، وإمّا مع العَقْل إِلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشَّبَه الذي من أجله تُوصَفُ بمتشابهات، إِنّما هو بينها وبيْنَ المعانِي الفاسدة الَّتي يظنُّها أَهْلُ الزيغِ، ومَنْ لم يُنْعِمِ النظَرَ" ثمّ يقوي الثعالبي مذهبه هذا بالتمثيل بحديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: {الحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ}[67]، فيقول: " أي: يكون الشيء حراما في نفسه، فَيُشْبِهُ عند من لَمْ يُنْعِمِ النظر شيئاً حلالاً وكذلك الآية: يكونُ لها في نفسها معنًى صحيحٌ، فيشبه عنْد مَنْ لم ينعمِ النظر، أو عند الزائغِ

65- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، (ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ - 1979م)، 2/ 91، ابن منظور، لسان العرب،12/ 143.

66- الثعالبي، الجواهر الحسان، 2/ 8.

67- أخرجه البخاري: أبو عبداللهمحمد بن إسماعيل الجعفي(ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، (1422هـ)، في كتاب الإيمان، بابفضل من استبرأ لدينه، 1/ 153، رقم (52)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، 3/ 1219 برقم (1599).

معنًى آخر فاسداً، فربَّما أراد الِاعتراضَ به على كتاب اللهَّ، هذا عندي معنَى الإِحكام والتشابُهِ في هذه الآية".[68]

ويقتفي خطى ابن عطية في استحسان رأي ابن الزبير لتأييد رأيه فيقول: "وأحسنُ ما قيل في هذه الآية قولُ محمَّدِ بنِ جَعْفَرِ بنِ الزُّبَيرِ " أنّ المُحْكَمَاتِ هي الَّتِي فيهن حُجَّةُ الربِّ، وعصمةُ العبادِ، ودفْعُ الخصومِ والباطل، ليس لها تصريفٌ ولا تحريفٌ عمَّا وضعْنَ عليه، والمُتَشَابِهَاتُ: لها تصريفٌ وتحريفٌ، وتأويلٌ ابتلى اللهَّ فيهنَّ العباد".[69]

ثمّ يثنيه برأي ابن الحاجِب الذي يؤول إلى نفس المعنى وإن اختلفت العبارة، وهو أنّ " المُحْكَمُ: المتَّضِح المعنى، - نَصًّا كان أو ظَاهِرا- والمُتَشَابَهُ: مقابله، وسبب التشابه يعود إمَّا للاشتراك أو للإجمالِ أو لما ظاهره التّشبيه، والظاهرُ: الوقْفُ على: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لأن الخطاب بما لا يُفْهَمُ بعيدٌ.[70]

ويتابع الرهونيّ في إرجاع سبب التسمية إلى اشتباهه على السامِعِ، وأنّ المتشابه لا يعلم تأويله إلاّ الله، وذلك بالوقف على لفظ الجلالة؛ مستنا برأي بعض الصحابة ومالك وغيرهم.[71]

والثعالبي متأثر جدا بابن عطية حيث ينقل عنه، معظم ما ينقله ويقوله في تفسير الآية، متابعا له في الرأي والاستدلال كما لاحظنا في هذا النموذج.

الفرع السادس: علم أسباب النزول

إنّ القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين؛ قسم نزل ابتداءً دون سبب وقسم نزل لسبب؛ كأن تقع حادثة أو عدة حوادث فيتنزل بشأنها القرآن الكريم، أو أن يُسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

68 – الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرءان، 2/ 9.

69– ابن عطية، المحرر الوجيز، 1/ 401،الثعالبي، الجواهر الحسان، 2/ 10.

70– ابن الحاجب، منتهى الوصول، 51 [ينظر الجواهر الحسان، الثعالبي، 2/ 10].

71– الثعالبي، الجواهر الحسان ، 2/ 10.

عما استشكل على بعض أصحابه، فيتنزل القرآن ببيان حكمه. ولذا يُعرَّف سبب النزول بأنّه: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".[72]

والثعالبي بلا شك، لا تخفى عنه فائدة معرفة أسباب النزول، ولم يخالف نهج السابقين في ذكر ما وقع بين يديه منها، إذ كان يذكر للآية سببا أو أكثر إن وجد، ومن ذلك ما ساقه في السؤال عن الروح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] يقول: "روى ابن مسعود أن اليهود قال بعضُهم لبعْض: سَلُوا محمداً عن الرُّوحِ، فإِن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي ... فسألوه، فنزلَتِ الآية. وقيل: إن الآية مكِّية، والسائلون هم قريش بإشارة اليهود".[73]

فالثعالبي هنا يذكر سببين لنزول الآية، أحدهما يفيد أنّ السائلين هم اليهود، والثّاني يفيد أنّها قريش. ويكتفي بسرد الروايتين دون ترجيح أو توجيه رغم ما يمتلك من حُجج تُقوي إحدى الروايتين على الأخرى إلاّ أنّه لم يلتفت لذلك.

فالمتأمل يجد أنّ الرواية الثانية تدل على أنّها نزلت بمكة حيث كانت قريش. والرواية الأولى تقتضي أنّها نزلت بالمدينة، وقد تساوت الروايتان في الصحة، ولكن وُجِدَ وجه من وجوه التّرجيح، وهو حضور الراوي ابن مسعود القصة، فتُرجَّح الرواية الأولى، ثمُّ لِمَا عليه الأمة من تلقِّي صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره.[74]

72- القطان: مناع بن خليل (ت1420هـ)، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة، (1421هـ-2000م)، ص 78.

73- الثعالبي، الجواهر الحسان، 1/ 104. [الرواية الأولى أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، 1/ 37، حديث (125) والثانية أخرجها الترمذي، في سننه، أبواب التفسير، باب ما جاء في سورة بني إسرائيل، 5/ 304، حديث (30140).

74- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص88.

ويبدو أنّ الثعالبي يغلب عليه النّقل دون نقد لأسباب النزول، كما سبق وهو ما يَتأكد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾[النساء: 166]، وقوله تعالى:﴿ لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ ...﴾ حيثُ يقول: "سببُهَا قولُ اليَهُود: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]

وقال ص: "لكن": استدراكٌ، ولا يُبتدأُ بها، فيتعيَّن تقديرُ جملةٍ قبلها يبيِّنها سببُ النزول، وهو أنه لَمَّا نزل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ [النساء: 163] ، قالوا: ما نشهَدُ لك بهذا فنَزَلَ: لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ".[75]

فهو يسترشد برأي الصفاقسي؛ مختصر تفسير أبي حيّان، لبيان معنى الآية، موظفا سبب النزول في تقدير المحذوف لكشف علة الابتداء بالاستدراك.

الفرع السابع: علم قواعد التفسير

وقواعد التفسير، منها ما يوظف ابتداء لفهم القرآن الكريم، ومنها ما يوظف عند اختلاف الآراء، سواء للجمع بينها إن أمكن أمٍّ الترجيح.

لا يكتفي الثعالبي بالنّقل، وإن كان من بين الركائز التي اعتمد عليها في تفسيره، بل يتدخل عند اختلاف الآراء في تفسير اللفظ أو الآية بالنّقد والترجيح كلمّا توفرت لديه الأدلة والحجج الدّاعمة، ويشهد لهذا المنحى ما جاء في سياق بيانه لمعنى لفظة "آمين" حيث قال: "واختلف في معنى قوله صلّى الله عليه وسلم: {فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ}[76]، فقيل: في الإجابة، وقيل: في خلوص النّية، وقيل: في الوقت، والذي يترجَّح أنَّ المعنى: فمن وافق في الوقْتِ مع خلوصِ النيةِ والإِقبالِ

75- الثعالبي، الجواهر الحسان، 2/ 330.

76- أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التأمين، 8/ 85، حديث (6402).

على الرغبة إِلى اللهَّ بقلْبٍ سليمٍ فالإِجابة تتبع حينئذ لأِنَّ من هذه حاله، فهو على الصراط المستقيم".[77]

فالملاحظ أنّ الثّعالبي لم يرجح رأيا على آخر، بل توسّل بالاجتهاد الذي أفضى به إلى الجمع بين الأقوال، فأعمل قاعدة "الجمع أولى من الترجيح" لأنّ الاختلاف في هذا الموضع اختلاف تنوع، والجمع ممكن، فيقدم على إهمال بعض الأقوال. فكان بذلك دليلا على أنّه ليس مجرد مقلد بل مفسر مجتهد ناقد.

الفرع الثامن: المطلق والمقيد

والمطلق:" هو اللفظ المتناول لواحد غير معين باعتبار حقيقة شاملة لجنسه".[78] ولا يمكن فهم القرآن الكريم فهما صحيحا سليما، دون إحاطة بعلوم القرآن المختلفة منها، المطلق والمقيد، أمّا المطلق فقد تطرق إليه الثّعالبي في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: 128]

فذهب إلى أنّ قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ "لفظٌ عامٌّ مطلقٌ، يقتضي أنَّ الصُّلْحَ الحقيقيَّ الذي تسكن إِلَيْه النفوسُ، ويزولُ به الخلافُ خَيْرٌ على الإطلاق، ويندرج تحْتَ هذا العموم أنَّ صُلْحَ الزوجَيْن/ على ما ذكرنا- خيرٌ من الفُرْقَة".[79]

وأمّا المقيد فهو: " اللفظ المطلق الذي اقترن به ما يقلل من شيوعه وانتشاره".[80] وقد استعمله الثعالبي كأداة لفهم بعض الآيات القرآنية، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُّ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:47] حيث ذهب إلى أنّ كلمة

77- الثعالبي، الجواهر الحسان، 1/ 172.

78- موسوعة الفقه الإسلامية، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (1398هـ)، 10/ 5-8.

79 - الثعالبي، الجواهر الحسان، 2/ 307.

80- بدران: أبو العينين بدران، أصول الفقه، مكتبة الإسكندرية محمد محمود سعيد، توزيع مؤسسة شباب الجامعة، ص351.

الوعد في الآية مطلقة قيدتها كلمة العذاب، فقال: " وقوله "وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وعيد وإخبار بأنَّ كل شيءٍ إلى وقت محدود، والوعد هنا مُقَيَّدٌ بالعذاب".[81] ولفظ العذاب تقدّم في النظم، فإمّا أن يكون المقصود بالقيد وإمّا أن يكون دالا عليه كمحذوف مقدر.

الفرع التاسع: الإسرائيليات

معنى الإسرائيليات عموما هو: القصص والأخبار اليهودية والنّصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي، بعد دخول بعض اليهود والنّصارى إلى الإسلام أو تظاهرهم بالدخول فيه.

والإسرائيليات من قضايا علوم القرآن التي وردت في تفسير الجواهر الحسان، وكان لصاحبه الفضل في تنقية التفسير من الأخبار الواهية، حيث يُنبِّه عليها ويتعقبها بعدة أمور؛ كرد وإبطال ما كان ضعيفا، ويؤول ما صحّ بها لا يتعارض مع القطعي من الدّين، كما يختصر الروايات لعدم صحتها، ويتوقف في ما لم يرد فيه ما يوافق الشّرع أو يخالفه وغيره. وساعده في ذلك تكوينه العلمي الدقيق في علوم الحديث وبراعته فيه، كما سبقت الإشارة في حياته ورحلاته العلمية، وتعود قلّة الإسرائيليات في تفسيره لكونه من المحققين في علم الحديث، ومن النماذج الموضحة لذلك:

ـــ في قصة بني إسرائيل لما سألوا عيسى ابن مريم أن يُنَزّل عليهم مائدة من السماء: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَّ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللهُّ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 113– 115]، "ثم قال وأكْثَر النّاس في قصص المائدة ممّا رأيت اختصارها لعدم سنده".[82]

81– الثعالبي، الجواهر الحسان، 4/ 129

1– الثعالبي، الجواهر الحسان، 1/ 112.

فهو هنا يتعّقب الإسرائيلية بتعليق يدل على عدم توفر ما يؤيد صحتها، مستخدما مصطلح " لعدم السند".

ـــــ وذكر الثّعالبي بعض الروايات في أمر يأجوج ومأجوج في قوله : "أن أرزاقهم هي من التنين يمطرون بها، ونحو هذا مما لم يصح، وروي أيضا أنّ الذّكر منهم لا يموت حتّى يُولد له ألفٌ والأنثّى كذلك، وروي أنهم يتسافدون في الطرق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصحف، ثمّ علّق بقوله:" فاختصرت ذلك لعدم صحته".[83]

فهو يُصرِّح هنا بعدم صحة الإسرائيلية فضلا عن قوله: "تضيق بها الصحف" وهي مصطلحات تنم عن باعه في علوم الحديث كما صرّح بذلك بعد عودته من تونس كما سبقت الإشارة في رحلاته العلمية.

ـــــ ما وقع في قصة هاروت وماروت من الروايات عن علي وابن عباس –رضي الله عنهما – قال : " فاعلم – أكرمك الله – أنّ هذه الأخبار لم يُروَ منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس هو شيئا يؤخذ بالقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم".[84]

فهو يبين أنّ كل ما ورد من أخبار في قصة هاروت وماروت من قبيل الإسرائيليات الباطلة، لعدم ثبوت نقل عن النّبي صلى الله عليه وسلم أو دليل آخر يمكن الاحتجاج به.

فالثعالبي لا يُسلم بالإسرائيليات، ويبدو أنّه يذكرها بغرض بيان موقفه منها، فيوظف باعه في علوم الحديث التي أخذها عن شيخه ولي الدين العراقي وغيره في نقد الإسرائيليات، وتحقيق

2– نفسه، 3/ 542.

3– نفسه، 1/ 287.

الروايات. فتبرز في تفسيره الصناعة الحديثية اللافتة للانتباه، وهو ما يرشحها لأن تكون مقترحا للدراسة والبحث، ونأمل أن تكون لنا عودة للموضوع في فرصة قابلة إن شاء الله.

المطلب الثاني: قضايا علوم القرآن في تفسير ابن باديس

لم يخرج ابن باديس عمّا درج عليه المفسرون من الاستعانة بقضايا علوم القرآن، باعتبارها من أهم الآليات التي يتُوصل بها إلى مراد الشارع بقدر الطاقة البشرية، ومن بينها:

الفرع الأول: علم أسباب النزول

قبل بدء ابن باديس في التفسير، يتناول سبب نزول الآية، لأنّه يدرك دور سبب النزول في فهم النصوص، وإن كانت العبرة "بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" كما نَصّ على ذلك في مواضع من تفسيره[85]، ومن بين النماذج على توظيف أسباب النزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء: 48 و116]. حيث قال ناقلا عن ابن عباس رضي الله عنه: "وقال في هذه الآية: " إنّها نزلت في المشركين، وذكر سبب نزولها كما تقدم".[86]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: 68]. حيثُ ساق حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: {قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر [عند الله]؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة من أن يطعم معك. قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله [عز وجل]. تصديقها: {والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ..}"[87]، وثنّاه بالربط بين الآية

85- ابن باديس، مجالس التذكير، ص91.

86- نفسه، 1/ 227.

87- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، حديث (6861)، 9/ 2، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، 9/ 154، (7532)، ومسلم في صحيحه، (واللفظ لمسلم)، في كتاب الإيمان، باب: كَوْنِ الشِّرْكِ أَقْبَحَ الذُّنُوبِ...، 1/ 90، حديث (142).

وسبب النزول تحت عنوان "المطابقة بين الآية وسبب نزولها" ثمّ علل تخصيص الحديث لشرّ الأفراد وأكبرها إثماً وعدول الآية إلى العموم.[88]

الفرع الثاني: علم النسخ (التخصيص)

من بين مباحث علوم القرآن التي وظفها الشيخ ابن باديس في تفسيره، مسألة النسخ، والنسخ لغة: يطلق ويراد به النقل أو الإزالة، أمّا اصطلاحا فيراد به: " إبدال حكم شرعي بحكم آخر لحكمة يراها الله في مصلحة عباده، تكون في غالب الأمر للتخفيف عنهم، بعد ابتلائهم بأحكام، تكون في العادة أكثر تكليفا من الأحكام الناسخة".[89]

وقد أطلق ابن باديس النسخ وأراد به التخصيص للعام على خُطى جمهور السلف والمتقدمين من العلماء والأصوليين، والتخصيص هو: "قَصرُ العام على بعض أفراده".[90]

وهذا ما يظهر في تفسيره لقوله تعالى: "وقال[ابن عباس] في هذه الآية: إنّها آية مكية نسختها آية مدنية وهي آية الفرقان:[91]﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: 93]، أي "أن لفظة "من" في ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عامة، تشمل القاتل فتقضي بعمومها أنّ له توبة. وأنّ آية الفرقان التي جاءت في القاتل خصصتها وأخرجته من عمومها".[92]

ثم ذكر الشيخ رأي ابن عباس والإمام مالك والجمهور مُرجحا مع بيان دليل كل منهم، فقال: " قال ابن رشد- بنقل الأبيّ-: وإلى هذا ذهب مالك لأنّه قال: "لا يؤمن القاتل وإن تاب". وذهب

88- ابن باديس، مجالس التذكير، 219.

89- كفافي: محمد عبد السلام، دراسات ومحاضرات في علوم القرآن، دار النهضة العربيه، بيروت، (د.ط.ت)، ص 115.

90- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 262.

91-أي: كما في صحيح مسلم، كتابا لتفسير، 4/ 2317، حديث(18 – 3023) [إنّ الآية 70 من سورة الفرقان، وهي قوله تعالى:﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .. ﴾ نسخت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: {مُهَانًا}].

92- ابن باديس، مجالس التذكير، ص227.

جمهور السلف، وأهل السنة: إلى أن للقاتل توبة، ونظروا في هذه الآية إلى عموم لفظها لا إلى خصوص سبب نزولها، وجعلوا عموم {وَمَنْ يَقْتُلْ} في آية الفرقان مخصصاً بمن تاب، المستثنى في هذه الآية. فابن عباس خصص من تاب بمن يقتل. وهم عكسوا فخصصوا من يقتل بمن تاب".[93]

ثمّ ناصر رأي الجمهور بشاهد من القرآن الكريم، فقال: "ويرجح تخصيصهم العمومات الدالة على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 11]".[94]

فابن باديس كما نلاحظ يحيط بالمسألة من كل جوانبها، ويستعين بواحدة من أبرز قضايا علوم القرآن، وهي ما يُعرف عند القدامى بالنّسخ وعند المتأخرين بالتخصيص، لعرض آراء العلماء ثم ترجيح ما انقدح في ذهنه أنّه الصواب بما يملك من أدلة. وهو ما يدل على امتلاكه آلية الاجتهاد.

الفرع الثاني: علم المناسبات

المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة[95]، وفي الاصطلاح " مرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه".[96]

وهي من بين أهم مباحث علوم القرآن التي تُظهِر مدى الترابط بين مختلف آيات القرآن الكريم وسوره ومطالعه ومقاطعه، والتي تجعل من القرآن سبيكة واحدة، متلاحمة في تناسق تام، لا تنافر

93–نفسه، ص227.

94– نفسه، ص227.

95– الزّبيدي: أبو الفيض محمّد بن عبد الرزّاق مرتضى الحسيني(ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، 4/ 265.

96– السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 3/ 371.

بينها. وتتنوع إلى عدة أنواع باعتبارات مختلفة، بسطها الباحثون والمؤلفون في مواضع كثيرة، ليس هذا محلها. وقد كانت محط أنظار العلماء والباحثين؛ المنافحين عن ربانية القرآن الكريم وإعجازه.

وقد أولاها ابن باديس عناية في تفسيره، ومن ذلك ما جاء في المناسبة بين فاتحة مقطع سورة الإسراء وخاتمته من قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} [الإسراء: 22]، إلى قوله تعالى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} [الإسراء: 39]..... {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِّ إِلَهًاآخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾.وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه."[97]

فالشيخ يشير إلى موضوع المقطع المتكون من ثماني عشرة آية، والمتمثل في أصول الهداية، وقد جمع العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة. وسمّى الله ذلك كله حكمة، فقال تعالى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} [الإسراء: 39].[98]

ثمّ يشير الشيخ إلى تصديق خاتمة المقطع لمقدمته التي لم تخرج عن موضوع التوحيد، فيقول: " ثمّ يبين المناسبة بين فاتحته وخاتمته حيث اتفقتا في النهي عن الشرك، وهو ما يسمى بانعطاف الخاتمة على الفاتحة، فكانت عودا على بدء، من باب التوكيد، فقال الشيخ: "لما كانت هذه الآيات في أصول الهداية، وأساس الهداية وشرطها هو التوحيد: ختمت الآيات بالنهي عن الشرك كما بدأت به".[99]

ويُعبر عن المناسبة بين الفاتحة والخاتمة بالانعطاف والعود على بدء، ويبيّن أنّ العلاقة هي التوكيد. وهذا معروف في أساليب التعليم عند البلغاء، حيث يعود المتكلم والمُدرّس إلى موضوع

97 – ابن باديس، مجالس التذكير، ص62.

98 – نفسه، 1/ 320.

99– نفسه، ص111.

كلامه الذي أشار إليه في المقدمة، وعرضه بعد ذلك بالبسط، ثمّ التذكير به في الخاتمة ليكون آخر ما يستقر في أذهان المتعلمين والقراء.

ثم يضيف قائلا: "وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى:﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾. وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾، بيان من الله تعالى لخلقه، بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها، وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها، ومنه بدايتها وإليه نهايتها..."[100]، فالشيخ يبذل جهده في إبراز الموضوع الرئيس للمقطع، والمناسبة الجامعة بين الموضوعات الفرعية، حتىّ تبدو الآيات آخذة بأعناق بعضها البعض في بناء واحد محكم. فهو لا يؤمن فقط بالتناسب بل يبين المناسبات بأنواعها كُلّما سمح المقام بذلك.

فالشيخ لا يؤمن فقط بالتناسب بين بعض الآيات والفواتح والخواتم، بل يصرّح بأنّ القرآن الكريم كلّه مترابط ومتناسب إلى درجة يمكن اعتباره وجها من وجوه الإعجاز، فيقول: " وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتّى أنّه ليصح أن يُعدّ وحده وجهاً من وجوه الإعجاز"[101].

الفرع الثالث: علم المكي والمدني

رغم أننا لم نقف على موقف الشيخ -رحمه الله- من الاختلاف واختياره إلاّ أنّه يستند على المكي والمدني في التفسير وبيان مقاصد الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ ... مُهَاناً﴾[الفرقان: 68، 69]، وذلك بالرجوع إلى ماورد في ذلك عن ابن عباسرضي الله عنه حيث قال: "نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ ... مُهَانًا﴾ [الفرقان: 68، 69]. فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام وقد عَدَلْنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟

---

100 – نفسه،ص 112.

101 – نفسه، ص181.

فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية.[قال: فأما من دخل في الإسلام وعَقَله ثم قَتَلَ فلا توبة له].[102]".[103]

ويفسر الآية قائلا: "خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلة عَدَدٍ وعُدَدٍ، يعدهم بذلك- لا بطريق صريح- أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويبعثهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه، ثمّ صرّح لهم بالوعد بعد في سورة النور، وهي مدنية، بقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55]".[104]

فبناء على علم المكي والمدني يحدد الشيخ معاني الآيات وموضوعها، حيث أنّ التلميح بوعد التمكين في المستقبل يتناسب مع حاضر تواجد المؤمنين بمكة، وهم قلة مستضعفة، بيّنما يعِدُهم بالقوة والنُفوذ والتّمكين في القابل، وهو ما يصدّقه واقع حالهم بالمدينة. وهو ما تفيده كون آية الفرقان مكية، وآية النور مدنية.

الفرع الرابع: علم القصص

لقد أدرك الشيخ ابن باديس أسرار القصص في القرآن، فتعرّض لبيان العِبر والحِكم من القصص والدعوة إلى الاعتبار منها في مواضع عدة، من ذلك عندما ذكر الفروق بين العرب وإسرائيل، وهو بصدد بيان السرّ والحكمة الكامنة وراء اصطفاء الله تعالى للعرب للنُّهوض

102 – ما بين حاصرتين زيادة من صحيح مسلم، وهو تتمة الحديث الذي سبق تخريجه.

103 – الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، بَابُ قوله تعالى﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا....﴾ (الفرقان: 70)، 6/ 110، حديث (4766). ومسلم في صحيحه، كتابالتفسير، 4/ 2317، حديث(18 – 3023).

104 – نفسه، ص347.

بالرِّسالة الإسلامية العالمية، وإنقاذ العالم مما كان فيه من باطل بخلاف بني إسرائيل، فيقول: "وهذا السرّ هو أن ما كانوا عليه من شرف النّفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيئوا لذلك العمل العظيم".[105]

ثم ينبّه ابن باديس إلى ضرورة تجاوز مجرد القَصّ إلى تَبَصُّر الأغراض التي سِيقت لها قصتهم مع موسى عليه السلام، منها ما أرشد إليه، فيقول: "وانظروا واعتبروا ذلك، بحال أمّة هي أقرب أمّة إلى العرب، وهي أمّة إسرائيل؛ فإنّها لم تُهَيَّأ لإنقاذ غيرها، وإنما هُيئت لإنقاذ نفسها فقط؛ لأنّ مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى الدرجة العليا؛ ولذلك عانى موسى ما عانى مما قصه القرآن علينا؛ لنعتبر به في الحكم على الأمم."[106]

وأبرز دليل على أنّ الشيخ يدرك فوائد مجيء القصص القرآني، أنّه كان يفرد عادة العِبر بعنوان مستقل، كما يتجلى في قصة ملكة سبأ، ويستنبط عدة مواعظ ودروس منها، فيقول: " إنّ في قصة ملكة سبأ في القرآن لدرساً تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة وإرشاداً إلى ما تقوم به الأمم.

ولولا أن هذا الخطاب قد طال ... لآثرنا منها العبر وآثرنا بها العبر. ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إرشادات، وما عليكم بعد ذلك إلاّ أن تتدبروا الآية، ففيها:

1 – نظام الشورى صريحاً لا مواربة فيه.

2 – وأن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسندها بأس شديد.

3 – وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلاّ في الأمم التي شبت عن [طوق] البداوة".[107]

105 – نفسه، ص391.

106 – نفسه، ص391.

107 – نفسه، ص400.

ويتجاوز الشيخ فقه الأغراض والعبر إلى تذييله ببيان الأبعاد الواقعية للنصوص، داعيا إلى الاستفادة من تلك القصة في التأسيس لنظام الشورى في عصره .

الفرع الخامس: علم قواعد التفسير

يوظف الشيخ ابن باديس قواعد التّفسير لتحقيق الأغراض الإصلاحية، باستحضار الاختلافات في الآي، وتحليلها ثمّ يقارن بينها مع ترجيح ما يراه خادما للتفسير بالدليل، والنّماذج على ذلك كثيرة، وتترجم في الحقيقة تحكُّم الشيخ في آلية الاجتهاد رغم أنّ التفسير كان شفاهيا، مما يجعله بحاجة إلى قدرة عالية، ومن أبرز النّماذج ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38].

فهذه الآية تضمنت توكيدين بحرف "إنّ"، والمعروف في اللغة أّن المخاطب من حيث قبوله للخطاب وإنكاره، لا يخلو من أن يكون مصدقا، فلا يؤكد له الكلام، أو شاكا مترددا، فيفضّل توكيده، أو منكرا ، فيتوجّب التّوكيد تبعا لقوة الإنكار وضعفه.

وقد علّل الشيخ ابن باديس سرّ ورود التوكيد في موضعين في الآية، فقال: " عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف، وأعداؤهم في كثرة وقوة- كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعد الهجرة- تشك النّفوس في سلامتهم من كيد عدوهم؛ فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً بـ"إِنَّ"".[108]

فهو يستخدم خلفيته العلمية وقبلياته في اللغة، على خُطى شيخه اللغوي ابن عاشور، لبيان أنّ استعمال حرف التّوكيد مرجعه إلى الشّك في النّصر؛ نظرا لكثرة أعداد العدو، وغلبة القوة المادية – كما نعلم- من عوامل النّصر في التدافع.

108 -نفسه، ص350.

ويضيف بأنّ هذا ما أدى إلى استعمال القرآن لتوكيد سلامة المؤمنين، وتوكيد عدم دفاع الله عز وجل عن الأعداء المبغوضين، قائلا: ""ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى، وأكدتا بـ"إن"، لأنّ الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون؛ فأجيب بالتأكيد".[109]

فابن باديس يوظف هنا قاعدة "الأصل توكيد الكلام إذا كان المخاطب منكرا أو مترددا، ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه" المعروفة عند المفسرين على اختلاف في عبارة صياغتها بينهم، وإن طبقها الشيخ لكن لم ينص عليها بلفظها.

وفي نفس الآية يوظف الشيخ قاعدة أخرى لتعليل سبب استعمال القرآن الكريم للفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿ يُدَافِعُ﴾ فيقول: "ولكون هذا الدفع متجدداً جيء بالفعل مضارعاً".[110]

وهو هنا يتكئ على قاعدة تفسيرية لغوية، وهي "الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار"، وإن لم يصرّح بها لكنّه يتحكم في توظيف قواعد التفسير، ممّا يدل على تضلع الشيخ، وامتلاكه لآليات التفسير.

ففي هذا الموضع يستخدم الشيخ قاعدة أخرى في تفسيره وبيان سبب حذف المفعول، وعدم تقييد الدفاع، فيقول: "وحذف مفعول يدافع، ليعم كل ما يدفع؛ فشمل كيد جميع الكائدين". هو أقوى من تخصيص نوع واحد من الدفاع بالذكر. ويمكن استنباط القاعدة من كلام الشيخ وصياغتها في أنّ " العام يبقى على عمومه ما لم يرد ما يخصصه".

فهذه ثلاث قواعد تفسيرية وظفها الشيخ في الفهم والتفهيم. وتفسيره في الحقيقة، ثري جدا بقواعد التفسير، وبحاجة إلى الاستقراء الكلي، ولعله يتيسر في البحوث القادمة إن شاء الله.

---

109 – نفسه، ص351.

110 – نفسه، ص350.

الفرع السادس: إعجاز القرآن الكريم

من بين وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره الإعجاز البلاغي: **"**القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتى عرفوا- وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم- أنّه ليس مثله من طوق البشر. هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن، والاستدلال به له، ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلَّمَ".[111]

وهو الوجه الظاهر الذي أعجز العرب وأدركته، وأقرت به إلا من عاند منها وكابر. أمّا الوجه الثاني فهو الإعجاز العلمي: ويقصد به ابن باديس أخبار الأمم الماضية والإعلام بالأخبار المستقبلية والحقائق والأسرار الكونية التي أشار إليها القرآن الكريم سابقا العلم وتجارب العلماء، دليلا على ربانية القرآن وعجز البشرية.

والملحوظ عليه أنّه يُدرج الإعجاز الغيبي بنوعيه في الإعجاز العلمي، سواء المتعلق بالماضي كقصص الأمم السالفة، وعبر عنه ب "أسرار الأمم الخالية، وأسرار الكتب الماضية" أو المتعلق بالمستقبل، وعبّر عنه ما" أنبأ من أحداث مستقبلة". ولعلّه تأثر في هذا بشيخه العلامة محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير". ولكن لم يشر ابن باديس في هذا الموضع إلى النوع الثالث من الإعجاز الغيبي؛ وهو المتعلق بحاضر القرآن الكريم.

ويرى ابن باديس أن الإعجاز العلمي أعظم وأعم من الإعجاز البلاغي، لأنّ هذا الوجه يُذعن له ذوي العقول والأفهام على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم وأمكنتهم. ويُمثل له بالزوجية في كل شيء، وسَبْح الكواكب في الفضاء، وسَير الشّمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها....".[112]

111– نفسه، ص 106

112– ابن باديس، مجالس التذكير، ص160.

الفرع السابع: علم المقاصد

يستخدم ابن باديس قبلياته في علم المقاصد لبيان معنى الآية، وهو من العلوم الخادمة للتفسير، فيؤصل لأولوية المصلحة العامة وترجيحها على الخاصة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور:62].فيركز على ثلاث كلمات مفتاحية، ويقارن بينها، وهي التعبير ب"أمر جامع" في المصلحة العامة الدال على التعظيم، و"بعض شأنهم" في المصلحة الخاصة، الدال على التحقير والتقليل. إضافة إلى قرنها بالاستغفار.[113]، فالمصلحة العامة مقدمة على الخاصة بدليل هذه الآية وغيرها، وإن روعيت المصلحة الخاصة هنا لكنّها ترتب عنها التّرغيب في الاستغفار الدال على التقصير.

خاتمة الدراسة:

لقد أسفر البحث في موضوع " قضايا علوم القرآن بين الاجتهاد والتقليد عند الثعالبي(ت875ه) وابن باديس (1359ه) من خلال تفسيريهما" عن جملة من النتائج، أهمها:

- ولد الثعالبي ونشأ في بيئة أسرية مغمورة، لم تشتهر لدى المؤرخين والباحثين، ولم يتمكنوا من كشف اللثام عنها، بينما ولد ابن باديس ونشأ في بيئة علمية وأسرية معروفة، ذات شرف وثراء، وكان لوالده أثر كبير في تكوينه، هيأه كل ذلك ليصبح رائدا في الإصلاح.

- إنّ الرحلات العلمية وتنوع أقطارها وعراقتها، وطول مدتها، التي استغرقت عشرين سنة عند الثعالبي وسنوات عند ابن باديس، من أهم العوامل التي أسهمت في تكوين الشيخين، وتحفيز

113 - نفسه، ص334.- 336.

همهما للتغيير والإصلاح، فعند ابن باديس كان الشيخ الهندي الذي اجتمع به نقطة تحول في قراره العودة إلى أرض الوطن والتفرغ للإصلاح.

- تأثير الرحلات العلمية خاصة إلى تونس في توجه الشيخين إلى توظيف التفسير في الإصلاح الاجتماعي، وإن نزع الثعالبي إلى جانب ذلك نزعة صوفية.

- تنوع الشيوخ وتنوع تخصصاتهم، ساعد على إمداد المفسرَين بالموسوعية في فنون العلوم الإسلامية؛ فتنوعت آثارهم وتلامذتهم.

- ثراء قضايا علوم القرآن التي وظفها الشيخان؛ الثعالبي وابن باديس في عملية التفسير، وإنضاجها.

- يغلب على الثعالبي في تفسيره نقل وعرض قضايا علوم القرآن، دون اجتهاد أو نقد إلا ما ندر، فهو مقلد في أغلبها.

- يتطرق الثعالبي إلى قضايا علوم القرآن، لكن لا يجتهد عادة في استثمارها في عملية التفسير بخلاف ابن باديس، فإنّه يذكر القضايا، ثمّ يبذل وسعه في توظيفها لبيان مقاصد الآيات وتنزيلها على الواقع الجزائري، ومن ذلك:

- يطابق بين أسباب النزول ومعاني الآيات، عاكسا مواكبة القرآن الكريم للمستجدات والتطورات.

- يستعين بالمكي والمدني لفقه الأبعاد الواقعية للآيات، وتحديد أغراضها وموضوعاتها.

- يتكئ على النسخ أو التخصيص، والعموم، وقواعد التفسير،...إلخ في تفعيل حركة العملية التفسيرية وتفاعلها مع إفرازات الواقع لتحقيق النهوض الحضاري.

- يقوم باستنباط العبر والعظات من القصص القرآني والأمثال بما يحقق الإصلاح في شتّى مناحي الحياة.

- إنّ اللسان العربي ولسان الزمان يمثلان أهم آليات التفسير عند الشيخ ابن باديس، وهو ما أشرنا إليه بالبعد الواقعي في التفسير.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الإبراهيمي: محمّد بن بشير بن عمر (ت1385هـ)، آثار الإمام محمَّد البشير الإِبراهِيمِي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1،(1997م).

2. ابن الجزري: أبو الخير شمس الدين محمد بن يوسف (ت833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية، ط1، (1420هـ -1999م).

3. ابن باديس: عبد الحميد، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، للإمام العلامة: "عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي" (1308- 1359هـ)، جمع وترتيب:د. توفيق محمد شاهين جامعة الأزهر، محمد الصالح رمضان أستاذ بوزارة التربية الجزائرية، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، (1416هـ-1995م).

4. ابن باديس، عبد الحميد محمد الصنهاجي (ت 1359هـ)، تفسير مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،ط1، (1416هـ - 1995م)

5. القنطري الجزائري: عبد اللطيف بن علي بن أحمد السلطاني، (ت1404ه)، المزدكية هي أصل الاشتراكية، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط1،(1394ه/ 1974م).

6. الكتاني: عبد الحي (ت1382ه)، فهرس الفهارس والأثبات، معجم المعاجم والمشيقات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط2، (1982م).

7. كعبي: علي بن يحي، آراء الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الاعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان- عرض ونقد- ، رسالة ماجستير، قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية،(1435ه - 2014م).

8. كفافي: محمد عبد السلام، دراسات ومحاضرات في علوم القرآن ، دار النهضة العربيه، بيروت، (د.ط.ت).

9. محمد معبد: محمد أحمد (ت1430هـ)، نفحات من علوم القرآن، دار السلام، القاهرة، ط2، (1426 هـ - 2005م).

10. مخلوف: محمد بن محمد (ت 1360 هـ)شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.

11. موسوعة الفقه الإسلامية، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة، (1398هـ).

12. مولود عويمر، التعليم العصري عند الشيخ عبد الحميد بن باديس، موقع البصائر، https://elbassair.org/8791/

13. مولود عويمر، عبد الحميد بن باديس: مسار وأفكار، مولود عويمر، إصدارات جسور النشر والتوزيع، (2012م).

14. نويهض: عادل، معجَمُ أعلام الجزائِر - مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية،(1400 هـ - 1980م).

15. نويهض: عادل، معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر،قدم له مفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، (1409 هـ - 1988م).

16. هلال: عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، (1830م- 1962م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1995م).

17. الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت468ه)، أسباب النزول، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1411ه).

18. الورتلاني: الفضيل الجزائري، إبراهيم مصطفى، الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر، ط4، (2009م).

19. الونيسي: رابح، تاريخ الجزائر المعاصر (1830م ـــــ1989م)، دار المعرفة، (د.ط)،(2010م).

جهود المشيخة العلمية التلمسانية في خدمة علم التفسير خلال العهد الزياني

د. محمد بوشقيف، قسم التاريخ، جامعة تلمسان ، الجزائر

مقدمة:

عُرف عن مدينة تلمسان بأنّها "دار العلم"، وطغت هذه الميزة على ميزات أخرى لا تقل أهمية، خاصة الناحية السياسية والجغرافية التي مكنتها من أن تصبح حاضرة لدولة بني زيان نظرًا لموقعها الجغرافي الممتاز. لقد عاشت هذه المدينة في حركة علمية مستمرة منذ القرن الرابع الهجري " 10م"، وقد ذكر ذلك البكري حين وصف تلمسان القديمة " اغادير" بقوله:" ولم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك"[1]. ولم تتوقف هذه الحركة إلاّ بسقوط دولة بني زيان على أيدي الأتراك العثمانيين.

1. الحركة العلمية في تلمسان خلال العهد الزياني:

يُعد العصر الزياني العصر الذهبي الذي استكملت فيه تلمسان نضجها الفكري ومقوماتها الحضارية وقد شهد ابن خلدون بذلك في كتابه العبر قائلاً:"...إلى أن نزلها آل زيان، واتخذوها دارًا لملكهم، وكُرسيًا لسلطانهم، فاختّطوا بها القصور المـُـــوَنَّــقَة، و المنازل الحافلة، واغترسوا

[1] - البكري، أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحرير وتعليق حماه الله ولد السّالم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، ص 164.

الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، و رحل إليها النّاس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلم والصنائع، فنشأ فيها العلماء، واشتهر فيها الأعلام. وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[2]. ولما استقر الأمر لبني زيان بدأوا يعملون على الدفع بالحركة العلمية في تلمسان إلى الأمام وذلك بتقريب أهل العلم والاعتناء بهم. واستقطابهم إليهم من مختلف المدن والمصار فهذا يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة يستقدم إلى تلمسان أبو إسحاق ابراهيم التنسي "ت 860هـ/ 1281م"[3]، الذي عُدّ كبير علماء زمانه حيث كانت الفتاوى تأتيه من إفريقية، وتلمسان إلى بلده تنس ليجيب عليها[4].

هذا وسار خلفاء يغمراسن بن زيان على نهجه في العمل على تقريب العلماء وإحاطتهم بهم هذا الأمر دفع بالكثير منهم بأن يتوافدوا على تلمسان وخاصة من أهل الأندلس التي كانت تسير نحو السقوط في يد النصارى. فكان لهؤلاء الوافدين من رجال العلم من فقهاء، وكتّاب وموظفين مكانة لدى سلاطين الدولة الزيانية لما عرفوا من الإطلاع على تسير شؤون الحكم والإدارة والتدريس[5].

أما الجانب الآخر الذي كانت له الأهمية الكبرى في ازدهار الحركة العلمية هو تشيد سلاطين بني زيان للمدارس التي عدت ثاني مركز إشعاعي بعد المساجد، حيث قام السلطان أبو حمو موسى بعد أن نزلا عليه الفقيهان العالمان " ابني الإمام" أبو زيد وأبو موسى اللذان وفدا عليه من برشك

[2]- ابن خلدون عبد الرحمن: كتاب العبر، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2006، ج7، ص 93.

[3]- هو إسحاق ابرهيم بن بخلف بن عبد السلام التنسي، عالم وصالح له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية، توفي بتلمسان سنة 680هـ وقبره بالعباد عند ينظر: ابن خلدون " يحي"، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية 1980، ج1، ص 114، التنسي أبو عبد الله: نظم الدرو العقبان في شرف بني زيان، تح محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 126، ابن مريم المديوني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 66.

[4]- التنسي: المصدر السابق، ص 126.

[5]- بوشقيف محمد: تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 8- 9هـ/ 14- 15م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان 2011، ص 28.

فقر بهما وشيد لهما أول مدرسة في تلمسان عرفت "بمدرسة ابني الإمام" وأسند لهما مهمة التدريس فيها[6]. هذا وقام السلطان أبو تاشفين الأول بإنشاء أعظم مدرسة في تلمسان وهي " المدرسة التاشفينية" التي انبهر المؤرخون لجمالها وبهاء فنها المعماري، وأسند التدريس فيها للعالم أبي موسى بن يوسف المشدالي البجائي" ت 745هـ/ 1344م"[7] الذي عُدَّ أعرف أهل زمانه بمذهب الإمام مالك. كما أسس بنومرين عند دخولهم تلمسان " مدرسة العباد" التي أسست خارج مدينة تلمسان بأمر من السلطان " أبي الحسن" سنة 784هـ/ 1347م" التي لا زالت قائمة إلى يومنا هذا[8].

وبعد إحياء الدولة الزيانية من قبل السلطان " أبي حمو موسى الثاني"، عرفت الحركة العلمية ازدهارًا كبيرًا نتيجة لاهتمامه بأهل العلم لأنه كان شغوفا بالعلم والعلماء، فأسس هو الآخر مدرسة عرفت " باليعقوبية سنة " 765هـ/ 1364م"[9].

ولا شك أن القرن الثامن الهجري " 14م" في تلمسان كان بمثابة الحقل زُرعت فيه بذور النهضة العلمية التي سوف تظهر ثمارها خلال القرن " 9هـ/ 15م"، ويبرز ذلك من خلال ظهور نخبة من العلماء والأدباء الذين بلغوا منزلة راقية في العلوم والآداب هؤلاء العلماء الذين استفادوا من التراث العلمي الذي خلفته الدولتان المرابطية والموحدية[10]. ومن أبرز العلماء الذين خدموا

---

[6]- شيدت هذه المدرسة سنة 710هـ/ 1310م، من قبل السلطان أبي حمو موسى الأول ت 718هـ/ 1318م، وكانت أول مدرسة تشيد في عموم المغرب الأوسط، وقد تخرج منها علماء كبار أمثال الآبلي والشريف التلمساني والمقري الجد وابن مرزوق الخطيب، عنها ينظر: يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 130.

[7]- عن هذه المدرسة ينظر: التنسي: المصدر السابق، ص 142.

[8]- عن هذه المدرسة ينظر: ابن مرزوق، الخطيب: المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 406، بوشقيف محمد: المرجع السابق، ص 58.

[9]- عن هذه المدرسة ينظر: ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، جزءان، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفريد بل، مطبعة فونتانة، الجزائر 1903– 1910م، ج2، ص 203، التنسي: المصدر السابق، ص 276، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 57– 58.

[10]- ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، نشره محمد الفاسي وأولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965، ص " ب".

العلوم سواء النقلية أو العقلية بتدريسها أو التأليف فيها نجد " المقري الجد" ت 756هـ/ 1355م: وأبو عبد الله الشريف التلمساني " ت 771هـ/ 1369م"، ومحمد بن ابراهيم الآبلي، وابن مرزوق الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون.

أما إذا عرجنا على القرن 9هـ/ 15م فنجد أن الحركة العلمية واصلت مسيرتها التفوقية وذلك بشهادة الرحالة الأندلسي أبي الحسن القلصادي" ت 891هـ/ 1486م". الذي زار تلمسان سنة " 840هـ/ 1437م"، الذي أورد في مقدمة رحلته قائلا:"...وأدركت فيها (أي تلمسان) كثيرًا من العلماء، والصلحاء والعُباد، والزهاد، وسوق العلم حينئذٍ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية ، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم، على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان..."[11]. والمتصفح لكتب التاريخ والتراجم والرحلة والنوازل يدرك أن العلوم الشّرعية بتلمسان خلال العهد الزياني عرفت إقبالاً وازهارًا لم تشهده من قبل، ويظهر هذا من اعتبار تراث هذه الفترة في مجال العلوم أخصب وأفر إنتاج ثقافي كان خلاصة ثلاثة قرون مبتدئة بعهد الموحدين[12].

وقد ازدهرت العلوم الدينية على حساب العلوم الدنيوية الأخرى وبرز علماء كبار فيها أنتجوا تراثا لم ينتجوه في باقي العلوم الأخرى ويعود سبب الإقبال على دراسة العلوم الشرعية خلال هذا العهد إلى أنها كانت تمكن الملمين بها من الحصول على المناصب في خطط الدولة آنذاك، كالقضاء والدواوين... من الخطط التي كان يتسابق حملة العلم إليها. فكان لا يصلها إلاَّ من توفرت فيه شروط العلم والدين[13].

---

[11]- القلصادي، أبو الحسن الأندلسي: رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص 95.

[12]- بوعياد، محمود، جوانب من الحياة في المغرب الوسط في القرن التاسع الهجري (15م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص: 65.

[13]- محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 121.

أما الصبغة التي اصطبغت بها الدراسات الدينية خلال العهد الزياني في تلمسان، هي إعطاؤها للدراسات الفقهية الاهتمام الأول، فنجد علماء هذه الفترة اعتنوا بفروع الفقه المالكي والتأليف فيه، وكذا مسائل الحياة اليومية التي ميزت كتب النوازل، وكان هذا الأمر على حساب علم الأصول وعلوم القرآن خاصة التفسير الذي سوف يكون محور بحثنا هذا إن شاء الله.

2ـ علم التفسير في تلمسان الزيانية:

يُعد علم التفسير من أجل علم الدين وأشرفها قدرًا، لأنّه يتعلق ببيان ومعرفة فهم كتاب الله المنزل على نبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبواسطة التفسير تتضح معاني القرآن مما يُسهل استخراج أحكامه[14]. وهو علم لا يمكن الإشتغال به إلاّ لمن ألمّ بعلوم اللسان العربي وأصول الكلام، وفائدة هذا العلم حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على الوجه الصحيح[15].

أـ مفهوم التفسير وأنواعه:

لغة: هو الكشف والإيضاح والبيان، فيقال: فسّر عن ذراعه: إذا كشف عنها، والتفسير هو تبيان القرآن وإيضاح معانيه[16].

اصطلاحًا: هو ذلك العلم الذي يبحث في أحوال القرآن الكريم من جهة دلالته على مراد الله تعالى، أو علم نزول الآيات القرآنية من حيث أسباب النزول وترتيبها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها وعامها ومطلقها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها...[17].

[14]- ابن الإكفاني محمد ابراهيم: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تح عبد المنعم محمد عمر، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، 1990، ص 157 ، ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، اعتناء مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت 2005، ص 457.

[15]- التوقاني لطف الله بن حسن: رسالة في العلوم الشرعية، تقديم وتعليق. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1994، ص 118.

[16]- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دت)، مادة " فَسَّر "، ج5، ص 55، الطيّار مساعد بن سليمان، تفسير جزء " عمّ"، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط2، المملكة العربية السعودية 2008، ص 07.

بـ- مبادئ علم التفسير وشروط المفسر:

مبادئ في علم التفسير:

لا بُد لكل من يريد الولوج لعلم من العلوم أو فن من الفنون أنّ يُّلم بالمبادئ العشرة ليكون على بصيرة من أمره وقد حصرها علماء السلف في قول بعضهم:

إنَّ المــَبـادئ لــكـــلِّ فَـنِّ عَشْرَةٌ　　الحَـدُّ وَ الموضُـوعُ ثُمَّ الــثَّـــمْـرَةُ

وَفَــضْلُـهُ وَنِــسْــبَــةٌ و الوَاضِعُ　　والاسْمُ والاسْتِمْدَادُ وَحُكْمُ الشَّارع

مَسَائِـلٌ والبَعْضُ بِالبَعْضِ اكْتَفَى　　ومَنْ دَرَى الجَـمِـيـــعَ حَازَ الــشَّـرفَـا[18]

وعلم التفسير لا بُد أن تجتمع فيه هذه الأسس والمبادئ وإلاّ فلا مجال للاشتغال به، وإذا أسقطنا هذه المبادئ على هذا العلم نقول أنّ: حدُّه لغةً: الكشف والإيضاح والبيان. واصطلاحًا: علم تُعرف به معاني كلام الله تعالى. أما موضوعه فهو: يات القرآن من جهة فهم معانيها. وفضله: سيّادته على سائر العلوم، لأنّه أصل العلوم الشرعية. ونسبته: تِبيانه لسائر العلوم. وثمرته: أي فائدته بمعرفة معاني القرآن على الوجه الصحيح. واضعه: العلماء الرّاسخون في العلم من عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى ما شاء الله عزّ وجلّ. اسمه: علم التفسير. واستمداده: من الكتّاب والسُنّة والأثر وكلام الفصحاء من العرب. وحُكمه: الوجوب الكفائي. ومسائله: أي قضاياه من حيث الأمر والنّهي والموعظة...[19].

[17]- السيوطي جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي، كلبي، (دت)، القاهرة، ج2، ص 74.

[18]- الأرمي محمد الأمين بن عبد الله:" تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة، هاشم محمد علي، دار طوق النجاة؟، ط1، بيروت 2001م، مج1، ص 11.

[19]- الطيار مساعد بن سليمان: المرجع السابق، ص 07، الأرمي: المصدر السابق، مج1، ص 11.

الشروط الواجب توافرها في المفسر:

أجمع علماء الأمة أنّ استنباط الأحكام من القرآن الكريم وتفسير آياته لا بُّد أن يخضع لشروط يجب أن يتقيد بها أيُّ مفسّر لكتاب الله تعالى حتّى تكتمل أهليته في علم التفسير. ولاستنباط المعاني من القرآن أهمية فائقة و قد أشار إلى ذلك الله عز وجل في مُحكم تنزيله في قوله:" وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسول وإِلَى أَوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم"[20].

والشروط الواجب توافرها في المفسر ليكون مشروعً له الإقدام على التفسير هي:

- أن سكون المفسّر صحيح الاعتقاد محقّقا لمذهب أهل السنّة والجماعة، وعلى جانب كبير من التّقوى[21].
- أن يكون المفسر على علم بأصول الدّين، حتى يتمكن من الاستدلال على ما يجب في حقّ الله عزّ وجل، وما يجوز وما يستحيل، وما يجب الاعتقاد به من مسائل النّبوّة والّار الآخرة ممّا يُخشى أن تزل فيه القدم[22].
- أن يُلّم المفسّر بعلم اللسان العربي من اللغة، والنحو والصّرف والبلاغة والبيان حتى يتمكن من الوقوف على حقائق الإعجاز[23].
- يجب على المفسّر أن يكون مُحيطا بعلوم القرآن الأخرى كأسباب النّزول، والمكّي والمدني، والقراءات، والمحكم والمتشابه. والمفصّل و المجمل، وقَصصِ الأنبياء[24].
- أن يكون على سعة من الفهم والإدراك، عارفا بالأحكام الفقهية وأدلّتها التّفصيلية والمسائل المجمع عليها والأصول العامة لقواعد الأحكام[25].

---

[20]– سورة النساء، الآية 83.

[21]– عابد عبد الواحد بكر ابراهيم: عطاء بن رباح وجهوده في التفسير، رسالة ماجستير في الكتاب والسُّنة، قسم الدراسات العليا الشرعية، جامعة أم القرى، العربية السعودية 1996، ص 08.

[22]– المرجع نفسه، ص 08.

[23]– عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 458.

[24]– فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ج2، ص 437.

- أن يكون عارفا بأصول التفسير كتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسُّنة وبأقوال الصّحابة ثمّ التابعين، ثمّ يَعُود إلى اللسان العربي[26].
- ونجد أن هذه الشروط الواجب توافرها في المفسّر قد تحلى بها مجموع علماء تلمسان وكتب التاريخ والتراجم والرحلة شاهدة على ذلك[27].

ج. مؤلفات علوم التفسير المتداولة في تلمسان:

شهدت تلمسان خلال العهد الزياني تداولاً كبيرًا لكتب التفسير المشرقية والأندلسية على حدّ سواء بنوعيها:

النوع الأول هي كتب التفسير بالرواية (المأثور أو المنقول) وهذا النوع يستند على الأثر الذي جاء في القرآن الكريم أو السُّنة المطهرة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى، وهذا النوع يكون إما تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير القرآن بالسُّنة النبوية أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة[28]. بينما النوع الثاني فهو تفسير يرتكز أصحابه على الدراية (أي الرأي والاجتهاد)، ولا يتحقق ذلك إلاَّ بالإلمام بعلوم اللسان العربي ليتسنى للمفسر من تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب لأن القرآن نزل بها[29].

ومن أهم التفاسير التي أشارت إليها كتب التراجم والرحلة والفقه... التي كانت منتشرة في تلمسان ودارت حولها حركة التأليف والتعليم لدى الأوساط العلمية نذكر:

---

[25]– عابد عبد الواحد بكر: المرجع السابق، ص 08.

[26]– عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص 458.

[27]– القلصادي: المصدر السابق، ص 96– 102، ابن مريم: المصدر السابق، ص 60.

[28]–عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص 457، الصابوني محمد عل: التبيان في علوم القرآن، نشر وتوزيع مكتبة رحاب، مطبعة البحث قسنطينة، ط2، 1986م، ص 63.

[29]– ابن خلدون: المصدر السابق، ص 458، الصابوني محمد علي: المرجع السابق، ص 153– 156.

تفسير ابن عطية الأندلسي "ت 541هـ/ 1146م"[30] المسمى " بالمحرر الوجيز في شرح كتاب الله العزيز" الذي كانت له شهرة واسعة بين أهل المغرب والأندلس لحسن منحاه[31]، ويُعد هذا التفسير في طليعة التفاسير التي اعتمدها " عبد الرحمن الثعالبي" ت 875 هـ في تأليف تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن[32].

أمّا التفسير الأندلسي الثاني الذي تداوله علماء تلمسان فهو تفسير القرطبي " ت 671 هـ/ 1272م"[33] المسمى " بالجامع لأحكام القرآن" والذي يُعد من أجل كتب التفسير ليس في الأندلس فحسب بل في باقي أمصار العالم الإسلامي، واعتمد مؤلفه نهج " ابن عطية " في تفسيره حسب ما أورده ابن خلدون في مقدمته[34].

أمّا الكتب المشرقية التي وجدت صدًا لها لدى علماء مشيخة تلمسان " تفسير محمد بن جرير الطبري" ت 310هـ/ 922م"[35] المسمى بـ " جامع البيان في تفسير القرآن "[36]. الذي بلغ فيه

[30]- هو الإمام أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب (481هـ- 542هـ) أحد العلماء الأندلسيين الجامعين للفقه والحديث والتفسير والأدب عنه ينظر: البغدادي إسماعيل باشا: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، مج6، ص 502.

[31]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص 548.

[32]- الثعالبي عبد الرحمن: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982، ج1، ص (ه)، قسوم عبد الرزاق: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت)، ص 85.

[33]- هو أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي ت 671هـ/ 1272م عنه ينظر: فايد عبد الوهاب: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1973، ص 270.

[34]- عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ص 555.

[35]- الطبري هو: أحد الأئمة العلوم فقد ألف في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغيرها وهو ينسب إلى طبرستان وأسمه محمد بن جزير الطبري توفي سنة 310هـ/ 922م، عنه ينظر: ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صاد، بيروت ج4، 191.

[36]- ابن خلكان: المصدر نفسه ج4، ص 191.

صاحبه الذّروة في التفسير بالمأثور. ثم يأتي بعده تفسير " الثعلبي" " ت 427 هـ/ 1036م"[37] المعروف بـ" الكشف والبيان في تفسير القرآن".

أما تفاسير الرأي التي وجدت مكان لها لدى أهل العلم في تلمسان فنجد " تفسير الفخر الرّازي" ت 604 هـ- 1207 م" المسمى بـ" التفسير الكبير" و " مفاتيح الغيب" الذي سلك فيه مسلك الحكماء وهذا التفسير يُعد من أوسع التفاسير في موضوع علم الكلام[38]. لأن صاحبه يعتمد على الدّراية بشكل كبير.

أمّا التفسير الثاني فهو " تفسير الزمخشري"[39] المعروف بـــ" الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، وقد بلغ فيه صاحبه الذروة في التفسير بالرأي لأنّه كان على مذهب المعتزلة[40]. ويُعد هذا التفسير من أشـــهر التـــفاسير التي عرفــت إقـــــبالاً واسعًا لدى علماء تلمسان خلال العهد الزياني، ومرَّد ذلك إلى قيمته أولاً و إلى ما فيه من أمور أثارت حفيظة علماء السُّنة باعتبار مؤلفه معتزلي المذهب كما أشرنا سابقا. وقد انكب على دراسته والتأليف حوله علماء تلمسان الذين تضلعوا في علم الكلام كابن مرزوق الحفيد والإمام محمد بن يوسف السنوسي.

3ـ أشهر مفسري القرآن الكريم في العهد الزياني:

لقد أعطى علماء المغرب الأوسط عامة وتلمسان خاصة لعلم التفسير في العهد الزياني عناية خاصة لدراسة وحفظ وتفسير كتاب الله، باعتباره كلام الله ومنبعًا لكل العلوم الشرعية الأخرى.

[37]- هو الإمام أبو أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعالبي النيسابوري 427هـ/ 1035م" كان أمام عصره في شتى العلوم، عنه ينظر: الحميري عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت 1975، ص 386.

[38]- عنه ينظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج2، ص 1614- 1656.

[39]- هو أستاذ العرب والعجم جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت 539هـ، عنه ينظر: حاجي خليفة: المصدر السابق، مج2، ص ص 1457- 1480.

[40]- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص 438.

ولكن ما يلاحظ بالمقارنة مع العلوم الدينية الأخرى أن علم التفسير كان نشاط العلماء فيه شحيحًا من حيث التأليف هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت طبيعة تآليفهم فيه مقتصرة على تفسير بعض الآيات أو السور إذا استثنينا تفسير " الشيخ عبد الرحمن الثعالبي" ويلاحظ أن من ألف في التفسير في دولة بني زيان كانوا كلهم من أبناء القرن " 9هـ/ 15م". فلا نجد ولا مؤلفًا في هذا العلم في القرن " 8هـ/ 14م"، رغم بروز علماء فطاحل اهتموا بالتفسير فكانوا يدرسونه ولا يؤلفون فيه كالشريف التلمساني، و "المقري الجد" و " محمد الآبلي" الذين عُدوا رأس المشيخة في تلمسان خلال هذه الفترة. كما نجد أن ما ألف في العلوم الأخرى كالفقه يفوق علم التفسير. ومن العلماء المفسرين الذين ذاع صبتهم وتناولتهم كتب التراحم والرحلة بالذكر خلال القرن " 9هـ/ 15م" نذكر منهم:

سعيد العقباني:" ت 811هـ/ 1408م": هو سعيد بن محمد العقباني التلمساني، أول نجباء بيته، ذو نبل ونباهة وتفنن في العلوم[41]. ولد بتلمسان سنة 717هـ وتوفي سنة 1408م، أصله من عقبان، وهي إحدى القرى الأندلسية، هاجرت أسرته إلى تلمسان وفيها أنجبت الكثير من العلماء الذين ساهوا في الحراك العلمي فيها سواء عن طريق التدريس ونشر العلوم أو التأليف فيها، تتلمذ العقباني على فطاحل علماء عصره بالغرب الإسلامي الذين مكنوا له قدم راسخة في العلوم النقلية والعقلية. ومن أشهرهم محمد بن ابراهيم الآبلي (ت 757هـ)، ومحمد بن علي السطي (ت 749هـ)، وأبي زيد وأخيه عيسى ابني الإمام، وعبد السلام التونسي (ت 749هـ/ 1338م، وغيرهم[42]. تولى الخطابة بجامع تلمسان الأعظم، والتدريس في المدرسة التاشفينية، ومن العلماء الذين أخذوا عنه ابنه" قاسم العقباني"، و " أبو الفضل بن الإمام" و"ابن مرزوق الحفيد"، و"أحمد

[41]- عنه ينظر: التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوى الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1989، ص ص 547- 548. ابن مريم: المصدر السابق، ص : 224، البغدادي: هدية العرفين، ج6، ص 201.

[42]- محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 331.

بن زاغوا" وغيرهم كثر[43]. أثرى سعيد العقباني حقل العلوم بمصنفات كثيرة منها علم التفسير حيث فسر ثلاث سور من القرآن الكريم[44].

أبو يحي عبد الرحمن الحسني التلمساني:" ت826هـ/ 1422م"، ولد بتلمسان سنة " 757هـ/ 1356م"، يُعد من أشهر علماء التفسير، ذكره صاحب " شجرة النور" قائلاً عنه:"....العلامة العمدة الفهّامة شريف العلماء وعالم الشرفاء، وخاتمة المفسرين والفُضلاء..."[45]، شارك في التفسير بتفسير سورة الفتح.

ابن مرزوق الحفيد:" ت 842هـ/ 438م"، يعرف بابن مرزوق الحفيد أي حفيد العالم الفاضل " ابن مرزوق الخطيب"، ولد بتلمسان سنة " 766هـ/ 1364م"[46]، كان رائد في مختلف علوم عصره النقلية والعقلية وفي علم التفسير له مؤلفات عديدة، كما قام بتفسير سور من القرآن.

أحمد بن زاغو: " ت 845هـ/ 1441م"، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بـ " ابن زاغو" الشيخ الصالح الفاضل كما وضعه " القرافي" في توشيحه"، ولد سنة 782هـ/ 1380م، أخذ العلم عن شيوخ عصره، وكان فقيهًا عالمًا مفسّرا[47].

---

[43]- المرجع نفسه، ص 332.

[44]- التنبكتي: المصدر السابق، ص 548.

[45]- مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تع عبد المجيد خيّالي، منشورات دار الكتب العلمية ط1 بيروت 2003م، ج1، ص 251.

[46]- عنه ترجمته ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص 499، ابن مريم: المصدر السابق، ص 63، البغدادي: هدية، العارفين، ج6، ص 191- 192، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص ص 323- 328.

[47]- عن احمد بن زاغو ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص ص 118-120، ابن مريم: المصدر السابق، ص 41، القلصادي: المصدر السابق، ص 102- 106.

محمد بن النّجار: ت846هـ/ 1442م، كانت له مشاركة في العلوم العقلية والنقلية وقد تصدر للتدريس علم التفسير في مدارس تلمسان وممن حضر تفسيره للقرآن الكريم الرحالة الأندلسي أبو الحسن القلصادي[48].

الشيخ عبد الرحمن الثعالبي:" ت875هـ/ 1470م"، هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري ولد سنة 786هـ أو 787هـ/ 1384م أو 1385م، أخذ عن جلّ علماء عصره ومنهم ابن مرزوق الحفيد الذي التقى به في تونس ونهل من علمه وكان ذلك سنة 819هـ/ 1415م،وأورد التنبكتي في نيلة حيث ترجم للثعالبي قائلاً:" قدم إلى تونس شيخ الشيوخ ويخر النظار الفحول ابن مرزوق الحفيد الذي أخذ عنه الثعالبي كتاب الموطأ وأجازه في الإقراء"[49]. أخذ عن الثعالبي علماء تلمسان خاصة الإمام محمد بن يوسف السنوسي وأخيه علي التالوتي، ومحمد بن مرزوق الكفيف (901هـ/ 1495م)، كما أخذ عنه الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/ 1505م خاصة علم التفسير والتصوف، و صاهره في ابنته زينب شارك الثعالبي في مختلف علوم عصره خاصة التفسير والتصوف.

الإمام محمد بن يوسف السنوسي:" ت895هـ/ 1489م، والذي ولد بتلمسان سنة 830هـ/ 1426م[50]. و عُدّ السنوسي فارس علم العقيدة في القرن 9هـ/ 15م ومؤلفاته شاهد على تضلعه في هذا العلم والمتواجدة في مختلف مكتبات العالم، وساهم السنوسي في علم التفسير خاصة التفسير الذي غلب عليه الرأي نتيجة تأثره بالزمخشري والتفتازاني.

---

[48]- ينظر عنه: القلصادي: المصدر السابق، ص 102.

[49]- عنه ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص 257، البغدادي: هدية العرفين، ج5، ص 432، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص – ص 333 – 336.

[50]- عن مصادر ترجمة الإمام السنوسي ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص ص 563– 572، ابن مريم: البستان، ص 238، البغدادي هدية العارفين، ج6، ص 216، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص– ص 34– 343.

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي: " ت909هـ/ 1503م، ولد بتلمسان سنة 831هـ/ 1427م، أخذ جل العلوم عن علماء تلمسان وفاس وتونس، ومن أشهر شيوخه الجلاب التلمساني (ت875هـ/ 1470م)، والشيخ عبد الرحمن الثعالبي كما أشرنا سابقا، والشيخ التدلسي التلمساني (ت 877هـ)[51] كان للإمام المغيلي تأثير واضح في منطقة توات في الجنوب الجزائري وكذا بلاد السودان الغربي سواء الديني والمنهجي والعلمي وثورته ضد نفوذ اليهود في هذه المنطقة، شارك في مختلف علوم عصره خاصة علم التفسير وبعد عرضنا لمقتضب لذكر بعض العلماء المفسرين الذين عرفهم المغرب الأوسط وتلمسان خاصة سوف ننتقل إلى إحصاء مؤلفاتهم سواء ما هو باقي منها مخطوط أو الذي ذكرته كتب التراجم لهؤلاء.

4. جهود علماء المشيخة التلمسانية في علم التفسير:

إن المتتبع لسيرورة علم التفسير للقرآن الكريم لدى علماء دولة بني زيان خلال القرنين 8-9هـ/ 14- 15م، يدرك بأنها كانت تسير على مسلكين، الأول تناول فيه العلماء التفسير من حيث التأليف والثاني من حيث التدريس.

أ. التفسير من حيث التأليف:

نجد هذا النوع من التفسير خاض فيه الكثير من العلماء الذين اشتهرت بهم مدرسة تلمسان في هذا العلم. فنجد بأن القرن 9هـ/ 15م يُعد بمثابة خاتمة إنتاج العلماء في التفسير فلا نجد في القرون التي تليه علماء فسروا القرآن كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي ولا كابن مرزوق الحفيد والإمام محمد السنوسي[52]. ومن هنا يمكن الجزم بأن الجزائر عرفت في العهد الزياني خاصة في القرن 9هـ/ 15م نوع من الوفرة في علم التفسير مقارنة بالقرن 8هـ/ 14م. ومن أجل إبراز ذلك اعتمدنا على ما

---

[51]- ابن مريم: البستان، ص 253- 257، التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 577، حاجي خليفة: المصدر السابق، مج2، ص 845، محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص ص 348- 353.

[52]- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن (10/ 14هـ)/ (16- 20م) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ج2، ص 17.

ذكرته كتب التراجم لهؤلاء العلماء من مؤلفات وكذا ما تختزنه المكتبات من مؤلفات مخطوطة في هذا العلم.

مؤلفات علماء دولة بني زيان في علم التفسير:

لقد تنوعت وتباينت مؤلفات العلماء في هذا العلم فهناك من انكب على تفسير القرآن الكريم كاملاً و وهناك من اكتفى بتفسير سورة أو سور منه وآخر اكتفى بتفسير آيات أو قام بأبحاث تتعلق بهذا العلم. ومن هذه المؤلفات التي ذكرت في كتب التراجم أو التي ما زالت مخطوطة نورد.

تفسير الجواهر الحسان في تفسير القرآن": إن من أهم التفاسير التي وصلتنا من العهد الزياني كاملة تفسير عالم وصوفي مدينة الجزائر الشيخ عبد الرحمن الثعالبي " ت 875هـ/ 1470م"، الموسوم بـ " الجواهر الحسان في تفسير القرآن"[53] وهو مطبوع، ويُعد هذا التفسير مختصر لتفسير. " ابن عطية الأندلسي" المسمى " بالمحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز"، وذلك بشهادة مؤلفه الثعالبي الذي أور قائلاً:"....فقد ضمنته بحمد الله، المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية"[54]. وأكد هذا أيضًا التنبكتي في نيله حين ترجم للثعالبي ذاكرًا أن هذا التفسير هو اختصار لتفسير ابن عطية في جزأين، مع فوائد وزوائد كثيرة[55]. هذا وأشار الثعالبي إلى منهجه في تأليف هذا التفسير وما ميزه عن تفسير ابن عطية قائلاً:"....وقد أودعته بحول الله جزيلاً من الدرر، وقد استوعبت فيه بحمد الله مهمات ابن عطية وأسقطت كثيرًا من التكرار، وما كان من الشواذ في غاية الوهن، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها، مميزة معزُوَّة لمحالها، منقولة بألفاظها، وتوخيت في جميع الصدق والصواب"[56]. وفرغ الثعالبي من تأليف تفسيره سنة 833هـ، وذكر أنه قضى سنة في

[53]- حاجي خليفة: المصدر السابق، مج2، ص 125، التنبكتي: المصدر السابق، ص 259، نويهض عادل: معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، تقديم حسن خالد، ط3، 1988، ج1، ص 276.

[54]- عبد الرحمن الثعالبي: المصدر السابق، ج1، ص 443.

[55]- التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 258- 259.

[56]- الثعالبي: المصدر السابق، ج4، ص 454.

تفسيره[57]. وقد لقي تفسير الثعالبي صدى كبيرًا لدى الأوساط العلمية في أرجاء بلاد المغرب كما بينت ذلك كتب التاريخ التي نوهت به، إضافة إلى انتشار العديدة من مخطوطات هذا التفسير في مكتبات حواضر ومدن الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي. ونجد أن تفسير الثعالبي قد عكس اتجاهه المذهبي والعلمي وحتى مفاهيمه الأخلاقية والدينية واضحة فيه وكذا تأثره بالاتجاه الصوفي السني والزهد وإلمامه بعلم الكلام[58].

هذا ويدرك الباحث من خلال هذا التفسير مدى الحضور القوى لمدرسة الحديث التي كان الثعالبي أحد روادها في هذه الفترة، والتي كانت في الأصل أقدم مسالك تفسير القرآن الكريم أي تفسير القرآن بنصوص الأحاديث الشريفة المستقاة من كتاب الموطأ والصحاح الستة حاضرة في تفسيره بشكل جلي[59]. ومن المؤلفات الثعالبي ذات الصلة أيضا بعلم التفسير نجد كتاب " الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز"[60]. وقد صرح لي الباحث الكبير الدكتور عبد الحميد حاجيات في إحدى زياراتي له أنه قطع شوطا كبيرًا في تحقيق هذا الكتاب.

كما ألف الثعالبي كتابا في إعراب آيات القرآن الكريم أسماه بـ" تحفة الإخوان في إعراب بعض آي القرآن"[61] أما في غريب القرآن فقد أسهم الثعالبي بكتاب جعله ذيلاً لتفسيره الجواهر الحسان، وهو عبارة عن معجم لغوي شرح فيه ما ورد في الجواهر من غريب اللغة معتمدًا على أمهات كتب هذا العلم كصحاح أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المسمى بتاج اللغة وصحاح اللغة، ومختصر العني للزبيدي، وشرح الغريبين غريب القرآن وغريب الحديث للهروي ومشارق الأنوار لأي

[57]- حركات ابراهيم: مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/ 15م، نشر دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2000، ج1، ص 20.

[58]- ابراهيم حركات: المرجع نفسه، ص 21.

[59]- ابراهيم حركات: المرجع نفسه، ص 21، عبادة عبد اللطيف، التفسير الصوفي للشيخ عبد الرحمن الثعالبي، مؤسسة عالم الفكر، الجزائر، ط1، ص 25.

[60]- البغدادي: هدية العارفين، مج5، ص 532، عادل نويهض: المرجع السابق، ج1، ص 276.

[61]- البغدادي: المصدر السابق، مج5، ص 532.

الفضل عياض اليحصبي[62]. وذكر الثعالبي الدافع لتأليف هذا المعجم اللغوي قائلاً: "...فإنه لما يسر الله عليَّ إكمال هذا المختصر (يقصد الجواهر الحسان)، و فرغت من تصحيحه، وكثر الراغبون بحمد الله في تحصيله. سألني بعض إخواني أن ألحق به شرح ما وقع فيه من الغريب ليتم بذلك مقصود الكتاب... فأجبتهم إلى ذلك، وزدت فيه بيان ألفاظ وقعت في غيره يكثر اللسان دورانها، ويفتقر الطالب إلى معرفتها، وجلها مما وقع في الموطأ والبخاري ومسلم وغيرها من الكتب السنة"[63]. وإلى جانب هذا ألف الثعالبي مؤلفًا ذو صلة بعلم التفسير وخصه بتناول القصص الواردة في القرآن الكريم للأقوام والأنبياء وسماه " نفائس المرجان في قصص القرآن"[64].

لقد جعلت في بحثي هذا تفسير عبد الرحمن الثعالبي على رأس مؤلفات هذه الفترة دون إعطاء أهمية للترتيب الزمني وذلك نظرًا لاعتبارات منها أن هذا التفسير هو الوحيد الذي وصلنا كاملاً إضافة إلى ما كان له من أهمية لدى العلماء وطلبة العلم كما يعكس التوجه المذهبي لدى علماء ذلك العصر. والآن سوف نتتبع إسهام العلماء الآخرين وفق الترتيب الزمني.

تفسير سور من القرآن: من علماء تلمسان الكبار الذين فسروا بعض سور القرآن الكريم نجد سعيد بن محمد العقباني : ت811هـ/ 1408" الذي قام بتفسير سورة الفتح" التي أتى فيها بالعجب العجاب"[65]. وبفوائد جليلة كما أشاد بذلك ابن فرحون في ديباجه[66]. كما فسر سورة " الأنعام" فأتى فيه بفوائ[67]، فضلاً عن تفسيره " سورة الفاتحة" كما أورد صاحب البستان[68].

---

[62]– نفسه، ج5، ص 5.

[63]– نفسه، ج5، ص 5.

[64]– بشير ضيف: فهرست معلمة التراث الجزائريين القديم والحديث، مراجعة عثمان بدري، منشورات تالة، الجزائر، 2007 ، ص 41.

[65]– مخلوف: المرجع السابق، ج1، ص 360– 361.

[66]– ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، ط2، 2005، مج1، ص 34.

[67]– التنبكتي: المصدر السابق، ص 140.

[68]– ابن مريم: المصدر السابق، ص 106.

تفسير سورة الفتح: فسر هذه السورة المباركة أحد علماء تلمسان عبد الرحمن الحسني التلمساني " ت 826هـ/ 1422م وهو تفسير له أهمية كبيرة لما فيه من الإتقان والتحقيق، وأكد التنبكتي ذلك في نيل الإبتهاج حين ترجم له قائلاً:"...كان من الآيات في القيام بتحقيق العلوم والإتقان لها ومعرفتها محقّقًا نظارًا حُجة..."[69]

بحر المحيط وكشاف دقائقه بلفظه الوجيز الفائق على البسيط الوسيط[70]: وهو مؤلف في التفسير " لابن مرزوق الحفيد" ت 842هـ/ 1438م". وقد نوه التنبكتي بالمكانة العالية التي احتلها ابن مرزوق الحفيد في علم التفسير قائلاً:" ...ومعرفته للتفسير ودرره، والإطلاع بحقائق التأويل وغُرره فلو رآه مجاهد لعلم أنّه في علوم القرآن العزيز مجاهد..."[71].

اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة[72]: وهو كتاب لابن مرزوق كذلك تناول فيه الإجابة عن مسائل في علم التفسير والفقه سُئل عنها من قبل عالم قفصة " ابن عقيبة"[73]. كما ألف ابن مرزوق الحفيد أيضًا كتاب " الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات" وهو في التفسير.

تفسير عدد من سور القرآن الكريم: ساهم ابن مرزوق الحفيد في تفسير العديدة من السور منها "سورة الإخلاص" الذي قلد في تفسيره لها طريق الحكماء[74] و"سورة المائدة" و "سورة مريم"،

[69]– التنبكتي: المصدر السابق، ص 252.

[70]– بشير ضيف: المرجع السابق، ص 42– 43.

[71]– التنبكتي: المصدر السابق، ص 500.

[72]– نويهض عادل: معجم إعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط3، 1983، ص 290– 292.

[73]– ابن عقيبة هو: أبو يحي أبو بكر بن عقيبة القفصي، عالم وفقيه أخذ عن ابن عرفة وغيره، لم تذكر المصادر تاريخ مولده ولا سنة وفاته، عنه ينظر، التنبكتي: المصدر السابق، ص 635.

[74]– التنبكتي: المصدر السابق، ص 207، ابن مريم: البستان، ص 67 البغدادي: هدية العارفين، ج6، ص 192.

حتى قيل فيه بأنه فارس التفسير لأنّه اقتفى فيه طريق الأوائل من المفسرين كالزمخشري، وابن عطية، وابن حيان[75].

مؤلف مقدمة وخاتمة في التفسير: وهو عبارة عن اجتهاد في علم التفسير من العالم المفسّر " أحمد بن زاغو" ت845هـ/ 1441م والذي قام أيضًا بتفسير "سورة الفاتحة" فكان تفسيرًا في غاية في الحسن كثير الفوائد حسب ما ذكره التنبكتي في نيله[76]، و وصفه تلميذه أبو الحسن القلصادي في رحلته لتلمسان بأنه أعلم الناس في وقته بالتفسير وأفصحهم في التعبير[77]، هذا وسمى القلصادي خاتمة ابن زاغو في التفسير " بالتذييل في ختم التفسير"[78].

أبحاث في التفسير": هي لابن الإمام أبي الفضل " ت 845هـ/ 1441م"[79]، الذي كانت له مشاركة في علم التفسير فألف الأبحاث السابقة الذكر وهي عبارة عن مسائل في هذا العلم تكلم فيها مع الإمام المقري حسب ما ذكره مترجموه.

تفسير القرآن الكريم: مما أوردته كتب التراجم أن أبا عبد الله الأنصاري، المعروف بالرصاع ت 894هـ/ 1488م[80]. شرع في تفسير القرآن الكريم حيث أورد عنه التبكتي قائلاً:"...وقد بلغني أنّه شرع في التفسير"[81] ويبدو أنه لم يكمله لأسباب غفلت كتب التراجم عن ذكرها. كما ألف

---

[75]- التنبكتي: المصدر السابق، ص 500.

[76]- التنبكتي: نيل الابتهاج، ص 119، ابن مريم: المصدر السابق، ص 42.

[77]- القلصادي: الرحلة، ص 103.

[78]- المصدر نفسه والصفحة.

[79]- هو محمد بن إبراهيم عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن الإمام، أغفلت كتب التراجم تاريخ مولده، عرف عنه تضلعه في علم البيان والأدب والفقه والتصوف والطب، عنه ينظر: ابن مريم: المصدر السابق، ص 220-221، عادل نويهض، المرجع السابق، ص 75.

[80]- الرصاع: هو محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري الشهير بالرصاع أصله عائلته من تلمسان وهاجرت إلى تونس في تاريخ غير محدد كانت له مشاركة في علوم عصره عنه ينظر: الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصاع، تح: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ط1، 1967.

[81]- التنبكتي: المصدر السابق، ص 561.

الرصاع كتاب في هذا العلم أسماه " **الجمع والتقريب في ترتيب آي مغنى اللبيب"**[82]، الذي أفرد فيه الشواهد القرآنية من كتاب مغنى اللبيب لابن هشام ورتبها على السور القرآنية.

تفسير مجموعة من السور والآيات:" من العلماء الكبار المشهود لهم بالعلم والتضلع في علم العقيدة الذين أنجبتهم تلمسان الإمام محمد بن يوسف السنوسي تــ 895هـ/ 1489م" الذي شارك في علم التفسير حيث فسّــــر عـــــــدد من الـسور والآيات من القرآن الكريم، فمن السور التي فسّرها " سورة ص"، وما بعدها من السور[83]، و"سورة القدر[84]. كما ألف تفسيرًا موجزًا لـ " سورة الفاتحة"[85]. هذا وألف " مختصرًا على حاشية التفتازاني على كشاف الزمخشري"[86]. أمّا الآيات القرآنية التي فسّرها الإمام السنوسي قوله عزّ وجلّ:" يأَيُّهَا الذِينَ أَمَنُوا لاَ يَسْخَر قَوْمٍ من قَوْمٍ عَسَى أَنَّ يَّكُونوا خَيْرًا مِنْهُمْ ولاَ نِسَاءٌ من نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَّكُنَّ خَيْرًا مِنهُنَ"[87]. هذا وما يلفت الانتباه أنّ السمة التي طغت على تفسير السنوسي لسور وآيات القرآن هي تأثره بعلم الكلام هذا الأمر جعل تفسيره يغلب عليه الطابع العقدي[88]. ومما ذكره ابن مريم في البستان أن الإمام السنوسي كان ينوي التفرّغ للتفسير، لكن اشتغاله بالعلوم الأخرى خاصة علم التوحيد حال دون تحقيق أمنيته[89].

---

[82]– المصدر نفسه والصفحة.

[83]– السنوسي محمد بن يوسف: شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق مصطفى الغماري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989، ص 14، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 125.

[84]– توجد نسخة مخطوطة من هذا التفسير ضمن مجموع رقم 739، بالمكتبة العامة والمخطوطات تيطوان (المغرب).

[85]– توجد نسخة مخطوطة من تفسير الفاتحة بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحمل رقم 656.

[86]– التفتازاني هو: مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الله (ت 793هـ/ 1390م)من أئمة العربية له تأليف منها "تهذيب المنطق"، "مقاصد الطالبين" في علم الكلام، وحاشية على كشاف الزمخشري، عنه ينظر: السيوطي جلال الدين: بغية في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص 391.

[87]– سورة الحجرات، الآية 11.

[88]– عليوان أسعد: محمد يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، أطروحة دكتوراه، الحلقة الثالثة، في الفلسفة، جامعة الجزائر، 1987، ص 63.

[89]– ابن مريم: المصدر السابق، ص 246.

البدر المنير في علم التفسير[90]: هو كتاب في التفسير ألّفه الشيخ" محمد بن عبد الكريم المغيلي" ت 909هـ/ 1503م كما ألف كتاب آخر في هذا المجال بعنوان " **الفتح المبين**"[91] وقام كذلك هو الآخر بتفسير " **سورة الفاتحة**"[92].

تفسير المصحف الشريف[93]: هو لأحد علماء تلمسان الذين كانت هم مشاركة واسعة في شتى العلوم وهو أبو عبد الله محمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني ت 911هـ/ 1505م[94]. كما عرف هذا العالم باهتمامه بعلم الأصول والفتاوى التي نقل بعضها أحمد بن يحي الونشريسي في معياره.

تفسير القرآن الكريم: هو لـ " أبي إسحاق ابراهيم بن فائد بن موسى بن هلال بن عمر بن سعيد الزواوي القسنطيني" الذي ولد بجرجرة سنة 796هـ/ 1393م. الذي يعد من كبار علماء المالكية في وقته عرف بتفسيره للقرآن توفي سنة 833هـ/ 1429م[95].

هذه اهم المؤلفات التي وصلتنا في علم التفسير لعلماء تلمسان وما جاورها، أو التي ذكرتها كتب التراجم ومن خلال تسليط الضوء عليها ينكشف لنا أن هذه التفاسير كانت اختصارًا لتفاسير العلماء الأوائل من الأندلسيين أو المشارقة. كما أن الكثير منها وصلنا غير كامل إما لموته أصحابها قبل إكمالها، أو لانشغال أصحابها بالعلوم الشرعية الأخرى أو التدريس، خاصة وأن علم التفسير هو آخر ما يختم به العالم مسيرته في التأليف بعد اكتمال ملكته العلمية.

[90]- التنبكتي: المصدر السابق، ص 577، ابن مريم: المصدر السابق، ص 55، وهذا الكتاب توجد نسخة مخطوطة منه بمكتبة الإمام المغيلي بزاوية كنتة أدرار.

[91]- التنبكتي: المصدر السابق، ص 578.

[92]- ابن مريم: المصدر السابق، ص 255، محمد وشقيف: المرجع السابق، ص 126.

[93]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص 246.

[94]- هو محمد بن عبد الرحمان بن أبي العيش الخزرجي التلمسان، أبو عبد الله، مفسر وأديب، أصله من إشبيلية بالأندلس، ولد ونشأ بتلمسان وأخذ عن مشيختها العلمية، ألف في جل العلوم، توفي سنة "911هـ/ 1505م" عنه ينظر: التنبكتي: المصدر السابق، ص 579، ابن مريم: البستان، ص 252.

[95]- عادل نويهض، المرجع السابق، ص 160.

بـ التفسير من حيث التدريس:

يُعد تفسير القرآن الكريم في حلقات الدرس قديم في مدن وحواضر الأندلس والمغرب ومنها تلمسان فقد أهتم أهلها بحفظ القرآن وتدريسه وتفسيره في حلقات الدرس في الكتاتيب والمساجد والمدارس[96]، وكان لا يقرب حلقات تدريس التفسير سواء من المدرس أو الدارس، إلاَّ للذي كان له مستوى علمي جيد ومُتكون بشكل أساسي في علم النحو واللغة والبلاغة حتى يتمكن من النفوذ في أغوار القرآن وتحصيل القدر الكافي من معانيه[97]، لأن دور اللغة أساسي في هذا العلم. ونجد أن الصورة التي أشارت إليها كتب التاريخ والتراجم تُظهر بشكل جلي أن حركة التفسير كانت تقام دروسها في المراكز التعليمية. ومن ذلك أن طبقة العلم في تلمسان كانت تتزاحم على حضور دروس العالم الكبير " أبي إسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي" ت 680هـ/ 1281م في الفقه والحديث والتفسير[98] لأن طلبة العلم كانوا يسعون لفهم كلام الله ويعملون لفهم معانيه وضبط حروفه ونطقها على الوجه الصحيح.كما كان للعالم الموسوعي أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني " ت 771هـ/ 1369م" دور بارز في تدريس القرآن حيث كان يعمل على إبراز خصائص علوم القرآن من قراءة وتفسير ورواية وأحكام وناسخ ومنسوخ إلى ما إلى ذلك[99]. مع الاعتماد على الحديث النبوي في ذلك الذي عرف بتمكنه فيه. و كان "أبو عبد الله الشريف" يُفسّر في كل يومٍ رُبع حزب من القرآن[100]، وزاول ذلك لمدة ربع قرن[101] . هذا وقد امتنع العالم الكبير المقري الجد ت 759هـ أن يلقي دروس التفسير في حضرة السلطان أبي عنان المريني و الشريف التلمساني

[96]- إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 20.

[97]- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص 437.

[98]- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص 437.

[99]- إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 22.

[100]- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص 437.

[101]- ابن مريم: المصدر السابق، ص 172، التنبكتي: المصدر السابق، ص 436.

حاضر واعترافه بأن الشريف أكثر منه أهلية لذلك[102]، وقد شهد هذا السلطان لمدى تمكن الشريف العلمي فقال في حقه"...إني رأيت العلم يخرج من منابت شعره"[103].

أمّا في القرن 9هـ/ 15م في تلمسان نجد إلى جانب قيام علمائها بتأليف العديدة من المؤلفات فإنهم مارسوا التدريس وإلقاء الدروس في علوم القرآن خاصة التفسير حسب ما بينته كتب التراجم والرحلة. و نجد من زاول تدريس التفسير في تلمسان " أحمد بن زاغو" الذي كان يلقي الدروس في هذا العلم بالمدرسة اليعقوبية حيث كان يجعل من فصل الشتاء تدريس علم التفسير إضافة إلى العلوم الأخرى كالفقه والحديث[104]، وقد أكد هذا الأمر أحد تلاميذه وهو أبو الحسن القلصادي الأندلسي حين إقامته في تلمسان قائلاً:"...ولازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية للتفسير والحديث والفقه في أزمنة الشتاء، والأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة في زمن الصيف، ويوم الخميس والجمعة لقراءة التصوّف وتصحيح تأليفه"[105]. وقد لازم القلصادي شيخه ابن زاغو منذ أن حلّ بتلمسان ونهل من علمه الكثير في مختلف العلوم والآداب وبيّن مدى شمولية شيخه العلمية وإقبال الطلبة عليه.

و ممن زاول التدريس لعلوم القرآن" ابن مرزوق الحفيد" ت 842هـ/ 1438م، الذي شهد له بذلك القلصادي قائلاً:"... وسما في النفوس موضعه وموقعه، فلا عليك أنّ ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه... وكان له بالعلم عناية تكشف بها العماية. ودراية تعضدها الرواية، ونباهة تكسب النزاهة... وحضرت عليه نحو الربع من إعراب القرآن.."[106]. ومن علماء الذين درسوا

[102]– إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج1، ص 22.

[103]– الناصري محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربّي ونعمته "حياة أبي راس، الذاتية والعلمية"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 96.

[104]– القلصادي، الرحلة، ص 104.

[105]– المصدر نفسه والصفحة.

[106]– المصدر نفسه، ص 96-97.

القرآن وفسروه الإمام "محمد بن النّجار التلمساني" ت 846هـ/ 1442م، فقد أورد عنه القلصادي في رحلته قائلاً:"ومنهم شيخنا الفقيه الإمام العلامة المتفنن سيدي أبو عبد الله محمد بن النجار وكانت له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية. قرأت عليه بعض مختصر خليل، وبعض المستصفى للغزالي، وبعض ابن الحاجب الأصلي...وحضرت عليه بعض تفسير الكتاب العزيز"[107].

ومن المدرسين للتفسير والاشتغال به تلمسان القرن 9هـ/ 15م محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي: ت 871هـ/ 1466م الذي أخذ عنه جل مشيخة تلمسان العلمية كالمازوني، وابن زكري، والإمام السنوسي، وابن مرزوق الكفيف، وأحمد بن يحي الونشريسي وغيرهم[108].

و ساهم الإمام محمد بن يوسف ت 895هـ/ 1489م، في الحركة التدريسية لعلم التفسير فقد كان يُلقي دروسه بمسجده بتلمسان ويقبل عليه الناس[109]. ولذيوع صيتّه في هذا العلم أراد السلطان أن يحضر إقرائه للتفسير في مسجده، إلاّ أنّه اعتذر عن ذلك لأنّه كان يُجانب الاجتماع بالسلطان ومن يدور في فلكه[110]. ولما وصل إلى " سورة الإخلاص" يفسرها في يوم واحد، وبقي له تفسير سورتي " الفلق" و " الناس" لليوم التالي سمع وزير السلطان لك فأراد حضور ختمة التفسير، فلما أخبر الإمام السنوسي بقدوم الوزير قام بتفسير السور الثلاثة معًا في يوم واحد خشية حضوره عنده[111]. لأنّه كان في إعراض عن أهل الدنيا ومجانبتهم حتى لا ينشغل بهم عن العبادة والتدريس والتأليف وتعليم القرآن الكريم[112].

---

[107]- القلصادي، الرحلة، ص 102.

[108]- ابن مريم: البستان، ص223.

[109]- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص 439.

[110]- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 566.

[111]- المصدر نفسه و الصفحة.

[112]- ابن مريم: المصدر السابق، ص 238.

ومن مدرسي التفسير خلال هذه الفترة العالم الكبير أحمد بن محمد بن زكري المانوي 899هـ/ 1493م[113]، الذي امتهن تدريس القرآن مدة طويلة وقد روى ابن مريم في بستانه قصة وقعت لشيخ ابن زكري محمد بن العباس مع علماء عصره حول تفسير القرآن وخلاصتها ان هؤلاء العلماء اجتمعوا على قراءة التفسير فقدموا الشيخ محمد بن العباس فقرأ القارئ التعوّذ والبسملة والفاتحة ففسرهما الشيخ ابن العباس، ثم قرأ القارئ " إنا فتحنا لك فتحا مبينا" فصحب الأمر على الشيخ ابن العباس تفسيرها لأنه لم يطالع ذلك وكذا أن الفقهاء أرادوا أن يفضحوه لأن هذه القراءة كانت بين يدي السلطان فقام احمد بن زكري بين يدي الشيخ والسلطان حاضر ففسرها لهم من الضحى حتى الزوال فلما فرغ الشيخ ضم أحمد بن زكري إلى صدره وهو يقول له يا ولدي فتحت عليّ فتح الله عليك[114]. هذا وكانت طريقة تدريس علوم القرآن وخاصة التفسير تختلف من عالم إلى آخر ومن مستوى إلى الأخرى.

خاتمة:

نستخلص من خلال ولوجنا لموضوع جهود المشيخة العلمية التلمسانية في خدمة علم التفسير خلال العهد الزياني النتائج التالية:

– أن الحركة العلمية في تلمسان الزيانية كانت في سيرورة مستمرة رغم ما عانته هذه المدينة من تدور وضعها السياسي نتيجة التدخلات الحفصية و المرينية وكذا التناحر بين أبناء البيت الزياني على الحكم.

[113]– ابن زكري المانوي، هو أحمد بن محمد ولد حوالي سنة 820هـ/ 1415م، بتلمسان نشأ يتيمًا وكان الفضل لتعلمه العالم أحمد بن زاغو الدين، والدة أحمد بن زكري بأن يعطيها ما كان يحصل عليه من الحياكة مقابل أن تتركه يتفرغ للعلم والدراسة، أخذ عن جملة علماء تلمسان، توفي سنة 899هـ/ 1494م، عنه ينظر: التنبكتي، المصدر السابق، ص 129، محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص–ص 40–41.

[114]– ابن مريم: البستان، ص 238.

- كان للعناية السلطانية الزيانية في العناية بالعلم والعلماء دور بارز في الدفع بالحركة العلمية إلى الأمام وذلك بإنشاء المراكز التعليمية خاصة المدارس التي استحدثها بنو زيان في حاضرتهم تلمسان.

- نلمس من خلال مطالعتنا للإنتاج العلمي خلال هذه الفترة أن اهتمام الأوساط العلمية كان كبيرًا بالنسبة للعلوم الشرعية دون العلوم العقلية.

- كما نجد هناك تفاوت في الاهتمام بفروع العلوم الدينية فنجد الفقه هو المهيمن من حيث التدريس والتأليف والمؤلفات في هذا العلم تدل على ذلك، ثم الاهتمام بعلم الحديث بينما علوم القرآن وعلم أصول الفقه فكان ضئيلاً من حيث الإنتاج المعرفي فيه.

- الصبغة التي طبعت مؤلفات علماء تلمسان في علم التفسير كانت مبنية على تلخيص جهود المفسرين السابقين كما كان الحال مع الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي اختصر مؤلف ابن عطية في التفسير. ومن جهة أخرى اكتفى بعض العلماء ما بتفسير بعض السور القرآنية أو آيات معينة.

- يمكن للباحث أدراك بأن ما ألف في علم التفسير من قبل علماء تلمسان لا يضاهيه إنتاج القرون اللاحقة إن وجد.

قائمة المصادر و المراجع :

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. ابن الإكفاني محمد ابراهيم: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تح عبد المنعم محمد عمر، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، 1990.

2. -ابن خلدون " عبد الرحمن": كتاب العبر، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2006، ج7.

3. ابن خلدون " يحي"، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية 1980، ج1.

4. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، اعتناء مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت 2005.

5. ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، جزءان، نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفريد بل، مطبعة فونتانة، الجزائر 1903- 1910م، ج2.

6. ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صاد، بيروت ج4.

7. ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، ط2، 2005، مج1.

8. ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، نشره محمد الفاسي وأولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965.

9. ابن مرزوق، الخطيب: المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

10. ابن مريم المديوني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.

11. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (دت)، مادة " فَسَّر"، ج5.

12. الأرمي محمد الأمين بن عبد الله:" تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة، هاشم محمد علي، دار طوق النجاة؟، ط1، بيروت 2001م، مج1.

13. بشير ضيف: فهرست معلمة التراث الجزائريين القديم والحديث، مراجعة عثمان بدري، منشورات تالة، الجزائر، 2007.

14. البغدادي إسماعيل باشا: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، مج6.

15. البكري، أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحرير وتعليق حماه الله ولد السّالم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013.

16. بوشقيف محمد: تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 8- 9هـ/ 14- 15م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تلمسان 2011.

17. بوعياد، محمود، جوانب من الحياة في المغرب الوسط في القرن التاسع الهجري (15م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982.

18. التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوى الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1989.

19. التنسي أبو عبد الله: نظم الدرو العقبان في شرف بني زيان، تح محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

20. التوقاني لطف الله بن حسن: رسالة في العلوم الشرعية، تقديم وتعليق. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1994.

21. الثعالبي عبد الرحمن: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982، ج1، ص (ه)، قسوم عبد الرزاق: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت).

22. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج2.

23. حركات ابراهيم: مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/ 15م، نشر دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2000، ج1.

24. الحميري عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت 1975.

25. الرصاع أبي عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصاع، تح: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ط1، 1967.

26. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن (10/ 14هـ)/ (16- 20م) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ج2.

27. السنوسي محمد بن يوسف: شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق مصطفى الغماري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1989.

28. السيوطي جلال الدين: بغية في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

29. الصابوني محمد عل: التبيان في علوم القرآن، نشر وتوزيع مكتبة رحاب، مطبعة البحث قسنطينة، ط2، 1986م.

30. الطيّار مساعد بن سليمان، تفسير جزء " عمّ"، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط2، المملكة العربية السعودية 2008.

31. عابد عبد الواحد بكر ابراهيم: عطاء بن رباح وجهوده في التفسير، رسالة ماجستير في الكتاب والسُّنة، قسم الدراسات العليا الشرعية، جامعة أم القرى، العربية السعودية 1996.

32. فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ج2.

33. مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تع عبد المجيد خيّالي، منشورات دار الكتب العلمية ط1 بيروت 2003م، ج1.

34. الناصري محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربّي ونعمته "حياة أبي راس، الذاتية والعلمية"، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

35. نويهض عادل: معجم إعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط3، 1983.

36. نويهض عادل: معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، تقديم حسن خالد، ط3، 1988، ج1.

الإرث الفكري والأدبي للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي واسهاماته في فن أصول التفسير والتأويل (دراسة وصفية)

أ.د خير الدين يوسف شترة، قسم التاريخ والحضارة

الإسلامية، جامعة الشارقة

مقدمة:

أ. أهمية البحث:

يُعد الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي البصير وجهاً بارزاً من وجوه النهضة الجزائرية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فقد كان ذا شخصية تمتلك ثقافة واسعة، متعددة الفضائل في شتى المجالات فمن الناحية الثقافية: هو أديب ومؤرخ وفقيه ومحقق، ومن الناحية الاجتماعية: هو معلم وواعظ ومرشد، قال عنه محمد علي دبوز أنه: «شخصية عِلمية عَبقرية...، إِنَّه مِن علمائنا الذين يجبُ أَن نعرِفَ تاريخهم، ونَقرأَ مؤلَّفاتهم النَّفيسة ونَطبعها،(يرحمه الله)»[1]. قال عنه الشيخ أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي: «كان (رحمه الله) مِن أجلِّ المشايخ المعتبرين، وبقية السَّلف الصَّالحين، يبذلُ جلَّ أوقاتِه في إِفادةِ الطالبين، مع الشَّفقة عليهم والنَّصيحة لهم، وقد انتفعَ به خلقٌ كثيرون...»[2]، ويقول عنه الشيخ محمد بن السيد الحاج في ترجمته له بأنه: «.. من أجلّ المشايخ المعتبرين متخلّق بالأخلاق الرائقة والأحوال الفائقة، علمًا

1 دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، سوريا: المطبعة التعاونية، 1965م، ص-ص(87 ـ 88).

2 – أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي، تَرجمة فَقيد العلم، الإقدام، ع43، ص1.

وعملاً وزهدًا وورعًا، ومحبةً في الله وأهله، ووقوفًا مع الكتاب والسنة....»[3]، كما قال عنه ابن أخيه وتلميذه الشيخ ابن السنوسي: «كان من أجلّ مشايخ العلم المعتبرين وبقية السلف الصالحين»[4].

لقد استرعى مترجمنا بكتاباته ومصنفاته العلمية جمهرة من العلماء الذين دبَّجوا تآليفهم بالترجمة له حيث أشار لترجمته الحافظ عبد الحي الكتاني في كتابه (فهرس الفهارس)، في قوله في آخر الجزء الثاني: «...فخر القطر الجزائري ونادرته الشيخ بن عبد الرحمن الديسي...، هذا الرجل الباقعة النادرة حجة في الأدب والتصوف والمعقول والمنقول، مع ذهاب بصره وبلوغه في السن عتيًا، مجلسه لا يُمل، حافظٌ واعية ونفس آبية، كنت أجد نفسي معه في زاوية الهامل عام 1339هـ كأني في المدرسة النظامية، بحث شائقٌ مستمر، وعلمٌ صافٍ مُغدق، ومصافاة ومودة لا تُمل ولا تنسى»[5].

ب. فرضية البحث:

تفترض الدراسة بالاعتماد على جملة المصادر الأولية كالوثائق والمؤلفات المخطوطة أن الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي كانت له اسهامات علمية واجتهاداته فقهية وأصولية عميقة ساهم بها في النهضة الجزائرية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ت. المنهجية المتبعة في البحث:

تقوم منهجيّة البحث على المنهج التاريخي ومن خلاله عملنا على استرجاع واسترداد معطيات الماضي لنتحقق من مجرى وسير الأحداث، ولنُحلل جملة المشكلات البحثية التي طرحناها فيما سبق بهدف تعقّب الظاهرة ومتابعتها تاريخيًا، من خلال سرد المراحل التاريخية لنشأة مترجمنا وتتبع مصادر تكوينه المعرفي، ومراجعتها من خلال مصادرها المختلفة التي استندنا عليها، مع تحليل البيانات والمعلومات المتعلقة بها، وكذا عرض النتائج للنقد والتحليل للتعرف على مصداقيتها

[3] – الشَّيخ محمَّد بن محمَّد، الزَّهر الباسم، ص.ص(146–145). ونفس الشهادة ذكرها الشيخ أبو القاسم الحفناوي في تعريفه، أنظر: – الحفناوي(أبو القاسم محمد)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1908م، ص1099.

[4] – الشيخ ابن السنوسي، ترجمة الديسي، مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس، ص2.

[5] – عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس،ج1، ع11. المطبعة الجديدة بالطالعة. سنة 1346م–1927م، ص6.

ودقتها. كما اعتمدنا على المنهج الوصفي بغاية دراسة ووصف مجمل جهود مترجمنا وآثاره ومواقفه كما وجدت في محيطها خلال هذه الفترة التاريخية، وطبعاً هذا لا يتأتى إلا بوصفها وصفًا دقيقاً يُعبّر عنها تعبيرًا كيفيًا أو تعبيرًا كميًا.

ث. الدراسات التأليفية السابقة للبحث:

مِن المصادر المهمَّة التي تعرَّضت للتعريف به كتاب: (عنوان المحبَّة والشَّوق وتُرجمانُ الصَّبابة والشَّوق) ورسالة (التحفة السَّنية) لتلميذه محمَّد العيد بن البشير الهامِلي (مفتي سور الغزلان)، بالإضافة إلى جملة المقالات التي نشرتها بعض الصحف الجزائرية الصادرة في زمانه أو بعد وفاته منها: جريدة الإقدام (جانفي- سبتمبر 1921م)، جريدة الصديق (جانفي – سبتمبر 1920م)، جريدة كوكب أفريقيا (أكتوبر 1908- فيفري 1911م) جريدة النجاح، (سنة 1926م)، زيادة على ذلك فقد اهتمت العديد من الدراسات الأكاديمية بسيرته منها: رسالة الماجستير للأستاذ عمر بن قينة المطبوعة، (الديسي حياته وآثاره وأدبه)، ورسالة الدكتوراه، للأستاذة مقدم فاطمة، (خطاب المقامة للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي)، ورسالة الماجستير للأستاذة هالة بقاش، (تأويل المسائل الكلامية والصوفية عند الديسي)، وغيرها كثير.

أولا: التعريف بالشيخ عبد الرحمان الديسي.

مولده ونسبه وعائلته:

لقد حظي الديسي بمكانة مرموقة بين علماء عصره، ونال اعتراف الكثيرين بسعة علمه، كما أحرز على إعجاب تلاميذه وتقدير أصدقائه وزملائه وبعض معاصريه[6]. وهذا من خلال إطراء المؤرخين والأدباء والمترجمين له فأطلق عليه بعضهم لقب: (لسان السنة)[7]، ولم يكن ممن تُنكر بديهته ولا تتعكر فكرته وقريحته.

---

6 – عمر بن قينة: الديسي حياته وآثاره وأدبه، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977م، ص15.

7 – عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس،ج١، ع١١،ص6.

إذن هو العالم السني المالكي الأشعري الصوفي الرحماني المفتي والمدرس والمؤرخ والمتكلم والأصولي والفقيه، والعلاَّمة المفسر المحدث الثبت، والعالم اللغوي والأديب والشاعر والناثر، خاتمة المحققين بشمال إفريقيا بلا منازع وأستاذ الأجيال: الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد السنوسي بن محمد بن عبد الرحمان الديسي بن محمد الطيب بن عبد القادر بن أبي القاسم محمد بن سيدي إبراهيم الغول بن سيدي إبراهيم السلامي الجزائري[8]. صاحب الضريح الشهير بمدينة بوسعادة[9] بالجنوب الجزائري. ولقب بالديسي نسبةً إلى قرية الديس مسقط رأسه.

وحسب ما هو مدوَّن في نقابة الأشراف بمصر وما ورد في كتاب (بحر الأنساب المحيط)، للشيخ حسين محمد الرفاعي، وبحسب ما دُوِّن عند مدخل ضريح الشيخ إبراهيم الغول بحي أولاد احميدة ببوسعادة[10] فإن نسب سيدي إبراهيم الغول كالتالي: «هو سيدي إبراهيم الغول ابن إبراهيم السلامي بن أحمد بن مسعود بن عثمان بن إسماعيل بن عبد الوهاب بن يوسف بن موسى بن عيسى بن محمد بن يحيى بن موسى بن عبد الله بن إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن محمد بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن سيدنا ومولانا الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.».

ولد مترجمنا في قرية الديس القريبة من مدينة بوسعادة (08كلم) الواقعة في الجنوب الشرقي للجزائر العاصمة، وهي حالياً عاصمة دائرة أولاد سيدي إبراهيم بولاية المسيلة. سنة سبعين ومئتين وألف هجرية (1270هـ/ 1854م). نشأ يتيمًا، وتربى في حجر والدته السيدة خديجة بنت

8 – إسماعيل باشا محمد أمين بن مير سليم البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج2، ص 339. وطبعة الأستانة، ص 299– وأيضاً: – ابن السنوسي بن عبد الرحمان، ترجمة العلامة الإمام المجتهد الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الديسي الهاملي. مخطوط، ص 02.

9 – عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ص421.

10– وقد ورد ذات النسب الشريف لإبراهيم الغول في كتاب الرحلة الورتيلانية لحسين الورتيلاني.

محمد بن الخرشي أولاً، لموت والده قرب ولادته، ثم عمته السيدة عائشة[11] وجَدَته[12]. أُدخل «المكتب(كتاتيب قرآنية) ليتعلم القرآن العظيم، ولما وصل سورة الجن أصيب بداء الجذري، فكف بصره، فحفظ القرآن الكريم كذلك بالإملاء والسمع، وأتقنه جيدًا بالقراءت السبعة»[13]. وحسب ترجيح الأستاذ عمر بن قينة فإن إصابته بهذا المرض كانت «في سن السادسة أو السابعة»[14].

غير أن الشيخ عبد الرحمن بن بيض (أحد تلاميذ الديسي) يذكر في ترجمته لشيخه أن «والده مات بأيام قليلة بعد ميلاده، وأدخلته والدته الكتّاب، ولما وصل إلى سورة «المدثر» [وليس سورة الجن كما في الرواية السابقة] أصيب بالجدري، فكف بصره، وبقي مواظبًا بالكتّاب على القراءة سماعًا حتى حفظ القرآن، ثم بدأ يتلقى مبادئه في علوم العربية على علماء قريته، وكان في ذلك الوقت من أجلّهم وأبرعهم وأشهرهم بطول الباع في العلوم والمعارف: الشيخ بن بلقاسم بن عروس، والشيخ محمد الصدّيق»[15]، وذكر صاحب (إيقاظ الوسنان) أنه: «انتقل (بعدها) إلى زاوية الشيخ سيدي السعيد بن أبي داود بجبل زواوة فحصّل ما قدر له من العلوم، ثم عاد إلى مسقط رأسه ومنه انتقل إلى الزاوية المعمورة زاوية الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم بالهامل»[16]

---

11 – للتوسع ينظر: الحفناوي(أبو القاسم محمد)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ط1، تح. د. خير الدين شترة، دار كردادة للنشر والتوزيع، 2012م ، ص1099. ابن السنوسي، ترجمة العلامة الإمام المجتهد الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الديسي الهاملي، مخطوط في المكتبة القاسمية بزاوية الهامل، ص2.

12 – «ولد سنة سبعين ومئتين وألف (1270هـ)، وتربى في حجر والدته السيدة خديجة بنت محمد بن الخرشي، وعمته السيدة عائشة، وجدته يتيمًا حتى حفظ القرآن وأتقن أحكامه بقراءة السبعة ومخارج الحروف، واشتغل لتعلم العلم». الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص1099.

13 – عبد الرحمان بن بيض: التعريف بالديسي، مخطوط في المكتبة القاسمية بزاوية الهامل، رقم 807، ص3.

14 «من استجوابات عديدة [أجراها الباحث بن قينة]، اختلفت الإجابات بين 4، 7 سنوات، فرفضت تصديق الرقم الأول، لأنه في تلك السن لا يمكن أن يكون قد دخل الكتّاب، فإذا فرضنا دخوله لا يمكن أن يكون قد تقدم في القراءة حتى سورة « المدثر » أو «الجن» أنظر. بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره، ص25.

15 – عبد الرحمن بن بيض، التعريف بالديسي، مخطوطاً ص 3.

16– محمد بن يوسف الكافي التونسي، إيقاظ الوسنان، ص : أ.

لقد قدّر للديسي أن يعيش حياة خالصة للعلم، مدرسًا ومؤلفًا. حياة قضى معظمها بزاوية الهامل قائماً على تدريس العلم لطلابه، وتحرير مسائله بالكتابة والتأليف، معتكفًا على الطاعات[4] إلى أن وافته المنية في فجر يوم السبت 22 ذي الحجة 1339هـ الموافق لـ 17 أوت 1921م. ودفن بجوار شيخه محمد بن أبي القاسم داخل قبة الضريح بزاوية الهامل ببوسعادة، وهو ما أورده الشيخ ابن السنوسي في ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمان بالقول[17]، وكان ممن رثوه الأمير خالد بن الهاشمي بن عبد القادر الجزائري [18] بمقطوعة شعرية نشرها في جريدته الإقدام يوم 2 سبتمبر 1921م، هذه الأبيات عبَّرت عن حزنه الشديد على أُفولِ كَوكب الغرب الذي اعتاد الخلقُ الاستِضاءة بنوره، والاهتداء بعلمِه قائلاً في مطلعها:

أعفى السَّحاب لنور الشَّمس مِن حزن   وألبس البدرَ سِربالاً من الظُّلَمِ

لِفَقدِ من تَشهدُ البطحا فَصاحته   بحر المعارفِ ربّ الشِّعرِ والكلِمِ

ثانيا: مصادر التكوين المعرفي للشيخ الديسي

إن شخصية مترجمنا استنادًا إلى منتوجه الفكري والعلمي والأدبي أضحت خلال الربع الأول من القرن العشرين علامة فارقة في التاريخ الثقافي للجزائر، ذلك أن فهمه الصحيح لأبجديات العلم والتعلم دفعه إلى الطلب في سن مبكرة وإلى الاستزادة من التحصيل فاستمع إلى كوكبة من علماء الجزائر المرموقين على زمانه في شتى فنون القول..ولم يسعفه الحظ وقلة ذات اليد بالإضافة إلى إعاقته البصرية في التنقّل إلى تحصيل العلم في مناطق عدة من العالم الإسلامي حيث معاهد العلم والمعرفة خصوصاً في الجامع الأعظم بتونس، فقد أظهر في كل مراحل التعلم والتدرج الجدّ والمثابرة في طلب العلم مما جعل شيوخه يثنون عليه مراراً؛ وبهذا استطاع أن يبني لنفسه شخصية

[4] عبد الرحمن (عبد الرحمن) ، تاريخ الجزائر العام، ج4، ص425 .

[17] – ابن السنوسي، ترجمة العلامة الإمام المجتهد الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الديسي الهاملي، ص15 .-أنظر:– أبو القاسم بن محمد، تَرجمة فَقيد العلم الشَّيخ محمَّد بن عبد الرَّحمن الدِّيسي، جريدة الإقدام، ع43، ص1 .

[18] – جَريدة الإقدام، السَّنة الثانية، العدد: 43، الجمعة 6 محرَّم 1339هـ/ 9 سبتمبر 1921م، ص: 2

علمية برصيد متنوع هو مزيج بين التكوين الديني والشرعي والأدبي والتاريخي.... فاهتم بالأخبار والأنساب وسعى إلى الإلمام بشتى ألوان المعرفة وما كان أبداً ينشد الذيوع والشهرة، حتى بعد استقراره بالهامل.

لقد تلقى الديسي صنوفًا وألوانًا عدة من العلوم والمعارف تتنوع بحسب تنوع المحاضن العلمية التي أخذ منها ودرس، فقد تلقى معارفه الأولية في مسقط رأسه الديس أين حفظ القرآن الكريم صغيراً(12 سنة)، وأخذ مبادئ العلوم العربية والشرعية عن الشيخ بن عروس وغيرهم من مشايخ القرية خلال تلك الفترة، وبعد أن شبَّ استأذنه في الارتحال إلى كبريات المعاهد والزوايا التي كانت قائمة في وقته على عادة طلاب العلم آنذاك، فأذِن له فنزل في أول رحلاته في زاوية الشيخ ابن أبي داود بتاسلنت بأقبو(بلاد زواوة في القبائل) فقضى بها ثلاث سنوات تقريباً (1870-1874)م، أخذ فيهما علوم القرآن والفقه والفلك، وبإمكاننا أن نجزم اعتماداً على عدد من الرسائل والكتابات الموثقة أن الشيخ الديسي بدأ التأليف في زاوية بن أبي داود، حيث ألف منظومة درة عقد الجيد في الأيام الأخيرة من تلمذته بالزاوية عندما كلف بالتدريس للطلبة المبتدئين فيها[19]، هذا يدل على أن مترجمنا قد بلغ من العلم درجةً متفوقة في باب التميز والتفوق، بالإضافة إلى الإجازات التي حصل عليها من مشائخه في قريته. حيث حاز عدة إجازات تؤهله لنشر مختلف العلوم والفنون.

ثم انتقل إلى قسنطينة خلال الفترة (1874-1875)م فحضر دروس الأستاذ الشيخ حمدان بن أحمد الونيسي القسنطيني الجزائري (ت1338هـ -1920م)، وأجازه الشيخ إجازة عامة وخاصة في «الصِّحاح الست»، و«الموطأ» وكتب الفقه، ولم تطل إقامته بقسنطينة ثم رجع إلى بلده معتكفًا على حفظ المتون العلمية»[20]. حيث أخذ ذهن الفتى يتفتح ويتنوَّر بعلوم جديدة في مختلف الصنوف،

[19]- عمر بن قينة، الديسي حياته ، ص- ص (71-72).

[20]- عبد الرحمان بن بيض: التعريف بالديسي، مخطوط لدى مكتبة زاوية الهامل، فهرست المكتبة القاسمية رقم 807أ ص3.

وهو أمر لم يتعوَّد عليه فيما سبق له ودرَس، فشرع يحاول الإنتاج الفكري ويحاول قرض الشعر أيضاً.

وفي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمان لابن أخيه الشيخ ابن السنوسي ذكر بأن الشيخ الديسي عندما غادر جبل النور حاصلاً على إجازات عدة: «غادرها وقصد قسنطينة فحضر دروس الأستاذ الشيخ حمدان ابن الونيسي الشهير بها في ذلك العهد الزاهر المملوء عافية وهناء وصفاء وبالحجاز أخيرا، ولم تطل إقامته بها ثم رجع إلى بلده ملازما المتون العلمية فحفظ نحو خمسين متنًا ما بين قصير ومتوسط ومطول وقد عدّ أبو القاسم الحفناوي في (تعريف الخلف) المتون التي حفظها بأسمائها معتكفا على مطالعة الشروح والحواشي في سائر الفنون، وكان شرع في التأليف نثرًا ونظمًا بالزاوية الداودية وبقريته»[21].

غير أن زاوية الهامل وهي محطته التالية شهدت فترة النضج والنبوغ لديه، خصوصاً على يد شيخه محمد بن أبي القاسم الحسني، كما أن وجوده في الزاوية التي قضى فيها كل سنوات عمره ونشاطه، أتاح له فرص التعرف على الشخصيات الأدبية والعلمية التي كانت تتردد على الزاوية فسمع منهم. ويقول الباحث في سيرة الديسي وأدبه الأستاذ ابن قينة وهو من مؤيدي فكرة أن الشيخ الديسي التحق بزاوية الهامل شيخاً لا طالباً ويصر على القول بأنه: «ارتحل إلى زاوية الهامل وعمره ثلاثة وثلاثون سنة»[22]، واتصل بشيخها ومؤسسها الفقيه الصوفي الكبير، الشيخ محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي ولازمه ملازمة طويلة[23] منقطعًا إلى التدريس والتأليف. فكان له أثره البعيد في تلاميذه وفي أصدقائه الذين كان معظمهم من طلابه، كما كان محل احترام وتبجيل من الجميع خصوصاً في زمن الشيخ المؤسس. واستند في استنتاجه هذا على مصدرين مهمين ولكن متباعدين زمنياً وهما: (مخطوط عبد الرحمان بن بيض، ونهضة الجزائر لمحمد علي دبوز بالإضافة إلى

[21] – ابن السنوسي بن عبد الرحمان، ترجمته للعلامة الإمام المجتهد، مخطوط، صح.ص(2-3).

[22] – عمر بن قينة؛ الديسي، حياته وآثاره وأدبه، ص43.

[23] – عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام؛ ج،، ص421.

بعض المقابلات والاتصالات) وهو ما يرجح فكرة نقل أحدهما على الآخر، كما نقل الشيخ الحفناوي حرفياً –كعادته في نقل النصوص والتراجم مع نسبتها إلى أصحابها من غير تصرف– عن صاحب (الزهر الباسم الصادر في عام 1896م).

ولعل الاهتمام بسيرة الرجل وفكره وإنتاجه الغزير الذي لا زال مخطوطاً ومعرضاً للتلف باستمرار أولى من أن نغرق في جدل لا طائل منه، فزاوية الهامل لها فضل كبير على الشيخ الديسي (تعليماً وتعلماً) وهو ما لا ينكره إلا مدلس، وفضلها لا يزيد كثيراً عن أفضال ومكارم الشيخ الديسي على زاوية ومعهد الهامل خصوصاً بعد وفاة الشيخ المؤسس وهي الأخرى أفضال لا يطمسها إلا جاحد أو ضال مضلل.

كما أن عدم ذكر الرحلة العلمية الطويلة التي قادت الشيخ الديسي إلى جبل النور ومنه إلى حلقات كبار مدرسي ومشايخ قسنطينة آنذاك، خصوصاً في (الروض الباسم) و(تعريف الخلف) قد يدخل في باب السهو والتجاوز غير المقصود، ولا يمكن تأويلها بأكثر من ذلك، أما القول أن عدم ورودها في هذا المصدر الذي ألفه واحد من العائلة المؤسسة للزاوية هو بقصد جعل الشيخ الديسي هذه القامة العلمية السامقة في سماء الجزائر خلال الربع الأول من القرن العشرين، وكأنه من صنع زاوية الهامل وفقط....إلى نهاية هذا النوع من الهذر الذي لا يفيد في شيء – أعيد وأكرر– فربما قد لا يملك المدافعين عن سقطة صاحب (الزهر الباسم) –وكتابه هذا أُلف في حياة الديسي– ... حجةً في إقناع المهتمين بأن الأمر لا يعدو أن يكون تجاوزاً غير مقصود سواءً في سنة التحاقه بالزاوية أو عدم ذكر رحلته إلى جبل النور وقسنطينة؛ بالمقابل هل القائلين بنظرية المؤامرة المسبقة يملكون حجة مقنعة ودليلاً ثبتاً موثقاً؟ أن صاحب (الزهر الباسم) كان يملك هذا الهدف المشبوه الذي اتهمه به بعض مدعي هذه المؤامرة؟

ولعل الإجازات التي أجاز بها الشيخ الديسي تلاميذه – وهي متوفرة لدينا، كانت آخرها إجازته للشيخ الكتاني– كلها تثبت بما لا يدعُ مجالاً للتأويل أن مترجمنا قد نال حظاً وافراً من العلم

على يد شيخه أبو القاسم الحسني، كما أن الإجازات نفسها والرسائل التي كان يبعث بها إلى طلابه وإخوانه هي الأخرى تؤكد على زيارة الشيخ الديسي لجبل النور وقسنطينة، ويكفينا دليلاً أن ابنه الوحيد (لأن الصديق توفي مبكراً) سماه تيمناً على اسم شيخه سيدي العربي بن أحمد بن أبي داود شيخ الزاوية الداودية أيام تمدرسه بها.

وفي الأخير وجب علينا جميعاً أن نقرأ التاريخ بعيون أهله ومختصيه بعيداً عن الدوافع الشخصية الضيقة والذاتية المقيتة، فقراءتنا للتاريخ يجب أن تكون بوعي، وسنام هذا الوعي هو أن التاريخ جاء ليجمع لا ليفرق كي ينطلق الناس في مستقبلهم دون أن تشغلهم قراءة ناقصة لحدث أو لموقف فتلوى أعناقهم إلى الخلف وإلى الماضي.. من دون أن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام.

إذن تكوين مترجمنا الطالب كان تكويناً دينيًا ولغويًا وأدبياً يستمد جذوره من الثقافة التراثية وهو ما تُجسِّده الكثير من المؤلفات التي درسها وحفظها، فقد تلقى مترجمنا من لذة المعارف الحقيقية صنوفًا وألوانًا عدة من العلوم والحقائق تتنوع بحسب تنوُّع المحاضن العلمية التي أخذ منها ودرس[24] ، ولا تختلف ثقافة الديسي عن ثقافة أقرانه، الذين كانوا يحضون بنوع من الرعاية، تخول كتاب الله، وأن يحفظوا ويفهموا شيئًا من الفقه، فقد كان متوسط الثقافة علي عهده من حفظ القرآن الكريم أو حفظ متن ابن عاشر، وسمع شرحه عن أحد الشيوخ الذين كانوا يشرحونه "بميارة الصغرى" وهو شرح موجز لهذا المتن. ونظرًا لما لوحظ عنه من مخايل النجابة، لم تبخل عليه والدته بكل ما لديها، فوفرت له جوًا من الاطمئنان مكَّنه من حفظ مجموعة من المتون. وربما استطاع شرحها على واحد من شيوخ العلم، الذين كانوا يشكلون أسرته القريبة ولعلهم هم الذين شجعوه ووالدته على الرحلة في طلب العلم.

غير أن قرية الهامل وهي محطته الأخيرة شهدت فترة النضج والنبوغ لدى محمد بن عبد الرحمان الديسي خصوصاً على يد شيخه مؤسس الزاوية الهاملية الشيخ أبي القاسم الهاملي وكان إذ ذاك

[24]– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 185.

مقصد الكثير من الرجال العلماء والشعراء والأدباء، وبالهامل ألقى عصا التسيار واشتغل بنشر العلم وبعد سنوات من الرحلة في سبيل طلب العلم والتلقي عن شيوخ كثيرين استقر بالهامل في ظروف غير معروفة.

لقد أخذ الديسي المبادئ الأولى للعلوم العربية بعد أن حفظ القران الكريم، على علماء قريته الذين كان من أبرعهم وأشهرهم بطول الباع في العلوم والمعارف الإلهية والأسرار القرآنية سيدي الشيخ ابن أبي القاسم بن عروس جد أبو القاسم الحفناوي بن الشيخ لأمه، وجد الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي ابن الشيخ سيدي مصطفى بنعزوز دفين الأستانة العلية والأستاذين الشيخ سيدي محمد المكي بن الشيخ سيدي الحاج المختار وشقيقه الشيخ سيدي محمد بنعزوز، حتى حصل ما عندهم وارتوى من زاخر بحار مددهم»[25]. فـ«حفِظ القرآنَ وأَتقنَ أحكامَه بقراءةِ السَّبعة ومخارج الحروف، وغير ذلك، واشتغلَ بِتعلُّم العلم»[26]، وبذلك تكون ثقافة الديسي الابتدائية ثقافة دينية ولغوية، لكنها ثقافة واسعة، تجلت في كثير من إنتاجه الفكري والعلمي. وذلك ما يؤكده أحد تلاميذه والذين ترجموا له. فيقول أبو القاسم الحفناوي[27].

لقد كان لهذا الكم الهائل من المعارف تأثير كبير في توجهاته ومواقفه وكتاباته، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن ثقافة الديسي توقفت عند هذه المعارف لم تبرحها، بل كانت قراءاته مستمرة وعمله على الاستزادة من المعارف لا يعرف الاكتفاء[28]، إذن هذا هو المناخ الثقافي الذي عاش فيه الديسي، مناخ يتميز بطرق تدريس تقليدية تصبغ كل العلوم بصبغة دينية، ولا تحفل بالأدب إلا قليلاً،

[25] – ابن السنوسي بن عبد الرحمان، ترجمته للعلامة الإمام المجتهد، مخطوط، ص2.

[26] – محمَّد بن محمَّد بن أَبي القاسم، الزَّهر الباسم، ص 145.

[27] – الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص.ص(1099–1101).

[28] – كان يحرص على الاستماع لتلاميذه يقرأون له، كما كان قوي الذاكرة، « .. كان يحفظ في اليوم مئة بيت » راجع : أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص 1101.

وبالشعر خصوصًا إلا باعتباره شواهد توضيحية تشرح أو تفسر ما أبهم من منظومات شرعية أو نحوية، وهو ما يبدو جلياً في الرصيد المعرفي للديسي.

ثالثا: الإسهام الفكري والفقهي والأدبي للشيخ الديسي من خلال آثاره (قراءة وصفية):

كانت حياة الديسي حياة نشاط مستمر تأليفًا وتدريسًا، حياةً حافلة بالعطاء على الرغم من معاناة شاعرنا التي نلمسها في شعره في أكثر من موضع. لقد خلّف لنا الديسي ما يقرب من ست وأربعين مؤلفاً ما بين تأليف وشرح ونظم ورسالة ما تزال جلّها مخطوطة، وهي التي تحصلنا عليها وقد تمت العناية ببعضها.

وهناك مؤلفات أخرى تدلُّ كلها على غزارة علم الديسي وثقافته الدينية واللغوية الواسعة ومدى اسهاماته في فن أصول التفسير والتأويل، كما أن إجازاته الكثيرة ورسائله العديدة (شعراً ونثراً) تُعدُّ جزءًا من هذا التراث ولابد من الاهتمام بها، وبقدر ما كانت بعض كتاباته تسر البعض بقدر ما كان بعضها يجلب له خصومات على نحو ما حدث بسبب كتابه «هدم المنار» الذي لم يفهمه الأشراف في زاوية الهامل في مضمونه، بقدر ما اكتفوا بعنوانه الذي حسبوا أن فيه إساءة إليهم مما أثار حفيظتهم.

ومؤلفات الديسي تنوعت كتنوع قراءاته ومطالعاته، كما اختلفت موضوعاتها وأشكالها، فمنها ما هو متون، وشروح لمتون، ومنها ما هو جمع لمختارات أو نقد لمؤلفات وآراء غيره، وهي في قصرها وطولها منها ما بلغت صفحاته نحو المئتين أو الثلاثمئة، ومنها من لم يتجاوز صفحتين أو ثلاث صفحات. وهي مؤلفات في الأدب واللغة والفقه والعقيدة والفكر والحديث النبوي الشريف والتصوف والمناظرات والردود، وقد كان تركيزه على القضايا اللغوية والدينية بارزاً، ففي اللغة يبدي العناية بالنحو قبل غيره، لأن النحو أول فنون المعرفة.. كما نلمس بعض أساليبه في التدريس إلى جانب معرفة منهاجه في النقد والتأليف والتفسير والتأويل؛ ولا نقصد هنا أنه كان ذا

منهج على غرار المناهج الحديثة، بقدر ما نقصد طريقته التي تقوم على عرض الجمل أو النصوص، ثم شرحها أو نقدها، للكشف عن الأخطاء فيها، أو هي تقوم على العرض ثم الشرح النحوي، واللغوي، والبلاغي.

وجاء في إجازته للكتاني[29] ذكر جملة مؤلفاته الصادرة إلى غاية 1910م وعددها 11مؤلفاً فقط، كما ذكر له إسماعيل باشا محمد أمين بن مير سليم في ترجمته الصادر عام 1364هـ/ 1945م، 13 مؤلفاً وفيها المكرر[30]، ثم أعاد ذكر بعض التآليف في حروف المعجم التي رتب عليها كتابه المذكور، مثل: «مقامة المناظرة»، فإنها ذكرت في حرف الميم، وليقس عليها غيرها[31]، كما عدَّدها الشيخ محمَّد العيد بن البشير الهاملي شعرًا[32] حيث ذكر 32 عملاً، بقوله: «وقلتُ عِندَ التَّعرُّضِ لِذكر[33] مؤَلَّفاتِه ما نصُّه:

وفي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمان لابن أخيه الشيخ ابن السنوسي وابنه ثانيًا بالتهذيب أين كانت الزيادات التي تضمنتها من إنشاء ولده الشيخ أحمد أبو داود رحمهما الله تعالى المطبوع في عام 1960م ذكر له 33 عملاً فقط»[34]، لكن ما استطعت جمعه بتوفيق الله ومنَّه هو 46 مؤلفاً متنوعًا في المحتوى، ومتباينًا في العلم الذي يدرسه، وهي باختصار:

[29] – إجازة الشَّيخ محمَّد بن عبد الرَّحمن الدِّيسي للشَّيخ عبد الحي الكتَّاني، مخطوط بالمكتبة القاسمية بالهامل.

[30] – إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج2، ص299.

[31] – ذكرها في (إيضاح المكنون) عند ذكره – للزهرة المقتطفة – قائلاً: منظومة في الجمل النحوية لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد الطيب بن إبراهيم، القول السلامي الجزائري المولود سنة 1270 هـ ص 620 ج3 ا.هـ. هذا سبق قلم وإلا فالترجمة المشار إليها لصاحب هذا الأصل الشيخ الحاج بن السنوسي رحمه الله. تعليقات الشيخ سيدي محمد بنعزوز القاسمي.

[32]– محمَّد العيد بن البشير الهاملي، عنوانُ المحبَّة والشَّوق، ص–ص(29–33).

[33]– في الأصل: «لذ».

[34] – ابن السنوسي بن عبد الرحمان، ترجمة العلامة الإمام المجتهد، ص–ص(5–7)

أ. التخريجات الفكرية والنكات اللغوية والبيانية:

في باب اللغة العربية وآدابها: وله:

1. **القهوة المرتشفة** : وهي شرح لمنظومة في الجمل سمَّاها "الزهرة المقتطفة"[35]. حيث شرحها في ست وعشرين صفحة، قال في نهايته: «كان الفراغ منه ضحوة يوم السبت بثلاث عشرة بقيت من رمضان، أحد شهور سنة 1298هـ»[36]، وكتب عنها بعد ذلك حاشية أسماها «الحديقة المزخرفة في حواشي الزهرة المقتطفة»[37] وذلك سنة 1304هـ. وكان الشرح خارج الإطار، والحاشية داخله. ويلاحظ في محتوى هذا السفر أن الديسي ممن أوتوا موهبة و قريحة لا يستهان بها، حيث كان سريع البديهة حاضر الذهن. وصاحب نكات لغوية وبيانية، وما يدلنا على ذلك مقدمته في (القهوة المرتشفة). وبهذه الموهبة جاءت ألغاز الديسي الشعرية متنوعة، وذلك لتنوع الأشياء التي نظَّم فيها اللغز. فنراه يقول في ساعة جدارية كانت معلقة بالمسجد[38]:

ومصلوب يصيح بلا لسـان ولا عقل وليس بذي حيـاةِ

ثم يأتي بلغز في الشمعة التي تذرف دمعًا، وتذوب أسى فتذكر الحبيب بحبيب له حنَّ إليه[39]:

رشيقة قد يخجل الطرف حسنها أنيســــة مشتـــــــــاق لها وعلـيل

مسهدة أنى يلــــــــــــذ لها الكـــرى ولم تشف من أجفانها العـــليـل

---

[35] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل، قام بتحقيقها الأستاذ جوبر عبد الحفيظ، أنظر: – جوبر عبد الحفيظ، القهوة المرتشفة في شرح الزهرة المقتطفة للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف: أ.د شريف مريبعي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، (2001–2002)م.

[36] محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، القهوة المرتشفة في شرح الزهرة المقتطفة ، ص 26، مخطوط .

[37] مخطوط، عند ابن عزوز قاسمي الحسني (بلدة عين وسارة) يقع في 134 صفحة .

[38] – محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، الحديقة المزخرفة، ص:39 – وأيضاً: محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، ديوان منة الحنان المنان، ص:48.

[39] – بن قينة، الديسي حياته وآثاره، ص 169.

كما نظم في المسائل الفقهية أيضاً[40]:

سألتكم يا معشر الآجلة　　　الـمعتنين بفروع الملة

لتخبروني عن صلاة شخص　　يرشدكم لها صريح النص

تصـــــح إن أم وإلا تفســـد　　على جميعـهم بغير فنـــد

ومن نظمه في المسائل النحوية[41]:

أيها الفاضل الذي نال حظاً　من عـلوم الآداب والمـــيراث

هل رأيت؟ هل سمعت بباب　حاز فيه الذكور عشر الإناث؟

وقد كان للحرب العالمية الأولى انعكاسات سلبية وآثار سيئة على المجتمع الجزائري، فقد تسببت في مجاعات قاتلة وفقر مدقع خصوصاً في أعقاب نهايتها مباشرة. وظهر تأثيرها على صفحات الجرائد الصادرة آنذاك التي وصفت واقع الأهالي الجزائريين من بطالة ومرض وفقر وموت بالوضع الكارثي الذي لا يطاق[42]. ومترجمنا من الذين لفحتهم بنارها هذه النازلة، وببديهته النيّرة وصف حاله في إحدى القصائد التي خاطب فيها شيخ زاوية الهامل، مؤملاً عطاءه[43]. فيقول فيها:

فالنـعل بال رثيث　أروم أن يستجـــــــدَا

وليس عندي وقود　والبرد قد صال جـدًا

---

[40] – نفسه، ص170.

[41] – نفسه، ص171.

[42] – الإقدام، الجزائر، 5 نوفمبر 1920، 4 جانفي 1921. و ينظر أيضا : الصديق، الجزائر، 7 جانفي1920.

[43] – محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، منة الحنان المنان، ص:119.

ويقول أيضًا:

ومع هذا فأبـــــــغي تمرًا وزبـدًا وشـهدًا

ولحم ضأن سمين يكـون للبـرد ضـــــــدًا

2. **الحديقة المزخرفة**: حاشية على القهوة المرتشفة أجلى بها غامضها، ووضح مبهمها، وأضاف إلى ذلك نكتاً جمَّة في الأدب واللغة وشتى الفنون. وهي تقع في84 صفحة[44].

3. **تحفة الإخوان في مدح غوث الحقيقة**[45]، «غوث دائرة أهل العرفان، سيدنا ومولانا محمد بن أبي القاسم » نظمها في مدح أستاذه الشيخ محمد بن أبى القاسم، في ثمانين بيتاً. وسمَّاها البديعية. وشرحها يزيد عن سبعين ورقة من القطع المتوسط، يجلي في شرحه ألوان البديع التي تناولها في قصيدته، وضروب البيان، من جناس، واستدراك، وتمثيل، وتورية، وتقع في 48 صفحة، مطلعها:

أحمده من علم البديعا وأشكر المقتدر البديعا

4. **تحفة المحبين بشرح أبيات القطب الأكبر محيي الدين**[46]. وفيها شرح لأربعة أبيات شعرية، في أربع صفحات، أول الأبيات:

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر وإلا تيمم بالصعيد، وبالصخر

يأخذ الديسي في الشرح على هذا النحو: **تطهر:** أمر بتحصيل الطهارة، والصيغة تعطي التكليف، والتمني، إلى مزيد المكابدة، ودوام المجاهدة[47] . كتب هذا الشرح القصير في 25 رمضان 1310هـ.

[44] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي–الديس. مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[45] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي–الديس. مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[46] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

5. **الفرائد الحسان في شرح تحفة الإخوان**[48]. وهذه البديعية كما يبدو من خبرها قد خالفت موضوع البديعيات العام، المتمثل في المديح النبوي ،فقد تفردت بهذا الشذوذ الصريح.

6. **المشرب الراوي على منظومة الشبراوي**[49]. وهو شرح موجز على منظومة في قواعد اللغة كان قد نظمها الشبراوي في النحو، مطلعها :

يا طالب النحو خذ مني قواعده   منظومة جملة من أحسن الجمل

هذا هو العنوان الكامل لشرح منظومة عبد الله بن محمد الشبراوي في النحو، يقول الديسي فيها: «لما تأملت منظومة العلامة الشبراوي الشافعي في بعض القواعد النحوية، أعجبتني سهولة مبانيها وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، استخرت الله في إملاء كلمات تقييد عليها، يتم فوائدها ويوضح مقاصدها». أنهى الديسي هذا الشرح في 30 شوال، سنة 1303هـ بزاوية الهامل[50].

7. **مقامة المناظرة بين العلم والجهل**[51] و شرحها بشرح سمّاه: «بذل الكرامة لقراء المقامة». طبعت في أزيد من ثماني صفحات. ويتضح من عنوان هذا الكتاب مقصد الديسي الذي أراد أن

---

[47]- بن قينة، الديسي حياته وآثاره، ص77.

[48] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس، قام بتحقيقها الأستاذ خنفر. (محمد الحسن)، أنظر: خنفر. (محمد الحسن)، الفرائد الحسان في شرح تحفة الإخوان لمحمد بن عبد الرحمن الديسي الجزائري(ت1921م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص : تحقيق المخطوطات، إشراف د. الشريف مريبعي، جامعة الجزائر2، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية : 2010 – 2011.

[49] – مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. حققه الأستاذ بوعبد الله لعبيدي بن محمد، ونال به شهادة الماجستير من قسم اللغة العربية كلية الآداب واللغات،جامعة الجزائر2001. وتم طبعه في الجزائر عن دار الأمل للطباعة والنشر، سنة 2012م.

[50] – بن قينة، الديسي، ص80.

[51] – مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، 2012م. بتعليق ومراجعة من الأستاذ عبد الكريم قذيفة. كما طبع طبعة قديمة في تونس عن مطبعة بيكار، بدون تاريخ. مقامة في 1– ورقة، مطبعة بيكار د.ت، تونس. ينظر أيضاً: جريدة كوكب أفريقيا، الجزائر : عدد77، 23/ 10/ 1908م، العلم والجهل- جريدة كوكب أفريقيا ، الجزائر: عدد80،13/ 11/ 1908م، العلم والجهل–جريدة كوكب أفريقيا، الجزائر:عدد89، 8/ 01/ 1909م، العلم والجهل.

يعالج موضوعات مهمة وهي حب العلم من جهة ومقت الجهل من جهة أخرى، ووضعية العالم والجاهل في الحياة الاجتماعية والركود الثقافي الذي كان سائدًا في عصره، فهذه كانت محاور هذا المؤلف وقد اعتبرها البعض مناظرة جيدة حيث تظهر فيها وتُشخص ثمرات العلم ونتائج الجهل.[52]

وتميزت هذه المناظرة بأسلوب الجدل والنقاش والحوار والسرد والنشاط العقلي، وقد وردت في ثلاث مراحل تقديم ثم عرض الموضوع الذي هو الجدل بين العلم والجهل، ويذكر الديسي في المتن قوله: "فاجتمع القوم وعيَّنوا لذلك اليوم" ويصور الديسي المشهد بحضور جمع من الناس في يوم قد سبق الاتفاق عليه وهذا يشبه إلى حد ما قصة سيدنا موسى (عليه السلام) وفرعون وكأنه اقتبس هذا المشهد عندما تواعدا على يوم يشهده الناس، أو بعبارة أخرى هي مناظرة بين الحق والباطل، حيث أعطى الديسي لكل طرف حقه في الدفاع عن نفسه ليتدخل في المرحلة الأخيرة الإنصاف، فيحكم بين المتخاصمين قائلاً: «دعا الشنأن واتركا اللجاج، ولا تطيلا الحجاج... فقد اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون العالم على هذا النظام جهلاء وأعلام».

وقد كان الدافع من هذه المناظرة إشاعة حوار ثقافي ونقاش فكري يشعل فتيلة العقل وهو لون من الأدب فيقول: «والأدب للعقول السليمة رياضة وأي رياضة» فالمناظرة إذن قصد بها الديسي كما ذكر: «إيقاظ العزائم وتحريك الهمم» وهي صالحة في نظره لأن تكون نموذجا يتدرب بها الطالب ويتذكر بها العالم المنتهي، ويذكر لسان حال العلم في المناظرة أمرًا مهمًا كي لا يتخذه الجهل ذريعة للحط من قيمة العلم، وهو الكساد والخمول الذي أصاب الحياة الثقافية آنذاك، ويعلل لسان حال العلم ذلك بغلبة الفساد وسيطرة الجهلة والمنافقين وهذا الكلام يبرز الإحساس الشديد بالركود الذي كان يطبع الحياة الثقافية وغياب القيم الفكرية البعيدة عن الأغراض والأهواء حيث أراد أن يقول: أنه لم يعد للعلماء والعلم الاحترام الذي كان موجودًا من قبل، في حين كانت العلوم

[52]– عمر بن قينة: الديسي، ص 193.

مزدهرة والعلماء محترمون عندما كانت الدولة الإسلامية في أطوار عزها، وقد خفت تدريجيًا تحت وطأة الاستعمار الذي تسبب في الانحطاط الثقافي فضعف شأن العلم والعلماء، ويظهر هذا في قوله: «فلتبك على سلفي الصالح المنابر والأقلام والمحابر، أما الآن وقد كان ما كان وذهبت الجماعة واقتربت الساعة فلا يسعني إلا الرضا والصبر على مر القضاء والتقلب على جمر الفضا، فالشيء ينتهي إذا بلغ غاية حده فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرًا من عنده»[53]

وعندما نتعرض لشعر الديسي فنجده أنه كان أحد الشعراء الجزائريين الذين برزوا نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان شعره يحمل شخصيته وطابعه بالرغم من أنه تناول في شعره أهم الموضوعات الشعرية التي عرفها الشعر العربي على مر العصور بما فيها شعر المنظومات ذات الغرض التعليمي فتفنن في اللفظ ونوع الموضوعات، رغم اعترافه بأنه يعيش في زمان صار فيه «نظم الشعر كاسد السعر، ومن جعله حرفة ومكسبة كان للفقر والحرمان مجلبة»، فإنه بقي حريصا على نظم الشعر حتى آخر أيامه وقد ضم شعره على اختلاف موضوعاته ديوانه (منَّة الحنَّان المنَّان) الذي ضم كل أشعاره فمنها مدح للرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء ومديحه لغير الرسول والتهاني والاخوانيات والرثاء والوصف وشعر الإجازات والتقاريظ وشعر الألغاز، والمنظومات التعليمية.[54]

ومنها ما جاء في النحو والصرف فقد اشتمل ديوانه على 164 بيتاً تصدرت هذه المنظومات منظومته المسماة (الزهرة المقتطفة) في الجمل النحوية، والتي تناول فيها الجملة وأقسامها والجمل التي لا محل لها من الإعراب والجمل التي لها محل من الإعراب...الخ[55]، كما له نظم علامات

---

[53] محمد (بن عبد الرحمن الديسي): المناظرة بين العلم والجهل، وبذل الكرامة لقراءة المقامة، مراجعة تقديم: عبد الكريم قذيفة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، ط1، الجزائر، 2012، ص 90.

[54] بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص -ص (87-88).

[55] محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، ديوان منة الحنان المنان، ص 09.

الإعراب الفصول والفروع والعديد من المنظومات الخاصة بالنحو والإعراب، التي كان لها إقبال كبير من طرف المهتمين بالتعليم والتعلم، وكان المقصد من نظم هذا الشعر لتيسير الحفظ وتعليم اللغة العربية والمحافظة على مبادئ وقواعد لغة الضاد، في ظل سياسة التجهيل التي فرضها الاستعمار الفرنسي وفرنسة الشعب الجزائري.

وتبقى لهذه المنظومات قيمتها التاريخية حيث تعتبر إضافة كبيرة قدمها الديسي في فترة كان إنتاج الشيوخ ومن رجال الدين والزوايا في الشعر والنثر أشد ارتباط بإنتاج القرون الوسطى، كما تبقى قيمتها في الدلالة على أن الديسي كانت له إمكانيات كبيرة وثقافة دينية ولغوية حرص على أن يفيد بها مجتمعه واستخدمها حتى لا يعلوها صدأ وحتى تكون فائدتها أعم.

8. **بذل الكرامة لقراء المقامة**[56]: وهو شرح للمقامة آنفة الذكر، أودعها ما جادت به قريحته من شعر ونثر وتاريخ وما إلى ذلك، على طريقة ما كان يسمى على عهده بالمحاضرة، ويتضح في شرحه من البداية، إعجابه «بالمناظرة » ورضاه عنها ويرى فيها أنموذجًا من الأدب الرفيع، كما يرى توفيقه فيها هبة من الله، فيقول في التقديم[57]: «إن الأدب للعقول السليمة رياضة، وأي رياضة، يعرف ذلك من انتشق أزهاره، أو دخل حياضه. وقد أجرى الله على جنانه وأنطق لسانه بمقامة أدبية في المفاخرة بين العلم والجهل، استحسنها من رآها من منصفي الإخوان، وأثنى عليها واستعذبها بعض أهل العرفان»[58].

9. **الجواهر الغالية بشرح القصيدة الدالية**[59]: التي نظمها في مدح أستاذه الشيخ محمد بن أبي القاسم. والتي مطلعها:

---

[56] – مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[57] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص 74.

[58] ا محمد (بن عبد الرحمان الديسي)، بذل الكرامة لقرآء المقامة، مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل، ص 2.

[59] – مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

يطيب هنا عيشي وأدعى بمسعود إذا أنعمت بوصلها أم مسعود

10. **تكملة شرح الآجرومية لسيدي السعيد بن أبى دواد**[60]. والظاهر أن مؤسس الزاوية الداودية شرع في هذا الشرح ولم ينهه، وتولى الديسي مهمة إنهائه.

11. **خاتمة على قول ابن آجروم**[61]: "وخاتم حديد". وهو المثال الذي ختمت به الآجرومية آخر المخفوضات فصل المخفوض بالإضافة.

12. **خاتمة على قول بن مالك**[62]: «وما بجمعه عنيت قد كمل». رسالة ظريفة في أقل من ثلاثين صفحة خصصها لشرح خاتمة ألفية ابن مالك.

13. **تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية**[63]. ولهذه المقامة التي لا تتعدى الثماني صفحات قصة، مختصرها أنه ذمَّ البادية في قصيدة من قصائده مطلعها:

أهدى إلى القاطن في تواب تحية المهيمـن التـواب

ومنها :

أخطأتما فاللطف في الحضارة ورقة الآداب والنضـارة

فأتته مراسلة من الشيخ محمد المكي بن عزوز ضمَّنها قصيدة يعتبُ عليه تفضيل الحاضرة على البادية فأجابه بقصيدة مطلعها:

بدوت هوى حتمًا ولم أكُ بالبادي تقفَّيْت فيه القوم والفضل للبادي

---

[60] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[61] – المصدر نفسه.

[62] – المصدر نفسه.

[63] – مخطوط بالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. وبمكتبة بن عزوز القاسمي الحسني، عين وسارة. وبمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي– الديس.

ثم كتب هذه المقامة تكفيرًا لما أودعه في القصيدة الأولى من ذم للبادية. ولم يكن الشيخ محمد المكي بن عزوز هو الوحيد الذي عتب عليه، فهناك صديقه الشيخ عبد القادر بن إبراهيم المسعدي الذي بعث إليه بدرة من الدُّرر الأدبية النثرية يعتب عليه فعلته هذه ويدعوه إلى التكفير عن ذنبه سريعًا.

ولقد اعتبرها الكاتب مقامة، وهي لا تزيد عن أربع صفحات، قام بشرحها، فتصيد فيها مفردات لغوية، وتلميحات أدبية تاريخية، مما يجعلنا نتأكد أنها مقامة أقرب إلى الصنعة والتقليد، منها إلى الإبداع والإنشاء الأدبي الذاتي[64]، يفتتحها بالحمد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ معقبًا بصيغة براعة الاستهلال ثم يصل إلى قوله : «ومن العجائب التي لم يحكها عيسى ابن هشام» وأهم ما يمكن الاستفادة منه من هذه الرسالة: هي أنها توضح لنا تحولاً حدث في فكر الشاعر، يتمثل في عدوله عن رأي سابق في تفضيل المدينة، ورغم أننا لم نستطع تحديد تاريخ هذه الرسالة، فإننا اهتدينا إلى أنها تحمل رأيه الأخير والنهائي، في المفاضلة بين المدينة والبادية.

14. **جواهر الفوائد وزواهر الفرائد**[65]. كتاب في أزيد من مئة وخمسين صفحة من القطع المتوسط إدراجه في الأدب أولى، لأن أغلب فرائده أدبية، أو يغلب عليها الطابع الأدبي رغم ما فيه من كل فنون المعرفة التي كانت في عهد المؤلف. وهذا الكتاب مجموع لمختارات منوعة قصيرة في أكثرها، وهي مختارات تتفاوت موضوعاتها قلة أو كثرة. فيه نحو وفقه، ولغة وأدب، وبلاغة ونقد، وتاريخ وفلسفة، وتصوف وشعر، لكن غلبة الطابع الأدبي أوضح فيه.

انتقى الكاتب هذه المختارات من كتب قرأها، وأعجبته لجمال أسلوبها، وبمضمونها، فأثبتها معطياً لكل موضوع يعرضه عنواناً يناسبه، يستوحيه من معنى الحكاية التي يوردها أو " الفائدة التي يسجلها، أو اللغز الذي يعرضه، وقد يكتفي بتسميتها " فائدة " أو " نكتة " راعى في المادة

[64] – بن قينة، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص27.

[65] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. وبمكتبة بن عزوز القاسمي الحسني، عين وسارة.

القصر -غالباً- والاكتفاء بالإشارة، دون الشرح أو التحليل، كما راعى في عنوان كل فكرة أو موضوع الخفة والرشاقة، والوقع الموسيقي، مثل قوله:"فائدة"، "فريدة"، "غريبة"، "دره"، "عجيبة"، "زمردة"، وينهي الكتاب بنظم من شعره في مدح الرسولﷺ... فيقرأ (القارئ) هذي المختارات وبقراءتها يكون كأنه قد قرأ جميع العلوم التي أخذت منها[66].

15. **نظم علامة الإعراب الأصلية والفرعية**[67].

16. **خاتمة الخلاصة**[68].

17. **ديوان شعر: منَّة الحنان المنان**[69] و هو ديوان يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت في أغراض مختلفة في المدائح النبوية، والضوابط الفقهية والنحوية، ومدح الشيخ الأكبر، والتهاني والتاريخ والتقريظ والأصلين المراثي والإجازات، والألغاز الفقهية والنحوية، وفيه تضمن الكثير من أبواب المختصر (مختصر خليل بن إسحاق المالكي) وله مقاطع في الغزل حسان تعجب وتطرب. قام نجله أحمد أبو داود بجمعه ونسخه. وقد عانى حسب ما جاء في خاتمة الديوان كثيرًا، حتى تيسر له نسخه.

في باب القضايا الفكرية ذات البعد الاجتماعي والسياسي: وله:

18. **قصيدة في صفة الزمان وأهله.** وفيها تظهر نزعته الإصلاحية، وهي متفرقات من قصائده، تدل على رغبته وإدارته في إصلاح ما كان سائدا من وضع في عصره، حيث قال الديسي، في ديباجة هذه القصيدة: «الحمد لله الذي شرف مقامات أهل العلم والأدب، وأنزل بمنه الحكمة على ألسنة

[66] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص30.

[67] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

[68] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. (10 ورقات)

[69] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، 2012م. وموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة.

العرب، فهم من بين أجيال الأمم ينطقون بالعجب لاسيما في نظم الشعر وإنشاء الرسائل ونظم الخطب، وفضّلهم بأن بعث منهم أكرم المرسلين، وأنزل عليهم بلغتهم أفضل الكتب...فإني لما قوى لطلب العلم اشتياقي واشتد بنار المحبة احتراقي ولم أجد صديقًا منجدًا ولا رفيقًا مسعدًا، عملت قصيدة أطفأت بها الحريق ...». وقد ألف هذه القصيدة وكان عمره لا يتجاوز 29 سنة أي قبل التحاقه بالتدريس في زاوية الهامل حيث قال في مطلعها:

ذهب الصالحون لم يبق فضـل   وفشـــا في البلاد ظلم وجهــلُ

قلت العلماء قبل وفـي ذا الـــ   عصر بل هم من القليل الأقـلُ

خلف القوم معشر قد أضاعــوا   سنة المصطفى أضلوا وضلوا

همج هامج رعاع أطاعـــوا غيهم في انتهاك   مــــــالا يحـلُ

عظموا الأغنياء جهلا وذو العلـ   ـم ضعيف لـديهم مستقــلُ[70]

إن هذه الأبيات قد توحي بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الحقيقي الذي عايشه الديسي والمجتمع الذي نشأ فيه، في ظل استعمار فرنسي مدمر عمل جاهدًا على تدمير هذا الشعب بالقضاء على مقوماته وتجهيله بنشر الخرافات والبدع، وهذا ما حرَّك في الديسي الغيرة على أحوال الناس والتطلُّع إلى إصلاح الوضع وهي دعوة أيضاً من أجل طلب العلم لأنه عنوان التقدم والتطور.

---

[70]- محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، ديوان منة الحنان المنان، ص 209.

19. **تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل**[71]: ألفه الديسي من أجل حفظ الذاكرة لفئة من الشعب الجزائري في منطقته وقال في مقدمته: «لا يخفى أن علم التاريخ علم جليل وموضوعه شريف نبيل... وورد في فضله ما يحثُّ كل طالب على طلبه، ويحرض كل راغب على مطالعة كتبه... ويروى أن من أرخ مؤمنًا كان كمن أحيا ميتًا»، وتطرق الديسي في كتابه هذا إلى أسباب ضياع الأنساب: «ومما يجب أن يعلم أولاً، أن غاية ما يعلم عن أحوال بلادنا وما قاربها من علم التاريخ أمور إجمالي يتلقاها الخلف عن السلف...، أما التقييد بالكتابة فقلَّما يوجد لما كان عليه حال البلاد قبل استيلاء فرنسا على القطر الجزائري، من الاضطرابات وتغلب البعض على البعض بالنهب والسلب وشن الغارات، ولهذا السبب ضاع الكثير من أخبار علمائها وفضلاءها ورؤسائها فلم يحفظ إلا الشاذ النادر، إذ من المعلوم أن المعارف إنما يتسع نطاقها حيث وفور العمران واستتباب الراحة وتعاضد السكان، ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل إلا بالعمل والأمن على النفس والمال، قال بعض العلماء: ومن الأسباب التي تضيع بها الأنساب نسبة الشخص إلى البلاد التي يسكنها دون نسبته إلى أصله وقبيلته والفرنسي إذ نسب مثلا إلى الجزائر يقال الجزائري، فيغلب عليه ويتناسى انتسابه إلى قبيلته وأصله...». من خلال هذه المقدمة نستوحي سعة اطلاع الديسي على ما ألف في جانب علم الاجتماع ومؤلفات ابن خلدون، كما كان عالماً بأحوال الجزائر حتى قبل الإستعمار الفرنسي[72].

20. **قصيدة الحميدية**[73]:نظمها الشيخ الديسي بمناسبة خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908م وسمَاها الحميدية وجاءت في (26 بيتاً)، فقد كان له وعي بقضايا الأمة الإسلامية، وكان

---

[71] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، 2012م. بعناية الأستاذ قذيفة عبد الكريم.

[72] أبو القاسم (سعد الله)، الحركة الوطنية الجزائرية 1860ـ 1900، ج1، دائر البصائر، ط 6، الجزائر، 2009، ص 456.

[73] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية بالهامل.

متتبعًا للحركة القومية العربية الإسلامية ومن ثم جاءت قصيدته في عبد الحميد الثاني بكاء عن ضياع الخلافة الإسلامية وهي قصيدة ثناء بطعم الرثاء قائلاً:

ثناء على عبد الحميد حميـــــــــد وحزني عليه ما حييت جديد

ووجدي به يحيا وشجون خالد ودمعـي يحــكي جعفر ويزيد

ثم توعد الذين خلعوه بقوله:

فيا خالعيه قد خلعتـم بخلعـه قلوب جميع المسلمين فبيدوا

غدرتم أمير المؤمنين وخنتم عقابكم عنــد إلالـــه شديـد[74]

في باب التصــوف: وله:

21. **فتح القدوس العلاَّم في شرح صلوات القطب ابن مشيش عبد السلام**[75]. ويقع هذا الشرح في ست صفحات من القطع المتوسط. وهو نص دعاء شرحه الديسي في ثماني صفحات. يقول في بداية شرحه: «هذه تحفة الأحباب في شرح صلوات ابن مشيش، ما راجعت فيها كتابًا، لأنني مسافر وجعلتها في سفري هدية للعلامة السيد المختار»، وسميته » بـ « فتح العلام في شرح صلوات القطب عبد السلام». يبتدئ نص الدعاء بـ « اللهم صل على من انشقت ... » الخ، يأخذ الديسي في الشرح مبتدءاً بشرح المفردات، موضحًا المعنى، معلقًا على الفكرة المشروحة. وقد كتب هذا الشرح خارج زاوية الهامل، في «طاقين صحبة العلامة العارف سيدي محمد بن الحاج امحمد في

[74] – محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، ديوان منة المنان الحنان، ص 206.

[75] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

ضيافة القائد سيدي عبد القادر الجيلاني، وكان لنا معينًا، وحافظًا، ضحوة الثلاثاء، آخر ذي الحجة الحرام، خاتم سنة 1893م — 1311هـ»[76]

22. **نصيحة الأخوان وإرشاد الحيران**[77]. هي الأخرى في التصوف حسب ما تدل عليه تسميتها، لأن ابن أخيه السيد ابن السنوسي عندما ترجم له تعرض لهذه الرسالة، وقال أنها في التصوف.

23. **النصيحة الكافية لطلاب الأمن والعافية**[78]. قال عنها الشيخ ابن السنوسي: لا أعرف اسمها ولا رسمها ولعلها من ذخائر تأليفه المكنونة في بعض الخزائن والصناديق.

24. **رشحة بقطرة في مسألة الهجرة أو أنفس درة ورشح بقطره في مسائل الهجرة**[79]. رسالة في خمس صفحات من القطع المتوسط شرح فيها معنى الهجرة وأنواع الهجرة وبعض من أحاديث الواردة في هذا الباب وأقوال السلف في معنى الهجرة. وقد كتبها الديسي سنة 1331هـ الموافق لـ1913م.

25. **تحفة المحبِّين المهتدين وتذكرة المتيقِّظين المقتدين بشرح أبيات محي الدين**[80]: وهو شرح أبيات تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر. والأبيات هي:

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر   وإلا تيمـــــم بالصعيـد و بالصخـر

وقدم إماما كنت أنت إمــامه   وصل صلاة الفجر في أول العصـــر

[76] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص82.

[77] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

[78] – المصدر نفسه.

[79] – المصدر نفسه. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[80] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

فـهذي صـــلاة العارفين بربهـم   فإن كنت منهم فانضح البر بالبحـر

وهي أبيات تبارى في شرحها جلة القوم، كل يشرحها بما فتح الله عليه به. والشيخ شرحها في ثلاث صفحات من القطع المتوسط، تعرض فيها للغة القوم قربها للقارئ العادي بقدر الإمكان. كتب هذا الشرح في 25 رمضان 1310هـ ويكمل شرحه بهذه الطريقة.

26. **تعليق على قول الإمام أبي حامد الغزالي**[81](ليس في الإمكان أبدع مما كان).وقد تضمنه ديوانه (منَّة الحنَّان المنَّان).

في باب المناظــرات: وله

27. **توهين القول المتين**[82]: في الرد على الشماخي الإباضي، مخطوط ومطبوع بالجزائر. هو رد مفحم على من طعن في أئمة المذاهب الأربعة، حيث تصدى الشيخ الديسي للدفاع عنهم وإنصافهم. ومن اتبع مذاهبهم. لم يذكر فيه المذهب الإباضي بسوء، لكنه وصف صاحب الكتاب بكل الأوصاف التي تحضره، وهو مطبوع في أزيد من مئة صفحة وبهامشه كتاب القول المتين.

لقد ألّف الديسي (توهين القول المتين) وهو كتاب يقع في 163صفحة كرد على كتاب(القول المتين) لصاحبه قاسم بن سعيد الشماخي الذي ركَّز في ادعائه على بطلان المذاهب الأربعة في الفقه الإسلامي وصحة المذهب الإباضي، مذهب جابر بن زيد الأزدي الأنصاري (21-93هـ) فقام الديسي بالرد عليه مناقشًا آراءه وأقواله، مبطلاً مزاعمه مدافعًا عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم حيث يقول في المقدمة: «توهين القول المتين بما يشق على قلبه ويقطع منه الوتين، والقول المتين هذا رسالة لبعض إخواننا في الدين من الإباضيين يدعى قاسم بن سعيد الشماخي العامري وهو رسالة أفعمها

[81] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

[82] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، 2013م.

مؤلفها بالقدح في الأئمة الأربعة ...وأطلق لسانه بما شاء بلا حياء ولا احتشام... فأردنا التنبيه على ما ذكر حسب الإمكان وبقدر الزمان والمكان ليعلم أن ريحه قد لاقت إعصارًا..، ثم تحدث الديسي عن جابر فلم ينكر مكانته لكنه أنكر على المنتسبين إلى مذهبه التعصب له والرفض لغيره فيقول: «وليس جابر بأوثق ولا أعدل من غيره من سادات التابعين، ولا ننكر عليكم أخذكم عنه وتقليدكم له حيث ثبت عندكم علمه وبره وتقواه، بل موضع الإنكار والتعجب حصركم الحق فيه، والمجددون للدين والمشيدون لأركانه إنما هم أهل السنة والجماعة بعلومهم ومعارفهم وشهامتهم منذ القرن الأول».

28. **الساجور للعادي العقور عاشور**[83]. وهو رد تربوي على صنوه الشيخ عاشور الخنقي، الذي حضر درسًا في البلاغة من دروس الشيخ محمد بن عبد الرحمان الذي أبلغه بعض تلاميذه أن الشيخ عاشور علَّق على الدرس بأنه يفتقد إلى مزيد من الشرح ومزيد من الأمثلة حتى يستوعبه الطلاب. والمتوقف عند الكتاب يرى أنه وثيقة تربوية جديرة بالدراسة، بغض النظر عما ورد فيها من لهجة قاسية بعض الشيء. ويظهر من ذلك أن عاشورًا الذي كان يهزه الأغراب ويُحب الإطناب رأى في تقصير الديسي عن ذلك عجزاً، وضعفًا في المستوى العلمي. كما يظهر أن ذلك قد أغضب الديسي في البداية ولو لم يغضبه ما كلف نفسه الرد على عاشور كتابة[84].

29. **هدم كتاب منار الأشراف**[85]. هكذا وردت تسميته وهو رد على كتاب الشيخ عاشور المطبوع والذي أسماه: (منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف) وبالغ في مدحهم، ولو قصر الأمر على التُقاة منهم لهان الأمر، ولكنه أغرى العصاة بالتمادي في غيهم، مما دعا

[83] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[84] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص49.

[85] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، 2013م..

الشيخ إلى أن يرد عليه ليقوم الاعوجاج وليهدم ما بنى من صروح خيالية. كل هذا مع حفاظه على احترام المسلم أيا كان، خاصة إذا كان من المنتسبين إلى الدوحة المحمدية.

فقد أباح الشيخ عاشور في كتابه للأشراف فعل المحرمات وارتكاب الآثام ذلك أنه طمأنهم بغفران الله لهم رغم عصيان بعضهم وخروجهم عن الدين، ومن هنا جاء رد الديسي في كتابه الذي سماه (هدم المنار وكشف العوار) الذي أراد من خلاله إبطال مزاعم عاشور التي لا تستند إلى دليل ديني أو تاريخي.

حيث قال الديسي في بداية كتابه: «قد وقعنا على ديوان مشحون بالكذب والبهتان والظلم والإثم والعدوان، جمعه شيطان في صورة إنسان يدعى عاشور، من تأمل إفكه وشاهد حاله يقول إن باب التوفيق عنه مسدود، والخير عليه مجحود، حمله على جمعه خبث النفس والاحتيال على اختلاس الدرهم والفلس، ودس فيه سموم أغراضه الفاسدة وترهات أباطيل مطامعه الكاسدة، مدعيًا وزاعمًا حب الشرفاء وهو في الحقيقة لهم من أضر الأعداء».

ثم يقول على كتاب عاشور أنه اشتمل على «بدع شنيعة وانتحالات خرج فيها عن قواعد الشريعة كالقول بالإباحة التي هي عين الزندقة، ومفتريات عظيمة ودعاوي بطالة سقيمة، وتلفيقات حجج عقيمة، فأوجبنا نقده لإظهار زيفه، وتحذيرا مما جره على الأمة من ظلمه وحيفه»، فيقول الديسي: «بضرورة القيام بإبطال كل بدعة تظهر»[86].

ومهما يكن فالكتاب أثار حفيظة الأشراف في تلك الناحية على الديسي ولكنه لم يكن قطيعة تامة بينه وبين أبناء الزاوية الذين استاء بعضهم، كما تسبب الكتاب في فرض نوع من العزلة عليه، وهذا ما آلمه، لكن أمام إرضاء ضميره في عدم كتمان كلمة الحق ونجاحه في كشف كذب عاشور هون

[86] محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، هدم المنار وكشف العوار، ص 03.

عليه الألم، فإن أصابه ما يؤذيه من بعض الناقمين من الأشراف فقد نال رضى الله وأخلص لدينه[87] فكسب من طلابه وغيرهم تقديرًا أثلج صدره ونشر فكره الإصلاحي.

30. **رفع النقاب عن شبهة بعض المعاصرين من الطلاب**[88]. وهو مطبوع، رد فيه على بعض الطلاب الذين أنكروا بعض المكاشفات الصوفية لشيخه محمد بن أبي القاسم، وهو كتيب فيه ما يزيد عن أربعين صفحة (ورقة)من القطع المتوسط. خصص منه قسمًا وافرًا لأخذه العلم عن شيخه وللمواد التي كان يدرسها شيخه.

31. **إفحام الطاعن برد المطاعن**[89] (وهذا آخر ما ألف الشيخ الديسي). تأليف يقع في سبعة عشرة صفحة، يذكر فيه رأيه في قول شخص يعادي أصحاب الزوايا ويستنكر التصوف (الشيخ مولود الزريبي الأزهري). وقد جعله في ثلاثة أقسام: (مقدمة ومقصد وخاتمة). انطلق الكاتب فيه من سؤال لسائل يدعى " محمد بن عبد الله " طلب من الديسي رأيه في قول لشخص يعادي أصحاب الزوايا، ويستنكر التصوف لكن الكاتب لم يعرفنا بهذا الطاعن الذي صوب نقده على التصوف وطعن فيه، كما نقد أصحاب الزوايا وذكر ضلالهم، وقبَّح أفعال زائري قبور الأولياء وكفرهم[90] .

وعندما شرع الديسي في الرد على سائله ليجلي أخطاء الطاعن – حسب زعمه – برد مطاعنه عليه قسم رسالته هذه إلى "مقدمة " و"مقصد" و"خاتمة " بالإضافة إلى تقديم للرسالة الواردة، وهو تقديم تعرض فيه لوصول الرسالة التي يسأله فيها صاحبها. يقول في المقدمة : « . . قد أجمع

(87) بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص 59.

88 – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وهو مطبوع: بالمطبعة الرسمية التونسية، 1312هـ/ 1894م

89 – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

90 – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص43.

سلف الأمة، وأهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، على إثبات الكرامات، وإثبات الولاية، وعلى تأكيد ندب الزيارة للأحياء والأموات»[91].

في باب الاجتهادات الفقهية والأصولية: وله:

32. **تحرير القصد في الفصد**[92]. وهي رسالة موجزة تعرَّض فيها إلى ما كان يطلق عليه في بداية العهد الاستعماري بالفصدة. وهو ما نعرفه اليوم بالتلقيح، يُبين فيه حكم الشرع فيه. هذه المخطوطة جاءت في ثلاث صفحات أباح فيها الديسي جواز التلقيح مستندًا في اجتهاده على جملة من الأدلة الشرعية المستقاة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وقد جاءت مكتوبة بخط مغربي رفيع. وهي رسالة يقول الديسي: «...ورد علينا سؤال من بعض الإخوان مضمونه، ما حكم الله في تلقيح الجذري المعروف في العرف الآن بالفصادة... فأقول في الجواب ... أن الفصد من باب التداوي والتطبب المجمع على إباحته وقد يجب ويندب بحسب العوارض المقتضية..»

33. **رسالة في الوقف**[93]. تقع في عشرين صفحة من القطع المتوسط، تعرض فيها للوقف أو الحبس، وركز فيها على أوقاف الرباطات والزوايا خاصة، وذلك للحد من أطماع أناس سوَّلت لهم أنفسهم أن يتصرفوا في الوقف بالبيع أو القسمة.

34. **نظم أبواب من مختصر خليل**[94](تحفة الخليل في نظم تراجم خليل- أبواب الصلاة- نظائر أبواب الصلاة- أبواب الذكاة- أبواب البيوع- نظائر البيوع). تضمنها ديوانه (منَّة الحنان المنان).

---

[91] محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، إفحام الطاعن برد المطاعن، ص 2 .

[92] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[93] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[94] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

- **تحفة الخليل في نظم تراجم خليل** : منظومة في ستة وعشرين بيتاً، خصصها لأبواب الفقه التي وردت في مختصر الشيخ خليل بن إسحاق المالكي مطلعها :

حمدًا لمن يزيد من له شكر   ثم صلاته على خير البشر

- **أبواب الصلاة** : وصل فيه إلى صلاة الجماعة وتقع في مائة وأربعة وخمسين بيتاً. استهلها بقوله:

بالمطلق المعروف رفع الحدث ومثله في الشرع حكم الخبث

- **نظائر أبواب الصلاة**: وهذه المقطوعات عبارة عن مجمعات للنظائر التي تخص بابًا من الأبواب الفقهية تقع في عشرة عناوين فيها خمسة وأربعين بيتاً .
- **أبواب الذكاة** : وهي خمسة عشر ومائة بيت، وصل فيها إلى شروط الانتقال بالزوجة.
- **أبواب البيوع**: وفيه اثنان وستون ومائة بيت.
- **نظائر البيوع**: مجموع عناوينها عشرة عناوين تحتوي في مجملها على تسعة وسبعين بيتاً .

35. **سلم الوصول إلى الورقات في الأصول**[95]. وهي أرجوزة تقع في تسعة وتسعين بيتاً لَخَّص فيها ورقات الأصول لإمام الحرمين الجويني، ومطلع القصيدة :

الحمد لله على الأنعـــام بنعمة الإيمان والإســـلام

وقد تضمنها ديوانه (منة الحنان المنان). قام بتأليفها سنة 1308هـ الموافق لـ1890م عرّف فيها الديسي أصول الفقه وتعرض إلى مسائل مختلفة في الموضوع كالشك واليقين والقياس والإجماع والنسخ...، ذاكراً في الأخير تاريخ النظم وعدد أبياته بقوله:[96]

[95] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

عام ثمـان وثلاثمائة   من بعـد ألف قد مضت للهجرة

36. **النصح المبذول لقراء سلم الوصول**[97]. وهي شرح مختصر للمنظومة آنفة الذكر، تقع في ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، تعرض فيها إلى مجموع أبواب الأصول الفقهية. هذه المنظومة الفقهية اعتبرها المؤلف تأليفًا مستقلاً، فكتب عليها الشرح الذي: «كان الفراغ منه يوم الأربعاء، قبل الزوال، في العشرين من رمضان المعظم، عام 1308ه».

37. **الأجوبة الديسية**[98]. وتمَّ فيها تجميع كل الفتاوى والردود والتعليقات والتقريظات.... التي تنسب إلى الشيخ الديسي نثراً وشعراً . ومن الفتاوى مثلاً: «في التَّوحيد، في شأنِ الصَّيفيَّة، عن مسألة المقاطع، في بَيانِ أَسنانِ الإِبلِ والبقَرِ في الزَّكاة.......»

38. **الوردة الجنية في النظم للخصائص الفقهية**[99]. تحتوي هذه المنظومة على واحد وأربعين بيتاً، وقد نظمها الديسي كهدية لمؤسس زاوية الهامل، كتبت بخط رفيع كما كتبت عناوينها الفرعية بحروف مذهبة، وهي على النحو التالي: «الواجب عليه ﷺ»، «والواجب علينا له ﷺ» « والمباح له ﷺ» « الحرام عليه ﷺ» « الحرام علينا له ﷺ»، «خاتمة المقصود» وهي تصب على الأشياء التي خصّ بها الرسول ﷺ دون سواه كواجبات عليه، مثل الشورى فيما يتطلب سماع رأي أصحابه :

وإن يشاور ذوي الأحلام   في غير ما يرجع للأحكام

---

[96] محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، شرح علم الأصول إلى الضروري من الأصول، مخطوط لدى الجمعية الثقافية للعلامة محمد بن عبد الرحمن الديسي، بالديس، ص 43.

[97] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. نشرته الجمعية الثقافية للشيخ الديسي، 2012م، وقام بتحقيقه الأستاذ بشير ضيف بن أبي بكر.

[98] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. مخطوط، بمكتبة بن عزوز القاسمي الحسني، عين وسارة.

[99] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

أو كمحرمات عنه كـ «نكاحه الأَمَة والكتابية» . كما تتضمن الرسالة المباح للرسول ﷺ " والحرام علينا له ﷺ في مثل قوله: عن حرمة الزواج على المسلمين بمن دخل بهن رسول الله ﷺ:

وتحرم اللائي بهن دخل على سواه، فهو ذو قدر أجل

فالمنظومة في خصائص الرسول ﷺ كما عنونت بذلك في الديوان[100]، «الخصائص النبوية» وحسب ما ذكرنا، لكن المؤلف عندما كتبها تأليفًا مستقلاً قبل ذلك أطلق عليها اسم «الخصائص الفقهية». يقول المؤلف في مقدمتها إن تسميتها بـ« الفقهية » تعظيم لقدر محمد ﷺ.

39. **إبراز الدقائق على كنوز الحقائق**[101]. وهو شرح لما ورد في كنوز الحقائق من الأحاديث وكنوز الحقائق (معجم في الأحاديث للإمام المناوي)، فيه من الضعيف والموضوع الشيء الكثير ووجدته بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي بقرية الديس، في أربعة مجلدات من الحجم المتوسط.

40. **تنوير الألباب في شرح أحاديث الشهاب**[102]. شرح فيها أزيد من سبعين وتسعمائة حديث نبوي شريف من أحاديث الشهاب وهو شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب للقاضي أبى عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي، ومن شروحه شرح المناوي المشهور برفع النقاب عن كتاب الشهاب.

جهود التفسير في البحث القرآني: وله:

[100] – محمد (بن عبد الرحمن الديسي)، ديوان« منة الحنان المنان ، ص24.

[101] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

[102] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

41. **فوز الغانم شرح ورد الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم**[103]. وهذا الورد فيه توسل إلى الله بأسمائه الحسنى التي قال عنها في محكم تنزيله " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها"، يقع الكتاب في أزيد من ثمانين صفحة من القطع المتوسط، يشرح فيها هذه الأسماء، ويتعرض بالشرح لبعض الألفاظ الغامضة التي تحتاج إلى شرح. والمنظومة التي شرحها هي التي اشتهرت بين الطلاب باسم: الأسمائية وتناقلها العامة على أنها " صلاتك رب " نسبة إلى مطلعها الذي يقول فيه صاحبها:

صلاتك رب والسلام على النبي   صلاة بها يشفى قليبي من الضر

شرح الديسي هذه المنظومة شرحًا أنجز فيه إلى التفصيلات البلاغية، والجزئيات النحوية، يتوقف كثيرًا عند الآراء المختلفة في إعراب بعض الكلمات ليُبين وجوه إعرابها. يعرض البيت من المنظومة، أو شطر البيت ثم يشرحه مستشهدًا بأبيات شعرية مناسبة، معلقًا آراءه حول الفكرة، مبديًا تأثره بما توحي به بعض الصور في الأبيات، أو ما ترمز إليه بعض الكلمات[104]..

42. **الموجز المفيد في شرح درة عقد الجيد**[105]. وهو شرح موجز لمنظومته التي سمَّاها عقد الجيد وهي تقع في ثلاثة و ستين بيتاً مطلعها:

قال الفقير المذنب الضرير محمد وفقه القديـــر

قال عنه: «إنه في شرح درة عقد الجيد التي نظمتها أول عصر الشبيبة أيام كنت من اللغوب مراحًا سنة ثلاث وتسعين ومئتين وألف»، وهو في الشرح يتبع الطريقة التي رأيناها في سائر شروحه[106].

---

[103] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل. طبع بالمطبعة التونسية سنة 1308هـ.

[104] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص81.

[105] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

43. **العقيدة الفريدة**[107]: منظومة في العقائد مختصرة شرحها الشيخ الكافي التونسي. وهي أرجوزة في العقائد خصصها لطلابه ليسهل عليهم حفظها وهي تحتوي على خمسة وثلاثين بيتاً مطلعها:

يقول راجي العفو والغفـــران محمد بن عابـــد الرحمـــان

وهي منظومة في التوحيد، موضوعها هو موضوع المنظومة السابقة (درة عقد الجيد)، بدا فيها نظمه أكثر قوةً وإحكامًا من سابقتها، وفي المقدمة ذكر لما يجب على كل مكلف، فحديث عن الواجب، والجائز، والمستحيل، وبحث في "براهين الصفات" ...الخ. وفي الأخير: خاتمة ضمَّنها السنة التي نظم فيها هذه المنظومة وهي سنة 1319هـ.

44. **الكلمات الشافية**[108]: شرح العقيدة الشعبية، والعقيدة الشعبية نسبة إلى الشيخ شعيب الخليل التلمساني. الذي كانت بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الرحمان مراسلات . وهذا الشرح مطبوع يقع في أزيد من ستين صفحة من القطع المتوسط.

45. **رفع الوهم والتلبيس**[109].

46. **شرح الرجز الكفيل بذكر عقائد أهل الدليل**[110]. عبارة عن منظومة في التوحيد، لشعيب بن علي، كان قاضيًا بتلمسان، تقع في 55 بيتاً تصدرت الكتاب في صفحات لم ترقم مع سائر صفحاته

[106] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص79.

[107] – مطبوعة بتونس وكذا مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل

[108] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[109] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس. وبالمكتبة القاسمية – زاوية الهامل.

[110] – مخطوط بمكتبة الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي. الديس.

يتلوها شرح الديسي الذي يقع في 58 صفحة. في هذا الشرح كثرت عنايته بالمعنى وقلَّ اهتمامه بالشرح اللغوي والبلاغي[111].

الخاتمة:

إن شخصية مترجمنا استنادًا إلى منتوجه الفكري والعلمي والأدبي أضحت خلال الربع الأول من القرن العشرين علامة فارقة في التاريخ الثقافي للجزائر، ذلك أن فهمه الصحيح لأبجديات العلم والتعلم دفعه إلى الطلب في سن مبكرة وإلى الاستزادة من التحصيل فاستمع إلى كوكبة من علماء الجزائر المرموقين على زمانه في شتى فنون القول.. ولم يسعفه الحظ وقلة ذات اليد بالإضافة إلى إعاقته البصرية في التنقّل إلى تحصيل العلم في مناطق عدة من العالم الإسلامي حيث معاهد العلم والمعرفة خصوصاً في الجامع الأعظم بتونس، فقد أظهر في كل مراحل التعلم والتدرج الجدّ والمثابرة في طلب العلم مما جعل شيوخه يثنون عليه مراراً؛ وبهذا استطاع أن يبني لنفسه شخصية علمية برصيد متنوع هو مزيج بين التكوين الديني والشرعي والأدبي والتاريخي.... فاهتم بالأخبار والأنساب وسعى إلى الإلمام بشتى ألوان المعرفة وما كان أبداً ينشد الذيوع والشهرة، حتى بعد استقراره بالهامل.

إنّه -رحمه الله- غُرَّة في جبين هذا العصر، ودُرَّة يتيمة في تاج فخره. فهو دائرة معارف محكمة البنيان، قوية الأركان، واضحة البرهان، ولا ريب أن الشيخ بن عبد الرحمان البصير ممن برز في هذا الميدان، وحاز قصب السبق، فله في كل صالحة أثر، وإني لا اعتقد نفسي أهلاً للبلوغ به إلى ما يستحقه من الثناء، وما يستوجبه من التقدير، فهو غني بفضله وعلمه عن التعريف، ومن خلال الاستعراض السابق للإرث الفكري والأدبي للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي واسهاماته في فن أصول التفسير والتأويل(دراسة وصفية)، توصل البحث إلى عدة نتائج وهي كما يلي:

[111] – بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، ص78.

1. محمد بن عبد الرحمان الديسي استمد من التراث العربي الإسلامي عبر عصوره المختلفة، فحاكى الآثار العربية الإسلامية القديمة سواءً في نثره أو في شعره، كما التزم القوالب التقليدية شعراً، ونثراً وتنوَّعت آثاره واختلفت مستوياتها الفنية باختلاف الدوافع والمناسبات وأهم ميزاتها التواضع في الرأي والقول، فإذا استفزه موقف رأى ظلاله أو سمع قولاً اعتقد بطلانه، لم يتردد في استخدام أسلوب السخرية والاستخفاف والتعريض دون أن يتعالى... احتراماً لنزعته السلفية، مرتكزاً على مشاعره الخاصة وقناعاته الشخصية المتميّزة.

2. إن أعمال الديسي تجعلنا نحكم عليه بأنه كان وفيًا لدينه ومخلصاً لعقيدته مُصغياً لعقله وضميره.. وفي الوقت نفسه مُعبراً عن أصالته في ثقافته الواسعة بالدين والأدب وفي طريقة تعبيره، فقد حكّم عقله في كثير من مواقفه ومناظراته وردوده، ولم يكن من المتعصبين ولا من المغالين في اعتقادهم وولائهم...وإن بعض ما خلّفه لنا ليُمكن أن يُعتبر إضافة قوية للحياة الأدبية والفكرية في الجزائر ولبنةً راسخة تُضاف إلى صرح مدرسة التفسير والتأويل الجزائرية الحديثة.

3. ما يميز الشيخ الديسي يكمن في قوة عارضته في البحوث العلمية، فالقلم يعجز عن وصفه وأهم ما يثير الإعجاب فيه هو اتصافه بخصلة الأمانة وحسن النية في التأليف وفي النقد والردود، وبُعده عن الأغراض الشخصية، وهي صفات لم يألُ جهداً في نشرها بين تلاميذه...،

4. إن الشيخ الديسي استطاع بالاستناد إلى عصاميته أن يجمع بين علوم العربية وعلوم الشريعة، فاهتم بالأخبار والأنساب وسعى إلى الإلمام بشتى ألوان المعرفة وما كان أبداً ينشد الذيوع والشهرة، فكان يقول في الدين بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين، ولا يعجز عن شكر ما أُوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهي الناس وينتهي ويأمر بما يأتي، ويُحب الصالحين ويعمل بعملهم ويستميل الطالحين وليس منهم.

5. ولا نبالغ إذا قلنا أن حياة وأعمال الشيخ الديسي شكّلت نواةً حقيقية للحركة الإصلاحية والأدبية في الجزائر الفتاة، وهو ما أشار إليه عدد من المهتمين بالبحث في حياته وتراثه، لقد استطاع

الشيخ بمنهجه في البحث والتدريس وأسلوبه في التعامل مع الواقع المحيط به أن يعطي لنفسه مكانةً عظيمةً بين معاصريه، وباتت دروسه ومؤلفاته وفتاويه مدرسةً روحية واجتماعية وأدبية وعلمية تربى عليها العديد ممن سيحملون مشعل النهضة والإصلاح فيما بعد.

فهرس المصادر والمراجع المعتمدة

المصـــادر:

الكتب المصدرية:

1. الجيلالي (عبد الرحمن) ، تاريخ الجزائر العام، ج4، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.

2. الجيلالي (عبد الرحمن) ، تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية، مليانة، الجزائر: وزارة الثقافة، 2005م.

3. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبع بعناية وكالة المعارف في مطبعة البهية، إستنبول تركيا.

4. الحسين الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية«نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، تح.محمد بن أبي شنب، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1326هـ- 1908م.

5. حشلاف (محمد بن الشارف ابن سيدي علي)، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول ﷺ، تونس: المطبعة التونسية، 1929م.

6. الحفناوي(أبو القاسم محمد)، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ج2، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1908م.

7. عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس،ج1، ع11. المطبعة الجديدة بالطالعة. سنة 1346م-1927م.

8. خير الدين، الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،دار العلم للملايين ، بيروت ،لبنان ،ط،1986م.

9. محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة: المطبعة السلفية، 1349هـ

2.المراجـــــع:

الكتب:

10. جغلول (عبد القادر)، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر: سليم قسطون، بيروت: دار الحداثة، 1984م.

11. الركيبي (عبد الله)، الشعر الديني الجزائري الحديث، الجزائر: م. و.ك، 1981م.

12. سعد الله (أبو القاسم)، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط2، القاهرة: دار الآداب، 1970م.

13. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية(1900–1930)، ط4، ج2 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م.

14. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ج5، ج6،ج8، بيروت: دار الغرب الإسلامي،2007م.

15. عاشور (شرقي)، معلمة الجزائر، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2009م.

16. فضلاء (محمد الحسن)، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الجزائر: دار هومة، 2000م.

17. بن قينة(عمر)، الديسي حياته وآثاره وأدبه، الجزائر: ش . و. ن. ت، 1977م.

18. نويهض (عادل): معجم أعلام الجزائر بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980م.

3. المقالات:

باللغة العربية:

19. سعد الله (أبو القاسم)، "مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي" (1830–1954)، الثقافة، ع79، الجزائر: جانفي/ فيفري 1984م.

20. بن قينة (عمر) ، "وقفة قصيرة عند الحفناوي وكتابه تعريف الخلف برجال السلف"، جريدة الشعب، ع4461، الجزائر: 11 مارس 1978م

21. كريستلو (ألان)،"حول بداية النهضة الجزائرية"، الثقافة، ع 46، الجزائر: أوت / سبتمبر 1978م، ص.ص(55-64).

4. الرسائل والمذكرات الجامعية:

22. جوبر عبد الحفيظ، القهوة المرتشفة في شرح الزهرة المقتطفة للشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف: أ.د شريف مريبعي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، (2001-2002)م.

23. خنفر (محمد الحسن)، الفرائد الحسان في شرح تحفة الإخوان لمحمد بن عبد الرحمن الديسي الجزائري(ت1921م) تقديم وتحقيق، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص : تحقيق المخطوطات، إشراف الدكتور الشريف مريبعي، جامعة الجزائر2، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية : 2010 – 2011

محمد الصديق بن صالح، ساعد لميش، الديسي ودروه الإصلاحي من خلال آثاره، مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ الحديث، إشراف: أ.د صالح لميش، قسم التاريخ، جامعة المسيلة (2012-2013)م.

مشروع ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية

الشيخ سي حاج محند طيب، تيزي وزو- الجزائر

مقدمة:

من حكمته تعالى أن جعل ألواننا وألسنتنا مختلفة ومن لطفه أن أتاح لنا فهم كلام الآخرين بالترجمة؛ فلولا الترجمة لما كان لنا لنفهم كلام الآخرين ولا كان لهم ليفهموا لنا كلاما إذن لبقيت كل طائفة منطوية على نفسها معزولة عن غيرها تجتر ما لديها من معان وأفكار مهما تدنت تلك المعاني ومهما سخفت تلك الأفكار. ولكن الله سلم؛ فمكّن الأمم من تبادل المعارف والأفكار؛ فانتقلت العلوم واقتبست حضارات من حضارات وعمت النعمة؛ فسادت الرفاهية بين بني البشر.

أولا: ترجمة مختصرة عن سيرة المترجم:

ولد سي حاج محند محند طيب في 20 جوان 1934، بقرية إفرحونن بولاية تيزي وزو، بالجزائر، دخل إلى الكتاب في سن مبكرة لمزاولة حفظ القرآن، حيث يجمع بين رعي المواشي و حفظ القرآن باصطحاب لوحه إلى المراعي ليحفظه، والتحق بزاوية "سيدي اعمر والحاج" بناحية "عزازقه" أثناء الحرب العالمية الثانية لمدة تقارب السنة وهو أصغر طالب فيها. وفي سنة 1947، التحق بزاوية "ثغُراست" بنواحي وادي الصومام، ببجاية حيث أتقن حفظ القرآن إتقانا جيدا، بختمه للمرة السادسة. مع تلقي بعض الدروس اللغوية والفقهية، وفي سنة 1953، التحق بمعهد ابن باديس بمدينة قسنطينة، حيث زاول دراسته على يد المشايخ الأجلاء، وفي سنة 1956 التحق بالثورة،

حيث كلف بمهمة الحبوس من فض النزاعات و كتابة العقود والتوعية ورفع المعنويات والتصدي لإبطال مخططات الاستعمار التضليلية، بالإضافة إلى تعليم الصغار وإرشاد الكبار، وفي سنة 1958، ألقي عليه القبض في ظروف تنكيلية، حيث سيق إلى مكان مجهول، مغطى الرأس وبثوب النوم فقط، وغطاؤه وفراشه في الزنزانة مقتصر على زوج من "السبّادري" قديمة كان ينتعلها. وكان يمكن أن يكون من المفقودين لولا تدخل العناية الإلهية في آخر لحظة؛ لأن اليد الحمراء هي التي اختطفته ورفاقه، وبعد الاستقلال 1962عين معلما للغة العربية بعين طاية، شرق العاصمة و في نفس الوقت كان يتابع دراسته الجامعية ليتخرج في سنة 1966 كأستاذ ثانوي للغة العربية. وفي سنة 1969، التحق بمركز تكوين المفتشين بالمدرسة العليا للأساتذة بالجزائر العاصمة، وفي سنة 1970، عين مفتشا تربويا لدائرة الأخضرية بولاية البويرة، وفي سنة 1977 انتقل إلى مقر ولاية تيزي وزو كمفتش دائما، وفي نوفمبر 1985، انتدب إلى فرنسا كمفتش لتعليم اللغة الوطنية لأبناء المهاجرين، وفي سنة 1988 قصد البقاع المقدسة عن طريق البر لأداء فريضة الحج، وفي أوت 1989، عاد من المهجر وتولى مهمة التفتيش في الطور الثالث من التعليم الأساسي حتى سن التقاعد، ومع بداية سنة 2002، عين عضوا في لجنة الإفتاء ضمن البعثة المرافقة للحجاج، وكان مشروع الترجمة الأولية لمعاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية في 16 مارس 2005، أنهى السيد سي حاج م.م.ط، ومع 20 أبريل 2010 دعي من مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالسعودية، لتصحيح الترجمة، وكان نهاية لهذا المجهود تم في 2019 أنهى الترجمة التفسيرية لمعاني القرآن الكريم والتي طبعت بالجزائر وتوزع بالمجان.

لقد نشأت في بيئة لا تتحدث سوى القبائلية وحدها، وهذا ما سمح لي بالإلمام بها إلماما كافيا أو يكاد؛ وقد ختمت القرآن الكريم، وأعدت (18) حزبا وأنا في القرية لا أعرف ولا كلمة واحدة من العربية ولو بالعامية. وليس سرا الإعلان بأني أحفظ قدرا هاما من الشعر القبائلي؛ العاطفي منه والديني والحكمي، ومن أمثاله وألغازه، بل أزعم أنني أحاول قرض الشعر بالقبائلية. ومعنى هذا، وبكل تواضع أن ما أتيح لي للإلمام بالقبائلية، قد لا يتاح للكثير. ولعل هذا ما شجعني على الإقدام

على خوض غمار هذه الترجمة المحفوفة بالمزالق والعراقيل وفي مقدمتها انعدام التام لأي نوع من المراجع مهما كان للاستعانة به حيث لم يبق سوى الاعتماد كليا على ما اقتحم الذاكرة من الألفاظ التي تسربت إليها من خلال المعاملة اليومية العادية وفي بيئة بسيطة.

ثانيا: مؤلفاته وأعماله العلمية:

تم إعداد بحوث ومحاضرات في مختلف المواضيع خاصة التاريخية والدينية. نشر معظمها في الجرائد والمجلات، منها: تسجيل شريط لحزب "سبح". الذي حظي بإعجاب منقطع النظير سيما لدى كبار السن، ثم تسجيل ترجمة معاني القرآن الكريم كله على قرص مضغوط. أعيد التسجيل بالسعودية، وتسجيل ترجمة معاني القرآن الكريم كله على أشرطة راديو. وطبع كتاب تحت عنوان:"ذكريات مثيرة ومواقف حتمية". تناول المسيرة النضالية من أجل العربية. كما طبع كتاب بعنوان"على درب الكشكول" جمعت فيه المحاضرات الملقاة في مختلف المناسبات، وطبع كتيب بعنوان "قصتي مع المهجر". تناول بنظرة واقعية الفترة التي قضيتها منتدبا بفرنسا. وله كتيب بعنوان"ماقاله علماءالغرب المنصفون في الإسلام ونبي الإسلام". مع ترجمته بالأمازيغية. وله كتيب بعنوان "مريم وعيسى في القرآن". مع ترجمته بالأمازيغية... وقد سجل هذا الكتيب بالصوت في الأشرطة السمعية، وتمت الموافقة أخيرا على إدماج الترجمة الناطقة في مصحف إلكتروني، يحتوي على ست عشرة ترجمة، تستنطق بقلم قارئ، ثم تسجيل حزب "سبح" و"مريم وعيسى في القرآن" وسورة "يس" في قرص مستقل، وغيرها من اللقاءات والندوات لافكرية التي أقامها في المنتديات والحصص التلفزيونية والصحفية.

ثالثا: ترجمة الكتب السماوية:

لعل الميدان الذي استفاد كثيرا من الترجمة، هو ميدان الكتب السماوية، فبالرغم من بعث كل رسول بلغة قومه، إلا أنها بُلغت للآخرين بفضل الترجمة. والقرآن لم يشذ عن هذه القاعدة، حيث بلغ عدد ترجمات معانيه إلى مختلف لغات العالم369[1].

غير أن د.صالح بلعيد. ذكر في كتابه:"المازيغية في خطر" ص.240 إحصائية أخرى فقال: «ولقد ترجم القرآن الكريم إلى أكثر من (600) لغة في العالم، كما نجد في لغة واحدة أكثر من ترجمة؛ فعلى سبيل المثال توجد أكثر من مائة (100) ترجمة إلى اللغة الأنجليزية وحدها؛ وأربعون(40) ترجمة إلى اللغة الفرنسية، بعضها ترجمات كاملة وأخرى جزئية، وبعض المصادر تقول: "...ترجم القرآن 175 مرة إلى الأنجليزية، و70 مرة إلى الفرنسية و60 مرة إلى الألمانية"».

والأمازيغية...؟. ما حظها من كل هذه الترجمات عبر التاريخ..؟ الجواب ـ مع الأسف ـ لا شيء...! وكنت قد سمعت رواية شفوية أن ابن تومرت قد ترجم القرآن إلى الأمازيغية، ثم سمعت رواية أخرى تقول؛ إنما ترجم كتابا فقهيا. ولما عرضت الأمر على الدكتور عمار طالبي نفى الروايتين معا. وأكد أنه ألف كتابا بالأمازيغية، سماه "العقيدة السنوسية". وأخيرا ظهرت ترجمة للمهندس منصور آيت رمضان بالحرف التيفيناغ والحرف اللاتيني. كما توجد ترجمة بعض السور للسيد بوستة محند أمزيان المرحوم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن للكلام معاني أصلية ومعاني ثانوية. «والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة، وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية»[2].

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام؛ من تنكير وتعريف، أو تقديم وتأخير، أو ذكر وحذف، مع السبك المحكم الجميل. ولذلك بهر العقولَ القرآن العظيم ؛ ببديع نظمه،

---

[1]. (جريدة الخبر 1/ 4/ 2004)

[2]ـ نفسه

وروعة بيانه. لهذا كانت ترجمة معاني القرآن الثانوية أمرا غير ميسور. ولذا لا يصح أن يقال: ترجمة القرآن، بل يقال: ترجمة معاني القرآن.

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلها إلى لغة أخرى. وقد ذكر الشاطبي في(الموافقات) «أن ترجمة القرآن على الوجه الأول ـــ يعني المعاني الأصلية ـــ ممكن...وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي»[3].

أما الترجمة التفسيرية؛ فهي ترجمة لكلام المفسِّر لا للقرآن. ويستحسن بعضهم هذا النوع من الترجمة؛ لأن المفسر يتكلم على حسب فهمه للقرآن، وكأنه يقول: هذا ما فهمته من الآية..! ومع ذلك فقد قيل: ما دام توفيق المفسر غير مضمون، فمن البديهي أن اتباع رأيه غير ملزم كذلك.

رابعا: أسلوب الترجمة:

أما أسلوب الترجمة فقد صيغ فيما يشبه النظم، دون التقيد بالأبيات أو القافية، إلا إذا أتت صدفة. كما روعي فيه ـــ ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ــ سهولة في الفهم، وسلاسة في اللفظ، وعذوبة في النغم. مما أدى ببعض الإخوان ــ سامحهم الله ــ إلى التحفظ على هذا الأسلوب، خوفا من مزاحمته لأسلوب القرآن العظيم.

كلا أيها السادة..!! إن كلام الله معجز ومنزه عن المجاراة فكيف بمزاحمته..؟ إنما فقط نريد أن نتحاشى تشويه ترجمة معاني القرآن الكريم بأسلوب ركيك، وبعبارات رديئة، تنفر منها النفس، ويمجها الذوق السليم..؟!! كما أن الهدف من وراء هذا الجهد المتواضع ـ رغم أنه مضن وشاق ـ هو:

أولا: تحفيز القارئ على مواصلة القراءة، وتشويقه للعودة إليها مرة أخرى، حين يعجبه الأسلوب.

---

[3] ـ نفسه

ثانيا: إعداد هذه النصوص لاحتلال مكانة الصدارة إن شاء الله في تعليم الأمازيغية ـ لأن النصوص الأدبية بالأمازيغية منعدمة أو تكاد.

خامسا: مسيرة الترجمة قبل الطبع:

قبل أن تقدم الترجمة للطباعة خضعت لتصحيح نخبة من العلماء بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوؤة الذين سخروا كفاءتهم العالية وجهدهم الجاد ووقتهم الثمين من أجل إخراج الترجمة على أكمل وجه ممكن.

1ـ مراحل التصحيح والتدقيق:

مرت الترجمة الأمازيغية بمراحل تصحيح صارمة ودراسة دقيقة لاتكاد تغادرصغيرة ولاكبيرة إلا ومحصتها ودققت فيها. وختمت المراحل بدعوة المترجم للحضور الذي دام ما يقارب ثلاثة أشهر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

وفي هذه الأثناء خضع المترجم لمناقشة معمقة تشبه الامتحان لمعرفة مدى إدراكه لمعاني آيات الذكر الحكيم، سواء في المعتقدات أو العبادات أو الأحكام خاصة تلك التي تحتمل أكثر من تأويل... تلك الجدية والدقة التي جعلتنا نثق تمام الثقة، وبكل اطمئنان أن الترجمة تتوافق ــ في حدود إمكانيات القدرة البشرية ــ مع ماورد من قواعد وأحكام في كلام الله العزيز. وإنا لندين لأولئك الفضلاء المخلصين بأسمى عبارات الامتنان ومشاعر التبجيل والعرفان؛ فأجزل الله لهم الجزاء عن خدمة الإسلام ولغة القرآن. وهذه هي المراحل المتبعة في ذلك ببعض التفصيل:

بعد الانتهاء من الترجمة بفضل الله وحسن عونه وجهتها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف إلى لجنة التصحيح بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمملكة السعودية والتي قدمت اقتراحاتها القيمة للمترجم..

المترجم أخذ بمعظم المقترحات، وأبدى تحفظا على بعضها الآخر؛ نظرا لتباين اللهجات، والاختلاف حول تقديم رأي مفسر على آخر، وقدَّم كل ذلك في تقرير مفصل يحتوي على 12 صفحة، بيّن فيه كل آرائه التي تبدو له على صواب، والله أعلم بالصواب.

حولت المقترحات المختلف عليها بين المترجم والمصححين إلى لجنة أخرى لدراستها، والنظر في ترجيح أحد الرأيين، بعد تمحيص مسوغات كل طرف.

عند اقتناع اللجنة برجحان رأي على آخر أخذت به. أما الآراء التي تتساوى فيها الكفتان، فأُجلت إلى المناقشة المباشرة مع المترجم، لمزيد من التوضيح الذي يكون حاسما في ترجيح أحد الرأيين..

وهكذا تظهر هذه الثمرة اليانعة، التي قدمها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف للناطقين باللغة الأمازيغية، بتحليل عميق، ومضمون دقيق، وإخراج أنيق، حتى تكون جذابة، تدعو كل المؤمنين من الناطقين بهذه اللغة، إلى الاغتراف منها، والانتفاع بها إن شاء الله.

أما قيمة الترجمة فلا أدعي أنها عمل كامل، ولكن ما يمكن ادعاؤه : أنني قد استنفدت كل قدراتي وإمكانياتي؛ فكنت أقرأ مجموعة من الآيات، أو السورة إن كانت قصيرة، بكل تمعن، ثم أحدد الكلمات الصعبة، للاستعانة بالتفاسير لفهمها، ثم أطلع على عدة تفاسير لا تقل عن أربعة، للاطلاع على أكبر قدر ممكن من آراء المفسرين. ثم الاطلاع على ترجمتين باللغة الفرنسية للاستئناس بهما؛ لأن ترجمة الترجمة لا تقبلها ضوابط الترجمة. كما أستمع أحيانا إلى الأشرطة المسجلة بالأمازيغية في مختلف المواضيع، لعلي أجد بعض الكلمات يمكن توظيفها عند الحاجة. وقد أتصيّد كذلك تعابير في المعاملة اليومية لنفس الغرض، كل ذلك لسد بعض الفراغ المريع في المراجع بالقبائلية.

2ـ مرحلة التحرير والتدقيق اللغوي:

بعدئذ أشرع في التحرير؛ وذلك بصياغة عدة تعابير لمعنى آية واحدة، كي أختار الأنسب ما أمكن. وقد أرجئ بعض الآيات أياما أو أسابيع؛ لغياب التعبير الذي أراه مناسبا. وحين يكون النص جاهزا من التعابير المنتقاة أشرع في المراجعة والتـنقيح؛ حتى إني أعدت التـنقيح لبعض النصوص خمس عشرة مرة. ومعنى كل هذا أن الإشكال ليس في فهم معنى الآية؛ بل في العثور على ما يناسب معناها في اللغة الأمازيغية (القبائلية) المحدودة جدا جدا.

هذا؛ ومما يجب لفت الانتباه إليه؛ أن كل آية في القرآن أدرج معناها في الترجمة. كما لم أعتمد قط على فهمي الخاص وحده لترجمة أيّة كلمة؛ ما لم يدعم برأي مفسر ما.

أما التسجيل الصوتي فقد أخذ مني من الجهد والوقت ما الله به عليم؛ لأني سجلته بالمنزل وبوسائل بسيطة للغاية؛ وبدون أية خبرة أو توجيه؛ حتى إني قضيت أحيانا مدة تسع ساعات ونصف تقريبا؛ لتسجيل حزب واحد. وليس هذا فحسب؛ بل ألغيت تسجيل ترجمة ربع القرآن؛ لأنه غير مرفق بتلاوة القرآن؛ مما يجعل الارتباط مفقودا بين الآية ومعناها المسموع في الترجمة. ثم أعدت تسجيل الترجمة كلها مقرونة بتلاوة القرآن؛ غير أني اكتشفت خطأين اثنين في التلاوة؛ فألغيت تسجيل القرآن كله من أجل هذين الخطأين؛ وأعدته من جديد. وليس هذا من باب الامتنان أو التبجح أو الافتخار؛ بل من أجل أن يعلم القارئ الكريم؛ أنني بذلت كل ما في وسعي من جهود؛ وإن ظهرت نقائص في الترجمة ــ وهي لا شك موجودة ــ فإنما جاءت من العجز والقصور البشري؛ لا من التراخي والتقصير. وعسى أن يشفع لي كل ذلك لدى القارئ الكريم؛ فلا يصدر علي أحكاما قاسية؛ حين يصادف تلك النقائص.

3ـ اختيار الحرف العربي في كتابة الترجمة؟

لأن كل الأصوات بالأمازيغية يمكن تصويرها بالحروف العربية، ماعدا بعض الأصوات القليلة ومع ذلك يمكن تصويرها بإدخال تعديل طفيف على خمسة حروف؛ ويتمثل التعديل في إضافة نقطتين إلى ثلاثة حروف؛ ونقطة إلى حرف واحد؛ وشرطة فوق حرف واحد. وهي كما يلي:

{ز=ژ} {ج=چ} {ب=پ} {ق=ڤ} {ك=گ}.

هذا؛ وهناك محاولة جارية لكتابة ترجمة الأمازيغية بالحرف اللاتيني غير أن صعوبات جادة قد اعترضت المشتغلين في هذا المضمار؛ لأن تلك الكتابة قد تبعدها إبعادا كبيرا عن حقيقتها أحيانا، بحيث يصعب فهمها، أو يتعذر تماما. ودونكم هذه التجربة العملية التي أجريت بهذا الصدد:

تناقش إطاران في مسألة كتابة الأمازيغية؛ فكان أحدهما مناصرا للحرف اللاتيني؛ وثانيهما للحرف العربي. وانتهى بهما النقاش إلى اتفاق على اختبار كل من الحرفين عمليا؛ وذلك بإملاء مقطوعة من أفصح الشعر القبائلي على شخصين أحدهما لا يحسن سوى الحرف العربي والآخر سوى الحرف اللاتيني. وها هي النتيجة. كتابتها بالحرف العربي؛ مع وضع الكلمات التي تحتاج إلى تغيير بين قوسين:

«(اَبْرِيذْ) يَرَّان غَرْ مَقْلَعْ   يَالْوَعْدْ الْخَادَعْ   اَمِّين اِثَـــدُّونْ غَالْمُوثْ

نَكْ ذَثْــوَخَّامْ نَمْـــوَذَاعْ   يَغْلِيذْ الْوَعْوَاعْ   لَتسْرُونْ (اَرْقَازْ) ثَمَطُّوثْ

اَفُــوسْ اَرَّبِّ يَوْسَـــعْ   مَازَالْ نَطَّمَاعْ   اَدْنُغَالْ (اَبْخِيرْ) ثَمُورْثْ»

فمن بين (24) كلمة توجد (3) كلمات فقط تغير نطقها، ومع ذلك فهو تغير طفيف جدا، لا يؤدي إلى أي غموض، والحرفان هما: حرف (ب) الذي ينبغي أن يعدل ليصبح (پ)؛ فينطق (اَپْرِيذْ) بدلا من (ابريذ): (طريق)، وكذا (اَپْخِيرْ) بدلا من (ابخير)؛ وإن كانت الكلمتان واضحتين

تمام الوضوح ماعدا النغمة. والثاني هو حرف: (ق) الذي ينبغي أن يعدل ليصبح (ڤ)؛ فينطق (اَرْڤَازْ) بدلا من (أرقاز): (رجل).

وها هي ذي الكتابة للمقطوعة بالحرف اللاتيني مع وضع الكلمات التي تحتاج إلى تغيير بين قوسين كذلك.

(AVRIDE) IRRANE (ALMAKLA) (YALOUD) (ALKADA)

AMMINE (ETADDONE) (ALMOTE)

NAKE (DATOUKKAME) (NAMOUADA) (EGLIDE) (ALOUAOUA)

LATSRONE ARGAZE (TAMATTOUTE)

AFOUSSE ARRABBI (YAOUÇA) MAZALE (NATTAMA)

(ADNOGAL) (ABKIRE) (TAMOURTE)

ودونكم استنطاق المقطوعة بالحرف العربي:

اَبْرِدْ اِرَّانْ اَلْمَكْلَه يَالْوَدْ اَلْكَدَا اَمِّينْ اِتَـدُّونْ اَلْمُوتْ

نَك دَتْوَكَّامْ نَمْوَدَا يَڤْلِدْ اَلْوَاوَا لَتسْرُونْ اَرْڤَازْ تَمَتُّوتْ

اَفُوسْ اَرَّبِّ يَوْسَا مَازَالْ نَتَّمَا اَدْنُڤَالْ اَبْكِيرْ تَمُورْتْ

(16) كلمة من بين (24) تغير أو تشوه نطقها وفيها (22) خللا...!!

وبهذه الحجة الدامغة الساطعة اعترف المتحمس للحرف اللاتيني أن الحرف العربي أصلح بكثير لكتابة المازيغية حيث قال:"ما كنت أظن أن الحرف اللاتيني بهذا البعد الشاسع عن

الأمازيغية". وقد يقول قائل: إنّ إدخال بعض التعديلات على الحرف اللاتيني كفيل بتذليل هذه الصعوبات.

الجواب: نعم هذا ممكن ولكنه سيؤدي لا محالة إلى إحداث أبجدية جديدة تقريبا لا يفهمها إلا مخترعها؛ لأن كثيرا من الحروف يجب أن تعدل أو تعوّض؛ كالثاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف والهاء والهمزة... ومجموعها 13 حرفا موجودا في العربية والأمازيغية معا. بالإضافة إلى 03 حروف موجودة في الأمازيغية فقط ومجموعها 16 حرفا جديدا. أي إضافة أبجدية كاملة تقريبا. وثمة صوتان لا يمكن أبدا أداؤهما بالحرف اللاتيني مهما أدخل عليه من تعديل وهما: (ـ چ ـ گ ـ). فكلمتا: (آگُويثْ) ومعناها: استيقظوا. و(آكُويثْ) بالكاف ومعناها: جميعا. وبالحرف اللاتيني: (akut), صيغة واحدة ومحرفة ولا ندري أيهما المقصود. وهي كما نرى بعيدة عن النطق السليم وحتى عن الفهم. وكلمة "أَفَــڤَّاچْ": "afggage" فيها حرفان مختلفان: (ڤ. چ) ولا يمكن كتابتهما إلا بحرف لاتيني وحد وهو (G). مع العلم أن هذه الحروف كثيرة وكثيرة جدا في الأمازيغية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: ألا تنطبق تلك الإضافة على الحرف العربي؟

سؤال منطقي ووجيه..! وإليكم الجواب الذي يبدو منطقيا وحياديا كذلك. وهو: أن بعض هذه الأصوات في الأمازيغية كانت في الأصل حروفا عربية ثم (لينت) لتنسجم ونغمات الأمازيغية؛ وكمثال على ذلك الكلمات التالية:

مرزوق. ينطق بها بالأمازيغية: مَرْژُوقْ (عدل ـ ز ـ إلى ـ ژ ـ).

جزيرة. ينطق بها بالأمازيغية: ثِچْزِيرْثْ (عدل ـ ج ـ إلى ـ چ ـ).

كتب. ينطق بها بالأمازيغية: يَگْثَپْ (عدل ـ ك ـ إلى ـ گ ـ).

ربقة. ينطق بها بالأمازيغية: اَرَّيْڤْ (عدل ـ ق ـ إلى ـ ڤ ـ).

البحر. ينطق بها بالأمازيغية: لَپْحَرْ (عدل ـ ب ـ إلى ـ پ ـ).

وهذا تقريب لكيفية النطق السليم بالحروف المعدلة:

ژ= ينطق به بالمزج بين حرفي(ز، ظ) ؛ مثل «أَرَژقِي» : رزقي.

چ = ينطق به بالمزج بين حرفي(ج ، ي) ؛ مثل:« ثِچْزِيرْثْ»: جزيرة.

گ = ينطق به بالمزج بين حرفي(ك ، خ) ؛ مثل:« يَگْثَپْ»: كتب.

پ = ينطق به كما ينطق الحرف اللاتيني (v) بالفرنسية مثل: «اَلْپَرْ»: البر.

ڤ = ينطق به كما ينطق حرف (ق)عند بعض الجزائريين، مثل: « أَرَّيْڤْ»: ربقة.

وهذه السهولة لاحظناها بالفعل عند كتابة ترجمة معاني القرآن كله بالحرف العربي، ولم نصادف قط أية صعوبة.

وبالمناسبة علينا أن نخوض تجربة اتخاذ الحرف العربي لكتابة الأمازيغية؛ دون خوف أو توهم خطر على مستقبل الأمازيغية؛ بل يتوسم لها تطور سريع؛ وازدهار كبيرا؛ إذا كتبت بالحرف العربي. وهذا على غرار ما تم قديما للغات أخري عريقة؛ حيث تبنت الحرف العربي؛ الذي ساهم بفعالية في تطويرها وازدهارها؛... وهاهي اليوم «لغات كثيرة في العالم تُكتب بالحروف العربية، منهاالفارسية، والأُردية، والبَشْتُو، ولغة الملايو، والهَوْسا، والفُلانيَّة، والكانوري وغيرها..»[4].

والجدير بالذكر أن الأبجدية العربية لكتابة الأمازيغية دخلت العالمية من بابها الواسع؛ حيث يتيسر لكل أحد يملك هاتفا نقالا من النوع الحديث أن يجد في لوحة الحروف العربية؛ الحروف

[4]. (انظر الموسوعة العربية العالمية ـ حروف اللغة العربية).

الخمسة المعدلة لكتابة الأمازيغية. وما عليه إلا الضغط على تلك الحروف مع الاستمرار لبعض الوقت؛ فيحصل على الحرف المعدل؛ وكذلك الأمر بالنسبة للوحات الإلكترونية. ولا شك أن الشركات التي أدمجتها في صناعة منتجاتها استعارت هذه الحروف من ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية؛ التي أدخلنا فيها هذه الحروف؛ ووضحنا كيفية قراءة الأمازيغية قراءة صحيحة وبدقة بتعديل تلك الحروف كما أشرنا آنفا، لأن الترجمة أدرجت في الشبكة المعلوماتية المتاحة لكل أحد. ما يؤيد هذا الاستنتاج انعدام هذه الحروف في الأجهزة المصنوعة قبل صدور ترجمتنا.

سادسا: منهجية ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية:

1 ـ السمعي البصري:

ـ تم تسجيل القرآن كله على قرص مضغوط؛ بصوت المترجم نفسه؛ قرآنا وترجمة.

ـــ أعيد أخيرا تسجيل القرآن كله بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة؛ على أن تكون تلاوة القرآن من أحد المقرئين السعوديين المشهورين. ونحن في انتظار إخراجه.

2 ـ السمعي:

ـ تم تسجيل القرآن كله على أشرطة راديو؛ كل شريط يحمل حزبين اثنين؛ أي ما يعادل 30 شريطا لكل ختمة؛ بالإضافة إلى شريط واحد للمقدمة. ومجموع الأشرطة 31 ألف شريط. (وزعت كلها).

ـ تم تسجيل شريط لحزب "سبح". وهذا حوَل إلى حصص في القناة الثانية للإذاعة الوطنية؛ تذاع قبيل أذان المغرب في كل رمضان تقريبا.

3. تسجيل شريط لسورة "يوسف".

تم تسجيل شريط تحت عنوان:" مريم وعيسى في القرآن". جمعت فيه الآيات التي تتحدث عن "مريم وعيسى" عليهما السلام مع ترجمتها. ولهذا الشريط تأثير عجيب في بعض الناس؛ فمثلا: مديرة مؤسسة تربوية نشأت مسيحية؛ وعاشت كذلك بكل اعتزاز؛ وبالاستفزاز أحيانا؛ حيث لوحظ أنها لم تتلفظ قط بكلمة واحدة أثناء معاملتها اليومية؛ لا بالعربية ولا بالقبائلية. (حسب رواية زميل لها في المهنة). لكنها لما سمعت شريط: [مريم وعيسى في القرآن]؛ دخلت في الإسلام؛ وأعلنت أنها ستحج إلى البقاع المقدسة عما قريب. إلا أن الأجل وافاها قبل أن تتحقق أمنيتها...! وهكذا أنعم الله عليها بحسن الخاتمة...! رحمها الله برحمته الواسعة.

وبعد ذلك تم تسجيل قرص مضغوط يشمل حزب [سبح] بكيفية ميسرة تناسب كبار السن الأميين. وسورة [يس] التي تعوّد الناس على سماعها باستمرار في الجنائز. وسورة [الواقعة] لورود أحاديث على فضلها. و[مريم وعيسى في القرآن] للاهتداء بها من بعض الضالين.

4 ـ المطبوع:

ـ طبع جزء "قد سمع" (6 أحزاب) بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة؛ كطبعة تجريبية.

ـ طبع شريط: "مريم وعيسى في القرآن" في كتيب.

ـ طبع المصحف الكامل المترجم للأمازيغية؛ بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة؛ تم اعتماده بعد تصحيحه وتدقيقه في المدة الأخيرة. وبلغنا أخيرا أن المصحف طبع منه عدد هام من النسخ؛ وهو في مرحلة التجليد. (تم طبع المصحف وهو قيد التداول حاليا).

ـ تم أخيرا إدماج الترجمة الناطقة في مصحف إلكتروني، يحتوي على ثلاث عشرة ترجمة، تستنطق بقلم قارئ، وهو الآن في التداول.

وفي الأخير روجعت الترجمة ووسعت حتى أصبحت تفسيرا وطبعت بالجزائر تحت عنوان: "التفسير الميسر لكلام الله الموقر" وبالأمازيغية: "أَفَسَّرْ إِسَهْلَنْ إِوَوَالْ أَرَّبِّ اَعْزِيزَنْ".

5.**خطة العمل**:

وضعت الخطة قبل الشروع في العمل، حتى تكون ضابطا له، وإليكموها بشيء من التفصيل:

- **قبل التحرير**:

ـ تحديد السورة أوالآيات المراد ترجمة معانيها.

ـ قراءتها والتمعن في معانيها .

ـ الاطلاع على معاني الكلمات الصعبة في كتب التفسير.

ـ الاطلاع بتمعن على عدة تفاسير لاستيعاب أكبر عدد ممكن من آراء المفسرين.

ـ الاطلاع على بعض الترجمات بالفرنسية للاستئناس بها.

ـ اللجوء إلى استعراض بعض الأشعار بالقبائلية من الذاكرة، أو الاستماع لبعض الأشرطة للاستعانة بألفاظها.

ـ تصيّد بعض التعابير في المعاملة اليومية لتوظيفها...وكل ذلك لانعدام المراجع المكتوبة بالقبائلية.

- **عند التحرير**:

ـ الاستعراض كتابة لتعابير مختلفة لاختيار أنسبها.

ـ تأليف نص الترجمة من التعابير المنتقاة.

ـ تنقيح النصوص المؤلفة بعد التدقيق والتمحيص. (نقحت بعض النصوص 15 مرة).

ـ تؤجل الترجمة إذااستعصى استحضار التعبير المناسب.

- **حدود منهجية:**

ـ اعتماد رواية ورش السائدة في الجزائر.

ـ لاتغفل أية كلمة من القرآن دون إدراج معناها في الترجمة.

ـ لابد من الاعتماد على رأي مفسر ما في كل آية تترجم .

ـ عند الإضافة للتوضيح توضع الإضافة بين حاضنتين: {...}.

ـ إذا كانت الكلمة مفهومة بأصلها العربي تترك كما هي.

ـ لا يتوسع في الترجمة حفاظا على قاعدة التطابق بين النصين: المترجَم والمترجِم.

ـ تعتمد الترجمة بالجملة عند تعذر الترجمة بالكلمة المفردة.

ـ استعمال الكلمات الشائعة والمشتركة ما أمكنا لتعميم الفائدة.

❖ **ظاهرة عجيبة: (من كرامات القرآن)**

في يوم من أيام الجمعة على الساعة 10.30 صباحاً كنت كالعادة بصدد مراجعة ترجمة معاني القرآن الكريم. وفي هذه اللحظة وصلت إلى الآية الثالثة عشر من سورة الرعد وهي: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ..﴾. توقفت عندها ملياً متأملا في معناها مأخوذا بجلالها وعظمتها. وقلت في نفسي: سبحان الله... الرعد يسبح ونحن لا نسمع إلا صوتا مدويا...فكيف ذلك..؟. بينما أنا مستغرق في

التأمل والتفكير إذا بالآية الرابعة والأربعين(44) من سورة الإسراء تقتحم ذهني اقتحاما. وهي: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..﴾. حينذاك غمرني إحساس بتفاهة العالم وضآلة نفسي أمام عظمة الواحد القهار...!! كل شيء يسبح بحمده ولكننا نحن الذين لا نفقه تسبيحهم.!!!

وعندما شرعت في تعديل موضع كلمة في الآية التالية وهي: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ...﴾ إذا برأس مؤشر الكتابة في الحاسوب يتحرك تلقائيا وبسرعة عجيبة ويزيح أمامه الكتابة ليخلف فراغا وراءه فحاولت إيقافه بمختلف المفاتيح فلم أوفق..! واستمر كذلك حتى توقف من تلقاء نفسه. تتبعت الفراغ فوجدته قد شمل النصف من الصفحة الحالية وصفحتين اثنتين بعدها. مع العلم أن تفريغ المسافة بين الحروف أو الكلمات إنما يتم عادة بالضغط على مسطرة المسافات وبدرجة واحدة. ويتكرر التفريغ كلما تكرر الضغط، ثم حاولت إزالة التفريغ بمختلف الوسائل مدة ليست بالقصيرة فلم أوفق، فانصرفت عنها على أن أعود إليها بعد حين.

ولكن ما أثار دهشتي أن المسافة سدت تلقائيا لكن بتمطيط الخط الرابط بين بعض الحروف ولا أدري كيف؟. وهذا لمساحة ثلاثة أسطر حتى أن كلمتين اثنتين شغلت كل واحدة منهما نصف سطر...!

حاولت إزاحة التمديد بين الحروف بكثير من المحاولات وبمختلف الوسائل. فلم أوفق كذلك. مع أني على دراية بكيفية إزالة المسافات بين الكلمات أو الحروف. قررت أن أترك الحالة كما هي على أن أعود إليها لاحقا.

وفجأة عاد النص دون أي تدخل مني إلى حالته السابقة الطبيعية دون أن ينقص منه حرف واحد...! وقلت مخاطبا الحاسوب: "وقيل حتى أنت أيضا أراك تسبّح"..؟! ثم إني حاولت بعد ذلك تكرار الظاهرة فلم أوفق وعرضت الأمر على ذوي الاختصاص فأجابوا باستحالة إحداث المسافة بمؤشر الكتابة...! فسبحان الذي يسبح بحمده كل شيء ولكننا لا نفقه تسبيحهم...!

سابعا: جواب المترجم إلى لجنة التقويم المصححة لترجمة معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية بمركب مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة

لما ألقيت نظرة خاطفة على بعض الأوراق من نسختي التقويم هالني الكم الهائل من الإشارات التي تتطلب التصحيح، حتى أن خاطرة تشاؤمية راودتني؛ فألقت في روعي أن نص الترجمة غير صالح إطلاقا. ولكني لما انتهيت من المسح والتمحيص والتدقيق، (أحصيت كل ما اقترح في كل نسخة)، اتضح لي أن الأغلبية الساحقة من مقترحات التصحيح انصبت على نقاط ثلاث وهي:

أولا- تغيير صيغة الترجمة لكلمتي: "الرحمن، الرحيم". وهما واردتان بكثرة في القرآن الكريم. (عدد المقترحات ما يقرب من400) .

ثانيا- تغيير صيغة الترجمة لكلمة : " **رب** ". وهي واردة كذلك بكثرة. (بلغ العدد 721).

ثالثا- تغيير الصيغة من لهجة المترجم إلى لهجة المقوم: (المصحح). وهذا أيضا كثير.

وإذا استثنيت هذه النقاط الثلاث، والأخطاء المطبعية، فلا يبقى إلا القليل جدا مما يتطلب التصحيح، وهذا ما يبعث على التفاؤل بأن الترجمة جيدة في مجملها.

ملاحظات عامة:

التقرير الوارد مع نص الترجمة كان شاملا ودقيقا؛ والمقترحات المقدمة تجلت فيها الجدية والعناية الفائقة بوضوح، الأمر الذي ملأ نفسي بأحاسيس الإعجاب والتبجيل، تجاه المقومين العزيزين. كما أن ذلك مكنني من الانتفاع الواسع بالملاحظات الثمينة التي تفضل بها الأَخوان مشكورين؛ وذلك في اتجاهين اثنين:

أولا- سد معظم النقائص الواردة في الترجمة، خاصة ما ورد في "المسألة الأولى" من التقرير، كالخط والحاشية وما إلى ذلك من التنظيم وفنيات الطباعة. وكل النقائص الواردة في ذلك راجعة

إلى عدم التمكن التام من استعمال جهاز الحاسوب. ولذا فكل ما ورد مقبول جملة وتفصيلا، ما عدا الفواصل التي ستعلل مهمتها لاحقا.

أما تداخل الحركات والحروف فقد نبهت إلى ضرورة تحويل الخط إلى ARABIC - SIMPLFIED على شاشة الحاسوب، الذي يفصل الحركات عن الحروف، وبذلك تسهل القراءة.

ثانيا- أنقذني التقرير من الحيرة والتردد اللذين كنت أتخبط فيهما حين لا أقتنع بالعبارة المختارة، وفي نفس الوقت لا أعثر على بديل أفضل؛ نظرا لضيق الأمازيغية، ولانعدام المراجع التي يمكن الاستعانة بها عند الحاجة.

ومع كل هذا فلابد من إبداء الرأي. مع أنه يعز علي أن أدلي بما يخالف رأي الأخوين الكريمين؛ خوفا من إحراجهما، ولكن ما باليد حيلة؛ فلو كان الأمر يتعلق بكلام البشر لتنازلت عن كل آرائي أو جلها عن طيب خاطر، رفقا بشعورهما. أما والأمر متعلق بكلام الله، فلا يسعني إذاً إلا الإدلاء بما أعتقده صوابا، والله أعلم بالصواب؛ فإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي، والأجر ثابت في كلتا الحالتين إن شاء الله.

❖ -التعامل مع المقترحات:

ليس من الممكن أن يتم الاتفاق بين اثنين، بلْهَ ثلاثة وأكثر، في جميع المقترحات، مهما بذل في ذلك من التحري والاحتياط. فمثلا أخطأت سهوا في ترجمة الآية: 26 من سورة الروم، فكانت الترجمة على أساس:

"العزيز الرحيم"، بينما النص الصحيح للآية هو: "العزيز الحكيم". ومع ذلك فإن أحد المقومين فقط تنبه لذلك، أما أنا والمقوم الثاني فقد فاتنا معا ذلك؛ مع أن التصحيح هنا واجب أكيد.

لذا ينبغي وضع مقياس لمحاولة فرز المقترحات، ولعل التصنيف التالي في نظري يحقق الهدف أو جله ليتخذ كمقياس. وهذا المقياس يمكن أن يحتوي على أربع درجات:

* الأولى: هي التي تستبدل المعنى الخطأ بالصحيح. وهذه يجب الأخذ بها. وقد أخذت بها فعلا، رغم أن الكثير منها لم يتفق عليها المقومان في مقترحاتهما، ولكني أخذت من كل منهما عند الاقتناع.

* الثانية: هي التي تزيد وضوحا في المعنى أو سهولة في النطق. وهذه يستحسن الأخذ بها. وقد أخذت بها ما لم يؤد ذلك إلى التباس.

* الثالثة: هي التي لا تضيف شيئا وإنما الذوق الشخصي يميل إليها. والأخذ بهذه أو عدمه سواء. وهذه أخذت ببعضها وتغافلت عن بعضها.

* الرابعة: هي التي تخرج المعنى مما يبدو لي أنه الصحيح إلى ما يبدو أنه الخطأ، وهذه يجب تركها. وقد عملت بها أيضا؛ خاصة عندما يتعلق الأمر بإخراج المفهوم عن مدلوله السليم، حسب رأيي، والله أعلم؛ فمن ذلك مثلا: اقترح وضع كلمة "مَيَهْلَكْ" مقابل " تردى"ـ من سورة الليل و"يَهْلَكْ" عندنا معناه "مرِض" وبذلك يتغير المعنى إلى التحريف أو ما يشبهه؛ كما لو أن الآية هكذا: "وما يغني عنه ماله إذا مرض" . وهذا بعيد عن الصواب كما نرى.

لنشرع الآن في بعض التفاصيل.

❖ ـ الملحوظات المتعلقة بالأسلوب:

ينبغي أولا أن يتقرر لدينا أن للأمازيغية لهجات: أهمها الطارقية، والشاوية، والميزابية، والقبائلية. وهذه الأخيرة هي التي كتبت بها الترجمة، وفيها أيضا لهجات فرعية حتى بين قريتين متجاورتين. ولكن ذلك لا يحول دون التفاهم.

ولقد بذلت قصارى جهدي في استعمال الألفاظ المشتركة ما لم تؤد إلى التباس، تعميما للفائدة.

ولكن ما لفت انتباهي أن المقترحات في نسختي التقويم، جنحت في كثير من الأحيان إلى استبدال اللهجة الموجودة في النص بلهجة المقوم، ولا أرى مبررا لذلك بتاتا، لأن اللهجة المستعملة في الترجمة هي السائدة والمفهومة عند من وجهت لهم الترجمة. فما الداعي إذاً لإقحام لهجة غريبة عنهم؛ لا يستفيدون منها شيئا؟.. بل لا تزيدهم إلا التباسا وارتباكا.!!.

ولقد وردت في تقريركم عبارة محكمة ينبغي أن تتخذ كقاعدة، وهي: «إذا كان المعنى مفهوما لدى السامع، ومؤداه شرعيا فلا مانع من استعماله..» لكن يلاحظ أن أحكام هذه القاعدة لم تحضر دائما عند تناول نص الترجمة بالتقويم؛ حيث اقترحت استبدالات كثيرة لا أرى لها مبررا؛ لأن الهدف هو نقل الفهم إلى السامع، مع الحفاظ على المفهوم السليم، بناء على القاعدة السابقة. وإذا تحقق هذا فما الداعي للعدول عنه؟

وعليه فإني أتجرأ على القول بأن الأمي القبائلي إذا سمع الترجمة يفهم منها أكثر مما يفهمه المتمكن من اللغة العربية عندما يكتفي بالمصحف دون الاستعانة بكتب التفسير. وهذا ليس برأيي أنا بل هو رأي الإخوة من ذوي الثقافة العالية، الذين يتحكمون في القبائلية والعربية تحكما كاملا. ولقد طبقوا هذه النظرية ميدانيا؛ فكانت النتيجة تماما كما زعمنا..! وأعتقد أن هذا ليس بالشيء الهين الذي لا يؤخذ بعين الاعتبار.

ثم إن التصحيح المقترح، وكذلك النص الأصلي، لا يمكن إخضاعهما لأي أساس علمي، بل يعتمد على الذوق والرأي الشخصي؛ لأن الأمازيغية ليس لها قواعد علمية مقننة يمكن الاحتكام إليها عند الاختلاف، وهذا ما يؤكده الجدول التالي الذي يقارن بين مقترحات المقومين الكريمين، وهو خاص بسورة البقرة وحدها:

رقم الصفحة	المصحح الأول	المصحح الثاني	المتفق عليه
1	1	7	1
2	4	5	0
3	3	3	1
4	5	6	2
5	3	9	0
6	2	1	0
7	3	0	0
8	0	1	0
9	4	5	0
10	5	6	0
11	5	10	0
12	1	5	0
13	4	5	1
14	4	1	0
15	3	3	0
16	1	1	0
17	1	7	0
18	2	4	1
19	2	0	0
20	3	1	0
21	0	0	0

22	4	0	0
23	1	4	1
24	2	4	0
25	2	2	0
26	0	3	0
27	2	6	0
28	0	2	0
المجموع	67	101	7

النتيجة :

من بين (168) مقترحا، تم الاتفاق على (7) فقط وفي سورة واحدة، فكيف الأمر في القرآن كله؟! وكيف لو عرضت الترجمة على الكثيرين..؟ إذاً أين الصواب من كل هذا؟ ولمن ترجع الكلمة الأخيرة؟

وبالمناسبة لم أستوعب رفض بعض المفاهيم من المقوّمَين الكريمين، ما دامت قد أخذت من التفاسير المشهورة، وسنعرض نماذج من ذلك لاحقا.

❖ **الفواصل الكثيرة:**

أما كثرة الفواصل فهي فعلا تستلفت الانتباه. ولكن لها هدفا محددا لا يمكن الاستغناء عنه. ذلك أن أسلوب الترجمة صيغ فيها يشبه النظم دون التقيد بالأبيات أو القافية، إلا إذا جاءت القافية عفويا. مع تحري السهولة في الفهم، والسلاسة في اللفظ ، والعذوبة في النغم. كل ذلك من أجل حث القارئ على المتابعة، وتشويقه للعودة مرة أخرى. ثم في الأخير من أجل تجميل معاني كلام الله العزيز ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

وميزة هذا النظم تتجلى عند قراءة الترجمة جهرا؛ وهذا ما تأكد في تسجيلات الترجمة صوتا.. وهي الآن متداولة بين الأهالي، وأصبحت محط إعجابهم ورضاهم، بل إنهم يتهافتون على اقتنائها، ويتهادونها بكل مودة وارتياح. وتذاع في القناة الثانية للإذاعة الوطنية. وحتى في سيارات الأجرة والمقاهي تسمّع للحاضرين، بالإضافة إلى المساجد بطبيعة الحال. إنهم يطلبون وبكل إلحاح إعادة التسجيل لأن ما طبع منها قد نفد.

هذا بالإضافة إلى أني أطمح إلى أن يتبوأ نص هذه الترجمة مكانة الصدارة في المدارس، إذا عمم تعليم الأمازيغية؛ لأنّ نصوص الأمازيغية منعدمة.

أما الهدف البعيد فهو حماية الأمازيغية من الاستحواذ عليها وتغريبها وإبعادها عن الدين؛ لذا اخترت الحرف العربي لكتابتها، والأسلوب الجذاب لصياغتها، ما استطعت إلى ذلك سبيلا. ولقد نشرت مقالات متعددة، أدعو فيها إلى تبني الحرف العربي لكتابة الأمازيغية، كما راسلت في ذلك أعلى المسئولين. وهذا ما جعلني أقوم بالمستحيل من أجل إبراز الترجمة في أناقة جذابة ما أمكن. ويبدو لي أن هذا الأسلوب هو الجدير بتحقيق الهدف أو بعضه على الأقل.

إذن مهمة الفواصل هي تنظيم النص حتى يخرج فيما يشبه النظم، ولم توضع عبثا كما قد يتوهم. وإن كانت هناك أداة بديلة يمكن أن تحقق الهدف، فلا مانع من الأخذ بها. وسنرفق نموذجا مسموعا مع التقرير لو تكرمتم بسماعه، لعل ذلك يحظى ببعض رضاكم، ويؤكد لكم تحقيق ما أسعى إليه، ولو بالقدر القليل.

وبالمناسبة؛ أنهينا التسجيل الأوّلي الناطق لكل الترجمة، قصد إخراجها في القرص المضغوط، ولنا أمل كبير أن تمتد إلينا اليد البيضاء للمشرفين على المجمع بالمساعدة، إن كان ذلك ممكنا، لإبرازها إلى الوجود إن شاء الله. (وقد تم ذلك لاحقا والحمد لله).

❖ **الرحمن الرحيم**

ورد تصحيح كثير لترجمة معنى «الرحمن الرحيم» وهذا التصحيح يبدو لي فيه بعض التشبث لا داعي له؛ ذلك أن الصيغة المقترحة غريبة عمن وجهت إليهم الترجمة.

من المعروف أن كلا من «الرحمن.الرحيم» مشتق من الرحمة، والرحمة يقابلها بالقبائلية لفظ : «الْحَانَّا»، و"الرحمن": يؤدي معناه لفظ «أَحْنِينْ» وحرف الذال في بدايتها عند الوصل عوض عن الهمزة. أما «الرحيم» فصيغة للمبالغة. وصيغة المبالغة في الأمازيغية: (القبائلية) غير موجودة، (وكذلك أفعل التفضيل)، ولكن معناها يؤدى بإضافة كلمة: «يَـتشُّورْ». فيقال: «يتشور ذَ شَّرْ» أي شرير. « يتشور اَذْ لَكْذَبْ» أي كذاب. «يتشور ذالحانا» معناه: "رحيم".

أما صيغة «ذرحمان ذرحيم» المقترحة فهي غريبة وغامضة؛ لأنها لم تسمع قط لدينا. وقد أسمعناها بعضهم فأثارت ضحكهم واستغرابهم. ما أغنانا عن كل ذلك .!

❖ **لفظ «رب».**

كلمة «رب» في الترجمة تعني لفظ الجلالة: لأن: «رب» في القبائلية علم على الذات القدسية. ويقال: «أَثِرْحَمْ رَبِّ»: "رحمه الله". «يُقَاذْ رَبِّ»: خاف الله ... إلخ

الخلاصة: إن لفظ الجلالة: « الله » يعبر عنه في الترجمة بكلمة «رب». ولفظ «رب» في النص القرآني يعبر عنه في الترجمة بكلمة: « پَاپْ » تجنبا للخلط بين مدلولي اللفظين. وليس «پَاپَاسْ» (لا تستعمل إلا مضافة)، التي تعني "الأب". وهذا في وسطنا سائد وواضح كل الوضوح. ولم يـثر قط أي تساؤل عند السامعين.

***ـ توضيح أكثر للفرق بين كلمتي:«پَاپَاسْ»**: أبوه، و«**پَاپِسْ**»: مولاه/ سيده.

لقد ناقشت الكلمة في تقرير سابق ولكنها طرحت من جديد.

إذاً علينا أن نعلم أن الكلمتين مختلفتان في المدلول: فـ«پَاپَا» = «أبي»، وفي الجمع يقال: «پَاپَاثْـنَغْ» أي "أبونا". أما «پَاپْ» فتعني مولى أو سيدا، فيقال: «پَاپِوْ» أي: مولاي/ سيدي. و«پَاپَنَّغْ» (وليس پَاپَاثْـنَغْ) = «مولانا/ سيدنا». (اختلفتا في حرف ـ ث ـ الزائد). «پَاپِسْ» (وليس پَاپَاسْ) = «مولاه/ سيده».

«پاپ» استعملت بمعنى المولى (الربوبية)، واستعملت بمعنى السيد. وقد تستعمل بمعنى صاحب الشيء. والسياق هو الذي يوضح المدلول المقصود.

وهذا اقتداء بالقرآن الكريم، الذي استعمل كلمة «**رب**» في المدلولين معا.

جاء في سورة يوسف:

❋ «وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي» من الربوبية.

❋ «إنه ربي أحسن مثواي». بمعنى السيد.

❋ «وكذلك يجتبيك ربك». من (الربوبية).

❋ «اذكرني عند ربك». معناه: السيد.

وهذا كثير... وفي سورة يوسف بالخصوص.

إذن كلمة «پاپ» لا تعني أبدا «الأب » كما يتوهم.

ولقد آلمني كثيرا أن يخطر ببال أحد الإخوة، سامحهم الله، أنني استعملت كلمة: «**پاپ**» بمفهوم الأب عند المسيحيين!!

❖ الإضافات للتوضيح:

مما يجب لفت الانتباه إليه أن كل آية في القرآن أدرج معناها في الترجمة. ولم أعتمد قط على فهمي الخاص لأية آية ما لم يدعم برأي مفسر ما.

أما الإضافات الموجودة بين حاضنتين:{...} فهي إما لتفسير معنى الآية إبعادا للغموض، وإما للقالب الذي تفرضه خصائص اللغة المترجم إليها. وقد نصصت على ذلك فيما عنون بـ "ملحقات الترجمة" المدرج في القرص المضغوط لنص الترجمة، فليراجع.

❖ استبدال لا داعي له:

❊ «**وهو معكم أينما كنتم**». الحديد/ الآية 4 .

❊ الترجمة : «نَـتسَّا اَثَانْ يَلاَّ يِذْوَنْ، أَنِذَا ثَيْغُومْ ثِلِيمْ». ترجمة في غاية من الوضوح والأداء، المقترح إضافة كلمة: "بعلمه" أمام "يِذْوَنْ" فما الداعي لإضافة كلمة:«**بعلمه**»؟ ولا أظن مؤمنا يخطر بباله أن الله موجود معه جسديا كوجود البشر، والعبارة المتداولة بين الناس قاطبة هي: «الله معك»، ولا أحد يشعر بالالتباس أو الحرج عند قولها أو سماعها. وما دامت قراءة الآية مقبولة دون إضافة "بعلمه" فلم نقحمها في الترجمة.

❊ «ثمورث» استبدلت بـ«القاعا». و«ثمورث» تطلق على البلد وعلى الأرض، فيقال: «جَـرْ اِجَنِّي اَتسْمُورْثْ» : « بين السماء والأرض ». وقد استعملت الكلمتان معا في الترجمة.

❊« ثَـسْكَاذَمْ » استبدلت بـ«ثـتسواليم». هما مستعملتان بالتساوي ولم الاستبدال؟.

❊ «إِضَقَّعْ» استبدلت بـ«اِضَيَّعْ». الأولى هي المستعملة والأكثر انسجاما ولهجتنا.

❋ «إِبَيْنَاغْدْ» استبدلت بـ«يَسْنَغْثَاغْدْ». فالأولى هي المستعملة لدينا، وأقرب إلى أصل الكلمة العربية ولم العدول عنها؟.

❖ تصحيح يحتاج إلى النظر:

❋ «إني لما أنزلت إلي من خير فقير» القصص آ:24.

❋ الترجمة: « اَقْلِي أَحْوَاجَغْ الْمَاكْلَه أَطَاسْ»، اعتمادا على التفاسير؛ منها التفسير الوجيز للزحيلي:

« إني بحاجة إلى أي طعام كان».

المقترح: «احواجغ (الخير) أطاس».

وهذا غير مناسب في نظري؛ لأن الخير ليس دائما هو الطعام، بينما هنا يحتاج إلى الطعام فقط. والله أعلم.

❋ «بلاء من ربكم عظيم» البقرة . آ.49 .

❋ الترجمة: «ذَجَرَّبْ اَمُقْرَانْ».

❋- المقترح: «ذ نعمة تمقرات». جاء في التفسير الوجيز للزحيلي: «اختبار شديد». ونص الترجمة يتفق وسياق هذا المعنى، ولم رفضه؟.

❋ «وأخر متشابهات» س.آل عمران .آ. 7

❋ الترجمة: «ثَـفَرّْ الْمُعْنَى اَنْسَتْ » .

❋ المقترح: « اثـتسوشباه» (غرابة وغموض) .

❋ «أخرجوا أنفسكم» آ.94. الأنعام.

* الترجمة: «سَلْگَثْ ثُورَا إِمَانَنْوَن».

* التصحيح: « سفغثد تروحث أنون».

ترجمة حرفية غامضة؛ لأن الميت لا يتحدى بإخراج روحه، بل يتحدى بإنقاذ نفسه إن استطاع. وفي تفسير الزحيلي: «أخرجوا أنفسكم من أيدينا، وخلصوها...».

* «ألم تر إلى الذين خرجوا..» البقرة آ.243.

الترجمة: « مَاثْعَلْمَظْ اَسْوِذَكَّنْ».

* المقترح: «اثـژرظرا غشزفا». (كذا). لم افهم شيئا بكل صراحة.

* شكور: ترجم إلى «وِينْ اُرَنَّگَّرْ الاَحْسَانْ».

* تصحيح: «يشكير». صدقوني ما سمعت هذا التعبير قط. أي أنه غريب كل الغرابة في وسطنا.

* «غفور رحيم».

* الترجمة: "رَبِّ يتسْـسمِّحْ أطَاسْ، أرْنُو يَتشُّورْ ذَالْحَانَّا".

* تصحيح: "ذَلَغْفُورْ ذَرْحِيمْ". عرضت هذه العبارة على الكثير فاستغربوها، ورأوا أن تركها على الأصل أقرب إلى الفهم.

وفعلا؛ لقد تركت الآية أحيانا كما هي: "غفور رحيم"؛ لأن الآية تتردد على الألسن بكثرة.

* "سنة الله ". ترجمت بـ"ذَالْقاعِدَنِّي اَرَبِّ". صححت بـ" ذَالْعَادَه..".!!.. أليس من الحرج أن تنسب العادة إلى الله جل وعلا، وهي تكتسب بعد طول المران؟. والله أعلم.

❖ من الواضح إلى الغامض:

* «أعوذ»ـ الفلق . الناس ـ . ترجم: «عُوبْذَغْ» استبدل بـ«تسعوذغ» صيغة لا تستعمل عندنا، بل يقال: "عُوبَّذْ". (بضم العين) أي استعذ.

* الأنبياء .آ.28 الترجمة " يَڤْرَا أَين اِلاَّن اَزَّاثْسَنْ"

* المقترح : " يَعْلَمْ تسَايَنْ..." هذا غريب في أوساطنا.

* الأنعام .آ.104 . الترجمة: "أَلَّنْ اُرَثْـژَرْتَرَا".

* المقترح : "اُتسْحُطَنْـتَرَا غَفْرَبِّ". لم يفهمها أحد ممن عرضت عليهم.

* الذاريات . آ. 58. "المتين" ترك سهوا في الترجمة الأصلية، يستدرك بـ"ذَالْقَوِي اُرِسَّاوَظْ حَدْ".

* المقترح: " يُوكْ اَذْتسَّا إِذَشْدِيدْ". غرابة وغموض....وغيرها كثير...

بكل صراحة من المستبعد جدا أن تفهم كل هذه العبارات في محيطنا. أو ليس من شروط الترجمة مراعاة أسلوب وقوالب اللغة المترجم إليها...؟!

❖ من لهجة إلى لهجة:

* « الشَّاذَه » حولت إلى «الشهاذة». الأولى هي المستعملة وأكثر انسجاما ولهجتنا.

* «إِذَامْعَاوَنْ» حولت إلى «أَذَامْعاون»: غرابة في النطق عندنا.

* «إِمَسِيحِيَنْ» حولت إلى «انصرانين»، الأولى هي المستعملة لدينا وهي تؤدي المعنى، ولم العدول عنها؟

* « لُقْمَرْ» حولت إلى « لقمار». غرابة في النطق.

❖ رفض بعض المذاهب:

*«استوى على العرش».

* ترجمة: «يَقْعَذْ فَالْعَرْشْ اَلرَّحْمَنْ». حولت إلى «يَعْلَى غفالعرش ..». لا يكاد يظهر أي فرق بين التعبيرين.

وأنا هنا إنما أخذت بمذهب السلف الصالح؛ الاستواء معلوم والكيف مجهول. وهو الأسلم في رأيي، والله أعلم.

ونفس الشيء يقال في الأيدي والأعين المذكورة في القرآن. وقد وُضّح في التعليق أن الله نسب لنفسه الأيدي والأعين ولكن بدون شبه.

هذه نماذج فقط وهي شيء قليل، من الكثير الوارد في النسختين المقدمتين للتصحيح. اكتفيت بهذا القدر تحاشيا للتطويل. ومع كل ذلك فقد أخذت بالكثير مما تفضل به الأخوان الفاضلان في مقترحاتهما، وهو ما زاد الترجمة دقة ووضوحا.

مجموع المقترحات التي أخذت بها ثلاثة وتسعون (93) ، والاختيار والترك على كل حال ليسا منزهين عن الخطأ، كما هي كل أعمال بني آدم التي لا تخلو من النقائص؛ فسبحان من اتصف بالكمال.

هذا وأملي الوحيد أن أكون قريبا من المشروع أثناء الطبع، لعل أفكارا تطرأ؛ فتلحق بالمشروع حتى يقترب من الكمال ما أمكن؛ لأن التجربة هي الأولى من نوعها، وهي محفوفة بالمصاعب والمزالق، لذا يجب الكثير من التروي والاحتياط. (وفعلا كنت حاضرا في التصحيح).

ملاحظة هامة:

1. ينبغي إدراج مصطلحات الحروف العربية المعدلة في الأول: چ . ژ . ڤ . پ . گ

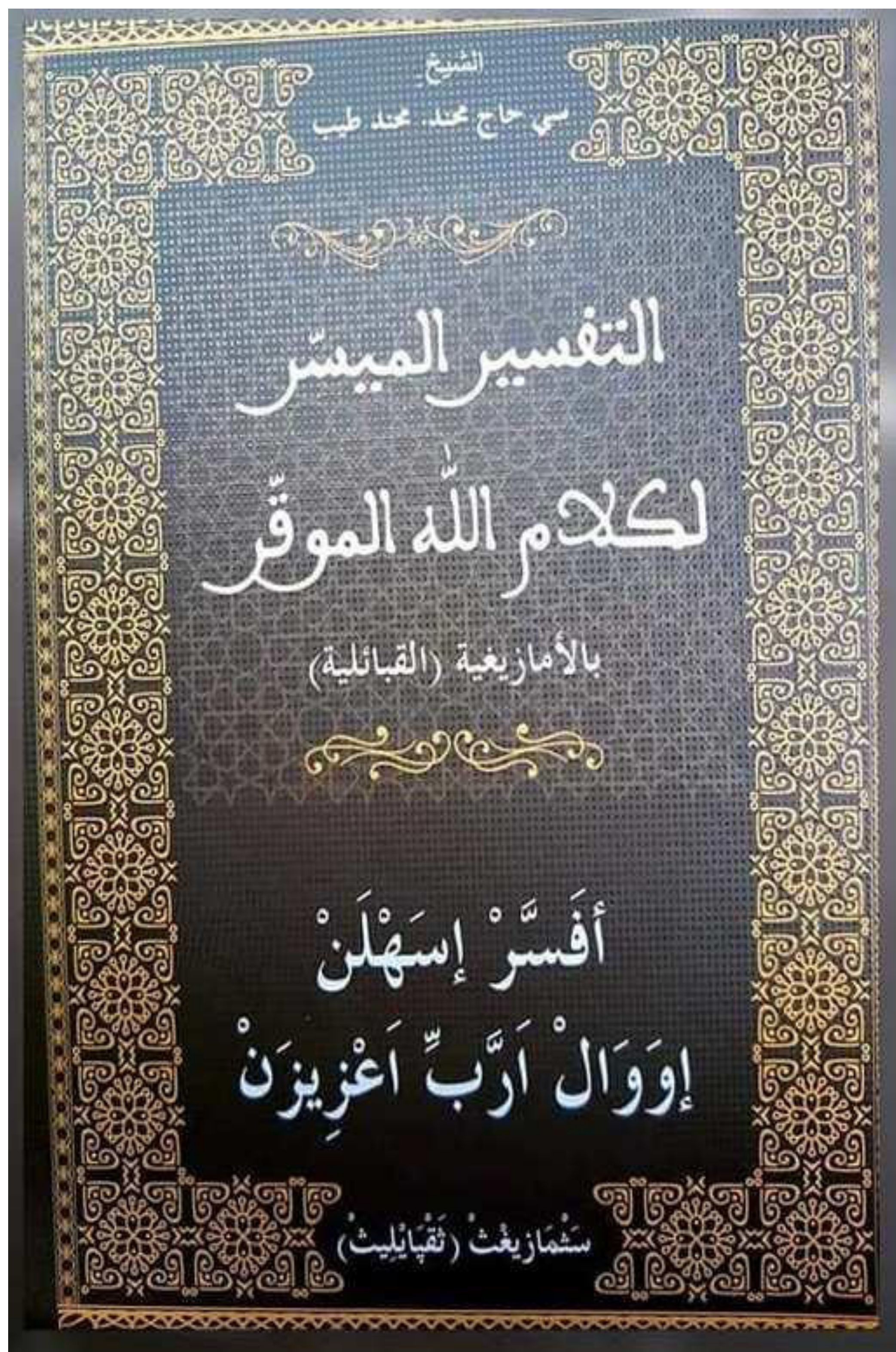
2. ينبغي التنبيه إلى أن الصلاة لا تجوز بالترجمة.

خاتمة الدراسة:

في يوم 16 مارس 2005، وفي حدود الساعة العاشرة (10) صباحا، تمت الترجمة الأولية لمعاني آخر آية من القرآن الكريم إلى الأمازيغية، بعونه تعالى وعنايته وحسن توفيقه، فله الثناء الجميل، والشكر الجزيل والحمد الذي لا ينقطع ولا يكل.

في تلك اللحظة لم أكن مصدقا لهذه الخاتمة السعيدة، بحكم المفاجأة، ورحت أتساءل: أحقا تمت الترجمة...؟ وللقرآن كله...؟..لا.. لا.. إنْ هذا إلا حلم ألمّ في الكرى...لا يلبث أن يتلاشى ويندثر، ثم أستيقظ ولا أجد شيئا...! تحركت الأصابع في حركة لا إرادية، وراحت تقرص أماكن من البدن، علها تتلقى إشارة تؤكد اليقظة أو المنام...! فلما ظهرت الحقيقة، وتأكدت اليقظة، ارتفع نشيجي واشتد نحيبي، وانهمرت عبراتي... ثم لفتني موجة من الراحة والهدوء...؛ فانسكبت على الفؤاد شآبيب الغبطة والاطمئنان... وفاضت على النفس السكينة والأمان...وسكرت الروح برحيق الأشواق... وغاص القلب في بحر من الأنوار والإشراق...انطلق العقل هائما محلقا في أجواء روحانية ممتعة...! أحسست كأني دخلت فيما يشبه الغيبوبة... غبت عما حولي من الكائنات، «ساهيا عما سيأتي ناسيا ماقد مضى»..!! قضيت وقتا على هذه الحال، لا أدري أقصير هو أم طويل...! فلما عاد الوعي، قمت فصليت ركعتين شكرا لله تعالى....غمرتني بعدهما نشوة.. متعة.. سعادة..هناء..عافية..! إنها فعلا لحظة إشراق، وتأجج في الأشواق، أعقبتها دغدغة روحانية لذيذة، لا تقوى الكلمات على وصفها؛ لم أذق في حياتي مثلها قط، ولا إخالني سأذوقها في مستقبل الأيام.....أمن وأمان، وهدوء واطمئنان، وراحة وسلام...! لك الشكر الجزيل والثناء الجميل يا إلهي الرؤوف الكريم...

هكذا تمت الترجمة فعلا والحمد لله...! إنها لنعمة سابغة، أرخت سدولها الدافئة علي وعلى ما حولي من الموجودات؛ أنعم بها الله العلي القدير، الجواد الكريم، على عبده البائس الفقير: (محمد الطيب) المسكين، الذي لا يملك سوى الدعاء والاستغفار، والتضرع والدموع الغزار..!


الشيخ
سي حاج محند محند طيب
التفسير الميسّر
لكلام الله الموقّر
بالأمازيغية (القبائلية)
أَفَسَّرْ إِسَهْلَنْ
إِوَوَالْ اَرَّبِّ اَعْزِيزَنْ
سْثْمَازِيغْثْ (ثَقْبَايْلِيثْ)

جهود علماء التفسير في حاضرة متليلي

-الشيخ المفسّر الأخضر الدّهمة حفظه الله أنموذجا-

ط.د عبد الله نوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم

الإسلامية, جامعة وهران01، الجزائر

ط.د مختارية بوعلي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم

الإسلامية, جامعة وهران01، الجزائر

مقدمة:

إنّ لعلماء الجزائر وفقهائها جهودا لا تخفى على من رام بيانها في خدمة كتاب الله تعالى وعلومه؛ تلاوة وأداء وإقراء وتصنيفا وتفسيرا؛ إذ سجّلت كتب التّراجم مسيرة الكثير منهم ممّن أفنوا أعمارهم ونذروا أنفسهم خدمة للقرآن الكريم وبيانا لمراد الله تعالى منه؛ واشتهرت بذلك عدّة حواضر علمية شمالا وجنوبا؛ شرقا وغربا، كانت قبلة للعلماء بله طلبة العلم من داخل الوطن وخارجه.

ومن بين الحواضر التي بزغ نورها وشاع ضياؤها في الجنوب الجزائري حاضرة غرداية؛ ونخصّ بالذّكر منطقة متليلي التي كان لها دور بارز في هذا المجال؛ حيث اِنبرى منها مشايخ أعلام لتصدّر مجالس الإقراء والتفسير ونذرَ آخرون أنفسهم للكتابة والتّدوين؛ وسنسلّط الضوء في هذه الورقة البحثية على أحد أبرز أعلامها المعاصرين الشيخ الفقيه المفسّر الأخضر الدّهمة المتليلي

الجزائري، أشهر فقهاء المالكية في ولاية غرداية خادم القرآن الكريم حيث عمد إلى حفظه وتدريسه، وتفسيره مشافهة في محاضراته ودروسه المسجدية، وتدوينا في مؤلفاته المطبوعة والتي على رأسها قطوف دانية من سور قرآنية، إرشاد الضمآن إلى معاني قلب القرآن...وغيرها.

ولعلّ من المقاصد التي سيقت هذه الدّراسة لأجلها: التعريف بأعلام الجزائر الأجلّاء وبيان جهودهم في خدمة القرآن الكريم وتفسيره، وما الشيخ الأخضر الدّهمة إلّا أنموذج شاهد بعطاءاته العلمية في علم التفسير ، وكذا دعوة للباحثين المختصّين في هذا المجال إلى الاهتمام بمدوّنات علمائهم والاستفادة منها وإخراجها إلى مصافّ الدراسات المتخصّصة المتداولة. وقد انتظمت الورقة في محورين أساسيين هما:

المحور الأول: التعريف بالشيخ المفسّر الأخضر الدّهمة: نسبه، نشأته، وحياته العلمية والعملية.

المحور الثاني: جهود الشيخ الأخضر الدّهمة في تفسير الذّكر الحكيم مشافهة وتدوينا ومنهجه في ذلك.

المحور الأول: التعريف بالشيخ المفسّر الأخضر الدّهمة: مهاده, نشأته, وحياته العلمية

أولا: مِهادُ الشيخ:

هو الشيخ الأخضر بن قويدر الدّهمة المتليلي، من مواليد سنة 1925م[1] بقرية متليلي الشعانبة التابعة لولاية غرداية، إحدى مدن الجنوب الجزائري ومن أبرز علماء المالكية بولاية غرداية وأحد أشهر أعلامها[2].

---

[1]- وقال الشيخ في ترجمته لنفسه أنّه ولد سنة 1921م، في حصة فوانيس الجزائر على قناة دزاير نيوز 13/ 09/ 2019م.

[2]- الأخضر الدّهمة، قطوف دانية من سور قرآنية، مطبعة مداد، غرداية، الجزائر، (1431هـ- 2010م)، ج2، ص359.

ثانيا: نشأته:

كانت نشأة الشيخ في أسرة محافظة بمدينة متليلي، وبمسجدها العتيق والمدارس الملحقة به تربّى وتعلّم؛ فعند بلوغه السابعة من العمر أدخله والده إلى إحدى كتاتيب المنطقة، تهجّى فيها وحفظ قصار السور القرآنية على يدّ معلّم القرآن الشيخ الطّالب علي بن الذِيبة، ليختم القرآن حفظًا كاملا على يدّ الشيخ المعلّم محمّد كدّيد –رحمه الله– أربع ختمات تامّات مع تلّقيه بعضا من الفقه والعلوم الأوّلية[3].

ثالثا: حياته العلمية:

كانت بدايتها من انتقال الشيخ عام 1942م من متليلي إلى مدينة غرداية حيث أُنتُدِب في بعثة علمية لتلقي علوم اللّغة العربية وأصول الفقه والفقه الإسلامي على المذهب المالكي على يد الشيخ محمّد الأخضر فيلالي؛[4] مؤسّس المدرسة الإصلاحية بمسجد خالد بن الوليد بغرداية بدعم ومؤازرة الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي– رحمهما الله–.[5] إذ مثّلت تلك المدرسة مُنعرجا مُهمّا في مسيرة الشيخ العلمية والفكرية حيث تضلّع فيها علوم العربية والفقه والأدب والأصول.

رابعا: **المهاد الزيتوني**: بعد النكبة التي تعرّضت لها المدرسة الإصلاحية بدءا بالتّضييق على الشيخ ومحاصرته ونفيّه من طرف المستدمر الفرنسي وانتهاء بغلق المدرسة سنة 1946م، لم يجد أعيان المشايخ بدًّا من تقفّي آثار البعثات العلمية نحو تونس إلى الزيتونة العريقة والمدرسة الصّادقية بها؛ فكان انتقاء نجباء الطلبة الجزائريين ليقع عليه الاختيار على الشيخ الأخضر الدّهمة ضمن الوفد ليستكملوا تحصيلهم العلمي بجامعة الزيتونة أيّام عطائها الوقّاد بالإصلاح المنهاجي والعلمي

---

[3]– من خلال ترجمة الشيخ لنفسه في حصة فوانيس الجزائر.

[4]– الشيخ محمّد الأخضر فيلالي (1906م– 1977م) أحد روّاد الإصلاح في الجزائر وخرّيج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تتلمذ على الشيخ ابن باديس، وتخرّج على يديه العديد من العلماء أمثال الشيخ أحمد حماني والصادق حماني والشيخ محمد الأمير الصالح...

[5]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج2، ص359.

الذي شيّده الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور[6] حيث أخذ عن العديد من المشايخ أمثال الحبيب بلخوجة، الطاهر الغمراسني، صالح النّيفر، صالح بسّيس وغيرهم...

خامسا: حياته العملية

وبعد حيازته شهادة التحصيل من الزيتونة عام 1950م عاد إلى الجزائر رأيا من العلم وقدحا مشتعلا من الرّوح الوطنية، ليخوض مشواره كغيره من رجالات الإصلاح في الجهاد التربوي والتعليم الحرّ في مدرسة حرّة بولاية البويرة، وما إن استطاعت مدرسته أن تؤدّي رسالتها المنوطة بها أحسن أداء وظهرت نتائجها للعيان بشهادة العامّ والخاص بل وحتى الخصوم، حتى باشرتها المتابعات والاستنطاقات الأمنية الاستعمارية ليتقرّر إغلاقها التّام ويتصدّر اسم الشيخ الأخضر الدّهمة قائمة المتابَعين لدى السلطة الفرنسية، فعزم حينها على الرّحيل ويمّم شطره نحو ولاية غرداية لمواصلة رسالته التربوية الإصلاحية بمدرسة العرفان التابعة لمسجد حمزة بن عبد المطّلب، فقام عليها مشرفا ومدرّسا؛ نافح فيها ضدّ المخطّطات التغريبية الرامية إلى فصل شباب الجزائر عن دينه وأصوله؛ حتى أثمرت نهضة علمية إصلاحية لم يكن للمنطقة عهد بها، وبقي فيها رفقة بعض زملائه رغم تشديد الرّقابة الفرنسية عليها إلى أن أُعلن الاستقلال[7].

وبعد أن أنعم الله تعالى على الشعب الجزائري بالنصر المبين على جحافل الاستعمار، تأسّست الحكومة الجزائرية المستقلة ودعت وزارة التربية والتعليم المعلّمين الأحرار للالتحاق بالتعليم الرّسمي فكان الشيخ الأخضر الدّهمة من السّابقين الأُوَّل إليها، وقد زاوج في مسيرته بين عمله في المؤسسات التعليمية يعلّم فيها اللّغة العربية والتربية الإسلامية والتاريخ، وبين المؤسسات الدينية يلقي فيها دروس الوعظ والإرشاد والفقه الإسلامي وتفسير القرآن الكريم وشرح الحديث

---

[6]- الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور (1879م-1973م)، أحد علماء المقاصد، شيخ جامع الزيتونة بتونس ومفتي المالكية بها، له عدّة مؤلّفات مطبوعة منها مقاصد الشريعة الإسلامية، تفسير التحرير والتنوير، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام وغيرها.

[7]- طرهوني، محمّد بن رزق، التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا، دار ابن الجوزي، ط1: 1426هـ، ج1، ص196. (بتصرّف)

الشريف وذلك على سبيل التطوّع، إضافة مشاركته في النّدوات العلمية والتجمعات الشعبية الهادفة إلى بناء الوطن بناء متكاملا[8].

إضافة إلى تقلّده عدّة وظائف اجتماعية وسياسية وقضائية وإدارية، لينتقل بعدها إلى متليلي في أوائل السبعينات حيث تولى مهام الاستشارة التربوية تارة والتفتيش تارة أخرى مع إدارة مدرسة عبد الحميد بن باديس، كما أُسندت إليه دروس الجمعة في الجامع العتيق ودروس أخرى بين المغرب والعشاء في بعض المساجد، كما خصّ المسجد المجاور لمنزله مسجد ذي النورين بدرس يومي في تفسير القرآن الكريم بعد صلاة الصبح.

وبعد تقاعده عام 1984م من سلك التعليم الرسمي وطلبه الإعفاء من مهمّة التفتيش التي كلّفته بها مديرية الشؤون الدينية بغرداية، كثّف جهوده وتفرّغ للتّوجيه والتدريس والإرشاد في مساجد غرداية ومتليلي ونواديها وجمعياتها الخاصة والعامة. والواقع أنّ صلته بالتدريس في مساجد غرداية كانت منذ الاستقلال ولم تنقطع بل تكثّفت بعد التقاعد[9].

سادسا: مكتبة الشيخ الدهمة الوقفية:[10]

سنة 1992م عمل الشيخ على مشروع مكتبة من ماله الخاص لتكون محتوياتها وقفا في سبيل الله على كلّ من هم أهل للاستفادة منها، حيث اقتطع من فناء منزله مساحة وبنى المكتبة ليفتتحها عام 1994م للنّاس، بعد أن حوّل إليها كتبه الخاصة وأثراها بما يخدم طلاب العلم والمعرفة من أمّهات المصادر وأفيدها كتفاسير القرآن الكريم، شروح الحديث الشريف، الفقه الإسلامي، الفتاوى الشرعية،

[8]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج2، ص368. (بتصرّف)

[9]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج2، ص370.

[10]- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص373. ترجمة الشيخ المفسّر لخضر الدّهمة المتليلي الجزائري، الشاملة المكتبة الجزائرية، المشرف العام: الشيخ عمار رقبة الشرفي، 23 أكتوبر 2019م، رابط الموقع: shamela-dz.net

كتب الأدب والأخلاق، المعاجم اللغوية، قواعد اللّغة العربية،كتب التاريخ والجغرافيا، إضافة إلى المجلات العلمية والأشرطة المسجّلة...وغيرها.

وجعل المكتبة على قسمين: قسم أرضي خصّصه كقاعة للمطالعة للباحثين والباحثات، وعقد الندوات العلمية واستقبال الزائرين والوفود، وقسم علوي خاص بالإناث لتدريس محو الأمية وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس قواعده، إضافة إلى دروس الفقه والسيرة النبوية.

سابعا: مؤلفات الشيخ العلمية

كغيره من العلماء العاملين، اهتمّ الشيخ الدّهمة بتأليف الرّجال والقلوب دون تأليف الكتب والمدوّنات، حيث اشتهر بتصحيحه للمفاهيم الدينية، وترشيد التّوجهات الفكرية والسياسية لدى الشباب، ومحاربة الخرافات والبدع الهابطة بالعقول البسيطة، وكان في ذلك قوي العزيمة، غير أنّه وبإلحاح وحرص شديدين من طلبته ومُريديه، عمل على تأليف بعض الكتب منها:

- **قطوف دانية من سور قرآنية**، وهو مطبوع في جزأين جمع فيه بين تفسير المفصّل وقصار المفصّل.
- **أضواء على سورة الحجرات**، وهو مطبوع ضمن الجزء الأول من قطوف دانية.
- **إرشاد الضمآن إلى معاني قلب القرآن**، لم يُطبع بعد.
- **دروس وعبر من سورة الحشر**، تحت الطبع.
- كتاب في **"فقه المعاملات"** لم يُطبع بعد.
- عدّة خطب مكتوبة كان يشارك بها في المحافل والمناسبات يعالج فيها بعض القضايا الاجتماعية وينتقد من خلال بعض المظاهر السلبية في المجتمع الجزائري.

- كما له عدّة تسجيلات مسموعة مسجّلة على الأشرطة في تفسير بعض السور كتفسير سورة البقرة، إضافة إلى دروس مرئية مبثوثة على اليوتيوب.

أهمّ الأنشطة العلمية التي أقيمت حول الشيخ:

من الفعاليات العلمية التي أُقيمت الملتقى الوطني "الرّوافد اللّغوية وأثرها في درس التفسير عند الشيخ لخضر الدّهمة من خلال مؤلّفاته ومحاضراته"، وتطرّق إجمالا إلى كيفية الاستفادة من منهج الشيخ في إحياء منهج التّفسير البياني، ودوره في تجديد درس التّفسير.

إضافة إلى العديد من المقالات في المجلات والأبحاث ورسائل الماستر التي خصّته بالدّراسة في قضايا التجديد في التفسير في الفترة المعاصرة.[11]

المحور الثاني: الشيخ الأخضر الدّهمة وعنايته بتفسير الذّكر الحكيم مشافهة وتدوينا ومنهجه في ذلك

إنّ للشيخ الأخضر الدّهمة حفظه الله عناية بالغة بتفسير القرآن الكريم وخدمته وبيانه؛ إذ لم تخل أيامه من الإرشاد والتوجيه والتعليم في المساجد والمحافل والمناسبات والمآتم ومن تدوين المذكّرات وبسط الدروس وتحضيرها، فكان الصوت الحيّ الصادح بقيم الإسلام وشيم العروبة والقلم الجاري بمداد الحق والإصلاح في مجتمع لمّا يبرأ بعد من علل الاستعمار وأدران التخلّف، وتوزّعت جهوده في مضمار التّفسير على نحوين اثنين: تدريسا وتدوينا، نبسطها فيما يلي:

أولا: التفسير مشافهة (تدريسا):

حاز الشيخ الدّهمة قصب السّبق في المسار الإصلاحي بالجنوب الجزائري؛ فكان يمثّل عمدة المساجد والمدارس في تفسير القرآن الكريم، واتّخذ لذلك مسلك الإمام الأستاذ محمّد عبده في جمع

---

[11]- عمارة ميلود بن العيد، الشيخ الأخضر الدّهمة وجهوده في تفسير القرآن الكريم – قطوف دانية من سور قرآنية أنموذجا-، ورقة علمية مقدّمة للملتقى الخامس "جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم وعلومه"، يومي 13/ 14 ديسمبر 2016م، جامعة حمّة لخضر الوادي. ص4.

الأمّة على القرآن في منطقة معروفة بتناقضاتها القبلية والمذهبية والطائفية، مقتفيا منهج التّفسير الهدائي لمدرسة المنار الإصلاحية، فكانت دروسه الشفهية لا تنقطع بعد صلاة الصبح وبين العشائين في مسجد ذي النورين بمتليلي ودروس بمسجد عمر بن الخطاب بحي الثنية بغرداية، وأخرى غير منتظمة بمساجد كثيرة بالمنطقة كمسجد ضاية بن ضحوة والعطف وغيرهما، إضافة إلى عنايته بالقسم النّسوي حيث كانت له دروس التفسير بالمكتبة أسبوعيا مع حصص تصحيح الأداء حفظا للّائي حفظنه قبلا، كما خصّص دروس الجمعة للتفسير الهدائي بالمسجد العتيق، إذ تمّ له فيه تفسير سورة البقرة وآيات من آل عمران والنساء.[12] وقيل قد أمضى في تفسير البقرة وحدها ثماني سنين، وكان مسلكه في ذلك تربويا عاليا لا ينزعج فيه المثقّف بضياع وقته ولا الأمّي بعسر فهمه.[13]

منهجه في التفسير الشفهي:

إنَّ المتتبّع لدروس الشيخ الأخضر الدّهمة في التّفسير يدرك مدى خبرته الكبيرة في التّدريس والإلقاء في هذا المجال، ويلمس ذلك من خلال منهجه الذي يمكن نظمه في النّقاط التالية:

1/ الاستفتاح بتلاوة الآيات المختارة للدّرس المقرّر.

2/ بيان معاني الكلمات مع عدم الإيغال في القضايا اللّغوية والبلاغية مراعاة للحال[14]، ثمّ التثنية بإجمال على معاني الآيات وبيان المراد منها.

3/ استحضار المسائل الفقهية التي تتضمنها الآيات من غير تفصيل ولا تطويل.

4/ الاستعانة بأقوال كبار المفسّرين لتأكيد المعاني وتحقيقها، وتحكيم صحيح المنقول عند اختلافهم.

---

[12]- ينظر: التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا، المرجع السابق، ج1، ص196.

[13]- محمّد عبد الحليم بيشي، الدرس التفسيري في الجنوب الجزائري، موقع البصائر، تاريخ النّشر 17/ 10/ 2018م، ص3، رابط الموقع: https://elbassair.org/3866/

[14]- الدرس التفسيري في الجنوب الجزائري، المرجع السابق، ص3، رابط الموقع: https://elbassair.org/3866/

5/ التركيز على القضايا الواقعية الأدبية والأخلاقية والاجتماعية خاصة؛ بضرب المُثل من الواقع المعاش والسّعي لتبيين مقاصد الآيات وأحكامها مع محاولة تنزيلها عليه؛ قصدا منه إلى الإصلاح والتغيير وتحقيق النّهضة المنشودة؛ وقد قال في ذلك عند تفسيره لبعض السور في أحد المساجد "ثمّ عمدت إلى آيات من سورتي آل عمران والنساء توخّيتها لمقتضيات العصر الذي يُظلّنا".[15]

6/ اختيار الألفاظ المتداولة المفهومة مع استخدام التبسيط والتمهّل في الإلقاء؛ وكثيرا ما يُورد ألفاظا تتضمّنها بعض النصوص ممّا تعدّ غريبة لدى السّامعين فيذلّل فهمها حتى تصير معانيها معلومة لدى عامّة المستمعين؛ قصدا منه إلى تفهيمهم كلام الله وقد وضّح قصده هذا قائلا في مقدمة كتابه "القطوف": "...ثمّ انتقلت بعدها إلى سور معيّنة هي سورة يس والحجرات والحشر وجميع قصار المفصّل؛ لأساعد جمهور المصلّين على فهم ما يُردِّدون بألسنتهم في كلّ يوم؛ لأنّه من غير المستساغ أن يكرّر الإنسان ألفاظا بلسانه لا يفقه لها معنى بفؤاده".[16]

أمّا عن أسلوبه في الإلقاء والطّرح:

فقد تميّز بالعرض الاحترافي بشهادة متابعيه؛ حيث أنّ تمكّنه العلمي من درس التّفسير جعله يعرضه بكفاءة واحترافية مع ترتيب لمجمل الأفكار ترتيبا منهجيا متسلسلا؛ وكأنّه يأخذ فيه بيد السّامع فيطوف به في جوانب موضوع السور برفق؛ مصحوبا بالوضوح والبيان؛ ليخرج منه وقد تمكّن من استيعاب ما رآه عسير الفهم في البداية.

ثانيا: في مجال التدوين:

كغيره من العلماء العاملين المخلصين؛ اهتمّ الشيخ الأخضر الدّهمة -حفظه الله- بتأليف القلوب وصنع الرّجال دون تأليف الكتب؛ غير أنّه حينما شرع في تفسير القرآن الكريم في بعض مساجد متليلي؛ دعاه جمعٌ من الأساتذة والأئمة وطلبة العلم إلى اختصار تفسيره المنطوق به في

[15]- قطوف دانية من سور قرآنية؛ المصدر السابق؛ ج1؛ ص5.

[16]- المصدر نفسه؛ ج1؛ ص5.

تفسير مكتوب؛ ليعمّ به النّفع شتى البلاد ويكون ثوابه عند الله أعظم، ورجوه أن يراعي فيه مستوى طلاب العلم والطالبات في الجامعات والثانويات الذين يرغبون في التحليل اللغوي والإعراب لبعض التراكيب في الآيات التي تقتضي ذلك؛ فأجابهم إلى ذلك بتأليف بعض الكتب قد أوردناها في المحور الأوّل من هذا البحث، البعض منها مطبوع والآخر لمّا يُطبع بعد. إذ نجده يوضّح –حفظه الله– في مقدّمته الباعث على تفسيره ومنهجه فيه قائلا: "وكُنت قبلا أكتفي بمذكّرات وجيزة أدوّن عليها العناصر الأساسية في الموضوع لأتوسّع فيها عند الإلقاء، ولكن بعض الأساتذة من أبنائي الرّوحيين ألحّوا عليّ في تلخيص هذه الدروس على قراطيس لتكون تفسيرا يانعا ميسّرا يساعد القارئ على التّصور الصّحيح الواضح لمعاني الآيات، فأجبتهم إلى ذلك"[17]

أمّا عن منهجه في تفسيره المدوّن فتفصيله كما يلي:

1– إيراد السورة القرآنية كاملة إن كانت من قصار السُّور أو آية آية إن كانت من المفصّل بالرسم العثماني مع الشّكل؛ ويلحظ ذلك من تتبّع تفسيره المكتوب.

أمّا في متن التّفسير فيكتب الآيات على وفق قواعد اللّغة والإملاء قصد صرف من لم يتعهّد استظهار القرآن عن الخطأ واللّحن:

ويقول في هذا الشأن "وعصما لمن لم يسبق له استظهار القرآن أن يخطئ في قراءته تعمّدت رسم الآيات المستشهد بها على وفق ما انتهى إليه علم قواعد الإملاء في العصور الحديثة، وهو ما أفتى به جماعة من أهل العلم في كتابة غير المصحف الشريف." ثمّ ساق فتوى لبعض علماء الأزهر الشريف في هذا المجال.[18] ومثالا على ذلك: نجده يُثبت علامات الاستفهام في الآيات التي تقتضي استفهاما، نحو قوله تعالى: "أَمْ اتَّخَذُوا آلهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يَنْشُرُون؟ لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةً إِلَّا الله لَفَسَدَتَا..." [الأنبياء 22]

---

[17]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص01.

[18]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص08.

كما نجده يثبت الفواصل بين الآي عِوضا عن الترقيم أو علامات الوقف: نحو قوله تعالى: "اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُو عَلَى كُلِّ شَيءٍ وكِيل، لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ، قُلَ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّها الجَاهِلُونَ،..." [الزمر 62-64]

2- يبّين إن كانت السّور المراد تفسيرها مكيّة أو مدنية مع عدد آياتها.

3- ذكر التناسب بين السور: في بداية كلّ سورة يشير إلى مناسبتها لما قبلها كقوله في سورة القدر: "ومناسبتها لما قبلها أنّ الله أمر نبيّه بالقراءة في سورة العلق، والمقروء هو القرآن الكريم، وفي هذه السورة أخبرنا بأنّ هذا القرآن أنزل في ليلة القدر"[19] وكذا في غيرها من السور.

4- ذكر سبب النزول باختصار من غير إسهاب مع سوق الروايات التي أشارت لذلك وقد قال حفظه الله "وقد تجنّبت التّوسع فيها لا أراه مفيدا للقارئ من أفكار ثانوية، أو روايات متعدّدة..."[20] وكثيرا ما يعتمد على ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وابن ماجه وغيرهم، دون تخريج للأحاديث في مقام الاستشهاد بل كان يقتصر على ذكر الرواية قائلا: "فقد ورد عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال" و"جاء عن النّبي صلى الله عليه وسلم قوله"، كما نجده لا يذكر الحكم على الحديث بل يكتفي على الرواية نحو: رواه البخاري، رواه مسلم، رواه الترمذي. إضافة إلى الاستشهاد ببعض أقوال أصحاب كتب السير أمثال ابن هشام وابن كثير.

5- يباشر في التفسير بدءا ببيان معاني كلمات الآية من حيث اللّغة ووجوه الإعراب المعين على بيان المقصد من السياق، وكان كثير الاستدلال بلغة العرب، نحو قوله في بيان معنى (ضلّ) في قوله تعالى "وَلا الضَالِين" يقول: "ومادة الضلال قد وردت في القرآن بمعان مختلفة، منها غيبة شيء في شيء، كقول العرب: ضلّ الماء في اللبن"[21] وقوله "وفي قول العرب: بالرّفاء والبنين" في سياق حديثه

[19]- المصدر نفسه، ج2، ص91.

[20]- المصدر نفسه، ج1، ص3.

[21]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص46.

عن معاني حرف الباء في (بسم الله).[22] وقوله في معنى (الطمس) في قوله تعالى "وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِم.."[يس65] ويقول العرب: رجل مطموس أو طميس لمن ذهب بصره، كما يقولون: طريق مطموسة للطريق التي ذهبت آثار أقدام السائرين عليها[23].

6- الوقوف على النُكت البلاغية من تشبيه وكناية وشرح بعض المصطلحات وتقريب معانيها وبيان مناسبات اختيار الألفاظ مع المقارنة مع مواضع مختلفة في آيات أخر.

7- ثمّ يورد معاني الآيات تفصيلا بعبارات مختلفة منها: "معنى الآية، وحاصل المعنى، ومفهوم الآية"، وفي ثنايا ذلك يُعنى بمقاصد الآية ومراميها وببعض الآثار المعضّدة للمعنى بعبارات منها: "يُستنتج من الآية الكريمة، وبناء على هذا المعنى، ويستفاد من الآية الكريمة كذا وكذا..."

8- الإشارة عند اختلاف القراءات في ضبط بعض الكلمات شكلا إلى روايتي ورش وقالون عن نافع ورواية حفص عاصم، ولا يُجاوزهما إلى غيرهما، كما في قوله تعالى "إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَومَ فِي شُغْلٍ فاكِهُون" [يس57]، قال: "شُغل" بضمّ فسكون وهي رواية ورش وقالون عن نافع، وبضمّتين "شُغُلٍ" هي رواية حفص عن عاصم: الشيء الذي يشغل الإنسان ويصرفه عمّا سواه سواء أكان مفرحا أم محزنا...[24]

و"ذُرّياتهم" في قوله تعالى: "وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيتهِم فِي الفُلْكِ المَشْحُون" [يس40] قال: هكذا في صيغة الجمع وهي قراءة نافع وقُرئت في صيغة المفرد (ذرّيتهم) وهي قراءة عاصم...[25]

---

[22]- الصدر نفسه، ج1، ص16.

[23]- المصدر نفسه، ج1، ص160.

[24]- المصدر نفسه، ج1، ص150.

[25]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص129.

9- تطرّقه لآراء الفقهاء في بعض المسائل الفقهية الخلافية باختصار:

كقوله في سجدة التلاوة في آخر سورة العلق: "ذهب المالكية إلى أنّه لا سجدة تلاوة عند نهاية سورة العلق لحديث ابن عباس رضي الله عنه: (لم يسجد النّبي عليه الصلاة والسلام في شيء من المفصّل منذ تحوّل إلى المدينة) رواه أبو داوود وابن السّكن في صحيحه، ثمّ قال: "واستدّل الجمهور على ثبوت السّجدة بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سجدنا مع النّبي عليه الصلاة والسلام في: إذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربّك) رواه مسلم وأصحاب السنن." ثمّ قال: "وأمّا حديث ابن عباس المتقدّم فقال عنه الإمام النووي رحمه الله: (حديث ابن عباس ضعيف الإسناد لا يصح الاحتجاج به، وعلى فرض صحته فالأحاديث الأخرى مثبتة وهي متقدّمة على النّفي) ثمّ إنّ إسلام أبي هريرة كان في سنة سبع من الهجرة"[26].

وكذلك عند عرضه للخلاف بين الفقهاء في البسملة هل هي آية من الفاتحة أم لا؟ قال -حفظه الله-: "وفي ذلك خلاف بين العلماء، فمنهم من يرى أنّها آية منها كالإمام الشافعي رحمه الله، ومنهم من يرى أنّها ليست آية منها كالإمام مالك رحمه الله، وأدّلة الفريقين مبسوطة في المطوّلات لا يحتملها هذا التفسير المختصر..."[27].

10- يختتم تفسير بعض الآي بتذييل يراه أنسب لذاك المقام ويحمل في طيّاته إمّا حِكما وفوائداً أو إجابة عن إشكال وارد وبيان مُبهم:

فمن الثّاني (إجابة عن إشكال وارد) قوله في تفسير أواخر سورة الضحى، تذييل: "نهى الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام عن قهر اليتيم، وعن نهر السائل، وأمره بالتحديث بالنّعمة، وهل هناك من الآثار ما دلّ على أنّه عليه الصلاة والسلام قهر يتيما أو نهر سائلا عن علم، أو سائل مال، أو جحد نعمة الله عليه؟" ثمّ أجاب قائلا: "كلاّ، وهل هذه الوصايا الإلهية من خصوصياته صلّى الله عليه

---

[26]- المصدر نفسه، ج2، ص3 8.

[27]- المصدر نفسه، ج1، ص15.

وسلّم؟ اللّهمّ لا، وإنّما هي التربية الرّبانية للرسول الكريم الذي اختاره الله ليجعل منه أكمل إنسان على وجه الأرض، تتجسّد فيه الفضائل الإنسانية الممتازة، ويكون منه أمثل نموذج يُقتدى به النّاس في أخلاقهم ومعاملاتهم وأنماط سلوكهم..."[28].

ومن الأوّل (فوائد ومواعظ) تذييل عنونه بقيمة الوقت؛ وفصّل فيه في آخر تفسيره لسورة الشرح إذ قال: "وقد أدّب الله نبيّه عليه الصلاة والسلام فأحسن تأديبه، ومن وجوه تأديبه في هذه السّورة أمره إيّاه بألّا يفرغ من عمل حتّى يدخل في عمل آخر من أعمال الدين والدنيا وأن يكون توجّهه إلى الله وحده،... وبناء على ذلك فالوقت ثمين جدّا جدّا، من أحسن التّصرّف فيه ضمن لنفسه بفضل الله السّعادة الأبدية، ومن أساء التّقلب فيه أورد نفسه بعدل الله الموارد الموبقة..."[29]، وقد بيّن هذا المنهج قائلا في مقدّمة تفسيره: "... بينما توسّعتُ توسّعا قد يُلفت النّظر فيما فيه تثقيف للعقل أو انديا ح لدائرة الفهم، أو مادة لاستنباط العبر بما له صله بالآيات المفسّرة."[30]

11- اعتماد أسلوب سؤال جواب: كثيرا ما نقف عليه يطرح تساؤلا ثمّ يجيب عليه في تفسير بعض الآي، ولعلّه أنسب وأبسط لتقريب المعنى للقارئ و التّنبيه على الإصغاء والمتابعة للسّامع.

ومن مُثل ذلك قوله عند حديثه عن البسملة: هل هي آية من سورة الفاتحة؟ ثمّ أجاب فذكر خلاف العلماء في المسألة، وأيضا في تفسير السورة نجده يطرح جملة من التساؤلات: ما المراد بالصراط المستقيم؟ من هم الذين أنعم الله عليهم؟ وبمَ أنعم الله عليهم؟ ما الحكمة من ذكرهم لنا؟ ولمَ دعانا الله إلى الاقتداء بهم؟ ومن هم المغضوب عليهم؟... وغير ذلك من الأسئلة ثمّ يورد الأجوبة عليهم مباشرة بأسلوب سهل يسير.

---

[28]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج2، ص17.

[29]- المصدر نفسه، ج2، ص(34-36).

[30]- المصدر نفسه، ج1، ص3.

وفي بعض المواضع يسوق تساؤلا أو إشكالا قد يتبادر إلى ذهن القارئ ثمّ يسوق الإجابة عليه في قول أحد العلماء أو المفسرين، ونلمس ذلك في حديثه عن اليهود وتاريخ مجيئهم إلى جزيرة العرب، إذ نجده يحيل على الشيخ ابن عاشور قائلا: "نترك الإجابة للإمام المحقّق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره القيّم للقرآن الكريم -التحرير والتنوير-الجزء 27، الصفحة 66، يقول رحمه الله "وقصة استيطانهم بلاد العرب أنّ موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشّام وأرض العرب فقصروا في قتالهم وتوفي موسى قريبا من ذلك..." إلى آخر الكلام.[31]

أضف إلى ذلك كثرة أساليب التّعجب لتحريك ذهن القارئ لمزيد التمّعن والتّدبر.

12- يورد تنبيها بعد كلّ آية أو في آخر السورة حسبما يراه مناسبا، كأن يرى في آية بعد تفسيرها والإحاطة بمعانيها؛ حكمة أو عبرة تستحق الإشارة إليها، أو عظات مستنبطة أو تنبيهات موّجهة فيورد ذلك قائلا: "تنبيه: فاعلم أيّها القارئ الكريم، لا يسبقنّ إلى ذهنك أيّها القارئ الكريم، والعبرة التي ينبغي للمؤمن أن يستخلصها..."

ومثال ذلك: قوله عند الوقوف على قول الله تعالى "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ" [الضحى9] ذكر تنبيها فقال: "لا يسبقنّ إلى ذهنك أيّها القارئ الكريم أنّ تأديب اليتيم وتعليمه وما يقتضيانه من ضبط وحزم يدخل في النّهي عن قهر اليتيم؛ فالواجب على كافل اليتيم أن يحرص على تربيته وتعليمه كما يحرص على تربية أولاده وتعليمهم، ولو أدّى ذلك إلى استعمال الشدّة معه؛ فالعبرة بما يؤول إليه من صلاح في كبره، لا بما يحقق رغباته الطائشة في صغره..."[32].

---

[31]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص338.

[32]- المصدر نفسه، ج2، ص14.

13 – استدلاله بأقوال المفسرين في تفاسيرهم:

أحيانا ما يورد بعض أقوال علماء التفسير كالشيخ محمّد الأمين الشنقيطي، الإمام الفخر الرازي، الإمام القرطبي، الشيخ الطاهر ابن عاشور، وابن كثير... وغيرهم

ومثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: " مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى" [الضحى3] بعد بيان سبب نزول السورة وسرد الروايات فيها؛ ذكر قول الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره "إنّ انقطاع الوحي فترة من الزمن، ثمّ تتابعه يدلّ على أنّ هذا القرآن ليس من عند محمّد، إذ لو كان من عنده لما توقف عن الدّعوة إلى ما كان يدعو إليه"[33].

وكثيرا ما يذكر محل ورود القول بالجزء والصفحة مع عنوان المؤلَّف، نحو: "ولندع الإمام أبا عبد الله القرطبي –وهو مالكي المذهب– يردّ قول القائلين باستحباب الإسرار بـــــ (آمين) في تفسيره الكبير: الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص130 قال رحمه الله: "إنّ إخفاء..."إلى آخر القول.

وكذلك قوله: "يقول المحقق الكبير الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ج8، ص171 "ويطلق التّضرع على الجهر بالدعاء..."[34]

أمّا عن مجمل كتب التفسير التي اعتبرها مصادرا في تفسيره، نذكر منها:

– **تفسير ابن كثير:** استعان به في التّحقيق في الروايات والقصص كما فعل في تحقيق قصة أصحاب القرية وغيرها.

– **تفسير القرطبي:** استعان به في إيراد آثار الصحابة والتّابعين في التّفسير وعند سوق أسانيد أسباب النّزول.

---

[33]– المصدر نفسه، ج2، ص2.

[34]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص53.

- **تفسير الزّمخشري:** استعان به في بيان بعض نكت المسائل اللّغوية وكان كثير الاستشهاد به.

- **تفسير ابن عاشور:** يستعين به عند إيراد بعض القضايا اللّغوية وأغلبها من حيث التّشابه اللفظي كما يورد أقواله عند بيان الحِكم والمقاصد من بعض الآيات.

14- ردّه للأخبار المكذوبة والروايات والأباطيل التي ألصقت بالدّين قصد حجب حقائقه:

ومثاله في تفسيره لسورة القدر حيث قال: "قد أطلق بعض النّاس العنان لخيالهم فنسجوا حول ليلة القدر أقاويل بعضها كذب محض، وبعضها وهم يعوزه الدليل، وبعضها إلزام بما لا يلزم، ...ومن الأخبار التي لا يقبلها عقل سليم ولا يؤيدها نقل صحيح قولهم: (إنّ الرّوح ملك عظيم الخلقة تحت العرش، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وله ألف رأس كلّ رأس أعظم من الدّنيا، وفي كلّ رأس ألف وجه....)إلى آخر الرواية؛ ثمّ أردف قائلا: "واضحك أيّها القارئ الكريم ما شاء لك الضحك ثمّ تأسّف ما شاء لك التأسّف من هذه الصورة الكاريكاتورية التي اُخترعت لهذا الملك الذي فسّروا به "الرّوح" الوارد ذكره في سورة القدر ثمّ عد إلى نفسك واسأل: هل خلقة الملك الأصلية تشبه خلقة الإنسان؟ وتذكّر قوله تعالى: " جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ" [فاطر1] وقوله تعالى: "قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا" [الإسراء95].

وعن القصد من وراء تداول تلك الرواية وأمثالها يقول حفظه اللهّ: "وإذا أردت أن تعرف السرّ من وراء هذا الخلط بين الجدّ والعبث والحقّ والباطل في أمور الدّين فهو المكر السيئ الذي ظلّ الزنادقة يلاحقون به أفكار المسلمين عبر العصور حتى يحجبوا عنها الرؤية الصحيحة لحقائق الدّين"[35].

[35]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج2، ص104.

ثالثا: الأبعاد التفسيرية لنصوص القرآن الكريم من خلال تفسير الشيخ الدّهمة:

أولا: البعد العقدي:

يتجلّى من خلال تأثّر الشيخ –حفظه الله–بدعوة الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسّس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي كان لها دور بارز في تنقية مسائل العقيدة ممّا قد ران عليها فأفسدها، ويظهر ذلك جليا في وقوفه للمنافحة عن معتقد السّلف والردّ على المبتدعة وأصحابها، فكثيرا ما نلمسه في ثنايا تفسيره يفسّر الآيات التي تتحدّث عن ذات الله سبحانه وتعالى، فيثبت له ما أثبته جلّ وعلا لنفسه من أسماء وصفات من غير تأويل لكيفيتها ولا تعطيل لماهيتها؛[36] كقوله –حفظه الله–: "والفرق بين وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في أسمائه وصفاته ووحدانيته في ألوهيته؛ أنّ وحدانيته في ربوبيته تعني أنّه وحده الخالق والمالك والمدبّر، ووحدانيته في أسمائه وصفاته أنّ أسماءه الحسنى وصفاته العلى كاملة لا يشركه فيه أحد، وأنّ وحدانيته في ألوهيته تعني أنّه هو وحده المعبود بحقّ وما عداه من المعبودات فهي باطلة".[37]

أمّا عن ردّه على المبتدعة في بعض خرافاتهم كقول من قال منهم بأنّ الخلق الأموات عائدون إلى الحياة الدنيا، وزعم بعضهم بمصافحة الموتى من القبر بعد أخرجوا لهم أيديهم من تحت الثرى وغير ذلك؛ فقد أنكر –حفظه الله– ذلك كلّه وردّ عليه مستدّلا بأقوال العلماء في ذلك كقول الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى "أَلَمْ يَرَوا كَمَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونْ" [يس30] إذ قال –رحمه الله–: "وهذه الآية ردّ على من زعم أنّ من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت" قلت "ما يدّعيه بعض النّاس أو يدّعيه له بعض البسطاء المغفّلين من أنّه تكلّم مع أحد الأموات، أو أخرج له يده من قبره ليصافحه" فهو من الأقاويل الخرافية التي أنشأها في نفوس

---

[36]– الشيخ الأخضر الدّهمة وجهوده في تفسير القرآن الكريم، المرجع السابق، ص10.

[37]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص317.

أصحابها ولعُهم بالكرامات الزّائفة؛ وعدم شعورهم بأنّهم سوف يُحاسبون يوم القيامة على ما تلفظه ألسنتهم من أقوال يضلّلون بها الأمّيين وأشباه الأمّيين".[38]

ثانيا: البعد اللغوي:

لا ينكر من اطّلع على تفسير الشيخ الأخضر الدّهمة مدى غناه بالقضايا اللّغوية في مختلف فروعها من نحو وصرف ونكت بلاغية؛ وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على تمكّنه في هذه الصناعة واهتمامه البالغ باللّغة العربية الأمّ لغة القرآن الكريم؛ فنجده حريصا على البيان وتقويم اللّسان بأسلوب سهل يسير الفهم يدركه حتى عوامّ الحضور فضلا عن الطلاب والمتعلّمين؛ كما جاء على لسانه "وعلى سبيل التجاوب مع رغبات بعض المعلّمين والأساتذة الذين كانوا يشرّفونني بالحضور إلى دروسي الشّفوية؛ أو بقراءة كتبي المؤلّفة؛ ثمّ يصارحونني بأنّهم قد استحسنوا وانتفعوا باستعمال بعض قواعد النّحو لتوضيح المعاني وتطويعها للتّصور السّليم؛ فقد لبيت ما رغبوا فيه دون أن يُخرجني ذلك من اعتبار القرآن الكريم كتاب هداية لا كتاب علوم مختلفة"[39]، ونُورد من جملة القضايا التي ساقها على سبيل التمثيل لا الحصر ما يلي:

1/ **أسلوب الاحتراس:** في قوله تعالى: "وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ" [يس31] قال: وفي هذه الآية ما يُسمّى في علم البلاغة بالاحتراس وهو هنا إزالة الوهم الذي قد يسبق إلى الأذهان من قوله تعالى:" وأَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ" فيتوهّمون أن لا رجوع إلى الله في الدار الآخرة فأزيل هذا الوهم بهذه الآية.[40]

2/ **الاكتفاء والتّقدير:** في تفسير قوله تعالى: "لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" [يس39]؛ قال: "وفي الجملتين الأولين ما يُسمّى في علم

[38]- المرجع نفسه، ج1؛ ص(112-113).

[39]- المصدر نفسه؛ ج1؛ ص(7-8).

[40]- المصدر نفسه؛ ج1؛ ص113.

البلاغة بالاكتفاء والتّقدير؛ في الجملة الأولى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر؛ ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس وذلك لما بينهما من الأبعاد السّحيقة علاوة على أنّ كلّ واحد منهما رسم له خالقه جلّ وعلا مدارا خاصا به...؛ والتّقدير في الجملة الثانية: لا الليل سابق النّهار ولا النهار سابق الليل؛ فلا يأتي أي منهما قبل وقته المحدّد له؛ الأمر الذي يدلّ على النّظام الدّقيق والصنع البديع الذي يتجلّى فيه الإتقان والإعجاز."[41]

3/ كثيرا ما يشير لبعض النّكت اللّغوية اللّفظية التي تنقدح له أثناء التفسير؛ نحو ما أورده في قوله تعالى: "كُلٌّ فِي فَلَكٍ" إذ قال من الخصائص اللّفظية الموجودة فيها أنّها تُقرأ من آخرها كما تُقرأ من أولّها؛ ومثلها في قوله تعالى: "وَرَبَّكَ فَكَبِرْ"[المدثّر3]

4/ ومن الأوجه البلاغية التي أشار إليها في قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله قَالَ الذِينَ كَفَرُوا للذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ الله أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِين" [يس46]:

- **الإيحاء:** بأنّ ما في أيدي أولئك الأغنياء هو من رزق الله وقد أنعم به عليهم؛ فهو حين يدعوهم إلى الإنفاق على الفقراء إنّما يدعوهم إلى إعطاء شيء ممّا استخلفهم فيه.

- **الإظهار في مقام الإضمار:** في قوله تعالى: "قَالَ الذِينَ كفَرُوا للذِينَ آمَنُوا" فلو لم تكن هناك نكتة بلاغية لجاء الكلام هكذا "قالوا" اكتفاء بالضمير العائد إلى الذين كفروا ولكنّه تعالى نصّ على كفرهم ليفيد أنّ الذي زيّن لهم عدم الإنفاق هو الكفر؛ وفي ذلك ذمّ وتوبيخ.

- قيل للكفّار: أنفقوا؛ فكان جوابهم: أنطعم...عوض: أننفق....فدّل ذلك على أنّ المقصود الأول من الإنفاق هو الإطعام لأنّه يشمله ويشمل غيره من وجوه الإنفاق والله أعلم.[42]

---

[41]- قطوف دانية من سور قرآنية؛ المصدر السابق؛ ج1؛ ص(126-127).

[42]- المصدر نفسه؛ ج1؛ ص(138-139).

ومع هذا التّمثيل يتضّح لنا أنّ تفسير الشيخ الدّهمة حفظه الله يعتبر من التّفاسير اللّغوية والبلاغية التي تمتاز بقرب فهمها وسهولة طرحها، وممّا أكسبه مهارة في إتقانه لهذا الصّنعة هو نشاطه الدّعوي ورسالته التّعليمية الإصلاحية التي يزاولها، فكأنّه يشير إلى أنّ معظم التباسات الدّلالة وسوء الفهم الواقع عند كثير من النّاس وكذا المتعلّمين في بعض الآي إنّما هو من نقص في إتقانهم للغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة[43]، ضف إلى ذلك الفترة التي عايشها في حياته حيث الاستعمار الفرنسي كانت فترة عصيبة حُوربت فيها اللّغة العربية باعتبارها من ثوابت الأمّة، فاقتفى الشيخ حفظه الله خلالها خطى مدرسته الإصلاحية التي انتمى إليها مدرسة الإمام عبد الحميد بن باديس لبثّ مشروعه الإصلاحي وحفظ مقوّمات الأمّة.

ثالثا: البعد المقاصدي:

يقول المؤلّف حفظه الله: "وقد أفرغت جهدي في تقريب مقاصد الآيات، وإنزالها من سمائها ليسهل على القارئ تناوش عناقيدها من مكان قريب، فإن أصبت المحزّ فللّه الحمد والمنّة، وإن أخطأت في بعض المواقع فالله واسع المغفرة". قوله في مقدمة تفسيره "أضواء على سورة الحجرات" المطبوع في آخر تفسير قطوف دانية، ج1، ص200.

كان الشيخ كثير الاعتناء بالجانب المقاصدي في الشريعة الإسلامية، ونلمس ذلك من خلال بيانه للحِكم والمقاصد من الأحكام الشرعية عند تفسيره للآيات في كثير من المواضع، كما نجده ينبّه في كلّ مناسبة على أنّ الإسلام دين السّلم والأمان لا الإرهاب والتّرويع، وأنّ شرعنا الحنيف إنّما جاء ليحفظ على النّاس دينهم وعرضهم ونفسهم ومالهم، وخصوصا مسألة الجهاد التي انحرف بها المعتدون عن القصد الذي شرّعت له فصارت إرهابا واعتداء على الحرمات والأنفس والأوطان؛ وقد أفاض الشيخ في ذلك كثيرا وأجاد.

[43]- الشيخ الأخضر الدّهمة وجهوده في التّفسير، المرجع السابق، ص(16-17).

ومثل ذلك أيضا حديثه عن مسألة تعدّد الزوجات مبيّنا فيه أنّ الله تعالى قد أباح للرّجل أن يتزوج أكثر من واحدة إذا تحقق أنّه قادر على العدل بينهنّ لما في التعدّد من فوائد جمّة ومقاصد عدّة تعود على المجتمع الإنساني بالخير العميم، ومن أراد الاطلاع على هذه الفوائد وما تبرزه من حكمة التشريع الإلهي فهي مبسوطة في مواضعها من كتب التفسير وغيرها، ولكن المتجرّئين على خالقهم منعوا التزوّج بأكثر من واحدة، وفي الوقت نفسه أباحوا للرجل أن يتخذّ ما شاء من الخليلات، فاستبدلوا الخبيث بالطيّب وأباحوا السفاح وحرّموا النّكاح[44]، وهذا كلّه يكون عندما تُجرّد الأحكام عن مقاصدها وحين تُشرّع للمسلمين قوانين وضعية تعاكس أحكام دينهم فتكون محكّمة عل القوانين الرّبانية.

ومن ذلك أيضا ما ساقه – حفظه الله– عند بيان المقصد من أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، في قوله تعالى: ".. وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُم وَكَرَّهَ إِلَيكُمْ الكُفرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون" [الحجرات7]، حيث بيّن أنّ المقصد من ذلك هو التّوجيه إلى وجوب الاقتداء بالصحابة الكرام، حتّى يدركنا ما أدركهم من فضل الله تعالى[45].

أمّا عند تفسيره قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُم، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ" [الحجرات13]، بيّن المقصد من تعدّد الشعوب والقبائل وحصول الاجتماع بينهم؛ ألا وهو التّعارف لا التّفاخر والتّباهي الذي ينافي الحكمة المقصودة للشارع الحكيم. ليصل في الأخير إلى مقصد مُستنبط آخر من مسألة معرفة الأنساب والذي هو تحقيق صلة الرّحم، فتراه قائلا – حفظه الله– "وممّا يجدر التّنبيه عليه هنا أنّ الاهتمام بمعرفة النّسب من أجل صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب مطلوب شرعا... وكما أنّ

[44]– ينظر: الأخضر الدّهمة، أضواء على سورة الحجرات (مطبوع آخر قطوف دانية من سور قرآنية، ج1)، مطبعة مداد، غرداية، الجزائر، (1431هـ– 2010م)، ج1، ص207.

[45]– أضواء على سورة الحجرات، المصدر نفسه، ج1، ص235.

الاهتمام بمعرفته -لتحقيق الحكمة والمقصد الشرعي منه- مطلب شرعي؛ فكذلك الاهتمام بالمحافظة على طهره والحذر من اختلاطه وهو من مقاصد الشريعة الإسلامية"[46]

رابعا: البعد الإصلاحي:

ويتجلّى ذلك من خلال ردّه الشبهات المعاصرة والدّعاوى الضّالة والمفاهيم والرّوايات الخاطئة التي تعارض الإسلام وأصوله ومقاصده، كما جاء عند تفسير قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه"[الحشر 7]، فبعد حديثه عن السنّة النّبوية باعتبارها ثاني مصدر تشريعي وثبوت مرجعيّتها للمسلمين وحجيّتها في الشريعة، وسَوقه لأدّلة قطعية تؤكّد ذلك من حيث الثبوت والدّلالة؛ عرّج في سياق حديثه على بعض الطّوائف التي تدعوا إلى ترك السنّة والاكتفاء بالقرآن ومن هؤلاء القرآنيين، الذين يؤيّدون سخفهم وما ذهبوا إليه باستدلالات لا تنطبق أصالة على زعمهم وبشبهات مضلّلة مؤدّاها هدم الإسلام ونقضه، وقد أوضح -حفظه الله- حكم علماء الإسلام على هذه الطائفة التي تستبعد السنّة وتدعو إلى تركها بالزندقة والكفر، وأنّ ادّعاؤهم ما هو إلّا كلمة يُراد خداع المغفّلين بها.[47]

إضافة إلى بعض الطوائف الأخرى أشار إلى أنّها أكثر خطرا من تلك الأولى، وهي العلمانية المحاربة للقرآن والسنّة معا لمقاومة الانتماء الإسلامي كمحاربتهم لحجاب المرأة ودعوتهم لتحريرها وهدفهم تجريد المسلمين عموما من شعائرهم وعقيدتهم وانتمائهم الحضاري، كلّ هذا وغيره بدعوى الديمقراطية الوهمية.

أمّا عن سعيه لتصحيح المفاهيم الخاطئة والرّوايات المغلوطة، يقول موضّحا قصده من تصحيحها: "ولولا أنّ بعض الأخبار وردت في كتب التّفسير عن غفلة وعدم تثبّت من أصحابها (كما نبّه إلى ذلك المحقّقون من العلماء)، ولولا أنّي سمعت من يحدّث المسلمين بأغرب منها، ولولا

[46]- المرجع نفسه، ص(285-286).

[47]- قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص(358-363).

حسن النيّة الغالب على كثير من المسلمين حتى إنّهم ليصدّقون بما يستحيل وقوعه لَضربتُ عنها صفحاً وما ألقيتُ لها بالاً ولكنّها الرّغبة المُلحة في القيام بواجب الإصلاح دفعتني إلى هذه التنبيهات التي تعصم أبناءنا من الوقوع في مثل هذه الأوحال الفكرية".[48]

وقوله هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مهمّته العظيمة؛ مهمّة الإصلاح التي حملها على عاتقه مذ عودته إلى أرض الوطن بعد إنهاء تعليمه في الزيتونة؛ حيث أنّ أحد مشايخه الشيخ الطاهر الغمراسني -رحمه الله- حادَثه في ذلك ودعاه لتقلّد مهمّة الإصلاح؛ كون البلد مستعمر استعمارا ظالماً ولابدّ من مقاومته بنشر الوعي الوطني الإسلامي والعمل على تحصين الشعب من قابلية الاستعمار الأجنبي فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وباشر عمله في هذا المجال انطلاقا من التربية والتعليم في المدارس الحرّة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحركة الانتصار للحرّيات الديمقراطية حيث بذل الوسع لتأدية رسالته؛ ولا يزال إلى اليوم يرابط في بيوت الله داعيا ومصلحا ومعلّما -حفظه الله-.

خامسا: البعد الواقعي:

من حيث التركيز على القضايا الوقتية الواقعية التي يشهدها العالم الإسلامي والواقع الاجتماعي المعاش قصدا منه إلى التغيير والإصلاح ما استطاع وممّا نبّه عليه في هذا المجال قضية أو قيمة العدل عند تفسير قوله تعالى: "فَمَن يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرا يَرَهُ ومَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ" [الزلزلة7-8] قائلا: "ولو أنّنا معشر المسلمين طبّقنا في مجتمعنا هذا المبدأ العظيم وهو العدل الشامل بحيث ينال كلّ واحد منّا ما يستحقّه من إكرام وتشجيع إذا أحسن عمله ومن إهانة وعقوبة إنْ هو أساء عمله دون التفات إلى الرّوابط النّسبية أو المصلحية إذن لاستقامت الحياة وازدهرت الحضارة الرّوحية والعقلية والمادية".[49]

[48]- المصدر نفسه ج2 ص104.

[49]- قطوف دانية من سور قرآنية المصدر السابق ج2 ص148.

ثمّ تجده مُسترسلا متحدّثا –في موضع آخر– عن احترام النّاس للوقت من خلال واقعه الذي يعايشه قائلا: "ومن ثمّ ندرك مقدار الخطأ في سلوك أولئك الذين يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل ثمّ لا يستيقظون إلّا عند الضحى، غير آبهين بفوات الوقت المختار ثمّ الضروري لصلاة الصبح، ولا عابئين بذلك الفراغ الذي يجب أن يستفيدوا منه في إنجاز بعض الأشياء قبل شروعهم في العمل الرسمي...ومن الظواهر المؤسفة في بلادنا أنّ الكثير منّا لا يحترمون الوقت ولا ينضبطون في مواعيدهم، فبعد أن كان المسلمون مضرب المثل في ضبط الوقت واحترامه صاروا إلى عكس ذلك..."[50]

وعند تفسيره قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ..." [الحشر11] ، فبعد أن بيّن معاني الكلمات ثنّى بالحديث عن المراد بالمنافقين من مُشركي العرب وإخوانهم من كفّار أهل الكتاب وهم يهود بني النّضير، ثلّث بما يشهد له الواقع المعاصر من خلال قضية فلسطين وما حدث للفلسطينيين منذ أن احتّل اليهود الصهاينة بلادهم ظلما وعدوانا بتأييد خفي من بعض حكّام العرب المنافقين، وكيف يذّكرنا ذلك بما حدث في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام من تآمر بين منافقي العرب واليهود على محق الإسلام وأهله، ولكن يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون. ثمّ بيّن كيف أن الحكماء الصهاينة فضحوا عملاءهم من العرب المتآمرين معهم على غزّة وأهلها ضدّ المقاومة الإسلامية بها، وما يلحق ذلك من البلاء العظيم على الشّيب والشباب والنساء والأطفال، ويضاف إليها منع دخول الضروريات إلى أهالي غزة غذاء ودواء ووقودا...إلخ.[51]

[50]– المصدر نفسه، ج2، ص(34–40).

[51]– قطوف دانية من سور قرآنية، المصدر السابق، ج1، ص(388–391).

وحاصل القول أنّ هذه الأبعاد التي سُقناها العقدية واللّغوية والمقاصدية والإصلاحية ثمّ الواقعية؛ تجد لها حضورا قويّا في طيّات تفسير الشيخ الأخضر الدّهمة حفظه الله؛ ولعلّ هذا ما ميّزه وجعله مصنّفا ضمن تفاسير المدرسة الإصلاحية الهدائية.

خاتمة الدراسة:

في ختام هذا البحث يمكننا القول أنّ تفسير الشيخ الأخضر الدّهمة حفظه الله من جملة التّفاسير الميسّرة لغة وبيانا وتمثيلا؛ كونه موجّه إلى عموم المكلّفين والمثقّفين؛ كما نلمس فيه جمعٌ بين جوانبٍ عدّة في درسه التفسيري سواء المكتوب منه أو المسموع؛ تمثّلت في الجانب اللّغوي والإصلاحي والعقدي والاجتماعي؛ ليشكّل بذلك نسقا متكاملا يماثل الدّرس التفسيري الهدائي الإصلاحي لمدرسة المنار العتيدة؛ من حيث الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والتركيز على الوقتية منها؛ إضافة إلى احتوائه على المضامين الإصلاحية الموجّهة إلى الفئات المثقفة والشبابية في هذه الأمّة.

ونوصي من خلال هذه الدراسة أن يُفتح المجال للباحثين والمهتمّين بالقرآن الكريم وعلومه؛ لكي يولوا مزيد اهتمام بعلماء بلدنا الذين تحدّوا ظروف عصرهم وسجّلوا آثارهم ومناهجهم واختياراتهم العلمية في مدوّناتهم التي ألّفوها؛ وطرائق تدريسهم التي حملها طلبتهم وتلامذتهم من بعدهم. لإخراج مدوّناتهم إلى مصاف الدراسات المتخصصّة المتداولة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الأخضر الدّهمة؛ قطوف دانية من سور قرآنية؛ مطبعة مداد؛ غرداية؛ الجزائر؛ (1431هـ-2010م).
2. طرهوني؛ محمّد بن رزق؛ التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا؛ دار ابن الجوزي؛ ج1؛ ط1(1426هـ).

3. عمارة ميلود بن العيد، الشيخ الأخضر الدّهمة وجهوده في تفسير القرآن الكريم – قطوف دانية من سور قرآنية أنموذجا-، ورقة علمية مقدّمة للملتقى الخامس "جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم وعلومه"، يومي 13/ 14 ديسمبر 2016م، جامعة حمّة لخضر الوادي.

4. الأخضر الدّهمة، أضواء على سورة الحجرات (مطبوع آخر قطوف دانية من سور قرآنية، ج1)، مطبعة مدادا، غرداية، الجزائر، ج1، (1431هـ- 2010م).

المواقع الإلكترونية:

1. حصة فوانيس الجزائر على قناة دزاير نيوز 13/ 09/ 2019م.

2. محمّد عبد الحليم بيشي، الدرس التفسيري في الجنوب الجزائري، موقع البصائر، تاريخ النّشر 17/ 10/ 2018م، رابط الموقع: https://elbassair.org/3866/

3. ترجمة الشيخ المفسّر لخضر الدّهمة المتليلي الجزائري، الشاملة، المكتبة الجزائرية، المشرف العام: الشيخ عمار رقبة الشرفي، 23 أكتوبر 2019م، رابط الموقع: shamela-dz.net

التعريف بكتاب تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير للشيخ دح بن محمد بن حسن بن أحمد بن دح بن زرفة

د. بوسلاح فايزة، المدرسة العليا للأساتذة بوهران ، الجزائر

أ.د حمدادو بن عمر، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر

مقدمة:

لقد كانت عناية علماء بلاد المغارب بعلم التفسير مع بداية انتشار الاسلام في حواضر بلاد المغارب المختلفة؛ لاسيما بعد بروز حواضر اسلامية ذاع صيتها وبرز اشعاعها العلمي والفكري، من خلال بروز ثلة من العلماء الذين راحوا يؤلفون ويبدعون في تفسير كتاب رب العالمين، بل تنافس بعضهم في ذلك، مبرزا رأيه وأحيانا مذهبه وعقيدته وأحيانا أخرى سلوكه.

واذا كان بعض المحدثين يرى أن" الأصل في منطلق كل تفسير المأثور ثم الرأي، وحسب لغة أخرى المنقول ثم المعقول الذي توسعت دائرته في العصور المتأخرة؛ فكان الرأي والاجتهاد أكثر من التزام الرواية والمأثور، لذا كثرت تأويلات تفسير آيات القرآن العظيم كل من منظوره من الفرق العقدية والمذاهب الفقهية ثم التيارات الفكرية المعاصرة ومن ثم كان حتى للحكم السياسي تدخله في التفسير".

ولعل من أهم التفاسير ببلاد الراشدية(معسكر) التي كانت حاضرة علمية بامتياز خلال الفترة العثمانية، إذ خرج منها ثلة من العلماء الفطاحلة أمثال: أبو راس الناصر المعسكري، وابن زرفة

الدحاوي، وأبو حامد العربي المشرفي، وعبد القادر السنوسي، و...هو كتاب " تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير لصاحبه دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دح بن زرفة. وهو كتاب فتي لا زال مخطوطا، والآن يشتغل على تحقيقه ودراسته الباحث هيشور محمد، فقد ضمّنه صاحبه إشارات لغوية وأدبية وتاريخية وبعض آراء المعتزلة والمتصوفة وموقفه من بعض الإسرائيليات، كما يتبنى المُفسر أراء أهل السنة والجماعة في العقيدة، في تفسيره للآيات القرآنية، وقد حاولنا أن نعرف بهذا المخطوط من خلال النقاط التالية:

1. بيئة المؤلف ومحاولة التعريف به
2. التعريف بالكتاب، وبمنهج المفسر، وبأهم المصادر التي اعتمدها
3. الجديد في كتاب المفسّر

لقد اهتم علماء المغرب الأوسط بالقرآن الكريم عبر مختلف العصور والدهور، انطلاقا من تفسيرهم لكتاب الله عز وجلّ، حيث اهتموا به اهتماما بالغا، واعتنوا به أيما اعتناء، فوضعوا شروحات طوال على تفسيراتهم لكتاب الله تعالى لعلّهم بذلك يقدمون خدمة

1ـ لمحة موجزة عن حياة المفسر:

لا يعرف من حياة المفسر رحمه الله إلا النزر القليل، كما قال المحقق "رغم اشتداد بحث التحقيق عنه كثيرا ولم يصل إلى ما يوضح جوانب حياته ولو بعضها، وإن كل ما يعرف عنه نسبه الذي ذكر أنه يصل إلى سيدي دحو بن الزرفة بن علي بن عثمان صاحب الضريح المعروف في تراب أرض "الدحاحوى" ببني شقران بلدية المامونية ولاية معسكر، وإلى جانب هذا قيل أنه كان للمفسر رحمه الله مقام يجلس فيه بجوار عين بنت السلطان بحي بابا علي العتيق بمدينة معسكر ليستقبل الناس يوم سوق المدينة للإفتاء والصلح بين المتخاصمين والإرشاد إلى الخير إلى آخر واجبات العلماء، وقد حوّل ذاك المقام منذ زمن قريب إلى مسجد سمي مسجد السيدة عائشة".

كما يعرف عن التفسير من الناحية التاريخية أنّ صاحبه شرع في نسخه " سنة اثنتين من القرن الرابع عشر يوم عاشوراء تبركا باليوم لما فيه من الفضل"، وختمه يوم 15 شعبان 1302هـ/ 29 ماي 1885م بعدما بدأه يوم عاشوراء، ويعرف كذلك من خاتمة التفسير التي وعد فيها بإتمام تفسير القرآن العظيم كله ولذلك ظل يُحيل على آيات في سور النصف الثاني من القرآن ولكن لا نعرف هل كان له ذلك وأتمّ الكتاب ومازال مفقودا أم لم يكن له ما أراد؟ وقد حال بينه وبين الإتمام ما يحول بين بعض العلماء وإتمام مشروعاتهم كبلوغ الأجل المُسمّى، كما أخبر رحمه الله في مقدمة تفسيره أن له كتابا آخر عنوانه النعمة النورانية في إيضاح اللغة القرآنية مازال مفقودا هو الآخر، وعانى مما يعاني منه أفذاذ الأمة في كل زمن وتأثر بأحداث استبداد احتلال فرنسا للجزائر؛ ولاسيما أنه زامن أيام أوزار حرب جهاد الأمير عبد القادر رحمه الله وتجلى بعض ذلك في شكواه من ظلم قائد منطقة معسكر الذي أخذ منه أحد تلاميذه قهرا إلى التجنيد العسكري الإجباري وفي مظلم أخرى ذُكرت في مواقعها من هذه الدراسة ومع ما عدا ذلك ظل المفسّر رحمه الله صابرا محتسبا وقد أصبر نفسه على الاشتغال بالعلم ورابط على تعليمه بنية الجهاد. وهذه هي طريقة العلماء في مقاومة المحتل الغاصب سلاحهم هو القلم والعلم، حتى يتمكن أبناؤه في يوم ما من مواجهته بنفس سلاحه.

2ـ أهم مؤلفاته:

ممّا لا شك فيه لقد خلف الشيخ وراءه مؤلفات لا تعد ولا تحصى إلا أنّ بعضها لا زال في حكم المفقود، ولعلّ من أهم ما وصل إلينا هذا التفسير الذي بين أيدينا، أما عن مؤلفاته الأخرى نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- النعمة النورانية في إيضاح اللغة القرآنية

- نسخه لكتاب تنبيه الأنام وشفاء السقام لأبي عبد الله عبد الجليل محمد بن أحمد بن عظوم المرادي القيرواني

3. بيئة المؤلف:

تظهر بيئة المؤلف من خلال تعامله اليومي مع معاصريه من شيوخ وطلبة، من حيث استعمال الدارجة أو بعض الكلمات من اللهجة التي كانت متداولة آنذاك بمنطقته؛ ولعلّ هذا كان له انعكاس على تأليف كتاب في التفسير، حيث يقول محقق الكتاب الباحث هيشور محمد:" يبدو تأثر المفسر بأحوال بيئته واضحا وبخاصة لهجة منطقته ونطقها كتسكين آخر حروف كلمات قاموسه وحذف الهمزة من كثير من مواقعها في الألفاظ الأمر الذي أوقعه في أخطاء نحوية حتى في ما ينبغي أن يظهر فيه الفاعل مرفوعا والمفعول به منصوباً ولكن هذا لم يُقعده رحمه الله عند حدود لغة محيط جغرافية بيئته وإنما تجاوزه فكان لقاموسه لغته حظه الوافر من مفردات اللغة الفصحى فكان وكأنه استدعى لكل بيئة من مفردات لغة محيطها ما يخدم غرضه التعليمي وقد يكون استحضر، "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ"[1]، ومن أجل ذلك ذكر أشياء بلغة بيئتها من حياة القرى والبدو وبمصطلحات العلوم كالفقه والعقيدة مثل الظلم الذي أكثر ما تُفسر به آيات الشرك حين تعترضه موضوعه، والشرك جوهر الظلم في حق الله وحتى في حق العباد والبلاد وقد كان لحديث الظلم محاذيره من البوليس الفرنسي، وكذلك أوقفته كلمات الفسق والفسوق التي أكثر ما يفسرها به الفجور والخروج عن الملّة وأحكام الشرع وقيم الأخلاق، كما استخدم كلمات من اللسان الشعبي في محيطه ولكن مهجورة مثل حزّة جمع حزات والتي كثير ما تُسمع من اللسان الشعبي في جملة إذا حزّت وْلزّت بمعنى إذا اشتدت الأزمة وضاقت وهذا ما أورده تفسيره "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[2]. ومثل هذا كلمات أخرى تخللت كلامه أثناء تفسيره كله سيوليها تعليق تحقيق الكتاب اهتماما في مواقعها من صفحات هذا التفسير كالذي يوليه لموضوعات التفسير الأخرى ولاهتمامات المُفسر رحمه الله العلمية والتاريخية.

---

[1]) سورة إبراهيم، الآية: 05

[2]) سورة التوبة، الآية: 60.

الاحتلال الفرنسي الجزائر في وجدان المُفسر من الظاهر أن المفسر دحُ بن الحاج محمد بن حسن عاش أحوال عصره مثل علماء زمانه في الجزائر وغيرها الذين أقسا ما عانوه ظلم الاحتلال الفرنسي الشعوب المُستضعفة يومئذ ومنها محنة ظلم الشعب الجزائري وذلك أفصح عن بعضه رحمه الله أثناء تفسيره كلما اعترضته سانحة ومن ذلك قصة القايد الذي أخذ تلميذه منه أثناء حلقة الدرس والتي كانت داعي مباشر من دواعي تفسيره القرآن العظيم، ينظر القصة السالفة الذكر.

وفي كتابنا النعمة النورانية في إيضاح اللغة القرآنية، ومثل هذا ما ذكره في تفسير قوله تعالى:" وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا"[3]. وفيه قال في معنى كلمة نصيراً أي مانعا يمنعنا منهم ثم قال اللهم بحرمتهم أي أهل مكة من المستضعفين استخلصنا عن قرب كما استخلصتهم، يا رب أغرت عليهم في الثامن ونحن في نيف وأربعين فلا تزد في الإمهال توسلنا بك إليك وبجميع من تحب من خلقك يا أكرم مسئول بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، وفي بيانه مراد الحق في تفسير معنى أولي الأمر قال في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"[4]. أنهم هم أمراء الحق وولاة العدل في جميع الزمان إلى يوم القيامة، فكان وكأنه رحمه الله ينفي أن تُحمَّل الآية شيئاً من زمانه قد ألبس به فكر الاحتلال الفرنسي على البعض معنى طاعة أولي الأمر بقصد أو بغير قصد، كما لم يعبر آيات الجهاد وبخاصة في سورة الأنفال والتوبة غير عابئ وإنما تعرض لمسائله ولو من خلال السيرة النبوية كتعرضه لمسائل أبواب الفقه الأخرى من صلاة وصوم وحج مما يُفهم وكأنه يومئ إلى واقع ظلم الاحتلال الفرنسي الجزائر ويدعو إلى مقاومته ولا ريب وقد كان لفرنسا تحسس مرهف دقيق تجاه الخطاب الجزائري في موضوع الجهاد والتحريض عليه في حديث الناس مثلما

---

[3]) سورة النساء، الآية: 75.

[4]) سورة النساء، الآية:59.

مازال القوم في ريبهم يترددون من مسائل الجهاد اليوم كالأمس ومثل ذلك مسألة معنى طاعة أولي الأمر من ناحية الحكم والسياسية.

4ـ التعريف بالكتاب وقيمته، وصف النسخة، الغرض من تأليفه:

بنحو قرن وأكثر من ثلاثين سنة حتى كان اكتشافه في بيت من بيوتات العلم والجاه هي بيت الحاج عبد القادر سنوسي المهاجي بقرية عين أفكان ولاية معسكر فأكرمني به جزاه الله وأهله خيراً عن كل حرف من حروفه أضعافاً مضاعفة.

1.4 قيمة الكتاب وأهميته:

تكمن أهمية كتاب " تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير" للشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دحُ بن زرفة، كونه يتطرق إلى شرح كتاب الله عزّ وجلّ، وتحديدا إلى الثلاثين جزء الفوقية. تعددت المعارف والمعلومات التي أوردها المؤلف في كتابه، وتنوعت ما بين كتب التفسير والفقه والحديث واللغة والأدب والشعار والتاريخ وغيرها، ممّا ينم عن موسوعية المؤلف وتمكنّه من مادته العلمية التي أوردها ضمن تفسيره. كما تعدد استدلال المؤلف من علوم عدة ساعدته على تفسير كتابه مثل: كتب الفقه، كتب اللغة والنحو، كتب الحديث،...

وتبرز قيمته أكثر كونه يعتبر إضافة علمية إلى المكتبة التفسيرية؛ فمثل هذه النصوص التراثية، تبرز قيمة وعمق الهوية التراثية والعربية الاسلامية، التي تنم عن اجتهاد ثلة من علماء بلدنا برزوا في علوم شتى ومنها علم التفسير، باعتباره يهتم بأفضل كتاب من عند الله.

3ـ 2 وصف النسخة:

ممّا لاشكّ فيه أن نسخة الكتاب بخط يد المفسر نفسه، ويظهر لنا جليا قول المحقق:" ومن حسن الحظ أن نسخة هذا التفسير التي بين يد التحقيق كُتبت بيد المفسر ذاته رحمه الله لما تعرفت على خطه في نسخ كتاب آخر عنوانه تنبيه الأنام وشفاء السقام". وتعدّ هذه النسخة كاملة تامة غير

مبتورة الأول والآخر، كتبت بخط مغربي جميل ومقروء، بحبر أسود وأحمر، بمقاس 23،5/ 16،5، بمعدل 30 سطرا في كل ورقة.

توجد هذه النسخة في بيت من بيوتات العلم والجاه هي بيت الحاج عبد القادر سنوسي المهاجي بقرية عين أفكان ولاية معسكر. كما ذكر ذلك محقق الكتاب. والكتاب يتناول تفسير الثلاثين حزب الفوقية، أي من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف. أما الثلاثين حزب التحتية فهي الآن في حكم المفقود نسال الله التيسير في الحصول عليها.

3.3 الغرض من تأليفه:

بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الحمدلة يبتدئ المؤلف شرح كتابه بقوله:" يقول العبد الفقير المضطر أشد الاحتياج لرحمة ربه الكريم المنان ذي العدل والاحسان عبده دحُ بن الحاج محمد بن حسن بن أحمد بن البشير بن السنوسي بن حسن بن دحُ بن زرفة بن علي بن عثمان، أسكننا الله وإياهم في أعلا الجنان مع الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين"[٥].

يبرز صاحب المخطوط الغرض من تأليفه بقوله:" فلمّا كان الاشتغال بالعلم أفضل الطاعات ولأهله فوق غيرهم درجات...فحينئذ أردت اغتنام فضل العلم وتنشرح صدري إلى الاشتغال به، وترك ما سواه...واسأل الله أن يهبني من لدنه علما ويلهمني منطقا وفهما، فها أنا أشرع في تفسير كتاب الله بعد الاستخارة، ونساله التوفيق والإعانة، وسميته ميسّر التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير..."[٦].

[٥]) الشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دحُ بن زرفة، تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير، خزانة الشيخ الحاج عبد القادر سنوسي المهاجي بقرية عين أفكان ولاية معسكر.

[٦]) مخطوط تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير، و:1و.

5. منهج المفسّر وأسلوبه:

انتهج المفسر رحمه الله في تفسيره نهج العلماء القدامى الذين يبدؤون كتبهم بالبسملة ثم الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ثم ذكر اسمه وبيّن طينة نسبه ليشرع فيما بعد في بيان فضل العلم والعلماء وإيراده لعدد من الآيات والأحاديث، وهنا يقول الباحث محمد هيشور:" وفي هذا لم يُبدع جديداً وإنما اعتمد ما تقرر من قبله، ولذا فتفسيره أقرب من ناحية المنهج إلى القدماء لما التزم به من عرفهم ولذلك مهد لكتابه بمقدمة شبّهه خلالها بالأجرومية التي أُوليت من القرّاء والشُّرَّاح اهتمام واسع فكان وكأنه تمنى أن ينال تفسيره ما نالت الأجرومية ثم بيّن مصادره السبعة عشر منها ثلاثة قواميس من خيرة قواميس اللغة العربية وسأل الله التوفيق".

إنّ المنهج الذي اتبعه المؤلف يبرز لنا حالة التدوين والتأليف التي كانت عليها فترة الاحتلال الفرنسي آنذاك؛ لاسيما استعماله طريقة القدامى ممن سبقوه في تأليف المدونات في شتى العلوم والفنون، وهي ميزة تميزت بها فترة أواخر العهد العثماني إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

كما نلمح من خلال هذا الكتاب وكأنّ الشيخ دحُّ لم يهتم بالأسلوب اللغوي ولعل هذا ما دفعه إلى الإكثار من استخدام أدوات البيان والتوضيح وبخاصة أي ولأن، وهنا نجد الباحث هيشور محمد يقول:" ولذا ظهر وكأنه غير مهتم بالأسلوب اللغوي واختيار الألفاظ ولأنه فيما يبدو كان يطارد المعرفة العلمية ومضمونها أكثر من الشكل وتزيين الأسلوب وتنميقه مثلما يغلب عليه أسلوب التعليم لما يوظف ما يخدم أغراضه من أدوات الشرح والبيان ولذا حمل التفسير ثقافة مؤلفه وأسلوبه واهتمامات عصره وانشغالاته، وكانت لديه جملة اهتمامات بعضها أقوى عنده من غيرها في العقيدة، القراءات، الفقه، القصص، النحو وبخاصة الإعراب".

ويتحدث الباحث هيشور محمد محقق الكتاب عن منهج المفسّر وأسلوبه قائلا:" ولذا حمل التفسير ثقافة مؤلفه وأسلوبه واهتمامات عصره وانشغالاته، وكانت لديه جملة اهتمامات بعضها أقوى عنده من غيرها في العقيدة، القراءات، الفقه، القصص، النحو وبخاصة الإعراب، وله في

اللغة كتاب مفقود عنوانه النعمة النورانية في إيضاح اللغة القرآنية كثيراً ما حال عليه ولعله استدعى منه ما يعزز مراده في تفسيره القرآن العظيم، وكان من حين لآخر رحمه الله يفسر القرآن بالقرآن وبخاصة حين يعترضه المتشابه وكتفسيره اهدنا الصراط المستقيم، ومثل استخدامه الإحالة كثيرا على مصادر التفسير من غير تدقيق بالجزء والصفحة وما سوى ذلك مما عهده مؤلفو العصر الحديث"[7].

أمّا عن لغة المفسر وأسلوبه يقول المحقق:" قد لا يكون هناك فرق كبير بين اللغة والأسلوب إلا فيما يبدو في الصياغة من الأسلوب والكلمات والألفاظ في اللغة فمفردات اللغة هي حجرات بناء أسلوب النص، ولعلّ من حسن بناء الأسلوب نجاحه في وضع الكلمات في مواقعها في النص وحُسن استخدامها لتؤدي أغراضها ولذا عندما ينقل المفسر كلام غيره يتعثر سير الأسلوب ولاسيما عندما يصيبه من حين لآخر سهوٌ كأن ينسيه الربط بين النقل والإنشاء لانشغاله بأحدهما أكثر من الآخر ولو من غير أن يعبأ فيضيع منه مفعول فاعل أو صفة موصوف، ويبدو أن أكثر ما كان يصيبه هذا السهو بعد وضعه تنبيه أو فائدة تعترض أسلوبه ومثل ذكره قاعدة ثم ينسى أن يستثني منها بعدم ذكره أداة الاستثناء فيحس من السياق بالاستثناء من غير ذكره أداته مثل إلا وسوى أو غير، ليظهر هذا وذاك غريب في تجانس النص كما كان من حين لآخر ينسيه لاحق الكلام سابقه ولعل سبب هذا الكتابة على فترات قد يشغله شاغل بين فترة وأخرى فيدفعه إلا هذا أو التكرار يعترض سبيل سلاسة أسلوب النص"[8].

[7]) محمد هيشور، تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير، للشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دحُ بن زرقة، (تحت الطبع). عن مقدمة التحقيق. ص:12.

[8]) محمد هيشور، المصدر السابق، ص:12.

6. مصادره:

تبرز موسوعية المؤلف في مدى تحكمه في تدوين مادته العلمية المراد إثباتها من خلال اعتماده على عدة مصادر تؤهله للدفاع عن فكرة ما أو قضية ما، وهنا تبرز تلك الموسوعية والعبقرية، إلى جانب اقتباسه من تلك المدونات، وهي ما يعبر عنها اليوم بالأمانة العلمية.

لقد اعتمد المؤلف على مصادر متنوعة شملت كتب التفسير المختلفة، وكتب الحديث، وكتب الفقه، وكتب السير، وكتب اللغة والأدب والأشعار. مما جعل عمله ذو قيمة علمية. ويواصل صاحب الكتاب حديثه قائلا:" واستنبطته من نسخ أجلاء كالخطيب الشربيني والجلال، ومحشيه الجمل سليمان وغيرهم المنقول منهم وأشير إلى كل برمز فرمز الخطيب(خش)، وللجلال(جلا)، وللجمل(مج)، وللخازن(خ)، وللرازي(ز)، وللكراخ(كـ)، وللشهاب (ش)، ولزاده(د)، وللقيشري(ق)، وللثعالبي(ث)، وللكرماني(ب)، وللعماد(ع)، وأشير أيضا بأرماز أهل اللغة فللقاموس (ق)، وللمختار(ت)، وللمصباح(م)، وللجوهري(هـ)، والله اسأل أن يوفقنا بالصواب ويعصمنا من الشّك والارتياب، ومن الوقوع في الزلل، ويوفقنا في صالح القول والعمل، والله يكافئ بإخلاص النيات"[9]. ولا بأس أن نورد بعضها مصنفة:

أ/كتب التفسير:

- السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير أو المسمى تفسير الخطيب الشربيني، لصاحبه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني[10].

- كتاب الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لصاحبه جلال الدين السيوطي[11].

---

[9]) تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير، و:2و.

[10]) ينظر: محمد بن أحمد الخطيب الشربيني شمس الدين، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق الأميرية، 1285م. ص:10.

[11]) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ترجمة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، ط1، 2015. ص:6.

- كتاب حاشية الجمل على شرح الجلالين، لصاحبه سليمان بن عمر الجمل[12].

- كتاب لباب التأويل في معاني التنزيل أو المسمى بتفسير الخازن، لصاحبه أبو الحسن علي بن محمد الخازن[13].

- كتاب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أو المسمى بتفسير الرازي، لصاحبه فخر الدين الرازي[14].

- كتاب مجمع البحرين ومطلع البدرين على تفسير الجلالين أو المسمى بتفسير الكرخي، لصاحبه محمد بن محمد الكرخى بدر الدين[15].

- كتاب عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي أو المسمى بحاشية الشهاب، لصاحبه شهاب الدين الخفاجي[16].

- كتاب زاد المسير في علم التفسير، لصاحبه أبو الفرج ابن الجوزي[17].

- كتاب تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، لصاحبه عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري[18].

---

[12]) سليمان بن عمر الجمل، حاشية الجمل على شرح الجلالين، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، عالم الفكر، دمشق، ب ت، ب ط.

[13]) أبو الحسن علي بن محمد الخازن، تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

[14]) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أو المسمى بتفسير الرازي، دار الفكر، دمشق، 1981.

[15]) محمد بن محمد الكرخى بدر الدين، مجمع البحرين ومطلع البدرين على تفسير الجلالين أو المسمى بتفسير الكرخي، رسالة ماجستير جامعة الأزهر، مصر، 2012.

[16]) شهاب الدين الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي أو المسمى بحاشية الشهاب، دار صادر، بيروت د ت.

[17]) أبو الفرج ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير، تح: محمد زهير الشاويش، شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط. دت.

[18]) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007.

- كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن أو المسمى بتفسير الثعالبي، لصاحبه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي[19].

- كتاب تفسير القرآن العظيم لصاحبه الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي[20].

- كتاب تفسير مقاتل بن سليمان، لصاحبه أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى[21].

- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أو المسمى تفسير أبي السعود[22].

ب/كتب الفقه:

- كتاب موطأ الإمام مالك
- كتاب الإمام الشافعي
- كتاب الإمام أحمد بن حنبل
- كتاب الإمام أبو حنيفة

---

[19]) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن أو المسمى بتفسير الثعالبي، تحقيق: علي معوض – عادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، 1997.

[20]) الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط2، 1999.

[21]) أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاتة، دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 2002.

[22]) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أو المسمى تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2010.

ج/كتب اللغة والأدب والأشعار:

- ديوان حسان بن ثابت[23]
- ديوان لبيد[24]
- ديوان الكميت[25]
- كتاب سيبويه[26]
- ديوان ابن دريد[27]
- ديوان الفضيل ابن عياض[28]
- كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري[29].
- كتاب البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي[30]
- شرح الرملي على الأجرومية لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن أحمد الرملي[31].

---

[23]) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994.

[24]) لبيد بن ربيعة العامري الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة شرح الطوسي، دار الكتاب العربي، مصر، 1993.

[25]) الكميت بن زيد الأسدي، ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتحيق: محمد نبيل طريفى، دار صادر، بيروت، دت.

[26]) سيبويه، كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر. دت.

[27]) ديوان ابن دريد، تعليق من أمالي بن دريد، دت.

[28]) محمد بن القاضي بن الفضيل ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض، تح: محمد بنشريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1982.

[29]) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، حمد علي حمد الله، دار الفكر دمشق، ط1، 1964.

[30]) أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنش والتوزيع، دمشق، 2010.

[31]) شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أحمد الرملي، أسنى المطالب في شرح روض الطالب وبهامشه حاشية الرملي تجريد الشوبري

7ـ استعماله لبعض الإشارات والكلمات التنبيهية:

ممّا يمكن الإشارة إليه في كتاب **" تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير"** للشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دحُ بن زرفة "، هو أنّه يستعمل عبارات تنبيهية كقوله مثلا: "تنبيه"، "فوائد"، "قلتُ"، "اعلم"، "فائدة"، "أجيب"، "والله أعلم"، "المراد به"، "وهذا التفسير أنسب.."، "نظير هذه الآيات"، "والله أعلم بالصواب"، "وقال بعض العلماء". إنّ استعمال هذه العبارات لدليل واضح على مدى موسوعية صاحبنا في مجال التفسير وباقي الفنون الأخرى، وهذا لا جرم للدلالة على شيء مهم، يراد من ورائه تنبيه القارئ إليه، وهذه عادة العلماء القدامى أثناء تحريرهم لكتبهم وأسفارهم، وحتى في مجالسهم العلمية، فهي يمكن اعتبارها أدوات مساعدة من أجل تقريب الفهم والمعنى، وشرح ما استشكل على القارئ.

8ـ فهرس المخطوط:

لقد حاول مؤلف الكتاب أن يشرح تفسيره دون وضع فهرس يبين أهم الآيات القرآنية التي تم تناولها في هذا الشرح. وهذه طريقة القدماء في شرحهم للكتب في شتى العلوم والفنون، فبعضهم يورده والبعض الآخر لا يورده. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ محقق الكتاب حاول الاجتهاد في وضع فهرس ملائم لهذا الكتاب، حيث نجد يقول:" وفي سياق هذا التحول جاء اجتهادي في وضع فهرس كتاب مُقرب التفسير لما في مطولات المفسرين فكانت بين يدي تجارب مُفسرين محدثين لعل أحسنها في تحقيق الغاية والأقرب إلى التصور المعاصر تجربة صاحب في ظلال القرآن، أما كيف طُبقت التجربة وأُفيد منها فقد راعيت جملة اعتبارات في بناء نص القرآن الذي يُحس أسلُوبه القارئ من حين لآخر أنه انتهى بمعنى وبدأ معنى جديد آخر ذو فقرة أخرى ولو ظل الرابط بين وحدات النص القرآني العام قائما ومثل استخراج الآيات الأكثر فائدة وهي التي نجح المُفسر رحمه الله في بيان معانيها أحسن من أخواتها والتي تأتي حسب اهتمام القارئ المعاصر الذي لعله من أعز ما

سيطلب في هذه التفسير آيات القراءات وآيات الأحكام الفقهية بينما أنه لن يجد فائدة كبيرة في آيات أخرى كآيات العلوم الطبيعية"[32].

وضمن مقدمة كتاب التحقيق يواصل المحقق شرحه من وراء اعتماده في وضع طريقة فهرس الظلال قائلا:" كما تتبع التحقيق الفرق بين واو العطف وواو الاستئناف حيث عنوان آية الفهرس أكثر ما يكون بالتي بعد واو الاستئناف لأن ذلك يعني استئناف جملة أخرى أي نشأة معنى جديد وهناك آيات محل اهتمام قراء جعلتها عناوين في الفهرس كآية الكرسي، وآية الحرابة، والميراث، والحجاب، ومثلها أخرى أصاب المُفسر في بيانها أكثر من أخواتها فكانت من عناوين الفهرس فهذه بعض مُسترشدات أخذ آيات عناوين الفهرس من نص التفسير العام ويبقى حِسُ التحقيق بما بين وحدات النص العام الصغرى معيار أساس على شرطه انتخبت آيات قد يكون أكثرها من محكم القرآن لأن المحكم أصول والمُتشابه فروع عنه ومثل ذلك ما بين المجمل والمُبين، والخاص والعام، والمُقيد والطلق، والمنطوق والمفهوم ولم يبن فهرس هذا التفسير من موضوعات المعاني والأفكار كما هي تجربة تفسير المنار والأساس، كما الفهرس من خبرة مناهج الدراسات القرآنية وكيف اختارت آيات عناوين كتب من غير تعسف في استخراجها من بين أخواتها في بناء صيغة سياق النص القرآن وذلك مثل كتاب آية حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكتاب آية سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وكتاب آية إني آمنت بربكم فاسمعون، وكتاب آية ستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله المزمع تأليفه، فهذه الآيات ونظيرتها إذا صح أن تكون عناوين كتب فمن باب أولى أن تكون عناوين فهارس تُدلل على موضوعات ما بداخل نص التفسير العام أو بعضه، يقول محقق الكتاب:" وأما تقسيم الكتاب إلى مجلدات فقد رُعي فيه حجم المادة المعرفية أساسا وشيئا من تقسيم العلماء سور القرآن إلى الطوال، المئين، المثاني، المُفصل وبناء على واقع تفسير مُقرب

[32]) محمد هيشور، المصدر السابق، عن مقدمة التحقيق.

التفسير لما في مطولات المُفسرين فإنه لا يشمل إلا سور قسم الطوال وبعضاً من المئين لأن الذي بين هذا التحقيق منه هو الثلاثين حزب الفوقية على أمل العثور على الثلاثين حزب التحتية"[33].

9- اجتهادات المؤلف في ميدان التفسير:

تفسير مُقرب التفسير أعتقد أنه لم يكن لدى القدماء إلى زمن المفسر الشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد نهاية القرن التاسع عشر الميلادي هاجس التجديد بقدر ما صار في الوقت المعاصر، وهذا ما عابه عليهم أبو القاسم سعد الله حينما يصف أواخر العهد العثماني بعصر الجمود والركود الفكري، أي لم يكن هناك تجديدا بقدر ما كانت هناك ما يعرف بكثرة الشروحات والحواشي والتعاليق للمؤلف الواحد سواء في الفقه أو التاريخ[34] أو...لكننا نرى اليوم حركة شبانية أولت اهتمامها إلى فهرسة وتصنيف ودراسة وتحقيق هذا الكم التراثي الهائل من المخطوطات في شتى الفنون، وتحديدا في فن التفسير[35].

ويشير الباحث هيشور محمد حاكيا عن كتاب مقرب التفسير قوله:" وأعتقد أن جديد المفسر دحُ بن محمد بن حسن في تفسيره مقرب التفسير يدخل ضمن هذا وبخاصة وأن موضوع الجديد أو التجديد في هذا الزمن بين المؤيد الداعي إليه والعارض المنكر له دخل منطقة الجدل بدفع من مقولة ما ترك الأولون للآخرين ما يقولون بإسناد على ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قال في القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ"[36].

---

[33]) محمد هيشور، المصدر السابق، عن مقدمة التحقيق.

[34]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع عشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1985. ص: 115.

[35]) ما يمكن الإشارة إليه هو أنّ مؤلف الكتاب اعتمد على مصادر أخرى مثل: تفسير البيضاوي، الزمخشري، تفسير أبو سلمة، ابن عطية، الضحاك، إلى جانب اعتماده على روايات كل من: ابن مسعود، مجاهد، الضحّاك، مقاتل، قتادة، أبي السعود. وهذا مما يدّل على سعة اطّلاع المؤلف وغزارة علمه ونهله من أمهات المصادر المتخصصة. كما يمكننا أن نشير أن اعتماده على الشواهد الشعرية لم يكن بنفس القيمة التي اعتمدها في تلك المصادر السالفة الذكر.

[36]) محمد هيشور، المصدر السابق، عن مقدمة التحقيق.

وكعادة علماء تلك الفترة فإن للمُفسر نزعة صوفية اصطبغت بها كتاباته، فاعتماد المفسر على بعض تفاسير المتصوفة كالقشيري مثلا، يوهمنا ذلك إما تبركا بهم أو انتصارا، أو للاقتداء بهم في تقواهم وورعهم.

من بين الأمور الجديدة التي يوردها صاحب المخطوط ويبرزها تحت عنوان **"تنبيه"** ذكره لأربعة مسائل مهمة حول تفسيره لكتاب الله عزّ وجل، حيث نجده يقول:" أذكر هنا مسائل أحدها أنّ القرآن نزل بلغة أسلافنا قريش، وفي عصرنا تغيّرت اللغة ولا يفهم أحد إلاّ ما يطابق لغته، قال تعالى:" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"، سورة إبراهيم، الآية 4.

وقد أدركني بعض المغاربة أهل اللغة الشلحية، أتى إلينا يريد القراءة في درس خليل، ولا نفهم له ولا يفهم لنا، وقد كان في المجلس من أهله من يفهم كلامنا، فإذا قرأنا السورة أعادها عليه من يفهم كلامنا بشلحته فيفهمها منه ويدركه الفرح والسرور، وهكذا نحو السنتين حتىّ صار يفهم لغة شلحته، وأدركه نور عظيم في معرفة مختصر خليل وغيره. وهذا مشاهد عندي بل قرأ عندي ويعارضني في كثير المسائل، فلهذا أردت أن نرقم في هذا الشرح ما يطابق لغة أهل عصرنا، بمعنى أن نفسّر الآية بنحو معنى لغتنا، ليكون ذلك أيسر للعوام مثلي. وعند وجود التيسير،...ثانيها أني لا أتعرض للآية الظاهرة المعنى كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ما وعد لهم، وكالذين كفروا ووعيدهم، ونحو عليم، حكيم، غفور، رحيم. حاصله لا أذكر في تفسير هذا الكتاب إلاّ ما يحتاج لمعناه. ثالثها أنّ الآية إذا كثرت فيها الأقوال أذكر منها ما ظهر لي، وأقول حيث يقول:" ورابعها السبب الذي أدركني وتكلفت لهذا الفن ولست من أهله أن الدولة الفرنساوية لمّا طال الحال بيننا وبينهم أرادوا إفساد ديننا والعياذ بالله فمنعونا من التعليم والتَّعلُم في الفقه وصار التلميذ لا يأتي شيخه إلا خفية واشتد الحكم بحيث أتاني تلميذ يقف علي ويذهب إلى لأهله فاطلع عليه قايد بلدنا فأخذه من بيني وذهب به للنصارى، والقصة طويلة سأذكرها في آخر هذا الكتاب إن شاء الله وقيل غير ذلك. رابعها السبب الذي أدركني وتكلفت لهذا الفنّ ولست من أهله، أنّ الدولة الفرنساوية

لّما طال الحال بيننا وبينهم أرادوا فساد ديننا والعياذ بالله، منعونا من التعليم والتَّعلُم في الفقه وصار التلميذ لا يأتي شيخه إلا خُفية واشتدّ الحكم بحيث أتاني تلميذ يقف عليّ ويذهب إلى لأهله فاطلع عليه قايد بلدنا فأخذه من بيني وذهب به للنصارى، والقصّة طويلة سأذكرها في آخر هذا الكتاب إن شاء الله"[37].

من بين الاجتهادات التي حاول الشيخ دحُّ ابرازها لعامة القارئين والمهتمين بحقل التفسير، وهي تضمينه لكتابه جملة من الافادات تتعلق بأهم القضايا التي تعرض إليها المؤلف، فتارة يحدثنا عن علاقة المتصوفة بالتفسير، وتارة أخرى عن علاقة التفسير بالخرافات الاسرائيلية، وتارة أخرى عن التفسير وممن فسروه بالرأي. وعلى حد وصف الباحث محمد هيشور خلال معرض حديثه عن منهج المؤلف في التفسير قوله:" لو صُنف تفسير مقرب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير ضمن اتجاهات التفسير لكان إلى الاتجاه اللغوي والتفسير بالمأثور أقرب لاعتماده الأداة اللغوية في فهم نص القرآن وبيان معانيه أكثر من سواها باتِكَائِهِ على ثقافته اللغوية النحوية وعودته إلى جملة تفاسير.

ومن هنا يبدو أن كتاب مُقرب التفسير دخل ضمن المختصرات والشرَّاح ولو بيسر ليحافظ على عنوانه لأنه شرح حيناً وأختصر أخرى وذاك ما تقتضيه طبيعة التقريب وهو استيعابه مضمون كتابه ومصادره في الشكل والموضوع"[38].

10ـ المفسر ونزعته الصوفية:

تبرز نزعة المفسر الصوفية ربما من باب التقوى والورع ولاسيما وأنه انتهى من تفسيره بعد طول عمر، وبعد أفنى تفسيره ليقربه للقارئ العادي والمتخصص على حد سواء، من خلال استعماله وذكره رحمه الله لآيات ذكر التقوى وموضوعات الوعظ. حيث تبرز شخصية المفسر في

[37]) مخطوط تفسير مُقرِّب التفسير، و:1ظ.

[38]) محمد هيشور، المصدر السابق، عن مقدمة التحقيق.

إيثار الآخرة عن الدنيا والدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا وترك إعمارها أو استعمارها. والاشتغال بأمور الورع والزهد.

إن صاحب كتاب " تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير"، متأثر كعادة علماء عصره أو ممن سبقوه ببضاعة العصر السائدة آنذاك وهي انتشار الفكر الصوفي، الذي كان مسيطرا آنذاك على العامة والعلماء على حد سواء. ربما الفراغ الذي تركته السلطة العثمانية قبل ذلك وحلول مكانة الاحتلال الفرنسي، جعل الناس يزهدون عن أمور الدنيا ويعكفون على أمور الآخرة، أو ظنا منهم أنهم لا يستطيعون مقاومة المحتل رغم المحاولات المتكررة هنا وهناك. فكان الملاذ الآمن للعلماء هو الدرس والتأليف، وبالنسبة العامة هو طلب العلم والحفظ والتحصيل.

إن هذه النزعة ليست وليدة عصر المؤلف؛ بل سبقه إلى ذلك ابو راس الناصر المعسكري حينما ألف كتابه في علم التفسير" الإبريز والإكسير في علم التفسير"[39]، وأبو حامد العربي المشرفي، ومصطفى الرماصي، والصباغ القلعي وغيرهم كثير.

الخاتمة:

كتاب " تفسير مُقرِّب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير" للشيخ دحُ بن محمد بن حسن بن أحمد بن دحُ بن زرفة، من أهم شروحات التفسير خلال الحقبة الاستعمارية ببلادنا، فهو ذو قيمة علمية ومعرفية، ضمنه صاحبه معارف شتى، توزعت ما بين كتب التفسير والفقه والحديث واللغة والأدب والأشعار، وهذا بعد إيراد سبب نزول السورة أو الآية، ثم شرحها لغويا، والاستشهاد ببعض آراء العلماء والترجيح بينها، ليخلص في النهاية إلى رأي خاص به. ضمن قالب علمي مقنع سهل للقارئ استيعابه.

---

[39]) محمد أبو راس الناصر المعسكري، الإبريز والإكسير في علم التفسير، دراسة وتحقيق: بومدين عبد العزيز، الجزء الأول، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر1، 2017.

من منطلق إيماننا بأهمية تراثنا العربي الاسلامي المختلف والمتنوع، وضرورة إخراج نصوصه التراثية إلى الوجود، حتى يستفيد منه الباحثون ضمن تخصصاتهم، فإنه بات من الواجب علينا اليوم، وفي ظل إتاحة الدولة وتسهيلها لكل سبل البحث العلمي من أجل فهرسة وتصنيف ودراسة وتحقيق ذلك الكم الهائل من المخطوطات التي تعج بها المكتبات الخاصة والعامة ببلادنا سواء من مخابر بحثية خاصة بالمخطوطات، ومراكز علمية، وفرق بحثية تؤهلنا لجمع هذا التراث المتناثر وتقريبه للباحثين حتى يفيدوا ويستفيدوا.

وعليه، فإننا من هذا المنبر نحيي الباحث محمد هيشور على إخراجه لهذا الكنز التراثي القيم، وعلى مساعدته لنا وتزويده لنا بنسخة مصورة من التفسير محل الدراسة. كما نكبر في مركزي الكراسك بوهران ومركز الأغواط، على أخذ نية وزمام المبادرة في القيام بإنشاء موسوعة حول التفسير والمفسرين ببلادنا فلهما منا جزيل الشكر والثناء.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه [illegible]

يقول العبد الفقير المضطر أشد الاحتياج لرحمة ربه الكريم المنان ذي العدل والإحسان
عبده [illegible] الحاج محمد بن [illegible] بن أحمد بن البشير بن السنوسي بن [illegible] بن علي بن عثمان
أسكننا الله وإياهم في أعلى الجنان مع الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين وعثمان بن عفان
[illegible] ذي القدرة القاهرة والصلاة والسلام على نبيه ذي المعجزات الباهرة وعلى آله
وصحبه وأهل بيته [illegible] وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا
رسول الله صلاة نرتقي بها إلى أعلى الجنان وتقربنا بالنظر إلى نبيك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم ابن عدنان وتقينا بها من غمة القبر وضغطته وتثبتنا عند السؤال وحضور [illegible]
ونسألك اللطف والإعانة في جميع الأحوال وفي حال الحلول في الرمس يا ذا الجلال وتجمع بيننا
وبين الوالدين والأحباء والأخلاء وبعد فلما كان الاشتغال بالعلم أفضل الطاعات ولأن أهله
فوق غيرهم درجات كما قال الله تعالى في كتابه العظيم والذين أوتوا العلم درجات ومعنى
الآية أن الله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يوتوا العلم درجات إذا عملوا
بما أمروا به ومدح الله تعالى أهل العلم في آيات منها هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
وورد أيضا في تفضيلهم أحاديث كثيرة منها من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وروي أن
الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة رضوان الله عليهم فكلموه
في ذلك فدعاهم ودعاه وسألهم عن تفسير إذا جاء نصر الله فسكتوا فقال ابن عباس هو أجل النبي
أعلمه الله إياه ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه لأن يهدي الله بك رجلا واحدا
خير لك من حمر النعم ومنها قوله صلى الله عليه وسلم من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام
لم يفضله النبيئون إلا درجة واحدة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال بين العابد والعالم مائة درجة
بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال فضل العالم على العابد
كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ومنها قوله صلى الله عليه وسلم كل عمل ينقطع بالموت إلا من
علم علما فعمله لا ينقطع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.
ومنها أنه صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين في مسجده أحدهما يدعون الله تعالى ويرغبون إليه والآخر يتعلمون
الفقه ويعلمونه فقال كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون
إليه وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل وإنما بعثت معلما ثم جلس فيهم
والأحاديث كثيرة في ذلك فحينئذ أردت اغتنام فضل العلم وانشرح صدري إلى الاشتغال به وترك
ما سوى الأوراد المكتوبة أي المعروفة من صلاة وصيام وغيرهما وأسأل الله أن يفهمني من لدنه علما
ويلهمني منطقا وفهما فها أنا أشرع في تفسير كتاب الله بعد الاستخارة ونسأله التوفيق والإعانة
سميته مقرب التفسير لما في مطولات المفسرين الكتاب المنير جعلته كالأجرومية لابن مالك
بمنه

اللوحة الأولى من المخطوط

اللوحة الثانية من المخطوط

اللوحة الأخيرة من المخطوط

الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين للشيخ الدكتور التواتي بن التواتي الأغواطي الجزائري: دراسة وتحليل

أ.د. حمو عبد الكريم باحث بالمركز لوطني للبحث في

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران الجزائر.

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم لهداية البشرية جمعاء، كتاب نور وهداية ورشاد، كما تعهّد بحفظه من كل تحريف أو تزييف قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية: 9، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير الورى محمد بن عبد االله الهادي الأمين وعلى أصحابه الغر الميامبن، أما بعد.

فعلم التفسير من أشرف العلوم الدينية، إنْ لم يكن أشرفها جميعا، وذلك لسمو موضوعه وعظم فائدته، لذا يعد من أول ما يُدون من علوم القرآن، لأنّه هو الأصل في فهمه وتدبره، وعليه يتوقف استنباط الأحكام الشرعية ويتبين الحلال من الحرام والرشد من الغي، ولقد قيّض الله من عباده علماء اعتكفوا على قراءة كتابه العزيز وحفظه ومدارسته، وممّن انبرى لتفسير كتاب الله المسطور، وتسيير فهمه دون إخلال أو قصور، شيخنا الفاضل العالم الرباني الزاهد الشيخ **التواتي بن التواتي الأغواطي الجزائري،** الذي كانت له جهود معتبرة في خدمة كتاب الله والدعوة إليه، ومنها اشتغاله بالدرس التفسيري عملا وتدريسا.

إذ لا يمكن فَهْم معاني القرآن الكريم لولا تسخير الله لطائفة من المؤمنين يفقهون الناس أمور دينهم وأحوال آخرتهم، وقد جاءت هذه الدراسة البحثية لتعرفنا مقدار هذا الرجل العظيم وتقدم لنا بعض ملامح تفسيره وإسهاماته اللغوية والفقهية والبلاغية.

أهداف الدراسة:

-أتناول علما من أعلام الجزائر في العصر الحديث، وقطبا فاعلا في حقل العلوم الشرعية واللغوية.

-أعرضدراسة تطبيقية أقدم فيه بعض المسائل التفسيرية بما يخدم الباحثين والدارسين في علم التفسير.

- أبرز منهج الكتابة ودواعي التأليف وخصوصيتها عنده.

مشكلة الدراسة:

تتجلى مشكلة الدراسة في الإجابة عن سؤال عام هو: ما هي الجهود والإسهامات التي أثارها الشيخ التواتي بن التوتي؟ وتتفرّع منها الأسئلة التالية: ما هي مصادر التفسير التي استعان بها الشيخ؟ وما هو المنهج العام الذي انماز به عن غيره من المفسرين؟

الدراسات السابقة:

لحد علمي -حتى الآن- لا توجد دراسة علمية وافية تختص بتحليل أو مناقشة هذا التفسير، سوى مقال منشور في المجلة الأردنية للدارسات الإسلامية حول: **"منهج الشيخ التواتي في تفسير الدر الثمين"** بقلم محفوظ حاج إبراهيم والباحث يحي ضاوي شطناوي، سنة 2016م.

منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على المنهج التحليلي الاستنباطي الذي يعتمد على استنباط جهود **الشيخ التواتي بن التواتي** في التفسير القرآني، وإظهار أبرز القضايا اللغوية والبلاغية التي طرحها،

معتمدين على آراء المُفَسِّرِين ومناقشتها وتبيان التعاليق والتوجيهات المنضوية تحت كل محور، مكتفيا بضرب بعض الشواهد التطبيقية تقريبا للفهم والاستيعاب.

ومنه فالحديث عن الشيخ التواتي بن التوتي ومحاولة فهم فكره وضبط منهجه وتحليل مسالكه في التفقه والدعوة إلى الله، يحتاج إلى جهد جهيد وخبرة كبيرة؛ فجهده الفقهي المتميز ومباحثه التفسيري المعمقة، ومكانته اللغوية واللسانية الفائقة.. جعلته يدرك مرتبة الفقهاء الفحول المتميزين في فن الشريعة الإسلامية وحقول اللغة، والخبير بفنيات الخطاب الدعوي إلى الله سبحانه وتعالى.

1. التعريف بحياة المؤلف وظروف نشأته.

هو الإمام الفقيه الدراكة المفسر الأصولي التواتي بن التواتي[1] ابن الحاج مبارك، بن الحاج سليمان الأغواطي الأمازيغي، من أسرة متوسطة الحال طيبة الأصول، يمتد نسبها إلى أهل بيت النبوة عليهم السلام، من مواليد 09 يناير1943م الموافق ل 26 ذو الحجة سنة 1361هجرية[2]، تربى وعاش في بالأغواط المدينة الريفية البسيطة، التي كان أغلب سكانها تجارا وحرفيين وموالين.

حفظ القرآن الكريم على الشيخ كويسي المبروك رحمه الله[3]، وهو من مقدمي الزاوية الرحمانية ومن الشيوخ البارزين في مدينة الأغواط، فختم على يده القرآن الكريم وهو لم يتجاوز التاسعة من

---

[1] تسمية التواتي نسبة إلى إقليم توات الذي عاش فيها جدهم الأكبر، ثم انتقل بعد فترة إلى حياض الأغواط وأقام بين أهلها، وأنجب بها كل أبناءه وصار لهم صيت كبير وحفاوة محترمة، ومنهم الشيخ التواتي الذي بلغ صيته العالم العربي والإسلامي ببحوثه ونظريته وطروحاته الفكرية والإنسانية.

[2]- هذه المعلومات توصلت بها من قبل ابنه عبد القادر ابن التواتي الذي أمدني بكل ما احتجت إليه من معلومات، تاريخ التواصل معه يوم: 25-11/ 2020م.

[3]هو أحد كبار رجال العلم والدين والفقه وريث الطريقة العزوزية الرحمانية، من مواليد1908م، أفنى حياته في تعليم القرآن الكريم في حي الشطيط الغربي بالأغواط، تعلم على يد والده الذي كان إماما بمسجد الشطيط، ومؤسسا للمسجد في سنة 1905م، تخرج على يديه مئات الطلبة داخل الولاية وخارجها، ومن دعاة الإصلاح والتمسك بثوابت الأمة خاصة تمسكه

عمره، ثم التحق بالمدرسة الفرنسية "المدرسة الأهلية"، وبها أخذ مبادئ اللغة الفرنسية واستطاع التدرج حتى تحصل على شهادة دبلوم وطنية مع مرتبة الشرف (BEPC)،ثم انتقل كغيره من الصبيان لتعلم علوم الشرع واللغة العربية بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم نداه الواجب الوطني وانخرط ملبيا نداء جيش التحرير الوطني.. حتى استقلال الجزائر 1962م.

وبعد الاستقلال عاود حفظه للقرآن الكريم للمرة الثانية عند الشيخ غالم محمود رحمه الله تعالى، وأخذ أيضا مبادئ الفقه وأصوله عن الشيخ أبي بار الحاج عيسى رحمه الله[4]، وزاد عليه قراءة كتاب المحصول لعلم الأصول للرازي(606ه) وكتاب وبدائع الفوائد لابن القيم الجوزية(751ه)، وكتاب الموافقات للإمام الأصولي أبو اسحاق الشاطبي(790ه)، وكان يحدد له فصلا ويأمره بقراءته ويقول له ما فهِمْتَه فقد فهِمْتَه، وما لم تفهمه فذاك محلّ الدرس، فكانت طريقة نافعة ومجدية وفيها ربح وقت كبير وعَلَق بذهنه أشياء كثيرة لا زال يتذكرها حتى الآن، إلى أنْ تولى الإمامة بمساجد الأغواط، وحينها بدأ بمهام الإمامة وأغوارها والدعوة إلى الله تعالى ومن هنا بدأت البداية.

فهو من عائلة كريمة محافظة، تربت على الخلق الفاضل والحشمة والوقار، بيت علم وذكر وتلقي، فقد كان جده الحاج سليمان موالا، ووالده الحاج مبارك من حفاظ كلام الله، وتربت الأسرة على ورد وترتيبات الطريقة الرحمانية، فكل الظروف مهيأة لأنْ يخرج رجلا من طينة الكبار كالطبري أو الزمخشري والطاهر بن عاشور...وقد ساعدته الظروف الدينية المحيطة به بأنْ يصقل موهبته المعرفية، ويأخذ نصيبا كبيرا من العلوم الشرعية كالفقه والحديث وعلم القراءات وعلوم اللغة...فكان حفظه للقرآن وهو بن التاسعة سنوات من عمره مفازة ومكسبا بعد صبر ومجاهدة من الوالد رحمه الله تعالى، وعناية من الخالق سبحانه.

بحفظ القرآن الكريم وتعليمه للأجيال وكذا حرصه على تعلم مبادئ واللغة العربية في الحقبة الاستعمارية، توفته المنية يوم: 4 أبريل 2008م عن عمر ناهز المائة سنة، رحمه الله تعالى.

[4]أبوبكر الحاج عيسى الأغواطي تتلمذ على يده الشيخ أحمد حماني رحمهما الله.

والشيخ التواتي معتدل في تصرفه وتصوفه، يساير الحياة بلا كد ولا جد، يأخذ بأسباب الحياة ولا تتصل إلى قلبه، فالحياة في نظره محطة، ولكنها أقل ما تكون غاية وطريق للآخرة.

2. مكانته العلمية وأهم مؤلفاته:

عمل الشيخ الفاضل التواتي بن التواتي طيلة 46 سنة معلما ومدرسا وداعيا إلى الله تعالى جاعلا نصب أعينه قوله تعالى:﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ سورة التوبة، الآية 122؛ ولم يمنعه كبره أو انشغاله الأسري ومهامه الدعوية والاجتماعية؛ بل صمم على مواصلة التعلم، فتحصل على شهادة الليسانس في الحقوق، وشهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، وفي مرحلة التقاعد وبالضبط بداية الألفين 2000م حصل على شهادة الماجستير ببحث أكاديمي بموضوع: "الأخفش الأوسط وآراؤه النحوية" وبعدها سجل سنة 2004م، بجامعة الأغواط تصورا جديدا لنيل شهادة الدكتوراه وكان الموضوع معنون بـ: "القراءات وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي"، وتمت مناقشتها ونال التشريف والتثمين على جهده العظيم.

وقد قضى حوالي عشرين سنة بالتدريس في جامعة عمار ثليجي بالأغواط أستاذا مشاركا، ومناقشا للعديد من البحوث العلمية (رسائل علمية في الفقه واللغة وعلوم الشرع)، ولم ينقطع عمله بتقديم الدروس المسجدية في كل وقت، وخاصة بين صلاة المغرب والعشاء بمساجد الأغواط، وبيته مزارا للسائلين والزوار والمحبين الذين يطلبون الاستفتاء في قضايا الدين ومسائل الخلاف بين المذهبين الإباضي والمالكي، باعتباره المشارك الأول الداعي إلى التقريب بين المذهبين، وقد حضي الشيخ شهرة محترمة بين أقرانه وبين مجتمعه، وبلغ صيته الجزائر وتعداها خارج حدودها[٤].

---

[٤] وكانت له ضمن سلسلة أعلام الجزائر دام تصويرها أسبوعا كاملا، وعرضت مرات عديدة، كما كان ضمن حصة مساجد تراثية ولقاءات تلفزيونية حصة الدكتور بلمهدي الوزير الحالي، وفي زيارته الأخيرة طلب منه مواصلة الأعداد المتبقية، أما

3ـمؤلفات الشيخ التواتي بن التواتي: ترك لنا الشيخ حفظه الله مؤلفات متنوعة منها:

1. في الفقه:

- موسوعة فقهية "المبسط في الفقه المالكي بالأدلة" خمس مجلدات، طبع مؤخرا في دار الوعي، حلب.
- "الإمام المازني المالكي ومنهجه الفقهي" مطبعة الإمام مالك ط:1/ 2018.
- "منهج السالك في شرح موطأ الإمام مالك" عشرون مجلدا، دراسة تقابلية بين مسند ربيع بن حبيب والموطأ، دار الإمام مالك، الجزائر، 1442 هـ، 2020م.
- "الفقه المقارن: دراسة تقابلية بين المذهب المالكي والإباضي"، وهو كتاب خص للمقارنة بين فقه المالكية والإباضية، طبع طبعة محلية، وطبع في مجلدين بـــــ: (دار ابن حزم) بيروت، لبنان.
- "محاضرات في الفقه المالكي"، دار الوعي، 2013.
- " مالك إمام دار الهجرة ومنهجه الفقهي"، مطبعة بن سالم 2017م.

2. مؤلفاته في أصول الفقه:

- "التحفة البهية في أصول الفقه" (منظومة في ألفَيْ بيت) مطبوعة .
- "شرح التحفة البهية في أصول الفقه" في ثلاثة مجلدات طبعت بـــــ: (دار ابن حزم).
- "إرشاد العلي المنان في معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن"، ثلاث مجلدات.
-

على مستوى الجامعات فأغلب الجامعات كرمته كان آخرها جامعة تمنراست إلا أنه اعتذر وتم تأجيل الأمر. وفي معرض الكتاب العام الماضي أين صدر مصنفه المبسط في الفقه المالكي بالأدلة كرمه يومها الشيخ وهبة الزحيلي على مستوى خارج الوطن وكانت له لقاءات مع كبار العلماء في عمان والأردن وتونس.

3. مؤلفاته في الحديث النبوي الشريف:

- كتاب الدروس الوعظية من خلال الأحاديث النبوية.

4. في التفسير:

- "كتاب الفيض في تفسير آية الكرسي"، مطبعة رويغي، ط1 سنة 2011.

- "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" في عشرين جزء، صدر بمناسبة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015، وأعيد طبعه برعاية مديرية الثقافة لوزارة الشؤون الدينية طبعة ثانية عن دار الحكمة للنشر 2016.

5. في القراءات القرآنية:

- "القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي"، دار الوعي، الجزائر، 2008.

- "قراءة نافع برواية ورش في المغرب الأوسط" الجزائر.

6. في النحو وأصوله وفي الدراسات اللغوية:

- "الأخفش الأوسط وآراءه النحوية"، دار الوعي، الرويبة الجزائر، 2008.

- "المصطلحات بين الفقهاء والنُّحَاة- مخطوط-.

- "الخصائص اللغوية والنحوية للهجة بني تميم"،(رسالة صغيرة).

- محاضرات في أصول النحو، دار الوعي، الرويبة الجزائر، 2008.

- "مفاهيم في علوم اللسان"، دار الوعي، 2013.

- "المدارس اللسانية: تشمل على أهم المدارس اللسانية، الوظيفية والتوليدية التحولية والخليلية، (دار الوعي، الرويبة الجزائر، 2008.
- المدارس النحوية، دار الوعي، 2008.
- الموجز في قواعد العربية جزآن -مخطوط-.

7. في الشعر:

- له مجموعة من الأشعار باللغة الفرنسية والعربية وهي قيد الطبع.

8. مؤلفاته في الدعاء والاستغاثة.

- كتاب الاستغاثة الروحانية.

9. مؤلفاته في التصوف:

- كتاب في التصوف[6].

بالإضافة إلى المقالات العلمية في المجلات المتخصصة نشرت في مجلة اللسانيات الصادرة عن مركز ترقية اللغة العربية، ومجلة المخبر التابعة لمعهد أصول الدين بالجزائر، ومجلة مجمع اللغة العربية بالجزائر، ومجلة قسم اللغة والأدب العربي جامعة الأغواط، ومجلة الواحات الصادرة عن المركز الجامعي ولاية غرداية. وله عدة مشاريع مشتركة في الفقه واللغة يسعى إلى تحقيقها- بتوفيق من الله تعالى وعونه وتوفيق.

4. صورة عامة عن التفسير ومصادره:

وظف الشيخ التواتي بن التواتي في جل دراساته وبحوثه على المنهج التحليلي الاستنباطي القائم على تخريج النّصوص وتحقيقها وتوثيقها وضبط مفاهيمها، كما سعى إلى استجلاء المعارف من

[6] الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، مطبعة الحكمة، الجزائر، ط1، 2016، ص5-8.

المصادر الأصول (أصحاب الطبقات الأولى)، وسعى لتقديم الدليل والبرهان ضمن جملة من المعايير العلمية والموضوعية، فلا مجال للذاتية أو تغليب موقف على موقف إلى بالاتكاء على الحجة الساطعة والمنهج القويم، ومن هنا فجل أعماله نُسجت بعقل العالم المتجرد من الأهواء والعواطف ودُبجت بعرق جهيد واصطبار مُضني.

فقد استفاد الشيخ من كل التفاسير القديمة والحديثة المطبوعة والمخطوطة، بالإضافة إلى تجربته الدعوية والإصلاحية والتربوية التي دامت قرابة أربعين سنة، مما أثمر هذا الجهد اصدار مولود جديد يعنى بتفسير كلام رب العالين إلى الخليقة البشرية جمعاء، وقد عنونه المؤلف حفظه الله بـ:"الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، الصادر عن دار الحكمة للنشر 2016. تضمن هذا المؤلَف جوانب مهمة في التفسير منها: الجانب الفقهي والأصولي، مباحث في علم القراءات وأصولها، مباحث اللغة العربية وأسرارها من نحو وصرف واشتقاق، وقضايا البلاغة والحقيقة والمجاز... فهي موسوعة تفسيرية جزائرية نفسية.

وقد يذهب تصور القارئ أن عنوان التفسير شبيه ببعض عناوين المؤلفات المتخصصة في علوم الشريعة والتفسير، وهذا ظاهر في شكله لكنه مختلف في محتواه، فنجد كتاب " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لبرهان الدين البقاعي(885ه)، وكتاب "الدرر المنثور في التفسير بالمأثور"، و"تناسق الدرر في تناسب السور" لجلال الدين السيوطي(911ه)، من أهم الكتب التي تأثر بهم الشيخ التواتي بن التواتي، وكذا كتاب "الدر الثمين والمورد المعين" لمحمد بن أحمد ميارة الفاسي(1072هـ)، وأعتقد أن التأثير ظاهر بشكل جلي في تسمية "الدر (الدرر) الثمين" وهذا التأثير له ما يُبرره، وهو ليس تكرارا أو تقليدا، وإنّما استطاع الشيخ التواتي أن يجمع كل هذه العناوين المختصة في علوم الشرع والبلاغة واللغة والأحاديث والإعجاز.. ويقدم تسمية مناسبة لمحتوى التفسير الذي قدمه بـ:"الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، وقد نجد بعض العناوين قريبة من التسمية المذكورة مثل كتاب: "الدر الثمين من درر الداعية في سورة يس" لمصباح الحنون

و"الدر الثمين في أصول التفسير ومناهج المفسرين" لأبي سليمان، صابر حسن و"الدر الثمين في تجويد كلام رب العالمين" لمحمد حمزة عطار أحمد خلوف أديب، وكتاب "الدر الثمين في أصول الشريعة وفروع الدين" لصالح بن سالم با خطاب...وغيرها من المؤلفات المتخصصة بفن من فنون العلوم النقلية عبر صور مختلفة.. لكنها غير متطابقة كليا مع ما جاء به الشيخ التواتي بين التواتي.

ويذكر الإمام التواتي سبب تسميته بــ "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" فيقول :"وذلك لأني جلت في كتب التفسير القديمة والحديثة، فأخذت ما فيها من درر ومعان ومفاهيم عميقة أثبتُّها في هذا التفسير، ولم أغفل الحديث عن الآيات الكونية التي هي دليل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم "[7].

أما الدافع الرئيس الذي جعل الشيخ التواتي بن التواتي يقتحم مجال التفسير هو دعوة العالم الجليل الشيخ العلامة أحمد قصيبة[8] الذي كان له الفضل في توجيه إلى تفسير القرآن الكريم، وذاك حين انتُدب للتدريس في مسجد النور بمدينة الأغواط المحروسة، وقد قَصَرتُ دروسه على الفقه المالكي، وكان الشيخ لتواضعه دائم الحضور وذات يوم أشار عليه الشيخ أحمد قصيبة بعد أن استضافه في بيته وأكرمه من فيضه، قال له: لو أنكّ تفاصل بين الدروس فتجعل يوما للتفسير ويوما للفقه، بذلك تجمع بين الأصل والفرع، فكان لهذا التوجيه الرشيد أثر كبير في نفسه، وأخذ بوصيته إلى أن فتح الله عليه بفتوحاته، وصار عملا منجزا فريدا في التفسير، فكانت من حسنات هذا الشيخ أحمد قصيبة أن يرشد الشيخ التواتي بن التواتي لاقتحام عالم التفسير والغوص في أسراره ولطائفه.

[7] ينظر الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، ص30.

[8] ويروي لي ابنه عبد القادر أنه لما جاء الوزير مولود قاسم رحمه الله للأغواط رفض دخول القاعة التي كان مبرمجا فيها إلا بعد إحضار شيخه أحمد قصيبة.

5. شروط المفسر القرآني:

يقول الراغب الأصفهاني: «وذكرت أنَّ أول ما يحتاج أنْ يشتغل به من علوم القرآن الكريم العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل مفردات ألفاظ القرآن في كونه في أوائل المعاون لمن يريد أنْ يُدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليه اعتمد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حُذاق الشّعراء والبّلغاء في نظمهم ونثرهم»[٥]، ومن ثمّ فإنّ مصطلحات القرآن لها مفاتيح وآليات يجب على الناظر في كلام الله أن يعيها ويتقن أسرارها، وكان الشيخ التواتي بن التواتي من العلماء المفسرين الذين يدركون معنى المصطلح ومعرفته ضرورته لفهم النصوص والمقاصد، ولهذا كتب مؤلفا تناول فيه "المصطلحات بين الفقهاء والنُّحَاة.

ولتحقيق الشروط العامة التي يقوم عليها التفسير القرآني نجدشروطا المفسّر هي:

لقد وضع العلماء شروطًا ثابتة للمتصدّي لتفسير كلام الله رب العالمين؛ ومن بين هذه الشّروط التي ينبغي توفرها في المفسّر ما يلي:

[٥]- المفردات، الراغب الأصفهاني، دار النشر و دار القلم، دمشق،1/ 8، وقد أولى الراغب الأصفهاني عناية كبيرة بالمفردة، خاصة ما يتعلق بالمفردة القرآنية، ذلك لأنها معنية بتحقيق شرع الله وأوامره، وبها تأسس الأحكام وتعقد المواثيق، وقد قدم الباحث المغيلي خدير، رسالة دكتوراه بيّن فيها إسهامات الراغب الأصفهاني وحرصه في إظهار دلالات الألفاظ القرآنية، ينظر: الدلالة عن الراغب الأصفهاني من خلال المفردات في غريب القرآن، المغيلي خدير، إشراف: صفية مطهري، جامعة وهران السانيا، 2009-2010، ص111.

1)- معرفة اللغة العربية وأسرارها وأصولها؛ لأنّ بها يُعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[10].

2)- العلم بمباحث والمسائل النّحوية (أصولاً وفروعًا)؛ لأنّ المعنى يتغير ويختلف باختلاف حركات الإعراب، وفي هذا السياق يقول الإمام الجويني(ت:478هـ) في حديثه عن اهتمام علماء الأصول بقضايا اللغة العربية: «وأما الألفاظ فلا بد من الاعتناء بها، فإنّ الشريعة عربية ولن يستكمل المرء بالنظر في الشرع ما لم يكن ريّاناً من النحو واللغة.."[11].

3)- الاهتمام بعلم التّصريف؛ لأنّ به تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس: "ومن فاته علمه فاته المعظم؛ لأن "وجد" مثلا كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها"[12]، ولما كان المعنى يكون في أحوالٍ كثيرةٍ كمعنى المضي والحال والاستقبال والفاعلية والمفعولية وغيرها، وكانت الحاجة إلى الدّلالة على كل حالٍ ماسّةً، ولم يكن بدّ من لفظٍ خاص يدل على ذلك المعنى بعينه، فلهذا وجب التّصريف واختلافُ الأبنية بالزيادة والنقص والتّغيير ونحو ذلك، ليدلّ كلّ لفظٍ على المعنى المراد، نحو ضَرَبَ يَضْرِبُ اضْرِبْ، لاَ تَضرِبْ، ضَارِبْ، مَضْرُوب[13].

4)- العلمُ بالمعاني والبديع؛ لأنه يعرف بالأول (المعاني) خواص تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثاني

[10] ينظر: فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، أبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد/ الأنصاري، قراءة: يحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مقدمة التفسير. وينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: 1394هـ/ 1974 م، ج4، ص213 وما بعدها .

[11] – البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الجويني: تحقيق: عبد العظيم الديب، جامعة قطر، ط1، 1978، 1/ 1300.

[12] ينظر: البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الجويني: ج4، ص213

[13]- ينظر: شرح الملوكي في التّصريف، ابن يعيش، تحقيق: فخر الدّين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ط1، 1973، ص95-96.

(البديع) وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة وهي من أعظم أركان المفسر لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم[14]. وعلوم المعاني والبيان والبديع من جملة العلوم التي يحتاجها المفسر، إذْ بهم يفهم معاني الآيات ومدلول المفردات والجمل، وإبراز معجزة القرآن اللغوية والبلاغية.

5)- الإحاطةُ بعلمِ القراءات؛ لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض[15].

6)- الإحاطة بعلم أصول الدّين؛ بما في القرآن من الآيات الدالة بظاهرها على ما لا يجوز على الله تعالى، فالأصولي يؤول ذلك ويستدل على ما يستحيل وما يجب وما يجوز[16].

7)- الإحاطة بعلم أصول الفقه؛ إذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط[17].

8)- معرفة أسباب النزول والقصص؛ إذ بسبب النزول يُعرف معنى الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه[18].

9)- معرفة الناسخ والمنسوخ؛ ليُعلم المحكم من غيره.

10)- العلم بالفقه، والعلم بالأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم[19].

ومن هنا فالمتأمل في–تفسير الشيخ التواتي- يجده ملتزماً بمواصفات المفسر للقرآن الكريم المعروفة والتي منها: امتلاكه لناصية اللغة العربية، وعالما بأسباب نزول الآيات ومواطن نزولها،

[14] ينظر: البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الجويني: ج4، ص214

[15] ينظر؛ المرجع نفسه، ج4، ص.215.

[16] نفسه، ج4، ص215.

[17] نفسه، ج4، ص215.

[18] نفسه، ج4، ص216.

[19] نفسه، ج4، ص216.

ومعرفته الجيدة بعلم الناسخ والمنسوخ وتفننه في مجال علم القراءات؛ وله دراية تامة بقصص الأنبياء وسيرهم، ودراس لسيرة الرّسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الصحب الكرام، فضلا عن كونه مطلع على أغلب التفاسير القديمة والحديثة في أقطار العالم العربي والإسلامي وفي حياض الجزائري، فهذه الشروط كلها وجدناها في مدونة الشيخ التواتي بالإضافة إلى ورعه وزهده وإخلاصه للمسلمين وعامتهم.

6. مصادر تفسيره:

ذكر الشيخ في تفسيره أنه تأثر بكتب التراث العربي، وكان ينام مع كتب التفسير والحديث والفقه... وينهض معهم، بحيث كان في خلوته يضع ما يقارب من 30 كتابا بين يديه، يقرأ ويحلل ويستقرأ النّصوص، ويقدم جملة ويؤخر أخرى، عاملا نظره وبصره دليلا على حواسه التي يصبها الفتور والسهد، بينما عقله وقلبه وإرادته الصلبة لم تمنع من اتصال ليله بنهاره في القراءة والتحرير والتنقيح والتحقيق وتثوير الأفكار واستخراج الدرر الثمنية من آي القرآن الكريم، فعندما تدخل غرفته لا تكاد أن تراه بسبب ما يحيط به من مجلدات ومصنفات، تراه وكأنه أغمي عليه، لكنه في مُنعم سابح في فلك الأسرار القرآنية والفتوحات التفسيرية والإشارات الصوفية... يحادث الطبري في جامع البيان ويستأنس بأقوال ابن كثير في التفسير العظيم، ويقرأ للرازي مفاتيح الغيب، والقرطبي الجامع لأحكام القرآن ومن تفسير جواهر الحسان لعبد الرحمن الثعالبي معلما ومرشدا، وجاعلا بلاغة الزمخشري في الكشاف حكما وموجها[20]..والمراغي[21] وسيد قطب[22] والشيخ أطفيش وابن عاشور[23]...كلهم عمدته في التأويل والتفسير.. وغيرها من المصادر التي بلغ عددها أكثر من

[20] نفسه، 20/ 469.

[21] نفسه، 20/ 116.

[22] نفسه، 20/ 126.

[23] نفسه، 20/ 430.

250 كتابا تناولت القرآن وعلومه، ومنها 220 تفسيرا منها المطبوع ومنها المخطوط، ونظر فيها آية آية جملة جملة واقتباسا..[24].

كما استعان الشيخ بمدونة الأحاديث النبوية لتوضيح بعض ما أجمله القرآن الكريم من تشريع، باعتبار أنَّ السنة النبوية بيان لأحكام القرآن الكريم[25]، فالحديث شاهد قوي في إثبات الحجة أو إبطال باطل، وقد ظهرت عنايته بالحديث النبوي؛ بل جعل معرفة الحديث ومنزلته ودرجته، من الفرائض الواجب على المفسر إدراكها، وكان يحشد الأحاديث المتشابهة في الموضع الواحد بغية إزالة مبهم وتوضيح معنا من المعاني.

كما استعان الشيخ بكتب المعاجم العربية، فأي مفسر لكلام الله تعالى، يجب عليه أنْ يستأنس بالمعاجم العربية لفهم معاني ومدلولات الألفاظ وتحولاتها الاصطلاحية والشرعية، وهذا المسلك لم يغِب عن الشيخ التواتي، إذ اعتمد على معاجم لفظية وموضوعية أنارت له طريق التفسير، منها: معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس(ت: 395هـ)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (ت: 502هـ)، ومعجم مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، (ت:691هـ)[26].

والظاهر أنَّه تأثر كثيرا بجهود اللغويين أمثال: الخليل (170ه)، سيبويه(ت:180هـ)، وابن جني(ت: 392هـ)، وابن مالك صاحب الألفية (ت:672هـ) بالإضافة إلى لكتب التي تناولت إعراب القرآن مثل الزجاج والمبرد والكسائي والأخفش والفراء وإعراب القرآن لابن سيده..[27].

[24]نفسه، 1/ 30.

[25]– ينظر: الموافقات في أصول الشريعة، أبي إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر. 4/ 7، وينظر: أصول الحديث علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط1981،4م، ص 36/ 37.

[26] الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 1/ 30.

[27]نفسه، 20/ 536.

كما وظف الشيخ حفظه الله الشّاهد الشعري في مجال فهم المعنى وتحديد الدلالة[28]، وليس أدل على ذلك ما اعتمده ابن عباس في تفسيره، بحيث إذا صَعُبت عليه اللفظة القرآنية يذهب باحثا عنها في ديوان العرب، وهذا المنهج سار عليه أغلب المفسرين كالطبري والزمخشري وأبي حيان، ويأتي الاستشهاد الشعري في المقام الرابع عند الشيخ التواتي، سواء ما تعلق بالشّعر العربي القديم أو الحديث، فـ«الشعر ديوان العرب، وبه حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، ومنه تُعلمت اللغة، وهو حُجة فيما أشْكَلَ من غريب كتاب الله جل ثناؤه، وغريب حديث رسول الله وحديث صحابته والتابعين»[29]، فهو سجلهم ومرآة عصرهم، ولما جاء الإسلام هذبه ورققه. فإنّه"لم يكن غني للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ببيت من الشعر، أو بشيء من كلام العرب، لتكميل ما عنده من الذوق عند خفاء المعنى ولإقناع السامع والمتعلم اللذين لم يكمل لهما الذوق في المشكلات"[30].

كما استشهد الشيخ التواتي بأقوال وكتب أهل الذكر والتصوف والإشراق، مثل ما جاء في سورة الفلق ذكر مقولة القشيري رحمه الله :"وفي السورة تعليم استدفاع الشرور من الله، وإنْ من صح توكله على الله، فهو الذي صح تحققه بالله، فإذا توكل لم يوفقه الله للتوكل إلا وأن لمعلوم من حاله أن يكفيه ما توكل به عليه"[31]...قال القاضي عياض...[32].

---

[28]–ينظر: الإتقان في تفسير القرآن، جلال الدين السيوطي، تعليق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 318.

[29]– الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تعليق، أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 212.

[30]– التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تون ، 1997م، 1/ 21.

[31]ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 20/ 523.

[32]نفسه، 20/ 525.

كما كانت بكتب الأدب العرب زبدة مائدته التفسيرية أمثال كتاب الظرف والظرفاء لمحمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، المعروف بالوشاء (ت:325هـ) وكتاب الأوائل لأبي هلال العسكري(ت: 395هـ)، وكتب الجرجاني(ت:471هـ) والرماني(ت: 994ه) وغيرهم.

7- طريقة العرض ومنهجية التفسير:

وضع الشيخ لنفسه برنامجا علميا لزم به نفسه وأوصى به عائلته وأولاده، وهو بمجرد تأدية صلاة العشاء يأخذ مكانه للنوم ليستيقظ منتصف الليل أو مع الواحدة صباحا، ويذهب إلى مكتبه في الغرفة المجاورة، حتى الثامنة صباحا، فهو يعيش بالكتب ومع الكتب، وكان يقول لابنه عبد القادر البارحة كانت لي جلسة علمية جميلة مع القرطبي والرازي والسيوطي ومع الإمام أبي عبد الله المازري وابن عبد البر.. فهؤلاء هم أصحابه الذين يتمتع بالأخذ عنهم.

والشيخ لا يخرج من منزله إلا للضرورة، وأحيانا يقضي شهورا لا يخرج إلا يوم الجمعة، باستثناء حالات السفر لملتقى أو ندوة أو محاضرة خارج البلدة، وفي السنوات الأخيرة لم يعد يسافر كثيرا نظرا لكبره وتعبه وعدم قدرته على تحمل مشاق السفر، فالمادة العلمية متوفرة في مكتبته الخاصة، وما وصل كان من خلال هذا النظام والجهد الذي بذله في محيطه الخاص به.

فقد شرع الشيخ حفظه الله في تفسير الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين بادئا بتعريف كريم لنفسه(مصنف التفسير)، ثم تناول في مقدمة موجزة تعريفا شاملا لعلم التفسير وأقسامه وخصائصه ومدراسه.. ثم ذكر ما يجب على المفسر أن يتوافر من علوم وملكات، وقدم في الفصل الأول تعريفا تأسيسيا لعلم القراءات وقواعدها وأصولها... أما الفصول المتبقية فكانت منصبة على مباحث التفسير إلى نهاية آخر سورة من المصحف وهي سورة الناس.

ولقد اتبع الشيخ منهجية عامة جمعت بين التتبع الأثري للنصوص الشاهد وبين والنظر؛ أي بين المنقول والمعقول، واتبع طريقة تقريرية تعتمد على الوصف والتحليل وتوظيف النظر والاستفادة من كتب الأوائل والأواخر وعلومهم، وقد اعتمد في تفسيره أيضا على شرح القرآن بالقرآن، فما

أجمل في موضع وقصر نظره، قد يتسع في موضع آخر ويستظهر معلومه من مجهوله، فإنْ أعياك فعليك بالسنة المطهرة فإنّها شارحة للقرآن ومتممة له، ثم يستأنس بأقوال الصحابة عليهم الرضوان، فإنّهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها...[33]، وهكذا يتبع أقوال أهل النظر والتحقيق من العلماء والفقهاء والمحدثين القدماء والمعاصرين..

فالملاحظ عند الشيخ التواتي أنه يعتمد على الرواية الثابتة في تفسير القرآن الكريم، سواء أكانت تلك الرواية نصًّا من القرآن أو السنة، أم قولاً لصحابي، أو تابعي، لا سيما ما رُوي عن تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، كمجاهد، وعكرمة، وعطاء، وغيرهم، وكتب التفاسير غنية بأمثلة هذا النوع من التفسير. وهو مستند كثيرا لقول ابن كثير و"القرآنُ يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار"[34].

8. المنهج العام الذي سار عليه الشيخ التواتي بن التواتي في تفسيره:

بدأ الشيخ التواتي بمقدمة؛ افتتاحها بالحمدلة والصّلاة والسّلام على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه؛ ثمّ ثنى على أهل القرآن الذين يحفظونه ويتلونه حق تلاوته بأن يتدبروا حقائقه وعباراته ويتفهموا عجائبه ويتبينوا غرائبه قال الله تعالى:﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة ص الآية 29، وحاول الشيخ في بداية كل سورة أن يستهل بعنوان عريض يشرح من خلاله مضمون السورة ومحاورها، والأمثلة عن ذلك كثيرة نورد مثالا واحدا للإيضاح، فقد قال في بداية شرحه لسورة "عبس" بيان حال الأعمى، ذكر شرف القرآن، أبو جهل وإنكاره البعث، وإقامة البرهان على ثبوت البعث، وإحياء لموتى، وشغل الخلق في العرصات، وتفاوت حل أهل الدرجات والدركات[35]. ويذكر الشيخ أسماء السّورة المتفق عليها والمختلف فيها؛ وبيّن وجه تسمية كلّ منها في كل موضع من السورة، مثلما ذكره في سورة الهمزة فيقول:" سميت هذه السورة

[33] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 1 / 31

[34]– تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 17/ 477.

[35] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 20/ 53.

في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة الهمزة).. وذكر قول الفيروزأبادي في بصائر دوي التمييز بـ" سورة الحطمة" وتسمى سورة الويل..[36].

وفي بيان سبب النزول يعرض الشيخ في أكثر من موضع الأقوال الواردة في سبب نزول السور وفي كثير من موقف يقول:" اختلف المفسرون في كذا... مثلما ذكره في سورة الإخلاص بحيث أورد عشرين قولا في سبب نزولها، ثم يحاول أن يختم بقولٍ موجز (إفادة) يجمع كل الأقاويل بأسلوب مقنع وبفهم ومنطق شامل[37].، ويسعى الشيخ لتبيان ما هو المكيّ والمدني؛ واختار من ذلك أشهر الأقوال: بأن ما نزل قبل الهجرة مكيًّا، وما نزل بعد الهجرة مدنيٌّ.

ولعل من المفيد هنا التذكير بطريقة العرض التي سار عليها في تفسيره بحيث يتبع الشيخ منهجا شبه موحد في أغلب تفسيره، بحيث يبدأ بعرض الشاهد القرآني، وأول شيء يقوم بذكره هو بين يدي السورة (مناسبة السورة)، ويسرد الأقوال والوقائع المؤسسة لنزول السورة ويعرض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والعلماء.. ثم يبرز المعنى الإجمالي للسورة أو يسميها "مقاصد السورة" أو "أغراض السورة" وما احتوت عليه من معان واحتمالات وتوجيهات، ثم يشرع في التفسير التفصيلي للآيات ويسميه" التحليل اللغوي" ويعرض أوجه القراءات والتحليل النحوي والمعنى الإجمالي للآيات. وفي مرات عديدة يقدم التحليل اللغوي للآيات والمفردات قبل سبب نزول السورة وأغراضها مثل ما ذكره في سورة الفيل[38].

ولأنَّ حاسة الشيخ التواتي بن التواتي اللغوية تدفعه إلى مراجعة المفردة القرآنية في مقالاتها المتنوعة في مختلف سور القرآن متى وردت لأول مرة في القرآن، مراجعاً ومدققاً وممحصا، فإنّه ينطلق من "البحث اللغوي" للمفردة وصولا إلى المعنى الإجمالي، ومثال ذلك على سبيل العرض

[36]نفسه، 20/ 421.

[37]نفسه، 20/ 497.

[38] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 20/ 432

مفردة "الصمد"، بحيث بحث الشيخ عن معناها في خمسين تفسيرا قرآنيا، ليعرف المعنى الذي تؤول إليه اللفظة، وهو جهد لغوي بنبيء عن الحس اللغوي الذي انماز به[39].

ولا يترك الشيخ التواتي مساحة الهامش فارغة؛ بل يوظفها باستدراك تعريفات لبعض الشعراء، وذلك عندما يحاول أن يقدم توسعة لغوية ودلالية لمفردة ما، فيقدم تعريفا موجزا عن حياتهم، مثال ذلك عرضه لبيت شعري للقعقاع بن عمرو وأرد تعريفا له في الهامش[40]، وكذلك مع هند بنت أثاثة بن عباد في شرح كلمة "الحطب"[41]، وفي تفسير كلمة **"المسد"** أورد أبيات شعر عمر بن لجأ[42]، ونفسه مع عامر بن الحليس الهذلي في شرح كلمة "سجرت"[43].

كما نجده في نهاية كل جزء من تفسيره، يقدم فهرسة شاملة للسور، ويُسمي كل سورة بمواضيعها وما تحويه من معان وفوائد، ويأتي التقسيم حسب طول السورة أو قصرها، وهو المنهج العام الذي سلكه، ويحاول أن يُمرر رسالة توعوية وعظة وعبرة، وذلك عند انتهاءه من كل سورة، بحيث يربط مضمون السورة بالواقع الذي يعيشه ويحياه، فيسميها موعظة الجلسة أو تذكرة وتبصرة، وفي كثير من الأحايين يختم بقصيدة شعرية لها فائدة عظيمة مع مضمون السورة، ومرات يقول عبارته المشهور"ونكتفي بهذا القدر وإلى للقاء في الدرس القادم إنْ شاء الله تعالى"[44]، وفي كل ختام يدعو الله أن يتقبل منه ما قدّم، وأنْ يزيل الغفلة والنسيان على قلوب عباده، ويدعو أن يوفقه لشرح الجزء الذي يليه إنْ كان في العمر بقية.

---

[39] نفسه، 20/ 487.

[40] نفسه، 20/ 461.

[41] نفسه، 20/ 487.

[42] نفسه، 20/ 488.

[43] نفسه، 20/ 75.

[44] نفسه، 20/ 442.

9- الجهود التفسيرية التي آثارها الشيخ التواتي بن التواتي:

إذا أردنا أن نسرُد بعض الجهود والاسهامات التي قام بها الشيخ التواتي بن التواتي فإنّه لا يكفينا هذا المقام احتواء ما أنجزه ويكفينا أن نوضح بعض المسائل على مستوى:

أ-مدونة الفقه وأصوله:

أدرك الشيخ التواتي أن التفسير القرآني لا يدرك معناه الا بالشواهد الفقهية، وخاصة مدونة الإمام مالك رضي الله عنه، ودائما كان يردد عبارة ونتمذهب بمذهب مالك رضي الله (93-179ه) .. وهو من فقهائنا المالكية[45]... وغيرها، ونجد في تفسيره للفظة "ناظرة" في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ سورة القيامة: الآيتين: 22- 23. قال الشيخ بناء على سؤال من أح الحضور هل معناها النظر ام الانتظار، ومع ذلك نجيبه على مذهب اهل السنة والجماعة لكونهم من أصحابنا ونتمذهب بمذهب مالك بن انس رضي الله عنه: قوله إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ: ذكرنا ان مجاهد قال: بمعنى منتظرة وقد خطاه كثير من اهل اللغة لان العرب لا تقول: نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته انما تقول فلانا أي: انتظرته . ..والوجه اذا وصف بالنظر وعدى بـ "الى" لم يحتمل غير الرؤية[46].

وفي موضع آخر يشرح الشيخ التواتي مسألة فقهية تثار في كل عصر وهو ما حكم من يأكل من آنية أهل الكتاب وثيابهم وأوانيهم.. هل يحكم بطهارتها؛ بناء على أن أصلها الطهارة، أو يحكم بنجاستها؛ بناء على أن الظاهر منهم عدم توقيهم النجاسة؟ حيث قال: ولا بأس بالأكل والشرب والطبخ في آنية الكفار كلهم، مالم تكن ذهبا أو فضة أو جلد خنزير بعد أن تغسل وتغلى، واستدل في ذلك ما رود من حديث أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رسولَ الله، إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، أَفَنَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ؟ وَبِأَرْضِ صَيْدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي وَبِكَلْبِي الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ وَبِكَلْبِي المُعَلَّمِ، فاخبرني ما الذي يحل لنا من ذلك؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنكمْ بِأَرْضِ

---

[45] نفسه، 3/ 461.

[46] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 20/ 497.

قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ تَأْكُلُون في آنِيَتِهِمْ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا ثم كُلُوا فِيهَا"[47].فالحديث صريح، وقد بينه الشيخ بان الافضل عدم الاكل فيها لنجاستها، وان لم يجدوا فالضرورات تبيح المحظورات، وذلك رفق بالناس، والدين يسر لا عسر فيه[48]، وهو الوجه الذي جاء به المالكية بحيث يجب غسل ما استعملوه من الآنية والثياب، ولا يجب غسل ما صنعوه ولم يستعملوه، وهو مذهب مالك[49]، ويكره مذهب الحنفية استعمال أواني المشركين وثيابهم قبل غسلها[50].

ب-مسائل اللغة والبلاغة:

التحليل اللغوي (المستوى اللغوي والاصطلاحي)

يبدأ الشيخ التواتي كعادته بالتحليل اللغوي للمفردات القرآنية، لأنّ بهذا المستوى نعرف الألفاظ ودلالاتها الأصلية والمجازية، وهو لا يسعى لتثبيت القاعدة الصرفية أو النحوية بقدر ما يبحث فيها وراء اللغة من معان وتجليات، وما تؤديه في فهم المعنى، والمقام لا يسعنا أنْ نذكر كل ما أورده من تعليقات وشروح، ولهذا اعتمدنا الاقتصار ما أمكن. ففي قوله تعالى:﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ سورة البقرة الآية: 166، فبدأ بالتحليل اللغوي لكمة "**تَبَرَّأَ**" التي تعني في اللغة: التبرؤ والخلوص والانفصال، ومنه: برئت من الدِّين، وأصل البرء والبراء والتبرى التغضى مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض، وبرئت من فلان وتبرأت وأبرأته من كذا، وبرأته، ورجل بريء، وقوم برآء وبريئون... واستبرأ

---

[47] أخرجه البخاري، 5478، ومسلم 1930.

[48] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 7/ 490.

[49] ينظر: الكافي في فقه أهل المدينة (ص: 187)، التاج والإكليل (1/ 121)، مختصر خليل (ص: 11)، مواهب الجليل (1/ 121).

[50] ينظر: البحر الرائق (8/ 232)، والمبسوط (1/ 97)، وتارة يعبر الحنفية بقولهم: ولا بأس بالأكل في آنية المجوس، وغسلها أفضل، انظر المبسوط (24/ 27)، وعمدة القاري (21/ 96).

الذكر طلب براءاته من بقية بول فيه، بتحريكه ونتره وما أشبه ذلك حتى يعلم أنه لم يبق فيه شيء[51]، ثم يتبع بشرح كلمة: "قَطَّعَتْ" ثم "الأَسْبَابُ: وهكذا.

وفي سياق آخر يستند الشيخ التواتي في موقفه النّحوي على قول الإمام أبو حيان الأندلسي(654ه)، حيث عرض احتمالان لأداة "ما" في قوله تعالى:﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ سورة البقرة الآية 164. فيقول: "يحتمل أن تكون ما موصولة، أي تجري مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس من أنواع المتاجر والبضائع المنقولة من بلد إلى بلد، فتكون الباء للحال. ويحتمل أن تكون ما مصدرية، أي ينفع الناس في تجاراتهم وأسفارهم للغزو والحج وغيرهما، فتكون الباء للسبب. واقتصر على ذكر النفع، وإن كانت تجري بما يضر، لأنه ذكرها في معرض الامتنان[52]. وهو الوجه الذي زكاه الشيخ التواتي في تفسيره[53].

التقديم والتأخير:

من أسرار التقديم والتأخير في الكلام أنه يأتي للعناية والاهتمام، يقول سيبويه في تقديم الظرف: «والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسماً في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرت لك من باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كبير»[54].

وتناول الشيخ التواتي هذا الباب في مواضع كثيرة مثل ما جاء في قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ سورة الفاتحة، الآية 05، قال الشيخ "لا شك أنّ تقديم المفعول مفيد للاختصاص؛ أي لا نعبد أحدا سواك والحاكم فيه الذوق السليم، واستحقاق هذا الاختصاص لله تعالى ظاهر، لأنّ لعبادة عبارة عن نهاية التعظيم فلا تليق إلاّ لمن صدر منه غاية الإنعام وهو الله تعالى، وذلك أنّ

[51] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 3/ 181. وينظر: المجمل 1/ 122، والعباب 1/ 52.

[52] ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي، 1/ 60 وينظر: إعراب القرآن لابن سيده 1/ 342.

[53] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 3/ 170.

[54] الكتاب، سيبويه، 1/ 56.

للعبد أحوالا ثلاثة: المضي والحاضر والمستقبل"[55]. فالتقديم هاهنا في نظر الشيخ يفيد الاختصاص أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، وهو الرأي الذي ذكره السعدي[56]، وقد عرض ابن جني سر تقديم المفعول به الكثيرة، وعلل بذلك فقال: «والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أُخر فموضعه التقديم»[57].

معاني حروف الزيادة: مجيء "اللام" الزائدة:

إنَّ حروف الزيادة في القرآن الكريم أمرٌ متنازعٌ فيه، فمنهم من يسمّيه حرف تأكيد، ومنهم من يسمّيه "صِلَة" ومنهم من يسمّيه "مُقْحم" مع تحرّج الكثيرين من إطلاق لفظ (زائد) تأدّباً من أنْ يكون في القرآن زيادة، ومعلومٌ أنَّ حق الزيادة أنْ تكون في الحرف والأفعال، أمّا في الأسماء فقد نصّ أكثر النحويين أنَّ لا زيادة فيها.

وقد وضح الشيخ التواتي دور الحرف "ما" في تفسيره للآية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ سورة أل عمران، الآية: 159 .فقال: "ما" قد جرد عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد، وليست بزائدة على الإطلاق لامعنى لها، وأطلق عليها سيبويه اسم الزيادة من حيث زال عملها[58]، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ سورة المائدة، الآية: 13.

أما الشريف المرتضى في أماليه فلم يذهب إلى ذلك، وإنّما ذهب إلى أنَّه لم يأت إلاَّ لزيادة فائدة الاختصاص في هذه الآية، فقال: «وتقدير قوم إنَّ "مَا" ها هنا زائدة فليس الأمر على ما ظنّوه، لأنَّ من شأنهم ألاّ يُدخلوا "مَا" ها هنا إلاّ إذا أرادوا الاختصاص وزيادة فائدة على قولهم "فَبِرَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ" لأنَّ مع إسقاط "مَا" يجوز أنْ تكون الرحمة سببا للّين وغيرها رقة، ولا يكادون

[55] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 1/ 159.

[56] تيسير الكريم الرحمان في تفسير الكلام المنان، عبد الرحمان بن ناصر السعدي، 1/ 33.

[57] –ابن جني، الخصائص، 1/ 287.

[58] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 5/ 158.

يدخلونها مع "مَا" إلاّ والمراد أنها سببه دون غيرها، فقد أفادت اختصاصاً لم يُستفد قبل دخولها»[59]، ولعلّ من المفيد أنْ نذكر رؤية عبد القاهر الجرجاني في عرضه للآية ورفضه مطلقاً أنْ يكون في القرآن حرف لا معنى له، لأنَّ وجود الحرف لا يمكن أنْ يكون إلاّ بوجود معناه معه، وحدّد هذا المعنى الذي يفيده حرف "مَا" في الآية، وقال إنه يفيد التأكد والمجاز[60].

فالشيخ التواتي عارض من قال بوجود الزيادة في القرآن رغم أنَّه سار في منهجه موافقاً لنهج البَّصريين كالخليل وسيبويه في معالجة المسائل النحوية، إلاَّ في هذه المسألة خالفهم، والأولى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله تعالى، فإنَّ كان في الشعر أو كلام العرب فإنه مقبول، أما في القرآن فلا حاجة لقول هذا إلَّا إذا اعتبره النحويون زائداً من جهة الإعراب، لا من جهة المعنى، فكل زيادة وردت في كتاب الله كان لها معنى ومدلولاً وسراً بلاغياً لا يفقهه إلا من تملك ناصية اللغة العربية، وأتقنها شعراً ونثراً وبلاغة.

أسرار المجاز:

المجاز عند البلاغيين استعمال الكلمة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع[61]، ومن خلال قراءتنا المتواضعة لتفسير الشيخ التواتي ألفيناه يتبع منهج علماء الأصول، فإنَّهم يحبذون حمل الألفاظ على ظاهرها وأخذها على ما هي عليه في القرآن والسنّة، وقد أشار إلى هذا المعنى الآمدي فقال: «فكل خطاب خاطبنا الله تعالى به أو رسوله "صلى الله عليه وسلم"، فهو على موضوعه في اللغة ومعهوده

[59]- أمالي المرتضى، الشريف المرتضى، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1957، 2/ 313.

[60]- ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 2001، ص 363/ 368.

[61]- ينظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 53، وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، ص 588-589، وينظر: التعريفات، الشريف الجرجاني، ص 94، وينظر: جواهر البلاغة، الهاشمي، ص 290.

فيها، إلاَّ بنص أو اجماع أو ضرورة حس، تشهد بأنَّ الاسم قد نقله الله أو رسوله صلى الله عليه وسلم عن موضوعه إلى معنى آخر، فإن وجدنا ذلك، أخذنا على ما نُقل إليه»[62].

فنجد في قوله تعالى:﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ سورة البقرة، الآية: 205. فـ "الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ"، وإن كانا في الأصل مصدرين فإنهما هنا وقعان موقع المفعول به[63]، ويرجح قول الطبري بقوله: و"إهلاكه الزرع" إحراقه، وقد يجوز أن يكون كان كما قال مجاهد باحتباس القَطر من أجل معصيته ربَّه وَسعيه بالإفساد في الأرض. وقد يحتمل أن يكون كان بقتله القُوَّام به والمتعاهدين له حتى فسد فهلك. وكذلك جائز في معنى: "إهلاكه النسل" أن يكون كانَ بقتله أمهاته أو آباءه التي منها يكون النسل، فيكون في قتله الآباء والأمهات انقطاع نسلهما"[64]. فالحرْث ذاته لا يهلك، إنَّما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار، فسمَّى الزرع حَرْثاً؛ لأنه ناشئ عنه، ويسمى الزرع حرثا للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملا على الزرع[65]، ومعنى"الحرث" هنا أنه: الأصل وهو جيد في مجاز اللغة.

[62]- الأحكام في أصول الإحكام، الآمدي،4/ 28.

[63] ينظر: الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، 3/ 548.

[64]- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، جيزة، ط1. 1/ 32.

[65]- ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 257.

خاتمة الدراسة:

بعد هذا البحث الموجز المقتصر ليعرفنا بالشيخ العالم التواتي بن التواتي ومراحل تنشئته وبعض ملامح تفسيره.. لا يسعنا الآن سوى أن ننحني تواضعا لهذا الرجل المعطاء المكثار، وبارك الله في علمه ونفع به الأمة ولمسلمين جمعاء، ولا يمكننا في هذه الورقات الموجزات أنْ نحيط بمعارفه وعلومه وبحوثه، وإنّما هي غيظ من فيض، ويحق لنا أن نفتخر به ونعتز، نظرا لجهوده الفقهية والتفسيرية والدعوية.. وهو حي يرزق بيننا، بارك الله في عمره، وأوصي نفسي وإخواني الباحثين الطلبة باقتناء تفسيره ودراسته والتعمق في دلالاته. فهو لا يزال بحاجة إلى بحث ودراسة وفهم، والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

فهرس المصادر والمراجع:

1. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: 1394هـ/ 1974 .

2. أصول الحديث علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط4، 1981.

3. أمالي المرتضى، الشريف المرتضى، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1957.

4. البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الجويني، تحقيق: عبد العظيم الديب، جامعة قطر، ط1، 1978.

5. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ، 1997.

6. جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، جيزة، ط1.

7. الدرر الثمين، التواتي بن التواتي، مطبعة الحكمة، الجزائر، ط1. 2016.

8. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 2001.

9. شرح الملوكي في التّصريف، ابن يعيش، تحقيق: فخر الدّيت قباوة، المكتبة العربية، حلب، ط1، 1973.

10. الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تعليق، أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

11. فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، أبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد/ الأنصاري، قراءة: يحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

12. المفردات، الراغب الأصفهاني، دار النشر و دار القلم، دمشق.

13. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

فهرس مضامين الجزء الثالث

المحور الرابع: إسهامات علماء التفسير في مجال التفسير والترجمة والتأويل